الغيث

محمد ســاري

الغيث

رواية

(نسخة مزيدة ومنقحة)

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2019.
10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com
الهاتف : 53 54 97 021 / الفاكس : 91 51 97 021
ردمك : 978-9947-39-366-6
الإيداع القانوني : أكتوبر 2019.

تنبيه إلى القارئ

لتاريخ كتابة هذه الرواية محطّات تواصلت لسنوات، سواء ما تعلّق بالطبعة العربية التي نُشرت أول نسخة لها في 2007 تحت عنوان « الغيث »، أو الطبعة الفرنسية التي نُشرَت في 2015 تحت عنوان (Pluies d'or) – نالَت جائزة الإسكال الأدبي في 2016. وفي المسافة بين التاريخين (2015/2007) عُدت إلى النص لأدخل عليه تعديلات سواء ما تعلّق بالسرد، أسلوبا ووصفا وحوارا، أو ما تعلّق بالحكاية والشخصيات، تحويرا وتدويرا في المسارات والمآلات السردية، فحذَفت منها ما بدا لي مُقحَما، غير مُنسجم مع الكل، كما أضفت للحكاية شخصيات وأحداث شكّلت سبعة فصول كاملة، كما أدخلت تعديلات في بداية القصة وفي الفصول الأخيرة، لتصبح هذه الطبعة العربية مختلفة في بعض أجزائها عن تلك التي نشرَت في 2007.

احتفَظتُ بالعنوان نفسه « الغيث » لما يحمل من دلالات ورموز تتناسب مع الرؤية الشاملة للرواية، كما أردت لها أن تكون. وإذْ أقدّم للقارئ هذه الطبعة الجديدة بمختلف الإضافات والتحويرات، أكون قد أتمَمت نصا سرديا عزيزا عليّ، اشتغلت فيه لسنوات طويلة، أخذ مني ما أخذ من جهد، ولكنّه أمتعني وزادني اعتزازا به كلما أعَدْت قراءته، فأُعجَبُ به كما لو أنّ كتابته وليدة لحظة قراءته. وأمنيتي الكبرى أنْ يشاركني القارئ في هذه النسخة الجديدة متعة القراءة والإفادة معا.

المؤلّف

جاءت الرمضاء جدباء واستقرّت بعناد القردان، مبعثرة أسمالها عبر السهول والجبال. وبرغم جميع الصلوات الخاشعة والأدعية الراجفة، بقيت السماء صخرا لا يعرف السّرّاء وإن مسته الصفراء المعتقة. في كل فجر، وقبل طلوع الشمس، يتأمل الناس الأفق الشاحب، آملين في رؤية ضبابة تائهة، آتية تبشر بقدوم الغيث. ولكن لا سحابة ولا حتى غيمة قطنية، شفافة، برزت لتشقق جدار اليأس المعتم، الأملس. تحدّث الشيوخ برهبة عن أيام عسيرة عجاف، ستزحف على الأقاليم زحف الجراد المرّاد، متمتمين بخشوع أن اللّه غاضب على عباده، وسيكون عقابه سعيرا لاهبا.

فجأة، زلزلت الأرض زلزالها وهرع الناس مرعوبين يتساءلون ما لها. وقعت الهزّة الأرضية عند الغروب وأغرقت المدينة في ليلة فظيعة. اهتزّت المنازل بعنف راجف وتقيّأت قاطنيها بفظاظة، حيث تفرّقوا شذر مذر، وتسرّبوا من جميع الثقوب الممكنة. انهارت عمارات شاهقة مثل قصور رملية. احتل الناس الشوارع والساحات العمومية، وعلى وجوههم هلع عظيم، وفي عيونهم رعب قد يفقدهم البصر، وهم يتساءلون في صمت وحيرة عن نوعية وثقل المصيبة التي عصفت بهم بغتة، وهل حقّا أن اللّه هو الذي أوحى لها بالزلزلة ولماذا؟ ماذا يريد من عباده الضعفاء؟ أيزيدهم بؤسا فوق ظلم ذويهم، أولئك الناهمين، الذين يتحكمون في رقابهم ويقطفون منها بلا حساب ورغم ذلك فلا يشبعون؟ انقطعت الكهرباء واختفى القمر. انتشرت الإشاعات حول هزّات ارتدادية لاحقة وزادت من حجم الرعب، وأغرقت المدينة في هول القيامة الحقيقي. وفي أثناء ذلك، مرقت جماعات الناهبين وتسلّلت داخل الديار المهجورة، وأغارت على أموال وكنوز ثمينة، غارات

تنافس ما كانت جماعات الصعاليك تقوم به في الصحراء العربية. من تحت الأنقاض، جرِّدت الجثَث من الحلي والجواهر العالقة بالأجياد والمعاصم. تُقطَع الأصابع إن استعصت الخواتم عن الخروج، كما يمزَّق الرَّوم للاستيلاء على القرط وإن كان من الفضة أو النحاس الرخيص. لا شيء يفلت من جشع الكواسر. لقد فاتهم الركب عند الاستقلال. كانوا في منتصف الطريق بين المدينة وجبالهم الجرداء. حينما زحفوا على أطراف المدينة، وضربوا الخيم والأكواخ القصديرية، كان الأسياد الجدد قد ابتلعوا كل الخيرات، ونصّبوا الجلاوزة للحراسة وأقاموا الحواجز الأمنية لردع المستائين المحتجين. حينها، أقسم الرعاع أن ينتقموا شرّ انتقام. والانتقام يتغذى بطول السنين، يزيده الصبر تأجّجا وفورانا. كما النسور مع الجيفة، يشمّون روائح العفن على بعد أميال. منذ تلك الأيام، وهم بالمرصاد، تخندقوا في الحفر والقعور المحيطة بالمدينة، ينتظرون أن تحين الدقيقة المناسبة. ويبدو أنها قد حانت.

وبعد ذلك... أتى الغيث، مدرارا، عاصفا إلى حدّ الطوفان. ها قد استجاب الربّ للأدعية المتواصلة. وإن شكرتم ليزيدنَّكم، خيره عميم، يسع السموات والأرض ورحمته لا تحدّها حدود. ها أنتم تتأكدّون بأنفسكم، لتشهدوا يوم القيامة.

أيقظت الأمطار كل الأنهار الراكدة والأودية الجافة. كارثة أفظع من الزلزال، ذلك أن سنوات الجفاف الطويلة ساهمت في الهجرة الفوضوية نحو المدينة، وكذا إهمال أسياد البلاد شؤون رعيتهم وانشغالهم بكنز الذهب والفضة وبناء القصور ينافسون بها أغنياء المعمورة، فاتخذ النازحون مجاري الأودية ووهادها وشعابها لبناء المنازل والأكواخ. وفي الليلة الموالية للزلزال، جرفت مياه الغيث العميم كل ما صادفته في تدفقها المدوّي. عند بزوغ الشمس، اكتشف بقايا الأحياء بقايا الجثث المنتفخة، ملقاة على الطرقات، وعائمة على المياه، وسط الأنقاض والخراب. وكي يكون العقاب شديدا حقا، بل أشدّ من ذلك الّذي سلّطه ربّهم في القرون الخوالي على قبائل ثمود وعاد إرم ذات العماد، وفرعون، الّذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وأنزله شهبا ونيازك حارقة

على أقوام لوط وهاجوج وماجوج، أضاف أوبئة يفتخر أطباء العالم بأنهم قد قضوا عليها بشكل نهائي باكتشافاتهم العظيمة. ولكن المصيبة إذا عمّت وكثرت وخرّبت وعاثت في الأرض فسادا، خفّ وقعها على العباد.

ارتجفت الألسنة وهي ما فتئت تردّد في هلع: قربت الساعة... ما هذه إلا علامات القيامة... صعد المهدي على المنبر وخاطب الناس طويلا حول يوم الحشر وعذاب القبر واستظهار الدفاتر. ياأيّتها النّفس الضّالة، ارجعي إلى ربّك مرغمة، وقفي أمام باب السعير، وانتظري الحساب العسير. دكّت الأرض دكّا، ونزل المطر مدرارا، وزحف الجراد زحفا كاسحا، وانتشرت الأوبئة انتشارا قاتلا، فما هذه إلا مؤشرات قيام الساعة، وبداية النهاية. القافلة على وشك الانطلاق والويل للمتأخرين والمتخاذلين.

في الأيام الموالية، سحرت العبادة عقول الناس. غاصت المساجد بالمصلين، جاؤوا من كل الأحياء والدشور والأزقة، مطأطئي الرؤوس، قلوبهم مرتجفة، يطلبون المغفرة، يطمحون إلى توبة نصوحة (لا تخدعكم المظاهر وسرعة الانفعال، التوبة مؤقتة، لا تقوى على المثابرة، ككل مرّة في سيرة هذه البقاع الملعونة)، يخففون بها ثقل الأوزار قبل اليوم المحتوم. غصّت قاعات الصلاة ولم يبق شبر شاغرا، فنشروا السجاد ومدّدوها على الأرصفة والطرقات والساحات المحيطة. الآباء يجرّون ذريَّتهم قصرا لأداء الصلوات الخمس بداخل المسجد، وأمروا زوجاتهم بفعل ذلك مع الفتيات. لأوّل مرّة في تاريخ المدينة تختلف النساء زرافات رجراجة إلى المسجد. سابقا، وحدها المسنات اللائي زرن البقاع المقدّسة لهن هذا الامتياز، وفي المناسبات الدينية فقط.

لقد تغيّرت الذهنيات، لفظ الناس الحياة جانبا لأنها امتنعت عن إرواء عطشهم، زهدوا في ملذاتها الغائبة، طامعين نيل ضعف ما فقدوا في مكان ووقت لاحقين، إن عاجلا أو آجلا. سرب من طير الحمام في الأفق وإن كان بعيد المنال أفضل من ديك هزيل لا يُغْني ولا يسمن من جوع. إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا. ما عليكم إلا السماح لأنفسكم بالموت.

وبما أن الزهد قد مسّ عقول الناس مثل وباء جارف، فما على الجميع إلا الدخول في الصف وطأطأة الرؤوس والسير كالعميان وسط القطيع. لا أحد يقاوم إغراءات الجنّة حينما يوهمه الدراويش بأنها خلف الستار. سرت في الناس حركة عبادة مثلما تسري النار في الهشيم. غاصت المساجد بالمصلين، وفي كل الأوقات. ولا تخرج الأحاديث عن الموت وما يأتي بعده، وبالأخص تلك الحدائق الفواحة التي تغصّ بالخيرات ولا شيء يُمنَع فيها. حور العين الجميلات، الكواعب، الأبكار، مستلقيات في ثنايا الحدائق العجيبة، في متناول الجميع، دون قيود ولا شروط.

هاك يا مسكين، خذ ثأرك من حياة الدنيا اللعينة التي حرمتك من كل شيء، البيضاء قبل السمراء، تكون مهفهفة غير مفاضة، جيدها كجيد الريم، الرافلة في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورة في الثوب الشفاف، يزيد الغلمة شهوة. لا تعب ولا عمل. أو بالأحرى تصبح مهنة الرجال هناك فض الأبكار. طوبى لكم أيها الفائزون ! وما مهنة الفائزات ؟ إن أجرهن على اللّه.

والسُّكْر... بالجرار الفائضة... عوم ياعطشان... أنهار متدفقة من الخمر والعرق والبيرة والويسكي. وأمام هذه الموائد الفاخرة، المزينة بالمنّ والسلوى، كيف لا تزهد في الخبز والبصل والبلوط ؟ بل ستزهد حتى في التفاح والموز ! ولمزيد من الضمانات، أضحى الناس يرافقون الموتى إلى المقابر بالحشود المكدّسة، في مواكب رهيبة، مهللين، طالبين ربّ السموات والأرض أن يعجل بقيام الساعة، أن يكثر من الزلازل والفيضانات والأوبئة كي يلتحق أكبر عدد ممكن منهم بتلك الجنّة الموعودة. نفذ الصبر، يريدونها في صباح الغد، وعند الفجر مباشرة. مصدر عليم ومن الثقات أشاع خبرا مفاده أن كل رحلة راجلة إلى المقبرة تساوي حور عين فاتنة. طوبى لكم أيها الرجال ! تنافسوا، دخّروا، سجّلوا العدد بالتدقيق. من زرع التوابيت حصد الكواعب ! اللّه لا يحبّ المتكاسلين المهملين. المشي أضعف الإيمان والجري على من استطاع. لا يكلّف اللّه النفوس إلا وسعها. الخوف كل الخوف أن يكون عددهن محدودا، ولا يحصد المتأخرون إلا الريح. لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إنّ الملائكة

المحاسبات صاهرات على توزيع الأرباح بالقسط المطلوب. الكل يأخذ حسابه وبالدينار المثقوب حتى وإن امتلأت الأكياس وفاضت. القسط يا جماعة المؤمنين، القسط! إياكم والتفريط في القسط! الويل لكم إن لم تفعلوا.

نبتت اللحى كالفطريات، بلا زرع ولا سقي ولا أسمدة مداوية. هكذا تُختَزل الحياة في بضع شعيرات مغبرة. ولم يبق أمام الضأنيات إلا الهجرة إلى بلاد الإسكيمو. تغيّرت موضة اللباس، فأضحت الجلاليب العريضة والأقمصة الأفغانية والأحجبة الإيرانية الفضفاضة والجلابيب الشيعية السوداء المجرجرة وشواشي قبائل آسيا الصغرى هي سيّدة الألبسة. خلافا لما يقال، إن اللباس يصنع الإمام ويقرّب من اللّه. بل اكتسى القميص وسام الاستحقاق فاتخِذ لباسا رسميا للدخول إلى الجنّة. من سوّل له الشيطان رفضه ولو لأسباب جمالية بحتة، سيُطرد عند باب الفردوس الموعود وإن كانت أكتافه منحنية من ثقل العبادات والحسنات والصدقات.

سبحان منزّل الأهوال ومغيّر الأحوال.

الأيام دوال. جدب، يليه غيث، يليه جدب، يليه... اسألوا الكهّان والدراويش، يقال بأنهم ضالعون في علم الغيب. أو بالأحرى، اسألوا المتصوفة وأهل الذكر، إنهم من المقربين إلى جلالته، يكون بلا شك قد أسرّ لهم بشذور من علمه العميم.

القسم الأول

-1-

اتخذ قراره قبل انبلاج الفجر. كان الليل طويلا وقد أغرقه الأرق في وساوس زادت من قلقه وأبعدت عنه النوم نهائيا. عند ارتفاع أذان الصلاة، وقف متثاقلا، تمايل وكاد يسقط. « آه على الصداع الخبيث، يكاد رأسي ينفجر ». هكذا فكر بصوت يكاد يُسمَع. في حقيقة الأمر كانت الفكرة تقض مضجعه منذ أيام.

بحركة أصابع مضطربة، شدّ خيوط حذائه الرياضي الأسود. ثمّ أخرج السكين من غمده، تفحّصه بنظرة ذهول خلال ثوان عديدة، مقلبا إياه بين أصابعه، ثمّ أرجعه إلى غلافه وأدخل الكل، بتثاقل، تحت قميصه الفضفاض، على مستوى الحزام. لمعت لآلئ العرق على وجهه النحيف. كانت الغرفة ضيقة وحرارة بداية الصيف خانقة. التفت حواليه لحظة، مشى قليلا، فتح أدراجا، باحثا هنا وهناك عن شيء ما. وقف حائرا، مفكرا. ثمّ، كمن يتذكر شيئا بعد نسيان طويل، استدار دورة كادت تفقده توازنه، فتح الباب وخرج.

أسرع الخطى بين الأزقة، غارقا في دوّامة من الأفكار المهلوسة، غير واع تماما بما يحيطه من أشياء وما يلقاه من أشخاص. حينما أوقفت الساقية الفاصلة بين هضبة سيدي المخفي المشجرة وبين أراضي السهل الخصبة الحافة على عين الكرمة، وتفاجأ بنفسه يبحث عن معبر، اندهش من سرعة وصوله إلى الساقية. حينذاك، نشط جسمه كأنه استيقظ توا من سبات عميق. في خطوات خفيفة، قفز إلى الجهة العلوية واختفى

وسط درب محاط بالقصب والتوت الشوكي، مجترا حيرة ظاهرة في حركات الأيدي والرأس. سلك الدرب الملتوي غير آبه بأوراق القصب السنانية التي تسوط وجهه. أوقفته أجمة من التوت الشوكي، استدار نحو اليسار، مستعينا بذراعيه لإبعاد الأغصان عن وجهه. قطع الوادي الجاف، تسلق مرتفعا أردوازيا ومشى على مسافة أمتار ثمّ توقف ورفع رأسه. هناك، على قمة الرابية الصنوبرية، بعيدا عن الأنظار المزعجة، ينتظره عرينه.

قطع غابة أشجار الصنوبر متبعا دربا وعرا ولكن به ظل منعش. كان نفاد الصبر يرعش جسمه ويدفع بساقيه إلى مزيد من الجهد. أخيرا، وصل إلى البطحاء الصغيرة الجاثمة على قمة هضبة سيدي المخفي، لاهثا، يتصبب عرقا. ما كاد يسترجع أنفاسه حتى تدفق عليه شلال من الصور المتداخلة، آتية من ماض بعيد، يجذبه بقوة مغناطيس. وقبل أن يجتاز عتبة الغرفة المدهونة بالجير الأبيض، ألقى نظرة نحو الأسفل. إن دار الرومي، بسقفها القرميدي الأحمر، منبطحة هناك قرب الوادي، غارقة في الوحل المتعفن لسيّدها الجديد. بقي واقفا، لا يحرك ساكنا، تتقاذفه أصوات ووجوه، كم رغب في تعليقها هنا في الأفق الأزرق الشفاف.

كان على دراية تامة بأحراش ودروب الحي الجنوبي لعين الكرمة؛ لقد قضى فيه طفولته وجزءا غير يسير من شبابه. يستطيع، في اللحظة المناسبة، التسلل عبر الممرات المختصرة، ليتقدّم الرجل الذي كان دوما يثير في نفسه عواطف متناقضة من الإعجاب والكراهية، ينتظره عند دورة مشجرة مظلمة، ليتخلص منه ومن ثقل هذا الماضي الذي يحجب عنه النظر نحو المستقبل براحة بال وثقة.

المهدي معجب بسي اعْمَر منذ سمحت له قدماه بسلك دروب الحي وشعابه والدخول إلى منازله. كان يأتي، على غرار الأطفال الآخرين، لجلب الماء من العين الوحيدة الموجودة بقرب دار الرومي. في ذلك العهد، لم يكن بقرب الوادي إلا أكواخ قليلة، مبعثرة هنا وهناك، متباعدة الواحدة عن الأخرى. والعين الوحيدة المتاحة كانت بقرب شجرة رمان لاصقة بالدار. مرات عديدة في اليوم، كان المهدي يملأ دلوه الحديدية المحدودبة ويحملها بمشقة ظاهرة عبر الدرب المثعبن، الهابط الصاعد. يتحاشر الأطفال حول منبع الماء في فوضى عارمة وضجيج صاخب،

متلاسنين، متدافعين. ولكن عند ظهور اعْمَر حلموش في سترته العسكرية، منتعلا حذاء « الباطوغاس » الرمادي المغبر، يُمسَخون إلى خرفان وديعة. يتصنّعون لطافة مريبة، تكشف زيفَها أوّل نظرة وإن كانت حسراء. في لمح البصر، ينظمون أنفسهم في طابور على شكل ذيل ثعلب، يخفضون رؤوسهم، يبتلعون ألسنتهم، يختلسون النظرات الخاطفة، خائفين من القامة الشامخة المهيبة لصاحب الحوش والعين والرمانة. في كل مرّة يراه، يتقدّم إليه، يحش شعره براحة يده الكبرى، قائلا:

– كيف حالك يا المهدي يا ولد الشيخ امبارك؟ وحال أبيك؟ قل له بأن سي اعمر يسلّم عليك. في كل يوم أقول: قريبا سأزور شيخ زاويتنا المبجل؛ ولكن هموم الدنيا أكلتنا وأبعدتنا عن الناس الطيّبين؛ سأزوره في مساء ما إن شاء الله.

وإذا كانت العين غاصة بالمورّدين، خاصة في نهاية الظهيرة، عند اقتراب المساء وانخفاض الحرارة، يمسك الدلو الحديدية المحدودبة، يملأها، يضعها في يد الطفل، ثمّ يقول بصوته الخشن:

– إن ابن الشيخ امبارك يسكن بعيدا عنكم، وأبوه بحاجة إلى مساعدته. اذهب يا بني واحرص على عدم دفق الماء أثناء الطريق.

في واقع الأمر، لم يكن المهدي يسكن أبعد من الآخرين، ولكنها الحجة التي وجدها المجاهد لتبرير فعله.

من أعلى مِجثَمه، بحث المهدي بعينيه عن العين. وحدها الرمانة لا تزال تحافظ على شبه جذع مشقق وأغصان عارية. إن نقطة الماء المحاطة بمرجة خضراء لم تعد إلا ركاما من الحجر والتراب الجاف.

بعيدا، تستعد الشمس للصعود الشامخ. جيوب متناثرة من الظل لا تزال تجر أذيالها عبر جانب الهضبة المنحدر نحو الوادي. وكان العمق، عبر التدرج الذي يرسمه مجرى الوادي الجاف الحاف بالقصب والتوت الشوكي، الملوث بالقمامات والحشرات، غارقا في ضياء مبهر.

غير بعيد عن المجرى، زيتونة ضامرة، بأوراقها الذابلة، تجهد نفسها لتشدّ جذورها إلى التربة اليابسة. انحط بصره عليها طويلا. شهقة مرارة نفخت صدره. نشطت ذاكرته فجأة، تنبش من عمق النسيان والبلى

مناظر، كم تمنى أن تمحى إلى الأبد. كم من ليلة، عند تمدده على الفراش استعدادا للنوم، ودون إرادة منه، يجد نفسه غارقا في تلك الذكريات، فيتمنى من صميم كيانه أن يستيقظ صباحا فيبحث في ذاكرته ولا يجد أثرا لتلك الحوادث المحزنة. وعندما يفتح عينيه صباحا، يهرول ليرمي بذهنه في بركة ذاكرته المشوّشة ليتحقق من محتواها. للأسف، تطفو تلك الصور إلى السطح، أكثر نشاطا ونبضا بالحياة مما سبق من الزمن.

انتابته صورة أحْصرت صدره فجأة، وصهرت أكثر إحساس العزلة الذي يجرّه خلفه. هناك، بقرب الزيتونة الهرمة، وقعت تلك الحادثة التي انطبعت في ذاكرته مثل نقش على النحاس. اليوم، وبرغم السنوات الطوال التي أبعدته عنها، لا تزال الصور تغلي غليانا مزعجا بداخله، أكثر صداما من ذي قبل. رأى نفسه منجذبا بعنف لا مثيل له بين ذراع متين وصيحات مصِمّة. من جهة، كان أبوه الشيخ – لقد عرفه دَوْما تحت مظهر العجوز ذاك – ومن الجهة المقابلة أمّه، فتاة خرجت للتوِّ من المراهقة. كان طفلا في الثالثة من عمره، غير مدرك لما يحدث له، ولا السبب الذي حوله يتشاجر والداه. كان منحصرا بينهما، يطلق صيحات جرْو جائع. تذكر بأنه كان حافي القدمين، ويرتدي جبّة رمادية اللون لا تكاد تغطي الركبتين. تلقى صفعات فظّة من أبيه، صفعات كانت موجهة في الأصل لأمّه. كانت الأمّ تبكي هي أيضا، وتتنقل بخفة حول الزوج المسعور في محاولة منها لتفادي وابل الضربات المنهارة عليها. من حين لآخر، تطلق صيحة إنقاذ بصوت مرتجف أبحّ. أما الأب، فكان غضبه شرسا. عيناه جاحظتان وفمه مزبد من فرط الغيظ. بيد يشدّ معصم الطفل بقوة كلّابة، وباليد الأخرى ينهال ضربا على زوجته كي يبعدها عن الطفل.

فجأة، شعر الطفل بجسمه يُرفَع من الأرض ويُلقى ضد جدار القصب والتراب المدكوك. شعر بِوَجع حاد ينخز ظهره. تقوّض بكل طوله على كومة من الحصى ومكث ملتويا على نفسه. الرعب يقضم أحشاءه. لمدة طويلة، بقي ذهنه ممتلئا بصيحات أمه. حينما استيقظ، وجد نفسه بفراشه داخل الغرفة، وأبوه كعادته في زاويته المألوفة منشغل بعقاقيره. بحث عن أمّه فلم يجدها. ولشهور طويلة، أوهمه الشيخ امبارك بأنها ستعود قريبا. يهمهم أجوبة مقتضبة، دون أيّ تفصيل. ولكن، في أمسية

غائمة، حزينة، انفجر في وجه الطفل، منزعجا من أسئلته الملحّة وبكائه المتواصل: « يمّاك... خلاص... امحيها من راسك... وانا باباك، ما نَسْوَى والو... من هذا اليوم، ما انحب نسمع ولا كلمة عليها... فهمت؟ ».

من ذلك الغسق الغائم، فقد المهدي كل اتصال بأمّه، وعاش وحيدا مع أبيه. ولسنوات طويلة اعتقد أنها ماتت. وكان لا يتردّد من تأكيد وفاتها إن طرح عليه السؤال. لم يتذكر مرّة واحدة حدّثه فيها أبوه عن أمّه، حتى في لحظاته الأكثر صفاء. كل ما يعرفه عنها، زيادة إلى تلك الصور العنيفة الراسخة في ذاكرته، سمعه بعد ذلك بسنوات في قصة متقطعة حكاها له اعمر حلموش. فاجأه هذا الأخير مرات عديدة بداخل الضريح الذي تعوّد على الاختفاء بداخله، وذلك منذ تلك الليلة التي أشبعه فيها أبوه ضربا موجعا. في ذلك المساء، أضاع المهدي مفتاح الكوخ الوحيد. بحث عنه بعد عودته من المدرسة، فلم يعثر على أثر له. قبل خروجه بعد الفجر مباشرة، أوصى الشيخ امبارك ابنه قائلا:

– سأغيب اليوم كله. أغلق الباب جيدا وخذ المفتاح معك. إياك أن تضيعه.

كان الشيخ قد برمج رحلة إلى أحراش جبال الظهرة العالية، بحثا عن أعشاب طبية يحضرها بنفسه ويوصي بها مرضاه. عند عودته متأخرا، بعد غروب الشمس بقليل، وجد الطفل قابعا وسط الظلام، بقرب الباب، يشهق في صمت. رمى الشيخ رزمة الأعشاب جانبا وكسّر القفل غاضبا مزمجرا، قبل أن يستدير نحو الطفل المهمل. في البداية، تلقى المهدي الضربات الأولى بصبر جامد. تقبّلها عقابا طبيعيا لإهماله. ولكن الشيخ الغاضب واصل الضرب كأن الطفل ارتكب الموبقات السبع، مرفقة بالشتائم القذرة. فما كان على المهدي إلا إنقاذ جلده بالإفلات من قبضة الأب الشرس. بخفة جرو جائع، تسلل بين ساقي أبيه نحو الهواء الطلق. ولكن الجوّ كان ممطرا وباردا في تلك الأمسية اللعينة. أين سيختفي؟ كان الظلام دامسا. ريح ماطرة تصفر، مكسرة الصمت المخيّم على الوادي وعلى سقوف الأكواخ الحافة به، بتحريك أغصان أشجار الصنوبر وأفنان القصب. بدءًا، احتمى بجدار حجري إلى أن انتبه إلى اصطكاك أسنانه. فجأة، سقطت عليه الفكرة كما تسقط تمرة يانعة من عرجون في أعلى نخلة. حينما دفع باب الضريح، هزّت رعشة باردة جسده. فتذكّر الحكايات الغريبة، المخيفة التي تحكى

عادة حول البنايات القديمة الشاغرة، الآهلة بالكائنات الماورائية، أمثال الغيلان النهمة آكلة لحوم الأطفال والعفاريت الشريرة. بقي واقفا على عتبة الباب لمدّة طويلة، حائرا، مترددا. أخيرا، ودون أن يفصل إن كان سيواجه تلك الكائنات أم البرد القارس، تدحرج نحو زاوية يعرف أن بها حصيرة وإن كانت مهترئة مغبرة، فارتمى فوقها متقوقعا على نفسه. بقي على تلك الهيئة جزءا غير يسير من الليل، يسترق السمع إلى صفير الريح، يتنفس روائح الأعشاب المحترقة والشموع والعفونة، غارقا في ركام من الصور الشبحية المرعبة. في تلك الليلة الليلاء، اقتنع المهدي بأن أباه يكن له حقدا دفينا، دون أن يعرف السبب. إنه يستغل أتفه الأخطاء ليشبعه ضربا. لا يكلمه إلا ليأمره بفعل شيء ما. وإن تأخّر ثانية، يذكره نعل أو عصا الشيخ بتهاونه، في الغالب، مرفقة بالشتائم القذرة.

تتابعت ليالي الأرق بداخل الضريح ونمت معها فكرة الانتقام من الأب الشرس، وصلت إلى حدّ القتل. ولكن الجريمة بقيت على مستوى المشروع غير المكتمل. ومع تقدّم السنوات، أضحى الطفل قوي البنية، يستطيع الدفاع عن نفسه. مرّة، أمسك اليد الحاملة للعصا ودفع صاحبها بقوة أسقطته أرضا وركض هاربا. حينها أدرك الشيخ أن الطفل أصبح رجلا، يمكن أن يرتكب حماقة نكراء. فاكتفى بالتهديد والوعيد دون أن يتجرأ على استخدام عصاه ثانية.

هكذا، تعلّم المهدي التمرّد الصارخ ضد الأب الجسور. لا يجادله في أوامره ولكنه لا يطبق منها إلا ما يحلو له، ويكظم غضبه أمام صراخ الشيخ المسعور وتهديداته المتواصلة. تعوّد على التغيّب الطويل دون إخبار الأب. يجلس في البطحاء المحاذية لحوش الرومي، أين بنى اعمر حلموش حانوتا للمواد الغذائية، برفقة شباب الحي، يتبادلون أطراف الحديث وشتى الأخبار. وعندما يخيّم الظلام على البطحاء، ويلتحق كل فرد بذويه، يقف متثاقلا قبل أن يجرّ قدميه وسط الدروب الملتوية، يجتر مرارة محزنة، جارا خلفه عزلته وثقل الخصام مع والده. فعوض الالتحاق بالكوخ العائلي، يجد نفسه دون تفكير ولا قصد صاعدا نحو الضريح الجاثم على قمة تلّ سيدي المخفي، تراوده رغبة جامحة في رؤية وجه أمه، وجه ترفرف على شفتيه ابتسامة ملكية، وجه متخيل يتناقض

كلية مع ذلك الذي يسكنه منذ طفولته الأولى، الوحيد الذي يحتفظ به واضحا شفافا، في تفاصيله الصغيرة، لاصقا بالذاكرة حيث يراها تبكي وتصيح، شعرها يغطي نصف وجهها. لا يملك أية صورة لها. ربما كان لأبيه صورة ما ومزّقها في لحظة غضب.

هنا بقرب باب الضريح، صادفه اعمر حلموش مساء بعد الغروب بقليل. كان عائدا من رحلة صيد، البندقية معلقة على الكتف، يتأبط كيسا مليئا بالطرائد. عندما وصل بقرب الضريح، جلس يستعيد أنفاسه. بعد ثوان قليلة، رأى المهدي يشقّ الظلمة، خارجا من الغابة. لم يجد صعوبة في التعرف على الفتى، هو المتعود على حياة الليل. ناداه وأجلسه بقربه بلطفه المعهود حينما يخاطبه. كان المجاهد معروفا هو أيضا بسرعة انفعاله وغضبه الشرس وقسوة نبرته حينما يخاطب أهل الحي. وكان صوته أعلى الأصوات، ورأيه أفضل وآخر الآراء. وكان أهل الحي، نساء ورجالا، يهابونه ويحترسون من الصدام به اتقّاءً لشره. وبعد أن خاض في موضوعات شتى، دون رابط بينها، ذكر أمّ المهدي لأوّل مرة، بارتعاش في الصوت ونظرة غائبة. حكى له كيف عرفها لأوّل مرّة حينما أتت باكية تستنجد به لينقذ الشيخ من موت أكيد:

– إنها السنوات الأولى للاستقلال، كانت الحرب بخرابها قد أعمت الناس. في البداية، كنا لوحدنا أنا والشيخ امبارك. وكان المكان هادئا والوادي يسيل ماء طوال السنة. ولكن بسرعة، بدأ « إخوتك » ينحدرون من الجبال أفواجا وقُطعانا، كمن خرج من السجن، ويشيّدون الأكواخ على ضفتي الوادي. يقطعون الأشجار والقصب لبناء منازلهم. شيئا فشيئا، فقد الوادي خضرته ثم ماءه. انظر الآن، إنه مزبلة أوساخ، وكر للجرذان والكلاب الضالة والبعوض. في البداية، منعتهم. ثمّ قلت، أين سيقيمون ؟ حذرتهم من الاقتراب من منزلي. ومعهم بدأت المشاكل. من أجل هؤلاء المقملين، طلّق أبوك زوجته. تدخلت مرارا ليرجعها، بلا جدوى. تعرف طبع والدك، غضوب وعنيد، لا حوار معه.

في ذلك المساء، استمع المهدي إلى حكاية المجاهد في صمت مرتقب. طفت على لسانه أسئلة كثيرة ولكنه ابتلعها خجلا وخوفا من الأجوبة.

وعندما همّ المجاهد بمغادرة المكان، أخرج من كيسه أرنبا ووضعه بين يديه، طالبا منه أن يسلّم على أبيه. التقى به بعد ذلك مرارا ولكن السي اعمر اكتفى بعبارات المجاملة العادية ولم يزد فوقها شيئا.

وعند وفاة والده الشيخ امبارك، بحث عنه المجاهد وقال له بلطف :

– لماذا لا تأتي لتعيش معنا يا المهدي يا وليدي ؟ إنك الآن وحيد وداري كبيرة. أبنائي كإخوتك تماما...

– شكرا سي اعمر، ولكنني أفكر بالالتحاق بوالدتي.

– أتعرف أين هي الآن ؟

– سأجدها إن شاء الله.

– أحسن شيء ستفعله إن وجدتها. أمّك امرأة شهمة، تعذّبت كثيرا في حياتها. ابحث عنها. أكيد أنها بحاجة إلى رجل مثلك.

ثمّ بعد لحظة صمت وتأمل :

– في انتظار ذلك، داري مفتوحة لك حيثما أردت. كما يمكنك التسلح من حانوتي بكل ما تحتاجه من مؤونة. لن يسامحك الله إن احتجت إلى شيء ولم تطلبه من عمّك سي اعمر.

خفض المهدي رأسه ولم يقل شيئا. كان في حيرة من أمره، لا يعرف ماذا يريد تدقيقا.

أتى ليقتله وها هو يسترجع الذكريات الجميلة. انتفض مندفعا. أراد التخلص من ثقل الماضي. ضاقت به البطحاء رغم فسحتها وضيائها الساطع. تذكّر سيرة الأولياء الصالحين، أولئك الذين تغلّبوا على حياة الدنيا وزهدوا في متاعها. المخطوط بمخبئه المعتاد. الرحلة برفقتهم ستنسيه الوساوس والهواجس المعشّشة في مخه. وقف بخفة، خطى خطوات واختفى بداخل المزار.

- 2 -

حكايات عجيبة غريبة تروى عن الشيخ امْبارَك، قيّم زاوية سيدي المخفي. إنه مقرئ قرآن ومطبّب بالأعشاب، يصنع التمائم بخطّ آيات

بيّنات على قطع أوراق، يطويها بعناية ثم يسلّمها للزوّار، على أن تعلّق حول الرقبة ويُحتفَظ بها أطول فترة ممكنة. كما يقدّم لهم مجموعة أعشاب وجذور نباتات نادرة، يقتلعها بنفسه من الأحراش المجاورة، يطلب منهم طهيها في الماء لساعات طويلة قبل أن يشربوا سائلها المختثر.

استقر في مزار سيدي المخفي خلال الحرب. اشتغل أوّلا تحت إمرة شيخها الرسمي – عجوز وهن أنهكه المرض – الذي كان يقضي معظم وقته في التسبيح والابتهالات. وفته المنية بعد حوالي سنة من وصول الشيخ امْبارَك، فأخذ هذا الأخير مكانه قيّما وسيّدا للمزار. وقبل أن يرسى على قمّة رابية سيدي المخفي، المطلة على عين الكرمة من الناحية الجنوبية، أشرف على زاوية مهملة داخل روابي مشجرة، في قلب جبال الونشريس، قبل أن يُجبَر على الرحيل في ظروف اختلف الناس حول تفاصيل وقوعها. يحكي الناس في السرّ – خوفا من أن تصيبهم لعنة الدرويش – أن الشيخ امْبارَك قد نجى من القتل بأعجوبة لا يصدقها عقل مهما آمن بالخوارق والمعجزات. في محرابه الجبلي، اشتهر بإخصاب النساء العواقر، فبعد زيارات قليلة ومتقاربة، اتضح لبعض الزائرات أنهن حوامل. أمر عجيب فعلا، وهن اللائى انتظرن سنوات طوال، لم تنفع كل السوائل التي تجرعنها، ولا توسلات الأولياء الصالحين والأدعية الخاشعة وقيام الليل. انتشر الخبر عبر الروابي والسهول، وتكاثرت العواقر وتدافعت أمام عتبة المزار. يحكى أن زوجا أتى بامرأته من قرية قصية يطلب الذرية، جلس القرفصاء تحت ظلال أشجار الصنوبر مع المنتظرين الوافدين منذ طلوع الشمس من الجهات الأصلية الأربعة، وحينما جاء دور الزوجة، دخلت المزار وقلبها يرتجف أملا وشفتاها لا تتوقف عن تمتمة الأدعية. كانت البناية البيضاء لاصقة بسفح تلّ حجري، وحينما ينفتح الباب تتسرّب منه روائح قوية من المسك والزنجبيل واحتراق الشموع ودخان مضبّب للنباتات المجمّرة داخل الموقد الفخاري، فتملأ الجوّ سحرا وغرابة. بعد حوالي نصف ساعة، وفيما كان الزوج منشغلا في حديث جانبي مع رجل يعاني نفس الوضع، فجأة ارتفعت صيحة بداخل المزار... ماذا يحدث ؟ ارتعش جسمه تحت وخزة أشبه بالرصاصة

ووقف بخفة قط اشتم رائحة سردينة. انفتح الباب بعنف وخرجت زوجته نصف عارية، تسوّي جبّتها، والشيخ يمسكها من الذراع ليعيدها إلى الداخل. صعِق الرجل من الفضيحة وأدرك في تلك اللحظة مكر الدرويش الذي يخصب بنفسه الزائرات العواقر. نزع برنوسه من على كتفيه وجرى ليغطي جسد زوجته. ثم أمسك بعصاه وتوجه كالخنزير البري المجروح صوبا نحو الشيخ امْبارَك، مصمِّما على تقطيع جسمه إربا إربا. ولكن الشيخ كان أسرع منه وأغلق الباب من الداخل. استعان الرجل المسعور بكل قواه، فلم يفلح في كسر الباب، وعاونه الرجال الحاضرون، وحينما شعر الجاني أن القفل على وشك الانكسار، خاطبهم قائلا بأن يكفوا عن الخبْط لأنه سيخرج بعد قليل. لم يصدقوا ولكنهم توقفوا وانتظروا. طال الصمت بداخل المزار فعاودوا الضرب على الباب. قال الشيخ أنه بحاجة إلى طاس ماء كي يتوضأ ليصلي آخر ركعة لعلّ الله يغفر له زلاته الشيطانية. تشاور الرجال فيما بينهم: أيريد ربح الوقت؟ أم أنه فعلا شعر بالندم، وسيتوب قبل أن يلفظ روحه؟ أين المفر؟ التلّ الحجري من ورائه والرجال المهانون في عرضهم أمام بابه، يطلبون الثأر، والبناية لا تتوفر على أي كوّة ظاهرة. قدموا له ما طلب، ووقفوا محيطين بالباب، مقسمين العهد على أنفسهم بأن يثأروا لشرفهم وشرف الذين سبقوهم. مرّت الثواني في تمهّل سلحفاتي ولم يخرج الشيخ من عرينه. صمت جنائزي لفّ المزار. وحدها المرأة المهانة، انزوت ذليلة، خائفة، في تجويف أردوازي، غير بعيدة عن حائط المزار الجانبي، تندب حظها، شاهقة في تنهدات لا تكاد تسمع. في لحظة ما، انتبه أحد الرجال إلى تسرّب الماء من تحت الباب، مياه سوداء وسخة، ثم لا شيء. ارتفعت أصوات تطلب من الشيخ الخروج بسرعة، وإلا... لا مجيب. استرقوا السمع، لا حركة ولا حفيف. قرّروا كسر الباب وحرق الشيخ ومحرابه. ولكن البناية كانت فارغة. بحثوا بداخلها جيدا، لا أحد، لا أدنى أثر للجاني. زَرْبعوا الحصائر والزرابي والهيادِر، كما أخرجوا الصناديق الخشبية وأفرغوا محتوياتها: نباتات وجذور متربة، قارورات مملوءة بسوائل مشبوهة، عبقها يزعج النفوس ويبعث على الغثيان، أوراق مسوّدة بخربشات مائلة. ولكن لا أثر لمخصِب العواقر. ذُهِل المحاصرون الذين صمموا على حرق الشيخ حيا، فانتابهم خوف ميتافيزيقي لا تفسير له وهم يكتشفون اختفاءه.

من أين مرق ؟ تحسسوا الجدران الداخلية، فلا وجود لأي فتحة. تبادلوا آراءهم في كلمات مقتضبة. اقترح الزوج حرق المزار. على وجوه الجميع ذعر وتردّد. شلَّت حركاتهم وجمدوا في أماكنهم. أين يكون الدرويش قد اختفى ؟ يروى الكثير عن قدراته الخارقة. من يدري لعلّه استعان بالجن الأحمر ؟ إن هؤلاء الدراويش يملكون علاقات مريبة مع العفاريت والجِنّة. لاحظ أحدهم أن الماء قد تبخّر. لا يمكن لعملية التبخر أن تتمّ بهذه السرعة. ألا يكون الشيخ هو الذي مُسِخ إلى ماء كي يسهل عليه الإفلات من قبضة الغاضبين ؟ توارى بعض الرجال في سرّيّة، دافعين أمامهم نساءهم الراجفات، يقمن بضمّ المعصمين، علامة الاستسلام التام للجن، متمتمات العبارة المألوفة : مسَلْمين، مكَـتْفين يا سيدنا. لم يجرؤ أحد على الاقتراب من البناية الملعونة. انتشر الخبر في المداشر المجاورة بسرعة الريح. رجال كثر طلّقوا زوجاتهم في اليوم نفسه، وراح آخرون يتفرسون في سِمات وجوه أولادهم وهم يكتمون اغتياظا دفينا لا تطفئه حتى أدلة الأَديانْ. اختفى الدرويش وبقي المزار مهمَلا. كما بقي الاختفاء سرا لم يكشف عنه أحد. ولكن عند الاستقلال، حينما توافدت القبائل والأعراش، تاركة الجبال، لتستقر في المدن، في سكنات خربة بنيت على عجل، قال البعض بأن قيّم مزار سيدي المخفي يشبه إلى حدّ بعيد ذلك الدرويش الذي اختفى قبل سنوات في ظروف غامضة. وأكّد الذين لا يشكون في تشقق ذاكرتهم أنه لم يكن يسمى الشيخ امْبارَك. ولكن الظنون لم تسرح بهم إلى أبعد من هذا. الزمن زمن الاستقلال مع كل ما يحمل من أحلام التغيير والرفاهية، والمكان غير تلك الجبال الجرداء النائية، فبقيت القضية على غموضها.

كان الشيخ امْبارَك ذا طبع كتوم ومنزوٍ، لا ينطق إلا بالمفيد وبالعبارات الوجيزة، ولكنه أحيانا، في فترات متباعدة ونادرة، يغرق في هذيان متواصل لساعات، خاصة بالليل، ليسرد أحداثا متنوعة متعلقة بحياته الماضية، مكرّرا تعليمات ووصايا استنبطها من تجاربه ومعاملاته مع الناس. كان شكاكا إلى أقصى حدود الشك. يتحدث مرارا عن عيوب البشر، عن المؤامرات الدنيئة، عن النفاق والرياء، عن الجشع والحسد، عن النذالة والجبن، عن الغرور والعنتريات التي يمارسونها دون أدنى ندم أو تأنيب ضمير.

وكان المهدي في تلك الليالي الآرقة يستمع بفضول وخوف. يخاطبه والده دون إدراك حقيقي إن كان نائما أم يقظا. وحده الصوت الأجش يشقّ العتمة ويختلط بدخان السجائر الملفوفة التي يعدها الشيخ بنفسه في خليط من التبغ والعَرْعار، مستحضرا أصواتا وكائنات من الماضي، من فضاءات سديمية، مستعصيَة على الفهم.

في إحدى تلك النوبات الهذيانية، روى له أبوه تلك المغامرة المجنونة التي قام بها بقصد الحصول على نفوذ خارق. وقعت الحادثة قبل الحرب بسنوات كثيرة. كانت جدّة الشيخ تمتهن الدروشة والتطبيب بالأعشاب، كما تقرأ الغيب في الكفوف وتبطل السحر في بيض الثعابين وتجعل المسحور يتقيّأ السموم التي تجرّعها دون علم منه ليشاهد محتوياتها معروضة في صحن من خشب الباوباب اشترته من درويش سنغالي مرّ بالمنطقة في بداية القرن. يشاع بأنها تنزل القمر من سمائه العلياء وتبسطه في صحن ليراه الزوار. منذ وفاة أمّه إثر ولادة عصيّة، احتمى الطفل بجدّته، فأصبح يلازمها مثل ظلها. كان في العاشرة من عمره وبدأت مداركه تتسع لخوارق الكون وغرائبه. حينما تستقبل زوارها في تلك الغرفة الجانبية المظلمة، تجلسه الجدّة إلى جانبها. فينكمش على نفسه صامتا، ولكن حواسه كلها منصبة حول ما تفعله وما تقوله العجوز. قبل ذلك، سبق أن تابع دروس تعليم القرآن في زاوية سيدي بلقاسم، فحفظ ستة عشر حزبا. ثم كلّفته الجدّة برعي قطيعها من الماعز والنعاج. بعد سنوات من ذلك، رافق أباه للعمل في سهول الشلف عند المعمِّرين. في بعض الأصياف، ورفقة عمال موسميين، غامر إلى غاية هضاب غِيلِزان ومعَسْكر لقطف العنب، ولكن عقل المراهق كان منجذبا نحو ما تقوم به جدّته، يتحجّج بحجج واهية ليعود مسرعا إلى الدشرة، فيلاحق جدّته بالأسئلة الفضولية، يرافقها في الأحراش العالية للبحث عن الأعشاب والنباتات الطبّيّة. كان شغوفا بعلم الدَرْوَشة والحكايات الساحرة، لا يكفّ عن مساءلتها حول طبيعة الأعشاب وفوائدها؛ هكذا، وبعد شهور قليلة، أضحى يعدّ أنواع النباتات مثلما يعدّ النقود.

اشترى بغلا وبردعة ملأها بالأعشاب وبعدد كبير من القارورات الصغيرة تحتوي على مركّز السوائل المستخدمة كأدوية. كانت جدّته

تستقبل المرضى وتداويهم في منزلها، فيما كان هو يجوب المداشر والدواوير، عارضا طبّه. يتأخر في الأسواق الغاصة بالقرويين والعابرين الذين يتحلقون حوله في دوائر معْوَجّة، يتشبثون بكلامه وحركاته ويحملقون بإعجاب يشوبه ريب غريزي في الأدوية المعروضة على الأرض فوق حصير مهترئ. مع مرور الأيام، اكتسب تجربة في مخاطبة المتسوّقين مستعينا بكلام جدته المليء بالألغاز والحكم والأمثال الشعبية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية. اعتمدت جدته على ذاكرتها فقط، فلم تكن تحسن الكتابة ولا القراءة، أما هو فساعدته زاوية سيدي بلقاسم على فك رموز الكتب القديمة والمخطوطات، فاقتنى منها ما استطاع وعكف على قراءتها والانتفاع بها، قولا وفعلا. بالصدفة التقى بدرويش مغربي، الشيخ إدريس الذي امتدّت شهرته إلى غاية زنقات قصبة طومبوكتو في عمق الساحل الصحراوي. تعلّم منه ما لم يكن يتخيّله قَطّ. في ليلة مقمرة دافئة، وهما ممددان داخل مستودع للحصاد على طرف دشرة نائية في ضواحي سعيدة ويتجاذبان أطراف الحديث، أخبره الشيخ المغربي بسرّ إبليسيّ فيه منافع جمّة لمن يتمكن من الاستيلاء عليه. في تلك الليلة الليلاء، أقسم الشيخ امْبارَك – لقد اكتسب مبكرا لقب الشيخ بارتداء قندورة فوقها برنوس، وعلى رأسه شاشية بيضاء محاطة بعمامة برتقالية – بأن يعمل كل ما بوسعه كي يتحصّل على تلك السلطة القاهرة. وحذّره الشيخ بأن الثمن الذي سيدفعه يكون باهضا، قد يؤدي إلى الموت. وما قيمة الحياة إن لم تستغَل لمثل هذه الأهداف المستحيلة؟ نضج المشروع داخل المستودع قبل انبلاج الفجر.

ماتت الجدّة في عمر يناهز الثالثة والتسعين. لقد توقفت عن كل نشاط منذ سنتين ولم تعد تخرج من بيتها إلا نادرا. نسيها زوارها، واعتبروها شبه ميتة. إن الذين يعرفون حكاية لالّة عايشة، حين يهمسون بتفاصيل الواقعة، يتوقفون طويلا عند سلوك الشيخ الغريب خلال السنتين الأخيرتين، قبل أن يحدث ما حدث. توقف الشيخ-الشاب عن تنقلاته عبر المداشر وخصّص جل وقته لمداواة الجدّة العليلة. مكث عند سريرها أياما وليالٍ، مجرِّعا إياها دواء بعد دواء. هل كان يؤمن حقا أن بإمكان الأعشاب إبعاد الموت الزاحف مع ساقيها النصف مشلولتَين؟

وللأشخاص الفضوليين الذين يسألونه عن صحّتها، يجيب دائما أنها بخير وأنها ستشفى قريبا لتستأنف استقبال الزوار. كان يقول ذلك في سكينة مربكة، فيما يؤكد كل الذين تمكنوا من الاقتراب منها أن العجوز السقيمة قد باشرت سفرها نحو العالم الآخر، ذلك أنها فقدت عقلها وأضحت تخاطب كائنات غير مرئية في هذيان عصي الفهم على البشر. لفظت الجدّة آخر أنفاسها في فجر شتائي ممطر وبارد. وأثناء مراسيم الجنازة، ذرف الشيخ دموعا أمام الملإ، كان يبكي مثل طفل صغير ويشهق بصوت مسموع. بعد أن وري التراب على الجثة، ارتمى على القبر ورفض مغادرته رغم مواساة المشيِّعين. تركوه هناك آملين أن يعود إلى رشده ويغادر المقبرة قبل هبوط الليل، ولكن حداده كان عميقا وبلا دواء. التصق ببرنوسه مثل قرادة عنيدة وبقي مُلقًى على القبر كل الظهيرة وجزءًا من الليل. عاد إلى ملازمة القبر في الليلة الموالية والليالي الأخرى. وفي صباح اليوم السابع، عُثِر عليه ممددا بكل طوله بقرب الوادي الفاصل بين المقبرة والقرية، مغميا عليه. والغريب في الأمر أنه كان يمسك بيده اليمنى ذراعا متعفنا، ممّا أذعر القرويات الذاهبات باكرا لزيارة قبر لالّة عايشة عند اكتشافهن له. استيقظ القرويون مفزوعين وهرع « الطلْبَة » نحو المقبرة يلعنون الشيطان الرجيم ومن اتبعه إلى يوم الدين. زعزعت تلك الحادثة النفوس المطمئنة بعنف لا مثيل له، أيقظت في أعماقهم ذلك الخوف المبهم الذي أغرقهم إلى حين بداخل هاوية طفولتهم الغاصة بالحكايات الخارقة، حكايات الغيلان والساحرات ذات العلاقات المريبة مع عوالم الجنّ والعفاريت، القادرات على مسخ البشر إلى حيوانات كريهة، والمناطق القصيّة الملأى بالكائنات الغريبة... كان قبر الجدّة الشوّافة منبوشا وينقص ذراع من جسدها. لم تعرف القرية واقعة ألعن من ذلك التدنيس. وعلى قراءة آيات بينات، أعيد دفن الجثة مع إحكام القبر جيدا كي لا ينبش مرّة ثانية. لا يتوقع أحد ما يمكن للشيطان أن يوسوس في أذن الشيخ المريد الذي اختفى دون أن يترك أثرا ! أشاع بعض الرعاة أنهم شاهدوه مرارا يترقب المقبرة عند الغسق من غابة الصنوبر القريبة المطلة على الوادي من الجهة العليا.

أخبره الشيخ إدريس في تلك الليلة وهما يتبادلان الحديث داخل مستودع الحصاد أن بإمكان الشخص أن يكتسب نفوذا شيطانيا رهيبا إذا تمكّن من اقتلاع ذراع درويشة في الليلة السابعة بعد دفنها، وتحضير الكسكسي بكفة يدها ثم أكله مخلوطا بأعشاب معيّنة. وكان الشيخ امْبارَك مهووسا بتلك الحكاية، فجرّب حظه. وحسب عجوز شارفت على القرن، صديقة لالّة عايشة قاسمتها عِشرة يستحيل تعداد سنواتها في انزواء ثنائي هامس، والتي تزعم أنها تمتلك علما عظيما حول الدروشة ولكن الخوف من الله وعقابه الشديد هو الذي يمنعها من استخدامه، فإن مثل هذه المغامرات نادرة النجاح، قالت بأن الشيخ امْبارَك كان عليه أن يعبر نقطة ماء وإلا ما استطاع الهروب بالذراع المقلوع. روت المسنّة أن الشيخ وبعد أن تمكن من قلع الذراع، لم يسمح له الوقت بردم التراب، لأن كائنات غريبة حامت حوله في صيحات مفزعة. قام مسرعا وجرى نحو الوادي، طبعا كانت الكائنات أسرع منه فحاصرته من كل الجهات، وأثناء هروبه، يكون الشيخ قد رفع رأسه وشاهد وجه الجدّة الأثرم، غاضبا، متوعدا، محاطا بالعفاريت. انتابه رعب شلّ حركته، وأغمي عليه قبل أن ترفس قدماه حصى الوادي. هناك، ووُجِد في صباح الغد على الضفة الموالية للمقبرة. ختمت العجوز كلامها: « لو تمكّن الشيخ من عبور الوادي لامتلك نفوذا خارقا يصنع به الأعاجيب ».

اختفى الشيخ امْبارَك شهورا عديدة قبل أن يظهر في تلك الزاوية الملعونة المهملة، ليمارس مهنة إخصاب النساء العواقر.

في السنة التي سبقت وفاته، أصيب بمرض أقعده الفراش وأغرقه في هذيانات مهلوسة أشبه بتلك التي أصابت جدّته. كان يقضي لياليه يسعل ويلعن العالم. أحيانا، تنزل عليه سكينة مريحة، فيعكف على تلاوة القرآن، في همس لا يكاد يُسمع، وطورا ينتابه السعال والهذيان فيخرجانه من صمته وهدوئه، ليتجشأ بذاءات حاقدة لا ينجو منها أحد، ابتداء من جدّته: جعل الله من جسدها وروحها حطبا لنار جهنم؛ ثمّ زوجته نايلة: ليعلقها عزرائيل من النهدين بمخلابين حديدين، لأنها هجرت بيتها دونما سبب؛ وأخيرا الله الذي يتهمه بملاحقته وتسويد حياته، ودفعه بلا هوادة نحو إبليس.

حينما يتذكّر المهدي تلك الليالي، ينتابه ندم على عدم قدرته على مواجهة أبيه بالأسئلة الدقيقة كي يعرف أكثر عن تلك الحياة الغريبة. كيف يمكنه أن يواجه تلك العتمة المخيّمة داخل الكوخ، ليكشف عن وجه أبيه الضامر، بتشنجاته العصبية، وكذا قبضاته الصارمة وهو يضرب الهواء، مهددا بتحطيم العالم وما يحويه. حاول مرارا استعادة تلك اللحظات، حيث يسمع صوت أبيه المريض ويشاهد ملامح وجهه القاسية، تماما مثلما يحدث في المسرح، حيث تنار الخشبة بمصابيح قوية كي يتمكن المتفرجون من التمتع بصوت وحركات الممثلين. ولكن كل محاولاته باءت بالفشل، ولم يتمكن إلا من إخضاع الفضاء المغلق لسيطرة الصوت الأجش الذي حوّل الشيخ إلى جبروت منعزل حزين.

كم حدّثه أبوه، الشيخ امبارك عن الحياة وأهوالها. ليست إلا محطّة يستعد فيها الإنسان للسفر الطويل. الموت ليس إلا عبورا يجهل الإنسان تفاصيله، ولكنه يوصله حتما إلى جنة الميعاد. أين ملايير البشر الذين ملؤوا الأرض بصخبهم وأشجانهم؟ لولا الموت الذي يفسح المجال للآتين لاكتظت الأرض وقلّت خيراتها وتقاتل الناس مثلما تتقاتل الذئاب الجائعة للفوز بجثة عفنة. يستعين الشيخ الدرويش بكل الأمثال والحكم والحكايات الراسخة في ذاكرته، وفي خضّم تلك الأحاديث، روى له تفاصيل سيرة الولي سيدي المخفي الغريبة: إن الولي الصالح ينحدر من سلالة العائلة الشريفة، إنه حفيد من أحفاد رسول الله. كان سادن الكعبة وحارسها الأمين، نذر حياته لخدمة بيت الله، وفي ليلة من الليالي العاصفة، جاء رهط من المتمردين من أقاصي الصحراء العربية وبادروا بقلع الحجر الأسود لنقله إلى مكان مجهول، فتصدّى لهم السّادن الأعزل ببسالة، ولكن أنَّى لمتعبد ضامر أن يغلب جماعة من المغامرين المتعوِّدين على الغزوات والحروب؟ أسقطه أحدهم أرضا وهمّ بقطع رأسه بضربة سيف، ولولا العناية الإلهية لكان من الهالكين؛ ففي لمح البصر، وجد نفسه داخل نفق تضيئه أنوار باهتة، وصدى صوت يحثّه على الهرب للنجاة بجلده، فجرى بسرعة غزال، هو الكهل الذي لم يتعوّد إلا التنقل ببطء سلحفاة، وحينما لمح فتحة في الأفق تنفس الصعداء وشكر الله كثيرا. من الصحراء الجرداء إلى رابية مشجرة، تطل على سهل أخضر هادئ

منعش! وقف مبهوتا من السعادة. أيكون حقا في جنّة الخلد؟ أكيد أن الكفرة تمكنوا من قتله، فبعثه الله في الآخرة، في أرض خضراء مشجرة، تعبرها وديان مزدانة بالرمان والريحان والتين والزيتون. فبنى لنفسه بيتا على قمّة الرابية وقضى بقية حياته متعبدا. حينما اكتشفه سكان المنطقة، قدّموا له يد العون ليخفِّفوا عنه عيشة الضنك. عمّر طويلا، وحينما شعر باقتراب أجله، أوصى بأن يُدفَن في ذلك المكان الجميل الذي آواه وأطعمه وقضى به أواخر أيامه متعبدا مطمئنا؛ فأصبح ضريحه مزارا يقصده بؤساء المنطقة بحثا عمّا يسدّ الرمق، ومرضاها آملين في الشفاء.

- 3 -

لكل حكاية بداية، وإن كانت البدايات في حقيقتها محطات تنتهي عندها حكايات سابقة، لتتشعّب منها أخرى عبر دروب عجيبة، غريبة ولا حصر لها. ونفترض أن حكايتنا هذه لها بداية معلومة برغم أن أحداثا متعدّدة، سابقة ولاحقة، يمكن أن تشكّل بداية لها. ولكن لا بأس، لنتعسّف على القارئ ونقدّم له هذا الاكتشاف الغريب الذي عثر عليه المهدي داخل ضريح زاوية سيدي المخفي كبداية لحكايتنا، وعليه بعد ذلك أن يحتفظ بها أو يستبدلها بأخرى.

في تلك الأيام التي شهدت الاكتشاف الذي سيغيّر مجرى حياة مدينة عين الكرمة بطمّها وطميمها، كان المهدي في حالة حزن ووهن شديدين كادا يجهزان عليه. قضى أبوه شهوره الأخيرة في صراع مرير مع سرطان ألعقه الأمرّ من الأوجاع، ولم يكَد يغادر فراشه إلا نادرا، هو المتعوّد على الترحال وقطع المسافات البعيدة راجلا. لفظ أنفاسه في فجر بارد، بعد ليلة لم يغمض له فيها جفن، ولم يتوقف فيها عن التأوّه والشكوى والدعاء. بعد الدفن الذي تمّ في ظهر ذلك اليوم، أشرف على مراسيمه اعْمَر حلموش بنفسه، عاد المهدي إلى البيت، ينتابه إحساس فظيع بعزلة لا تكاد تطاق. لفّته كآبة فأقضّت مضجعه وامتصت شهيته. في منتصف ليلة آرقة، هجر المنزل العائلي باتجاه ضريح سيدي المخفي الجاثم على قمّة الرابية المطلة على حيّ حَوْش الرومي، بقرب وادي الناموس، وهناك، بداخل المهجع

المظلم، بجانب الضريح المغطى بأقمشة متعددة الألوان، قضى بقية الليلة، يحدّث نفسه بصوت مسموع، تائها في متاهات لا مخرج لها.

وهنا بداخل هذا المهجع الأبدي، صادفه اعْمَر حلْموش بعد انبلاج الفجر بقليل، كان مارا بقرب الضريح فتواصلت مناجاة المهدي إلى سمعه الثقيل، فظن أن بها زوارا ليليين من المقامرين وأتباعهم، وصعقته المفاجأة حينما تعرّف على المهدي يهذي وحيدا؛ فذهبت به الظنون بعيدا أنّ جِنّا من الأشرار قد سكنه وأفقد له اتزان عقله، خاصة بعد الصدمة النفسية التي أرعدت كيانه بموت أبيه الذي عاش معه وحيدا منذ تلك الحادثة البعيدة التي لم يعد يتذكرها إلا عندما ينتابه حنين وشوق جارف إلى رؤية أمّه. وقد كان عمره آنذاك لا يتجاوز الثلاث سنوات. حاول اعْمَر حلموش بكل ما أوتي من تجربة وحنكة أن ينقذ المهدي من قبضة الجنون. ولكنه لم يتسنَّ له إكمال تطبيبه، ذلك أن الشاب اختفى فجأة دون أن يخبر أحدا بالوجهة التي سلكها.

في يوم غائم، وفي ساعات الغسق، في حين كان المهدي جالسا بداخل الضريح، مسندا ظهره إلى حائط التراب المدكوك، غارقا في أحلام متمَوِّجة، يهدهده صرير الحشرات المنبثق من غابة الصنوبر المجاورة ونقيق الضفادع الصاعد من الوادي القريب، جلب انتباهه حفيف متسارع فأنزله من علياء الأوهام وأرجعه إلى الواقع. رأى فأرا خارجا من تحت لوح الضريح، يجرّ خلفه، وعلى شعره الكثّ، نثارا من الورق الأصفر، ينبئ بوجود سرّ عظيم. دون عناء، فهم المهدي أن القارض يكون قد أوْلم بصفحات مخطوط تليد، ذلك أن فتات طعامه منتشر في أسفل الرمس. إنه متعوِّد على رؤية الفئران، ولكن ما أدهشه هو قطع الورق الصغيرة الحجم، المتناثرة على التراب وفوق جسد الحيوان. حرّكه فضول مُلحّ للوقوف والاقتراب من المكان الذي خرج منه الفأر. أمال رأسه قليلا، فشاهد فتحة بين لوحتَين خشبيتَين من الجهة الجانبية، مُظهرة طرف ورقة مقروضة بالعثّ. أدخل يده اليمنى، متمنيا أن يجد في ذلك الرّقّ البردي، المثلّم والمعثوث، السيرة العجيبة للولي سيدي المخفي، مثلما سمعها مرارا عن أبيه. ربّما اكتشف معها مدخل النفق السري، ذلك الذي سمح للولي الشريف بقطع المسافة الشاسعة بين مكّة المكرّمة والمغرب. لقد حدّثه

أبوه إلى حدّ التخمة عن رغبته في إيجاد ذلك النفق كي يقطعه بدوره في الاتجاه المعاكس. وإلى آخر حشْرَجة من حياته، احتفظ بذلك الحلم الهائج بداخل أوصاله في أن يتمكن من الولوج، ذات فجر، قبل أن تغرق قمة الرابية في نور الشمس، بداخل الممر الديماسي الذي سيوصله دون ريب إلى الكعبة الشريفة.

أبعد المهدي اللوحات الخشبية المقَرقِعة التي نخرها السوس، واكتشف مخطوطا قديما، مغطى بالغبار؛ عشرات الصفحات، كتابتها متناسقة، يكون بلا شك قد أنجزها خطاط بارع يجيد فن النسخ. ودون تأخير، بدأ المهدي القراءة، أوّلا على ضوء شمعة، ثم على ضوء الشمس، يبتلع الكلمات بِشَرَهٍ لا مثيل له، يحييها بعد مَنيّة دامت قرونا، يعرّيها مثلما تُعرّى المومياء عند إخراجها من التحنيط، محررا الأشباح والأساطير المسجونة بها، لتطفو على الضريح وتختلط بروائحه المخدرة. إنّ ما اكتشفه يتجاوز كل الحكايات العجيبة التي رواها له أبوه واعمر حلموش مجتمعة. قضى الليلة بأسرها وجزءا طويلا من اليوم مفككا رموز الأوراق المنفصلة والمرمدة. كان يجلس، محنيا ظهره نحو الأمام، مربعا رجليه، والمخطوط بين يديه، عيناه مثبتتان على الحروف السوداء، ماسكا تنفسه إلى حدّ الاختناق. وكان سيواصل قراءته ما يكفيه من الأيام والليالي إلى غاية بلوغ آخر سطر، متعننا في إزالة طبقات القشور العالقة على معاني كل تلك الجمل المتشابكة، مجهدا نفسه لمعرفة الحروف الناقصة أو الممحوة جزئيا، كي يتشبع إلى حد الارتواء من ذلك الجوّ الصوفي، لولا الحضور المباغت لمجموعة نساء متحيِّكات، جئْن لزيارة ضريح الولي. دخلن بغتة، دون الإعلان عن قدومهن بصوت أو دقّ على الباب، أو على الأقل، هكذا خيّل للمهدي، ذلك أنه كان غارقا في اكتشافه المذهل ولم ينتبه إلى ما كان يحيط به. لم يشاهد قَطّ النساء الثلاث بحياكهن البيضاء يدلفن عبر الباب المنفتح جزئيا. رفعت الأولى الستار المغبّر المتآكل وهمت بنزع حذائها. أما الثانية، فوقفت وسط فتحة الباب، تنتظر دورها، حين لمحت شبح المهدي الجالس في زاوية بقرب الضريح؛ فبدرت منها صيحة ضعيفة، صيحة مفاجأة واحتشام، فتراجعت إلى الوراء، متبوعة برفيقتها. تسارعت النسوة، خائِفات وابتعدن بخطى خفيفة،

ثمّ توقفن عند أول شجرة صنوبر وانتظرن بصبر وترقّب خروج الزائر. استيقظ المهدي من غطسه اللّجيّ في التعرجات المتشابكة لعالم الأولياء العجيب، فظن نفسه في بداية الأمر بداخل حلم مُضبّب قصيّ. فرك عينيه فرأى طرفا من الحائك الأبيض يختفي، وسمع حَفيفًا وَوقع خطوات خفيفة على التراب، فأدرك أن هناك نِساءً جئن لزيارة الولِي، ولَكِن زوبعة من الصور والأصوات لا تزال تغلي في ذهنه، تمنعه من استعادة صفائه الكلي. مرّت دقائق طويلة قبل أن يتحرك من مكانه أو يغيّر من وضعية جلوسه. الجوّ لطيف ومنعش بالداخل. وقف بتثاقل ومدّد ذراعيه متثائبا بصوت مسموع، ثم أرجع المخطوط إلى مكانه. اعتنى عناية ظاهرة في تمويه المخبإ كي يظل مجهولا. في الخارج، كانت حرارة الشمس مرتفعة وضوؤها ساطعا مُبهرا. استنشق الهواء بارتياح لذيذ كأنه يريد إخلاء صدره من روائح البخور القوية والوقيد، دون أن يكترث لأمر النساء الواقفات، يختلسن النظر للتعرف عليه. مشى الهوَيْنا دون أن يعرف وجهته بالتحديد، وما إن دخل تحت ظلال أشجار الصنوبر حتى انتابه التردّد: أين سيذهب؟ هل سيلتحق بمنزله أم أنه سيبحث لنفسه عن ركن هادئ ليغوص في نوم مسكّن؟ صحيح أنه بأمَسِّ الحاجة إلى النوم، ذلك أنه كان يشعر بقوة لا تقاوَم تُميل أجفانه نحو التعانق والانغلاق، مغرية إياه بالتمدّد هنا، على الأرض الحجرية، خلف سور الخرْبة، ولكن الجوع والعطش يقضمان أحشاءه ويقاومان للفوز بالأسبقية. لم يتوقف، بل واصل المشي تحت ظلال الأغصان المورقة، منحدرا تارة، صاعدا تارة أخرى، وبعد قليل، اكتشف تجويفا جانبيا تكاد الأغصان تخفيه عن الأبصار كلية، محاطا بأعشاب التوت البري والوزّال الشوكي؛ ودون انتظار أو إطالة تفكير، قوّس جسمه نحو الأرض وتسلّل تحت الأوراق المغبرة الشاحبة، ثم تمدّد على جانبه الأيمن مجترا قرارا حاسما أن ينام هنا نوما عميقا أشبه بنوم أهل الكهف. ولكن النوم رفض أن يستجيب له برغم الظل المنعش وزقزقة الجواثِم. في عمق أعماقه، لم يتوقف لحظة عن التفكير في حكاية المخطوط العجيبة، حكاية المتصوِّفة الأولين، أهل الكرامات والأفعال المستحيلة. إن ما أبهره خاصة، ذلك الصوفي المعروف تحت اسم إبراهيم عبد الله، الذي تجاوز الجميع في كيفية عبادة الله.

كان الناس في عهده يحجّون راجلين أو جالسين على ظهر الجمال والنوق والأحصنة، وضمن قوافل غاصة بالمسافرين والحراس المسلحين لصدّ هجمات قطّاع الطرق عبر الفيافي والصحاري الجرداء. أما إبراهيم عبد الله الملقّب بالعظْم، فقد قرّر أن يحج راكعا ساجدا، ليبيّن مدى زهده في ملذات الدنيا وخضوعه الكلي والنهائي للإرادة الإلهية. استغرب الناس كيف يحج المرء راكعا، والمسافة بين الكوفة والحجاز ليست بالقليلة. ولكن عبادة إبراهيم عبد الله فاقت كل أنواع العبادات، وتجاوزت تضحياته كل أنواع التضحيات؛ أكّد أنه سيحج ماشيا على رأسه إلى غاية باب مسجد الحرام. وفي الليلة السابعة والعشرين من رمضان لسنة 726 للهجرة، وبعد أن قضى ليلة أقام فيها الليل خاشعا عابدا في ساحة مسجد الإمام علي بن أبي طالب بالكوفة بأرض السوّاد، انطلق عاهدا على نفسه ألّا يتوقف إلّا عند الروضة العاطرة بالكعبة الشريفة. فكان يخطو خطوتَين دون أن يتوقف لسانه عن الابتهال والحمد والشكر، ثمّ يصلّي ركعتَين خاشعتَين، طويلتَين. قضى أربعة عشر عاما في الصحراء العربية الرمضاء، يتقدّم رويدا رويدا نحو هدفه المنشود، دون كلل أو تعب أو يأس، ولا حتى شكوى من أيّ نوع. كان يتقدّم راكعا، ساجدا، حامدا، شاكرا، يهزّه الشوق إلى لحظة الوقوف أمام بيت الله والطواف الجليل، ثم الارتواء من بئر زمزم، وأخيرا السعي المحمود. كل سنة، كانت قوافل الحجاج، في ذهابها وإيابها، تصادف ذلك المتعبّد النحيف، الوحيد الأعزل، بلا مطية ولا متاع من أيّ نوع، معتمدا الاعتماد كله على الخالق الجبّار، مستسلما لمشيئته، واضعا حياته بإرادته تحت تصرّفه، يجرّ رجليه الحافيَتَين، المخضّبتَين، في الطرقات المقفرة المحصبة، لا يقطع في اليوم إلا أمتارا معدودة، لا يغفل أبدا عن السجود الخاشع، لاصقا جبهته بالتراب والرمال حتى ترتسم بقعة سوداء وسطها لتكون شاهدة على تعبده حينما تحين ساعة الحساب الشديد. ومما زاد المسافرين اندهاشا وإعجابا به، أنه كان يرفض كل المساعدات المقدّمة بإلحاح صادق. ويُروى أن أخباره وصلت إلى مسامع الكعبة، فتاقت إلى رؤيته توقا لم تصبر عنه، فانتقلت لاستقباله، خوفا من أن يباغته الموت ولا يصل إليها بعد كل تلك السنوات من الصبر والتجلد والسجود، يرافقها الحجاج مهللين، في مدائح

دينية وضعت خصيصا لذلك الحدث الجليل. هل حدث ذلك فعلا أم أن الرواة هم الذين استسلموا لجموح خيالهم فألّفوها تأليفا مثل عادتهم حينما يتعلق الأمر بمثل هذه الأحداث الخارقة؟ كيف لنا أن نتأكّد من صحة وقوع هذا الحدث؟ ليس لنا والله من حيلة إلا التصديق!

بعد هذه الحَجّة المباركة، اكتسب إبراهيم عبد الله كرامات جليلة؛ فلم يكن يحتاج إلى مِعبَر لينتقل بين ضفتي نهر الفُرات. يكفيه أن يمشي فوق سطح الماء مثلما يمشي على جسر. انتشرت سمعته واخترقت بلاد الرافدين. يأتي الناس لزيارته من أقاصي الدنيا. من قدراته الخارقة أنه كان يستطيع إحضار شخص، في لمح البصر، من بلاد بعيدة، تلبية لرغبة محتضر يريد أن يرَ قريبا له قبل أن يطلق آخر حشرجة ويغادر الحياة الدنيا مطمئنا آمنا.

لم يعد النوم إلى المهدي إلا بعد أن أنهى قراءة الصفحات المائة والسبع والخمسين. وكي لا تزعجه – مرّة أخرى – الزائرات الباحثات عن مهدئات لوساوسهن، قرّر أن لا يقرأ إلا ليلا، فقضى ست ليالٍ منكبا على المخطوط، مفككا الرموز السوداء تحت ضوء الشمعة في صمت شبه مطبق، تتخلله من حين إلى حين خفخفة تحريك الورق. ومن بعيد، في عمق الوادي المتعرج وسط أكواخ الصفيح والقزدير والقصب، تتصاعد سيمفونية نقيق الضفادع وصرير الحشرات. عنْد انتهائه من القراءة، بقي شاردا مدة طويلة، تائها في أفكار جديدة لم يألف الطواف في مسالكها، ثمّ غفا والكتاب بين يديه، ورأى فيما يرى النائم شيخا ضامرا يجلس فوق صخرة في أعلى جبل يناديه ليلتحق به، حاول التسلق بين منعرجات السفح الحجري ولكنه زلق عند أولى الخطوات. أعاد الكرّة مرارا، دون جدوى. خَفَت الصوت حتى كاد لا يُسمع. وقف الشيخ مستعدا للذهاب، فصاح المهدي صيحة عظيمة ليطلب من الشيخ الانتظار، ولكن الصوت أبَى أن يخرج من فيه، فاضطرب وأعاد الصياح، لم يسمع صوتا، ركض ينوي التسلق من جديد، تمكّن من قطع مسافة قرَّبته أكثر من الشيخ الذي أدار له ظهره، ولكنه فقدَ توازنه وسقط في هاوية بلا قعر، حينذاك، استيقظ لاهثا يتصبب عرقا. كان النهار قد غزا بضيائه الغرفة الصغيرة، متسلِّلا عبر الكوة الضيقة الوحيدة. مكث لحظة سجين تلك الصور

الغريبة، ثم أعاد المخطوط إلى محرابه السري، وشدّ الألواح بخيط متين، وسدّ المنافذ الصغيرة التي سمحت للفأر بالتسرّب إلى الداخل. بعد ذلك، غادر الضريح، مصمِّما على إنجاز فعل عظيم، يكاد يضاهي ما قام به إبراهيم عبد الله. لم يُخبِر أحدا بسفره، ولا استشار اعْمَر حَلْموش الذي يكِنّ له احتراما كبيرا. كما أنه لم يأخذ معه شيئا مما يأخذه المسافرون، مقتنعا أشد الاقتناع بأن الله سيكرمه ويعينه مثلما فعل مع عبده الخاشع، ذلك المتعبد النحيف الذي قضى أربعة عشر عاما ليقطع المسافة بين الكوفة ومكة المكرّمة، راكعا ساجدا، مرسلا إليه الماء والتمر والحليب كلما كان في حاجة إلى ذلك. يكفي أن يجلس في آخر النهار، أو عند بزوغ الفجر، فيطلب زادا يتقوَّت به ويسمح له بمواصلة المسيرة، حتى يرى أمامه عرجون تمر أو إناء حليب. هكذا، كان ربّه يقيه ألم العطش والجوع ويجعله في مأمن من الفاقة والتسوّل، طوال سنوات السفر الذي دام أربعة عشر عاما، تحت الشمس اللاهبة والليالي القارسة، لا يستريح إلا فترة النوم التي تقلصت بسبب الأرق ورغبة الإكثار من الصلوات، فأضحى لا يغفو إلا دقائق معدودات ليستيقظ فزعا متمتما التعاويذ اللاعنة للشيطان الرجيم الذي ضيَّع له وقتا ثمينا كان سيخصصه للعبادة.

بإيمان وحماس يليقان بالفاتحين الأوائل، اتخذ المهدي وجهة الشرق، وجهة القِبلة، سالكا طول الطريق المعبّد. يمشي حاثا خطاه، غير مبالٍ بالسيارات المسرعة التي شبّهها بالقوافل التي كانت تصادف ذاك المتصوف المتجلد، يقترح أصحابها العَون فيرفضها. كان منظره غريبا وهو يمشي مسرعا على حافة الطريق خارج المدينة، وحيدا. حينما ينسى نفسه ويميل إلى وسط القارعة، يضغط السائقون على المنبه بشكل مزعج، وعند مروره بالمنازل المحاذية للطريق ويرى رجلا جالسا أو واقفا، يحييه بتحية مرفقة بحركة يد حماسية، أكثر الناس يردّون التحية باقتضاب، يتأملونه بريب. كيف لشاب سليم العقل أن يمشي عبر طريق وطني خارج أيّ تجمع سكني؟ أين يذهب؟ إذا كان يريد السفر بعيدا فالحافلات متوفرة بكثرة. لماذا المشي إذن؟ هل هو فقير إلى حدّ لا يملك ثمن تذكرة حافلة؟ لقد انقضى ذلك العهد الذي يسافر فيه الناس راجلين. الريفيون الشيوخ، النافرون من الحداثة الزاحفة، تخلَّوْا عن أحمرتهم

وبغالهم وأضحوا يتلهفون على ركوب الحافلات، مهما كانت مهترئة. في كل الأحوال، إنها أفضل من ظهر الحيوان ومن المشي؛ لذلك، فإن رؤية شاب يافع يحذو الطريق الوطني راجلا، مُسْرعا، أكيد أن أسئلة مريبة تطرح نفسها دون عناء البحث عنها.

واصل المهدي سفره الإهليلجي نحو الشمس، وعند الشفق، لمح سقوف بنايات بعيدة، فتحمّس وضاعف من سرعة خطاه. لفّه الظلام وهو لا يزال يجرّ جسمه المنهك وسط أرض مكشوفة. دخل مدينة شوارعها فارغة وشبه مظلمة، وما إن مشى وقتا يسيرا عبر أحد الأزقة الخلفية، حتى سمع الأذان يعلن عن صلاة العشاء. كان الطوى قد عقَد أوصاله والتعب أوْهَن لسانه. بعد أداء الصلاة، جلس مسندا ظهره إلى عمود وسرح في أفكار هلامية، يحلم بعرجون تمر معسّل يباغِته من حين لآخر. أيقظه الإمام من هلاسه، طالبا منه الخروج كي يتسنى له غلق باب المسجد. حدّقه المهدي بنظرة ذابلة وقال:

- ماذا تقول يا شيخنا الجليل؟ أليس هذا بيت من بيوت الله؟

- بلى...

- ولماذا تغلقونه إذن؟

- نغلقه لأنّ وقت الصلاة قد انقضى.

- إنّ بيوت الله لا تُغلَق، هذا يخالف شرع الله.

- من أين أتيت بهذا الكلام يا بني؟ نحن نعمل بسُنّة نبيِّنا الكريم محمد بن عبد الله الذي قال: « بعد أداء الصلاة انتشروا في أرض الله ». كان الرسول - صلّى اللّه عليه وسلّم - لا يحب الماكثين في المساجد خارج أوقات الصلاة، ويتوَكّلون في رزقهم على صدقات المحسنين.

- أنا مسافر على بركة الله، ونوَيت قضاء الليل هنا...

- المسجد مكان للصلاة وليس للمبيت. يوجد حمّام قريب من هنا، يمكنك النوم فيه. أراك مغبرا أشعث الشعر، أنت بحاجة إلى استحمام. هيّا توكّل على الله ودعني أكمل عملي.

كان الإمام كهلا، يميل إلى السمنة، وعلى وجهه لحية خفيفة غزاها الشّيْب جزئيا. تأمّل الفتى النحيف بفضول ظاهر ثمّ ابتعد، يحرّك

رأسه حائرا. مسح المهدي الصالة الفارغة بعينين نصف مغمضتين، لا يعرف أيّ سلوك يسلكه ولا أيّ قول يتلفظ به. انطفأت المصابيح فجأة، فوقف بتثاقل والتحق بالباب حيث كان الإمام ينتظر خروجه. كان الشارع غارقا في نصف ظلمة، وبعيدا في مفترق طرق، كان مصباح عمومي مهترئ ينير المحيط ببخل شديد. أدخل الإمام يده في جيب قَنْدورته وأخرج ورقة نقدية مدعوكة ومدّها للمهدي، مشيرا بيده نحو الجهة التي يتواجد فيها الحمّام. امتلأ صدر الفتى بالأمل، ذلك أنه اعتبر الفعل إشارة إلهية. هل هو الخِضْر الذي أتاه مثلما كان يأتي لإبراهيم العَظْم خفيفا ومغردا مثل عصفور؟ شقّ ظلمة الشارع غير لاوٍ على شيء، وجد الحمّام دون عناء ولكن صاحبه رفض إيواءه بحجة عدم امتلاكه لبطاقة هوية. وأمام شرود الفتى، نصحه بالتوجّه إلى مركز الشرطة كي يستخرج رخصة إيواء. تصوّر أن المسألة ليست إلا إجراءً شكليا لا يكلفه وقتا طويلا. واجهه الشرطي بنظرة ازدراء، ملأى بالريب والاتهامات المبطنة، ثم أمطره بوابل من الأسئلة الدقيقة التي أخرست لسانه وأرعدت أحشاءه، وبعد ذلك أدخله غرفة صغيرة وطلب منه الانتظار. بقي جالسا على المقعد الخشبي لحظة من الزمن، إلى أن شعر بالنعاس يطبق جفنَيه، فتمدّد بلا أدنى تردّد على الأرضية المبلطة وغرق مباشرة في نوم عميق. حينما عاد الشرطي ووجده على تلك الحالة، صاح فيه صيحة غاضبة وركله ركلتَين بحذائه الغليظ؛ فاستيقظ المهدي مرتبكا لا يدري أين هو بالضبط. أوقفه الشرطي بعنف وقاده إلى مكتب في آخر الرواق، وهناك وجد رجلا باللباس المدني، جالسا خلف طاولة حديدية وأمامه آلة راقنة يكسوها الصدأ. وبدأ الاستنطاق، عسيرا ودقيقا؛ أسئلة عديدة ومتنوعة، أعدتها مصالح الأمن التي تعتبر، في قبلية عمياء، أن جل المواطنين معارضون افتراضيون. وانطلاقا من هذه الشكوك المرضية، أعدت بطاقة مفصلة حول كل مواطن يثير سلوكه ريبا ما، وتسجل بها كل الأخبار التي يجمعها أعوان البحث ومُخبِروهم، مهما كانت واهية، سواء مؤكدّة أو مبنية على الإشاعة والوشاية المغرضة. إنها نافعة في أوقات الاضطرابات. أكثر الأسئلة عجز المهدي عن الإجابة عنها، رغم عناد العون بإصراره على إعادة طرحها وشرح بعض ملابساتها.

أخيرا، حينما غادر المهدي مركز الشرطة، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل والحمّام قد أغلق أبوابه، بحيث لم تعد تنفعه الرخصة التي خطها الشرطي بكتابة معوجة لا تكاد تُقرأ. وبما أن الاستقبال كان فاترا في المرّة الأولى، لم يجد الشجاعة الكافية للضرب على الباب، فوقف إزاءه وقتا طويلا يتأمل الكتابة الرديئة، مطأطأ الرأس، شارد الذهن. فجأة، وبحركة عصبية، دعك الورقة ورماها أرضا. ألقى نظرة إلى الشارع المظلم، استنشق الهواء الطري بقوَّة وابتعد عن الحمّام بخطى سريعة. مشى مدة من الزمن تحت نور المصابيح الشاحب قبل أن يلج في الظلمة الحالكة، تراوده فكرة الخروج كلية عن أسوار المدينة والبحث عن مكان منزوٍ لقضاء ما تبقى له من الليل. هكذا، وبعد فترة لا يدري كم استغرقت من الدقائق، ربما قاربت الساعة، وجد نفسه وسط حقل كروم يتقفى أثر مجرى عجلة جرّار. لمح تجويفة ملساء فاستلقى في حضنها راغبا في نوم مريح. ولكن خشونة التراب والبعوض الذي لفَّ وجهه وذراعيه أبقياه يقظا ومنزعجا. كانت السماء صافية بهلال جزئي يكاد يلامس قمة جبل في الأفق. لم يعرف المهدي كم لبث من الوقت يتأمل النجوم ويطوف حول صور وأفكار غير واضحة المعالم قبل أن يسرقه النوم خلسة. عندما استيقظ، كانت الشمس قد لاحت في الأفق معلنة عن يوم قائظ. وقف بخفة وتمدّد متثائبا بصوت مسموع، مسح خطوط الدّاليَة بنظرة دائرية ثم قصد الطريق متثاقلا. لم يقطع نصف المسافة حتى سمع صوتا ينادي بأعلى النبرات: « يا السي محمّد! يا السي محمّد! » توقّف والتفت، وهناك على بُعد أمتار فقط، رأى رجلا معمَّما يركض نحوه ويصيح غاضبا، ملوِّحا بعصى غليظة، شاهرا إياها فوق رأسه. انتظر المهدي الحارس بلا حراك. حينما اقترب الرجل، قلّل من سرعة خطواته:

– واش راك ادِّير هنا؟

– والو... كنت راقد.

– كيفاش؟ راقد؟ حمّام، أوتيل؟ فهَّمني؟

– راني مسافر، الحمّام مغلوق و...

توقّف الحارس مواجها المهدي بنظرة شزراء أوّلا، ولكنه حينما دقّق النظر في هيئته: شاب نحيف، ملابسه مغبّرة، أشعَث الشعر، بلحية حديثة العهد، وتلك النظرة الهادئة، على شفى حفرة من البلَه، لانَت قسوته وضعُف صوته، وهمهم كلمات غير مفهومة ثم طلب منه أن يغادر الدّالية فورا. قال المهدي:

– كايَن عيْن في هذا المكان؟

– عَـيْن؟ تحوَّس على الماء... اسمع ليَ مليح!

بعد ذلك التفت الحارس نحو الشمال وأشار إلى شِعْب بعيد وسط دغل من التوت البري وأغصان الدلب بقرب وادٍ، وأفهمه بأن العيْن توجد على أمتار من ذلك الشِّعب. وحينما ابتعد المهدي، صاح محذرا إياه بعدم الدخول إلى مزارع غيره بدون إذْن، وإذا كان هو رجلا طيبا متسامحا، فإن غيره سينهال عليه ضربا قبل أيّ سؤال.

كان ينبوع الماء صافيا، عكس صورة المهدي مثل مرآة. اندهش الفتى من تغير ملامحه، كاد ألّا يتعرف على وجهه المتسخ. شرب واغتسل طويلا ثم توضأ وانتقى منبسطا جانبيا وصلّى خاشعا مبتهلا. بعد ذلك تذكّر الورقة النقدية، فأخرجها من جيب سترته وأطال فيها النظر يفكر فيما يمكن أن يقتنيه بها. عند أوّل بقّال، اشترى رغيفا وعلبة حليب ورطلا من التمر الجاف، ثم استأنف السير، مقتنعا أكثر مما سبق بأنه سوف لن يتوقف إلا ليقبِّل الحجر الأسود بالكعبة الشريفة.

مشى طويلا في اتجاه الشمس، برغبة جامحة في تقليد سيّده إبراهيم عبد الله، قاطعا مثله السهول والجبال والمروج والصحاري، متحديا أعتى العقبات. ولكن الطريق شاق والحرارة ملهبة، زيادة إلى أنه يفتقر إلى أدنى الوسائل المعينة لتحمُّل مثل هذه الأسفار المضنية. مع الأيام، طفقت ثقته تتشقق ليتسلّل إلى جوارحها اليأس، فيقاومه بالإكثار من الصلاة والإسراع في المشي.

عند ظهيرة غائمة، وصل إلى مركز الحدود، وأمام البناية، رأى رهطا من الناس أغلب أفراده من الرجال الشبان، ينتظرون وعلى محياهم علامات التذمر والحيرة. تقدّم المهدي نحو شرطيٍّ كان يتفحص وثائق

عجوز شاكية من طول الطابور، فسأله عن مكان وجود الماء. أجاب الشرطي، المتعوّد على مثل هؤلاء المسافرين التائهين، الباحثين دوما عن المراحيض وحنفيات الماء، دون أن يلتفت إليه. بعد أن ارتوى، اختلس المهدي نظرات فاحصة حوله، وحينما لم يرَ أثرا لمقهى أو لحانوت أو لمحلّ الأكل الخفيف، واصل سيره دون اكتراث؛ حينئذ، حملق الضِرو باندهاش في الدخيل المتسرّب نحو الحدود، فأرجع الأوراق إلى صاحبتها في استعجال لم يسعفها في الإمساك بها، فتناثرت حولها وأطلق زعيقا جلب إليه كل الأنظار: « وين رايح آ سِّي رَبِّي آه؟ ».

كان المهدي منشغلا بحساباته المتشابكة، فلم يسمع صوتا ولا وقْعَ أحذية الشرطي الذي جرى خلفه، إلى أن شدّه بعنف من الذراع. وفي لمح البصر، أحاطت به مجموعة من رجال الشرطة ودفعوه نحو البناية. لم يعِ بوضوح ما يحدث له، ولماذا هذه الملاحقة المفاجِئة، المرفقة بشلال من القُباع والتهديد بالويلات السبع.

– وين رايح يا القافز؟ هات جواز السفر.

– ماعنديش.

– تقطع الحدود بلا جواز سفر!

– أنا مسافر على بركة الله، ولست بحاجة إلى جواز سفر.

– أخينا يتكلم العربية الفصحى! نحن أيضا نحسن الحديث بها. أحسبت نفسك في عهد هارون الرشيد؟ أمشِ، أمشِ، انْوَريلَك الطريق تاع مَصَر ورّاه.

تجمّع المسافرون حولهم، يسترقون السمع إلى الحوار الدائر، فنهرهم شرطي، قاذفا إياهم بشتيمة غليظة، فانسحبوا مهرولين إلى الوراء. لمّت العجوز وثائقها كاتمة غضبها وعادت باكية شاكية إلى الشرطي، فأخرسها بصراخ غاضب آمرا إياها أن تعود إلى مكانها وسط الطابور. أدخله حراس الحدود إلى صالة واسعة بها ثلاثة مكاتب ومقاعد طويلة ملاصقة للجدار. تقدّم إليه ضابط وسأله بلهجة ساخرة:

– أين يريد أخينا أن يذهب هكذا بلا باسبور ولا دوفيز؟

– إلى مكّة إن شاء الله. أجاب المهدي بلهجة واثقة زادت من حيرة رجال الشرطة.

– إلى مكّة وعلى رجليك! في أي عصر أنت يا أخينا؟ تتبَهْلَل علينا؟ شْكُونْ قال لك بأن السفر إلى مكة ممكن هكذا بلا سيارة ولا حافلة أو قطار؟ من أيّ مدينة أنت؟

– من عين الكرمة.

– وأين تقع هذه الـعين الكرمة؟ هل أنت من الصحراء؟ شكون يعرف وين جايَة هذه الدشْرة؟

تبادل الرجال النظرات المتسائلة، ولكن لا أحد أعطى جوابا. التزم المهدي الصمت. في حقيقة الأمر، هو أيضا لا يعرف موقع قريته. اندهش الجميع من هذا الشاب النحيف الذي يريد أن يحجّ راجلا. كيف له أن يقطع آلاف الكيلومترات مشيا على الأقدام في البراري والصحراء، بلا متاع يرافقه. رجال الشرطة متعوّدون على رؤية أشخاص يصرِّحون بأنهم يقصدون جدّة، ولكن هؤلاء مزوَّدون بكل الوسائل اللازمة: سيارات فارهة آخر موديل، صناديقها معبأة بالألبسة والمؤن المتعددة، جوازات سفر ملطّخة بتأشيرات البلدان التي سيمرون بها، وأوراق نقدية من العملة الصعبة بأنواع كثيرة. أما أن يأتي شاب ضامر، أنهكه الجوع وسوء التغذية، ويزعم أنه مسافر إلى مكة، هذا ما لم يشاهدوه قط في حياتهم المهنية. من أين مرق؟ أيكون قد حدث له ما حدث لأهل الكهف الذين ناموا لمدة ثلاثة قرون، وحينما استيقظوا وجدوا مجتمعهم قد تغيّر كلية، فلم يتعرفوا عليه، لذلك فضلوا العودة إلى الكهف ومواصلة النوم بصفة نهائية هذه المرة؟ ولماذا لا يعود هذا الشاب المنفصل عن واقعه إلى الموضع الذي مرق منه فجأة؟ يريح نفسه كما يريح غيره بلا شك.

طأطأ الضابط رأسه مفكرا. بدت على وجهه ابتسامة حائرة. طلب منه أن يتبعه إلى مكتبه، وأجلسه في مقعد مقابل شاب كان يتفحص أوراقه بعناية ظاهرة، ثم طلب منه أن ينتظر قبل أن يختفي وراء باب خلفي. في لحظة ما، أدرك المهدي بأن الشاب يتفرسه مليا، كأنه يريد التحدث إليه. أدار المهدي بصره وانشغل بأكوام الورق المتراكم على المكتب.

– واش، طرْدوك حتى انت ؟

– ...

– وَعْلاش ؟

– ليس لي جواز سفر.

– ما عَندكْش باسْبور وتحَب تغادر البلاد ؟! (ردّ الشاب بنبرة اندهاش) عندي كل الأوراق ومع ذلك رفضوا خروجي، وعلاش ؟! الخدمة العسكرية ! جيتْ نشْكي للضابط.

سكت لحظة ثم واصل قائلا :

– أنت أيضا تحوَّس على خدمة ؟

–لا.

– وعلاش راك خارج ؟

– أنا ذاهب إلى مكّة.

– إلى مكة ؟ أنت صغير والحج للكبار !

– كل بالغ له الحق في أداء مناسك الحج.

– ما هوش مهم... على كل حال، أنا أيضا ذاهب إلى نفس المنطقة، ليس للحج طبعا. الخدمة يا خويا، الخدمة، وبالدولار.

عاد الضابط، فالتزم الشاب الصمت. وبلا انتظار، دون أن يترك الوقت للضابط كي يستوي في جلسته، عرض مشكلته بكلمات مقتضبة، ووتيرة سريعة. حدّقه الشرطي بصرامة أقرب إلى التهديد، ثم قال موَبِّخا :

– ديرْ الواجب الوطني انْتاعَك أوّلا ثم حوَّس على الخروج...

وقف الشاب وعرض عليه أوراقه في محاولة يائسة لإقناعه بالعدول عن رأيه، ولكن الضابط نهره غاضبا، وأمره بالخروج بحركة من يده اليمنى. بقي المهدي صامتا، يجول ببصره بين المكتب والصالة الواسعة. تناول الضابط بطاقة من الورق المقوّى وقلما وشرع في الاستجواب. أسئلة كان المهدي قد أجاب عنها في تلك الليلة التي قصد مركز الشرطة باحثا عن رخصة للمبيت في الحمّام. كان الضابط يسجل الإجابات بالفرنسية بخطّ واضح وجميل. صحيح أن المهدي لم يكن يعرف من هذه اللغة إلا

الشيء القليل، ولكنه تمكن من قراءة أغلب الكلمات. حينما غادر المكتب، وجد الشاب ينتظره عند العتبة. خاطبه بألفة كأنه صديق قديم:

– اسمي سليمان، وأنت؟

– المهدي.

– من أيّ مدينة؟

– عين الكرمة.

صاح سليمان وفي عينيه تتلألأ غبطة:

– صحيح؟! أنت من عين الكرمة؟ إذن، نحن أبناء بلدة واحدة! يا للمصادفة العجيبة! وكيف لا أعرفك؟

في الحافلة التي أقلّتهم إلى أقرب مدينة حدودية، لم يتوقف سليمان عن الكلام. كان من النوع المهذار، خلافا للمهدي الصموت. تكلّم عن خيباته وأحلامه، اعترف بأنه غير موهوب في الدراسة، فشل في امتحان التعليم المتوسّط ثلاث مرات. كان والده تاجرا ويملك دكانا صغيرا في زنقة بجانب السوق، حاول أن يلقّنه الحرفة، ولكن سليمان، وبعد شهور من مزاولة الدكان، وزيادة إلى أنه لم يتْقِن شيئا من تسريحات الشعر وكيفية استخدام المقص والمجزّ، أصيب بالقرف من مهنة الحلاقة، خاصة حينما يفكّر بأنه سيقضي حياته في هذه المساحة التي لا تتجاوز الستة أمتار مربّعة. اختصم مع أبيه وكادت الخصومة تتحوّل إلى مشادة جسدية لولا تدخل الأم؛ فأضحى الجوّ بالمنزل العائلي مكهربا، والأب لا يتوقف عن اللوم والتهديد بالطرد إن استمر سليمان في رفضه لتعلم حرفة يرتزق بها. في يوم من الأيام، قرّر مغادرة المنزل العائلي والبحث عن سبل مغايرة لكسب رزقه، وهكذا وجد نفسه في مركز الحدود يريد السفر إلى دول النفط، باحثا عن الشغل. ارتاح المهدي إلى طلاقة لسان صديقه الجديد لأنها ستعفيه من الكلام. كان يستمع إليه أحيانا ويغيب عنه في أغلب الأحيان، سارحا في فضاءات لا تخطر على بال سليمان. أصيب بيأس محبط بعد أن منعت عنه الشرطة عبور الحدود. عليه أن يعود إلى عين الكرمة لاستخراج جواز السفر، ولكن مشكلة الخدمة العسكرية التي

تحدث عنها سليمان أفقدته كل رغبة في امتلاك أيّ وثيقة لأنها ستصبح غير نافعة. ما العمل إذن؟

تكلم سليمان عن إمكانية عبور الحدود سرّا. قال بأنه سمع عن قوافل المهربين في الصحراء، فلماذا لا يستعلمان عنها، ربما وجدا ضالتهما. قافلة في الصحراء؟ أكيد أنها قافلة من الجمال! التمعت عينا المهدي، تصوّر نفسه وسطها شاقا عباب كثبان الرمال، تماما مثلما كان يحدث في عهد إبراهيم عبد الله. بلا أدنى تردّد، ركب الصديقان حافلة متجهة نحو الجنوب، نحو مدينة الألف قبّة، الواحة الواسعة المفتوحة على الصحراء وأسرارها الخالدة. حينما طفقت أولى مزارع النخيل تظهر عبر زجاج نوافذ الحافلة، استرجع المهدي أمله، وفكّر بأن الصديق الجديد ليس إلا الخِضر الذي بعثه الله لينير طريقه. كانت المدينة ساحرة، بأزقتها المحمية من الشمس بأقواس مظللة، وتلك القبب المتراصفة المتعددة الأشكال، وحوانيت الأقمشة الحريرية التي تذكّر بالحواضر المشرقية القديمة. والشيء الغريب بالنسبة للمهدي أنها خالية من الجمال. سيارات كثيرة مثل مدن الشمال، ودرّاجات بمحرك أو دونه، وعربات تجرها البغال أو الأحصنة. قال لهما تاجر جالس على عتبة دكانه يرتشف شايا، أن الجمال هجرت المدينة منذ زمن، لأن لا أحد أصبح يستخدمها، وإذا أرادا رؤيتها، عليهم بالالتحاق بالقرى الصغرى أو القبائل الرحالة.

– هل هذه سراويل مستوردة؟ سأل سليمان البائع الواقف خلف بضائع معروضة من الألبسة المتنوعة، مرصوفة فوق زربية فرشت على الأرضية المرملة.

– نعم، أجاب البائع. إنها نوعية جيدة وأسعارها غير مرتفعة.

كان البائع في الثلاثين من العمر، سَحنته كدراء وجلد وجهه مسفوع بالشمس. تفرّس الغريبَين بنظرات مختلسة ملأى بالفضول والريب. تناول سليمان سروالا ولامس قماش الجينز بأصابع العارف وقاس طوله، ثم طلب المشورة من المهدي، كأنه ينوي حقا شراءه.

– سروال جميل حقا، آخر صيحة...

– آخر واحد من هذا النوع. بعتهم مثل تمر دقلة نور. هيا، خذه وأساعدك في الثمن...

رغم المرح الذي تظاهر به، كان سليمان يخفي ارتباكا ضاعف من تردّده في مصارحة البائع. ثبّت بصره في الأرض لحظة ثم واجه البائع بابتسامة عريضة، ثم قال:

– بما أنك تبيع الملابس المستوردة، أكيد أنك متعوّد على قطع الحدود. قيل لنا بأن العبور سهل في هذه المنطقة... مثلما تعرف... نحن شبان بلا عمل... ونريد الذهاب إلى ليبيا. أكيد أنك تعرف أحد مهربي الأشخاص... التهريب... القوافل...

بدا البائع مندهشا من طلب سليمان، وحدّقه بعينَين جاحظتين واضعا سبّابته على صدغه، قبل أن يجيب:

_ اسمع يا أخي، إنّ الذي قال لكم هذا الكلام مخادع أو جاهل. الحدود محروسة جيدا، وأراضيها قفار لا حياة فيها، يكاد يستحيل عبورها بدون المرور على مراكز العسكر. أما بالنسبة لهذه الملابس، فإنني اشتريتها بنفسي من أسواق دمشق؛ سوريا لا تطلب منا تأشيرة الدخول، يكفي جواز السفر وكمية كافية من العملة الصعبة. نصيحتي لكم: عودوا إلى دياركم ولا تنساقوا خلف الأوهام القاتلة. إن السفر إلى الخارج لا يتطلب أكثر من إعداد جواز سفر وقليل من المال...

– والخدمة العسكرية؟

– آه نسيت! الخدمة العسكرية، نعم. تمرّ السنتان بسرعة، تجربة إضافية في الحياة. صدقوني، تعلمت كثيرا خلال السنتَين، وأقمت صداقات متينة نفعتني فيما بعد. أما حكاية العبور السري، فأنصحكم بالابتعاد عن التفكير فيه. إنه خطر على حياتكم...

ألحّ سليمان في إقناع البائع بأن الأخبار التي بحوزته عن العبور السري صحيحة وقد استمدها من أشخاص جرّبوا المغامرة ونجحوا، ولكن البائع وضع حدا للنقاش قائلا:

– إذا أردت الشراء فأهلا وسهلا بك، أمّا الأشياء الأخرى فلا علاقة لي بها. كنت صادقا معكم وأوضحت لكم الحقيقة، أما إذا لم تصدقوا،

فاذهبوا وجرِّبوا. الصحراء أمامكم، على بعد بضعة كيلومترات فقط. الآن، اتركوني أتاجر في آمان الله. السلام عليكم.

كانت المدينة واسعة، شوارعها الخلفية ضيقة ومرملة. تجوّل الصديقان طويلا بلا هدف محدّد. أطالا الطواف في السوق وأجالا النظر في السلع المعروضة. قدّم لهما بعض التجار شايا، واشترى سليمان كيلوغراما من التمر، وأثناء المضغ، واصل الحديث عن كل صغيرة وكبيرة، ينتقل من موضوع لآخر، من سيناريو لآخر، حيث يرى نفسه وصديقه يعبران الحدود ويلتحقان بأراضي أحلامهما. فيما كان المهدي يمشي إلى جانبه طورا ويتأخر ليقتفي أثره أطوارا أخرى، صامتا، تائها، لا يميّز الخيط الأبيض من الأسود. الوقت يمرّ، والأحلام تتفتت غبارا لتختلط برمال الصحراء.

– لقد تغيرت الأزمنة يا أخي. اليوم، لم يعد أحد يسافر من بلد إلى بلد راجلا أو على ظهر الجمال. لم تعد الأمّة الإسلامية على عهدها السابق أمّة واحدة، بلا حدود، تلك البلاد التي قطعها ابن بطوطة من المغرب إلى الصين، بلا جواز سفر ولا تأشيرة دخول، متاعه الوحيد قلمه وقندورة على ظهره النحيف.

استمع المهدي إلى الإمام الجالس قرب المحراب، أصابعه منشغلة بتحريك كويرات سبحة سوداء، وباليد الأخرى كان يلامس من حين لآخر لحيته الكثّة المقصوصة بعناية، فيما انتظر سليمان خارج المسجد. لم يكن يصلي، ولذلك تحرّج من الدخول. لم تدم المقابلة طويلا. التحق المهدي بصديقه وعلى وجهه علامات الخيبة تكاد تمتص ما تبقى من الاحمرار. لقد نصبت حجج الإمام متراسا متينا يصد كل محاولة لاختراقه، وعند أرضيته ذابت مشاريع المهدي مثل قطعة جليد تحت حرارة شمس قائظة. أدرك لأوّل مرّة بأن الحج راجلا أضحى أمرا مستحيلا.

– ماذا سنفعل الآن ؟

– لا أعرف...

ولأوّل مرّة منذ لقائهما، توقف سليمان عن الكلام. انزوى في صمت حزين، يجتر هزيمته غير المنتظرة. كيف يعود إلى عائلته فارغ اليدين؟ وماذا سيفعل؟ وهَن ثقيل لفّ الرَّجلين، وجعل رجليهما تجرجران كأن بها كرات حديدية. وعند رؤيتهما يمشيان جنبا إلى جنب، ببطء السلحفاة، يسحبان جسديهما بصعوبة دون أن يتبادلا ولو كلمة واحدة، أبصارهما زائغة، يحسبهما سجينَين مهمومَين وضائعَين في الطبيعة.

وفي الحافلة التي أرجعتهما إلى عين الكرمة، كان كل واحد يجتر فشله ويحاول تحديد مكان الشقق التي سمحت أولا بتسرّب الأحلام إلى ذهنهما بتلك السهولة، وثانيا السماح لها بالتبخّر دون أن ترَ النور، تماما مثل الأحلام الجميلة عند اليقظة، لتترك مذاقا مرا وغصّة بالحلق. تشققت ثقتهما بعنف شديد وزعزعت القناعات الأكثر تجذيرا. كلّما صغُرت المسافة التي تفصلهما عن عين الكرمة، كلما تبخرّت الأحلام أكثر فأكثر مثل ضباب صباح ربيعي عند تقدم النهار وارتفاع الشمس، لتترك المكان لواقع مليء بالصخب والعنف الذي سيخوضان ضده، طوعا أو كرها، معركة دونكيشوتية غير مسبوقة.

- 4 -

العرس على وشك الانتهاء. بدأت البطحاء الترابية الضعيفة الإنارة تفرغ من زوارها، وتقلصت الدائرة المعوجة التي شكّلها المتفرّجون حول حلبة الفرجة. كانت عيون الرجال الذابلة من فرط التعب والسكر تتابع حركات الراقصات، بينما امتدّ ظل الشاحنة المموّنة للخمر والبيرة إلى غاية أشجار الأوكالبتوس العملاقة. إنها ليلة مقمرة والبدر في تمامه، السماء صافية تزينها مصابيح النجوم المتلألئة. بدا نافخ الناي وضارب الطبل متعبين. توقف صوت الشيخة المغنية وعوضها البرّاح ليعلن عن تاريخ ومكان الأعراس المقبلة، مادحا بعض الأثرياء الحاضرين لعلهم يتكرموا بدفع أوراق نقدية إضافية. راقصة تتصبب عرقا، انسحبت جانبا تتابع بصمت حركات صديقتها، فتقدّم نحوها شاب مُشَلْغَم، يظهر السكر على

ملامح وجهه وتحركاته الرعناء، حملق في صدرها الناهد نصف العاري، وعيناه تلمعان شبقا.

– مساء الخير عزيزتي... اليوم يوم عظيم بالنسبة لي؛ فقد وقعت بيدي كل الأوراق الرابحة، وزادت سعادتي أن جيوب خصومي كانت معبأة بأوراق الخمسين.

ثمّ سكت برهة من الزمن، مترددا، قبل أن يضيف:

– هل تأتي معي بعد الحفل يا...؟ ما اسمك يا جميلة؟ لا أناقش السعر. اطلبي ما شئت. لا يعرف قيمة الحسناء إلا أمثالي. عندي ما يكفي وزيادة.

ألقت الراقصة نظرة فاحصة نحو الشاب لثوان زهيدة، ثمّ أدارت وجهها راسمة برطيمة ازدراء على شفتيها. إنها متعوّدة على مثل هؤلاء الدّيكة الذين يصيحون عند أوّل ريشة تظهر في قُنْزعتهم. لم تتفوه بكلمة، فعاد الديك إلى كرّه:

– لم تصدِّقي قولي، أليس كذلك؟ قلت لك بأنني رجل ثري هذه الليلة. عندي ما يكفي وزيادة.

أدخل الشاب يده في جيب سرواله وأخرج رزمة أوراق وأظهرها مقربا ذراعه نحو وجه الراقصة.

التفتت إليه وواجهته بعنجهية، هزّت صدرها السخي مبرزة أنوثتها بطريقة مغرية أمام هذا الريفي الأجلف الذي يريد دخول إمارتها بلا دعابة ولا عذب كلام، ثمّ أطالت النظر إلى رزمة الأوراق لتتأكّد بنفسها إن كانت الدعوة تستحق اهتماما يُذكَر؛ إنها امرأة صاحبة تجربة وتعرف مدى تفاهة الوعود التي تعطى في حالة السكر. تمايلت، أطلقت قهقهة غنج، وقالت:

– نقودك خردة، خَتشْ بَخْتة... ألا تعرفني؟ أنا خَيْرة الوهرانية. إنني أغلى من سلطانة مراكش.

اقترب الشاب من الراقصة إلى حدّ ملامستها، شادا في يده رزمة الأوراق النقدية، شاهرا إياها في وجهها.

– أنت سلطانة مراكش وأنا أسد الونشريس. قلت لك بأن جيبي يفيض مالا، به ستشترين أساور وأقراطا ذهبية.

لمعت عينا الراقصة وفاضت ابتسامة عريضة على شفتيها، وهي تهزّ خصرها تغنجا. فكرت بخبث: « ريفي بليد سيمنح ثروته كاملة من أجل لذّة عابرة... سأنتفه إلى آخر ريشة... »

فجأة، مرق بقربها شخص طويل القامة، بسترة عسكرية، يتمايل في حالة سكر متقدمة، فأمسكها من الذراع ونبح بصوت خشن، متقطع النبرات:

– خَيْرة ستكون لي هذه الليلة... عزرائيل نفسه لا يخطفها مني.

ثمّ التفت إلى الشاب الريفي، وصرخ بصوت حاد أراده أمرا نافذا:

– اسمع أنت يا... المقمّل... طِر من هنا... يا الله... ابحث لك عن أتانة في الوادي القريب...

وبعد ذلك، تسارع بدفع الراقصة بغرض أخذها معه. أمسك الشاب صاحبَ السترة العسكرية من الكتف وأبعده عن المرأة، فالتفت الرجل ببطء وتفحصه بنظرة شزراء وهو يتصنع نفض الغبار عن كتفه.

– انزع يدك يا الجبايلي القذر... نشمّ فيك رائحة الروث على بعد كيلومتر. من رخّص لك بلمسي؟ قلت بأن خيرة ستكون لي هذه الليلة...

– لقد وصلت متأخرا يا حبيبي (قالت الراقصة بدلع) لقد حجز هذا السيد مكانه قبلك، ودفع الثمن سلفا.

– لا حجز ولا هم يحزنون (قال الشخص الضخم الجثة متمايلا، باحثا في جيوبه) ردّي له تبنه. أنا العريف علي التبسي، كل ثكنات فرنسا تعرفني. أنا أيضا معي نقود؛ تسلمت راتبي اليوم، وسأضاعف الثمن، سأمنح كل راتبي إن أردت. ردّي له ماله واتبعيني...

فكّر الشاب في صمت: « وأنت لا تعرفني يا لحّاس قدور فرنسا. أنا اعمر حلموش، لعّاب الكرطة وضرّاب الموس، تعرفني كل أسواق الونشريس. سنرى إن ولدتك أمك واقفا ».

مسك العسكري بالراقصة من الذراع وهمّ بجرّها. تخلصت من قبضة يده بحركة فظة، لافظة شتيمة بصوت حاد. تشجّع اعمر حلموش برفض الراقصة، فطلب من العريف أن ينسحب ويصطاد غيرها. تمادى العسكري في تعنته، فازداد فظاظة وأراد جرّ الراقصة بالقوة، وهو لا يتوقف عن إطلاق التهديدات والشتائم البذيئة. شعر اعمر حلموش بانتهاك عرضه، هو الذكر الذي ينبغي له الدفاع عن أنثاه التي ساندته ووقفت إلى جانبه، فتقدم بخفة ولكَم خصمه بضربة قوية أردته طريح التراب. لم يكن يبالي إن كان الرجل عسكريا حقيقيا أم مزيفا. لا تخيفه الملاكمات والمشاجرات. وديوك الخمّ، الثرثارون المتبجحون، مثل هذا الذي يزعم أنه عريف في الجيش الفرنسي، لقد احتك بهم كثيرا في مقاهي القمار والزَطْلة التي تعوّد على الاختلاف إليها، وتعلّم كيف يُركعهم ويقطع لسانهم. الرجل الشهم لا يثرثر ويحترم أصول الشرف في مثل هذه المواقف. أول قادم، أول من يستلم البضاعة. كان اعمر متعدد الوظائف؛ لا يعرف أحد ما هي وظيفته القارة، يرتزق بالاشتغال هنا وهناك، في أعمال زراعية شتى في مزارع المعمرين، ولكن شغله الحقيقي الذي يدر له مالا ومتعة هو القمار والبيع والشراء في الأسواق. ومثل هذه الأعمال تعلّم صاحبها كيفية الدفاع عن النفس؛ لذلك، تدرّب اعمر على استخدام العصا والخنجر اللذين يلازمانه كظله. بالعصا، يستطيع مجابهة أكثر من خصم في آن واحد، وقد كان سكان قريته شاهدين على معركة رفعوه بعدها إلى مرتبة بطلهم المبجل: واجه لوحده ثلاثة رجال، صرع أحدهم من الضربة الأولى، وتمكن من نزع العصا من الثاني، أمّا الثالث فلم يجد أمامه من حل إلا إعطاء الريح لقدميه.

وفي هذه الأمسية، انتقل اعمر حلموش من بعيد خصيصا للتمتع بغناء الرميتي، شيخة قادمة من سيدي بلعباس ومشاهدة الراقصات، وسماع حكايات قادة البرّاح الذي يعرفه جيدا. جاء ليشرب بعض زجاجات البيرة، يستمع إلى الصوت الشجي، فيعود في آخر الليل إلى داره، وإن أمكن، سيشيخ مع إحدى الراقصات. سبق لصديق له أن عاش التجربة، وحكى له عن تفاصيلها؛ لِمَ لا يجرب حظه بدوره؟ متعة لا يفوّت فرصة حدوثها مهما كان السبب. يقال بأن المال يشقّ الطريق

في البحر. وهو يملك منه الكثير هذه الليلة. فلم يتردّد عن التراهن مع صديقه حول معايشة التجربة، مهما كلّفه من مال.

أثناء المجيء، تخلّص من عصاه بإخفائها في عمق أجمة بقرب الطريق. قدّر بأنه سوف لن يكون بحاجة إليها. ها هو الآن يعضّ شفتيه ندما لعدم إحضارها، وهو يرى العسكري يشهر مسدسه ويصوبه اتجاهه، ويتقدّم متمايلا مطلقا قهقهات الواثق من انتصاره، قبل حتى أن تبدأ المعركة. ولكن اعمر حلموش ليس بالرجل الذي يستسلم بسهولة أمام الخصوم، فقد تعارك مرارا من أجل ترّهات. بخفة يد مذهلة، أخرج السكين واستعد للمواجهة، وانتهت المعركة بسرعة البرق : سمع الرجال الحاضرون طلقة رصاص أوّلا، متبوعة بحشرجة مختنقة، ثمّ صراخ الراقصة الحاد ؛ كان العسكري ممددا على الأرض، يتأوّه ويمسك بطنه بيديه، ودم غزير يسيل بين أصابعه. في رد فعل عفوي، رمى اعمر حلموش السكين بعيدا واختفى في الظلمة. في البداية، تدافع المتفرجون حول الجريح، ثمّ، وعيا منهم بخطورة الموقف، انسلّ أغلبهم عبر الدروب المجاورة عائدين إلى مساكنهم تفاديا للتورط في جريمة نكراء. يعرف بعضهم العسكري الجريح وتوجسوا خيفة من ردّ فعل رجال الدرك. قرّر صاحب عرس « القلال » أخذ الجريح إلى مستشفى المدينة. المسافة طويلة والطريق غير معبد، وبه حفر كثيرة. ولكن الجريح لم يتحمل السفر، فأفرغ من دمه ولفظ آخر أنفاسه في باب المدينة.

في تلك الليلة، تاه اعمر حلموش على غير هدى، مشتّت الذهن، يلعن صديقه الذي أغراه بتلك الفكرة، واللحظة التي تلفظ بالرهان، وإن لم يكن في حقيقة الأمر ملزما به إلزاما كليا. كان يمكن أن يخفف من رغبته الجنسية بزيارة الماخور بيوم أو يومين قبل موعد الحفل، مثلما تعوّد أن يفعل. في الصباح، عاد إلى القرية، أدرك منذ وطئت قدماه أول زنقة، وعبر نظرات الذين صادفهم في طريقه، أن الجميع على علم بالجريمة. انتشر الخبر بسرعة، فقد أتى به العائدون من العرس. استقبله أبوه بسحنة حزينة. ولم يسأل عن السبب. يعرف ابنه « صوفة طائرة » ويرمي بنفسه في النار دون تفكير. قال له :

– حسب ما وصلني من معلومات، فإن الشخص الذي قتلته عسكري، إنه عربي صحيح، ولكنه جندي في الجيش الفرنسي. شاهدك الناس وأنت تمسك السكين وتتعارك معه، حكى لي ابن عمّك كل شيء. في هذه الساعة بالذات، يكون رجال الدرك برفقة القايد والشامبيط قد انطلقوا يبحثون عنك، ولا أستبعد أن يحضروا هنا قبل منتصف النهار، وإن قبضوا عليك، لا ينقذك أحد من المشنقة. ما عليك إلا الهرب من هنا في أسرع وقت. أخفِ رأسك شهورا، غيّر اسمك ومدينتك، غيّر وجهك إن أمكن؛ حتما سينتهي بهم الأمر إلى نسيانك، وفرنسا لن تخلد في هذه البقاع؛ هناك كلام كثير يدور في السنوات الأخيرة... أسرع... الوقت ليس في صالحك... احذر من الذين تعرفهم. أطلب من الله أن يغفر لك ويحميك.

هكذا تحوّل اعمر حلموش من باحث عن لذة عابرة إلى مجرم يطارده رجال الدرك. حدثت الواقعة في بداية الخمسينيات، وكانت بداية لحياة جديدة شاقة، ولكنها نفعته كثيرا. اختفى شهورا في أحراش جبال الونشريس، وكان الفصل صيفا فمكّنه المناخ الحار من قضاء لياليه في العراء، ولكن مع قدوم الشتاء، ومعه البرد والثلوج، استقرّ قرب زاوية منسيةقرب هضبة سيدي امحمد المغيث، قيِّمَتُها عجوز في السبعين، تقتات من صدقات الزوار القلائل. بنى كوخا على مسافة غير بعيدة من المزار. ومع النقود التي بحوزته، تسلّح بالمئونة اللازمة. وخلال الشهور الباردة، عاش في وئام مع العجوز، يناديها أمّي، وهو يتيم الأم، ماتت والدته أثناء الولادة، وقد حكى له أبوه مرارا ظروف وفاة الأمّ بعد الولادة بأيام معدودة، والمعاناة التي لاقاها في إيجاد مرضعة له. كانت سنوات جفاف وفقر مدقع، زيادة إلى كون العائلة تسكن بمفردها في مكان قفر، غير آهل بالسكان. من سيرضع الطفل بعد وفاة أمه؟ انتقلت الجدّة الواهنة متبوعة بالأب يحمل بين ذراعيه الرضيع يبحثان عن مرضعة، فقصدا بيوتا عدّة ولم تكن بها امرأة حديثة العهد بالولادة. بعد يومين من البحث الدؤوب، أصيبا باليأس. اهتدت الجدة إلى فكرة ربما أنقذت الطفل: لفّته بخرق وحطته عند باب زاوية قريبة لعلّ محسنا يصادفه ويأخذه للتكفل به؛ ولسوء حظ العائلة، أو لحسنه، لم يزر أحد تلك

الزاوية. عاد الأب عند الغروب، ليستقبله صراخ الرضيع قبل أن يبدأ في الصعود عبر الدرب المنحدر المؤدي إلى المزار. ركض بخفة، أخذ الطفل، وعاد به إلى الدار، يلعن الدهر والموت الذي خطف الأمّ وتركه في الورطة التي لا حلّ لها. كيف يرضع ابنه؟ قرّر الذهاب به إلى المدينة، حتما سيجد هناك عائلة ترضعه. أثناء الطريق، متبوعا بالعجوز التي لا تكاد تخطو بضع كيلومترات حتى تجلس أرضا، لاهثة، تتوسل الربّ لينقذ الرضيع، وأثناء إحدى تلك الوقفات، انتبه الأب إلى جَدْي يمص ثدي معزاة، تأمل المنظر لثوان، ثمّ دون أن يتفوّه بكلمة، التقط الرضيع وركض به نحو المعزاة ووقف إزاء الثنائي متأملا والسعادة تتلألأ في عينيه. انحنى بالرضيع وقرّبه من الضرع، وبعد محاولات قليلة طفق الطفل يرضع إزاء الجدي. طار الأب من الفرح؛ ها هو الحل، بسيط وفي متناول اليد. بحث عن صاحب المعزاة وحكى له عن شقائه مع الابن اليتيم، وبعد أخذ وردّ في الكلام، تمّ الاتفاق بين الرجلين أن يأخذ الأب المعزاة وابنها، يرعاها لمدة سنة أو يزيد، ثمّ يرجعها لمالكها بعدما يكبر الطفل ويكون في غنى عن الحليب. ومنذ ذلك اليوم، أصبح اعمر يرضع من حليب المعزاة، برفقة الجدي. وهي الحكاية التي يتلذّذ اعمر حلموش بروايتها دون ملل، ليؤكد قوته البدنية وخفّته: « إن الذي لم يرضع ضرع معزاة برفقة جدي، لا يمكن أن يتبارى معي »، يقولها مقهقها مزهوا بنفسه.

خلال تلك السنوات التي قضاها هاربا من قبضة رجال الدرك، توقف اعمر حلموش عن القمار وتعلّم صيد الأرانب والحجل وطير الزَّرْزور، واستصلح قطعة أرض وزرعها شعيرا وعدسا، ومن حين لآخر يهبط إلى المدينة، خاصة يوم إقامة السوق الأسبوعية، فيتسلّل وسط حشود القرويين النازحين، متخفيا في قشابية قديمة. يأكل أطباقه المفضلة في عمق المطاعم الشعبية ووجهه ملتصق بالصحن ولكنّ عينيه تراقبان المنافذ المتاحة، في استعداد تام لإعطاء الريح لقدميه عند أوّل صوت مريب. يشتري مواد غذائية له ولعجوز المزار، ثمّ يعود إلى حصنه في أعلى الجبل، متخذا إجراءات حذر صارمة لتجنب الدرك والعسكر والناس الذين يعرفهم، خوفا من الوشاية. كانت حقا سنوات شاقة.

ولحسن حظه أن حرب التحرير جرفته بسرعة زوبعة عاصفة، فقد انضم إلى المجموعات الأولى التي التحقت بالجبال، ولكن اعمر حلموش يفضل رواية حادثة بطولية كانت السبب المباشر في التحاقه بصفوف المجاهدين، تناسب الذهنية المنتصرة:

– كنت بحاجة إلى بندقية لأحارب جيش فرنسا. هل تظنون أنني سأحاربها بالعصا التي نهش بها النعاج أو بسكين الجزارين؟ لذلك، اتفقت مع صديقين لتحضير عملية استيلاء على السلاح. كانا يشتغلان في مزرعة معمر في ضواحي الخميس، هناك لا يعرفني أحد. كان المعمر مسلحا باستمرار. ذهبت معهم وقدّموني إليه على أساس أنني قريب يبحث عن عمل، وقد كان بحاجة إلى اليد العاملة فشغّلني في الصبيحة ذاتها. لم نتمكن من فعل شيء في اليومين الأوّلين، ولكن في اليوم الثالث، في حين كان يطعم كلبه، باغتته بضربة فأس على الرأس. قمت بالعملية وحدي، ولم يقدّم لي الصديقان – يرحمهما الله – إلا مساعدة بسيطة. لاحظت في اليوم الأول أنه يقضي وقتا طويلا في إطعام كلبه ومداعبته، ولذلك انتظرت تلك اللحظة بفارغ الصبر، فتسللت خلفه كالقط، وغرست له الفأس في الرأس، فسقط مثل كيس البطاطا ولم يطلق صرخة واحدة. لكنني نسيت الكلب اللعين، بلدُغ أسود بحجم ثور، شبع اللحم والراحة... بسرعة جنونية، خطفت البندقة الملقاة أرضا، وأفرغت فيه الجعبتين. لا تنظروا إليّ بعيون مريبة؛ صحيح أنني شخت وسمنت، في تلك السنوات كنت أضعف من مسمار وأخفّ من ثعلب. أطلق الكلب نباحا حادا وسقط ميتا. دون انتظار، جرينا قاصدين الجبل، ولكن طلقات الرصاص خانتنا؛ وصل رجال الدرك بعد وقت قصير واقتفوا أثرنا وحاصرونا قبل غروب الشمس. صديقاي، لم يسعفهما الحظ وقُتلا قرب وادي بويغسان، الواحد بعد الآخر. وصل أجَلهما، ماتا شهيدين وهما اليوم في جنة الخلد. أما أنا فاختفيت في أحراش الوادي، وعوض أن أصعد نحو الجبل مثلما كان رجال الدرك يتصورون، عدت نحو المزرعة. ينبغي أن يكون الهارب مجنونا مثل أخيكم سي اعمر كي يفكر في العودة إلى مكان وقوع الجريمة قبل حتى أن تبرد جثة القتيل. لو واصلت الهروب نحو الأعلى لاصطادوني مثل أرنب. قال لي رأسي: « يا اعمر عدْ إلى المزرعة واختفي بها إلى غاية

حلول الظلمة، هناك لن يبحث عنك أحد. ستنتظر أن يخيّم الليل، ثمّ اذهب حيث أردت ». وهكذا كان الحال. واصل الدرك بحثهم صاعدين نحو الأعلى. كان الفصل شتاء، والمطر الذي توقف في نهاية الصبيحة عاد منهمرا بقوة أكثر. ينبغي الاعتراف بأن الله أعماهم، فلا يمكنهم رؤيتي. تسللت إلى غاية إسطبل المزرعة واختفيت تحت التبن. في منتصف الليل، غادرت مخبئي تحت وابل من المطر، وسط ظلمة حالكة، لا ترى شيئا على بعد مترين. لحسن حظي أنني أعرف كل تضاريس المنطقة. أعترف الآن بأن القمار وأعراس الريميتي أفادوني الكثير. هكذا، تمكنت من الوصول إلى الجبل آمنا، والتحقت بالمجاهدين والبندقية على الكتف.

عند حكايته لتلك الحادثة من حياته، يكرر اعمر حلموش بأنه اقتنع يومها بأنه سيعمّر طويلا. فبما أنه نجا من ذلك الحصار، ولم يمت مثل صديقيه الشهيدين، فإن الله قد حباه واصطفاه ليكون مجاهدا كبيرا، وسيقدّر له العيش إلى غاية زمن الاستقلال. لقد مرّ دركي بقرب مخبئه، على بعد متر أو أقل. سمع اعمر رفس قدميه على بقايا الأغصان الجافة التي تغص بها ضفتا الوادي، في حين كان منكمشا بداخل دغل من التوت الشوكي والقصب، مرتعشا، كاتما تنفسه، منتظرا الثانية الحتمية التي سيرتفع فيها صوت الدركي صارخا، طالبا نجدة زملائه. أبدا، لم يعرف في حياته خوفا أرعبه وشلّ جسمه مثل تلك الدقائق الراجفة. برغم أن سنوات الحرب لم تكن سياحة جبلية لفرقة كشافة، تتدرّب على الشقاء وتجرّب التعب والخوف.

انتهت الحرب، وحلت محلها حكايات الحرب، حكاية الأحداث الخارقة وأبطالها الصناديد. لكل بطولاته، وبطولات سي اعمر لا تنضب. في نهاية الظهيرة، وقبل الغروب بقليل، بقرب منزله، يلتف حوله بعض الفضوليين من سكان الحي، شبابا وكهولا، يستمعون إلى قصصه مشدوهين، العيون منفتحة على اتساعها والآذان مشنفة إلى أقصى قدرتها. بصوته الجهوري وقهقهاته الصاخبة، يمتع مستمعيه. كل شيء يمسخ على لسانه، ينافس أروع القصاصين والمداحين.

نعم، يوجد زمن للحرب وزمن لحكايات الحرب. وبما أن الحكايات تتقاطع مع التاريخ، تتشابك وتتناضد، وأن القُصَّاص نهمون بالتعديل

والتغيير، يقطفون من الحوادث الواقعية ما يحلو لهم ثمّ يضيفون ما جادت به قرائحهم، فتصبح الحكايات هي التاريخ، هي الأصل والمرجع، هي الحقيقة الوحيدة الممكنة، تلك التي تلبي كبت المستمعين ورغبات الفاعلين المضمرة.

هكذا، صنع اعمر حلموش تاريخه الخاص، رويدا رويدا، حكاية فوق حكاية، يعجنها حسب هواه، مازجا بين الذاكرة والخيال، إلى أن أضحى هو نفسه لا يفرق بين ما وقع فعلا وما أضافه أو حوّره. يصرّ أن ما يحكيه هو عين الصدق، والويل لمن يطرح الأسئلة الشكاكة أو يبدي امتعاضا من ضخامة بعض الأحداث؛ سينزل عليه غضب سي اعمر كالصاعقة، وسيحرم من الجلوس في البطحاء مع الجماعة، وربّما تمّ نفيه من الحيّ.

- 5 -

– وهذه الباخرة، متى ستأتي ؟

– آه، نعم ! إنه على حقّ... سئمنا من الانتظار...

– الصبر يا إخوان. اللّي يحَب الزين يصبر لَعْذابو.

– آه على الزّين ! زين الروميات المباح !

– لا تغيّروا الموضوع. كلِّمونا عن الباخرة التي ستبحر بنا نحو فرنسا أو كندا. حينما تصل الباخرة، تستقدم معها كل الأشياء الجميلة، أليس كذلك ؟

– منذ شهور وأنت تحشو رؤوسنا بهذه الحكاية، ولكننا لم نرَ لا سفينة ولا حتى مركب صيد السردين.

كان رشيد حلموش واقفا، مسندا كتفه إلى الإطار الخشبي لباب الحانوت، يتابع المناقشة وعلامات الاستهزاء بادية على وجهه. تحت جلابيته الرمادية، يخفي جسدا نفخته السمنة، وعلى محياه شيء من النعمة يتناقض مع اليبس واليأس والضمور المكشر عن أنيابه واللاصق بمتانة على الوجوه المحيطة به. من حين لآخر، يداعب لحيته الكثّة المدهونة بالحنّاء.

من عمق البطحاء المحاذية للوادي، ظهر حشد من الأطفال، بأعمار متفاوتة، يركضون في ضجيج من الصيحات والنداءات، يجرّ بعضهم عربات ونقّالات مصنوعة من تجميع متشابك للألواح الخشبية والصفائح الحديدية، مشدودة بأسلاك وحبال ومسامير، معبّأة بالدلاء وجيريكانات بلاستيكية، استُعمِلت في الأصل للزيت وماء جافيل. عبروا البطحاء بسرعة وانحدروا عبر المسالك الترابية المؤدية إلى المدينة، وخلف أقدامهم الرافسة، تصاعدت زوبعة من الغبار، لفّتهم جزئيا.

على أمتار قليلة فقط من باب حانوت المواد الغذائية، وقف شاب هزيل أمام صينية حديدية مستطيلة الشكل، موضوعة فوق صندوق بلاستيكي مقلوب، تحتوي على علب السجائر والكاوْكاوْ والكبريت. قال عبد القادر كرّوش:

– ابْعَث لي واحد « نسيم » يرحم والديك !

– لم أعد أبيع بالدَّيْن...

– ومن قال لك بأنني أشتري دَيْنا ؟

أخرج الشاب كناشا من جيب سترته، قلّب بعض الصفحات وقال دون أن يرفع رأسه:

– لي عندك ثلاثمائة دينار. كل يوم تقول لي غدا سأدفع لك حقك. ولكنك لم تفعل.

– سأدفع، لا تقلق. سأدفع...

– قال لي والدي: « اللِّي ايبِيعْ بالدّين عَمْرو ما يربح ».

– اعطِ لي سيجارة واحدة أقاوم بها الصداع اللعين الذي يكاد يفجر صدغيّ، وسجلها عندك. ستأتي الباخرة، وسنسافر سويّا إلى فرنسا، نشتغل وأدفع لك دراهيمك بالفرنك أو ربّما بالدولار.

تردّد الشاب لحظة منشغلا بترتيب العلَب، ثم تناول سيجارة وأعطاها له قائلا:

– هذه من عندي... الدوفيز... الدولار... أنا لا أشتري الحوت في البحر. أشتري بالدينار وأبيع بالدينار.

هناك في المنحدر الحجري، كان قدور بن موسى يمشي بخطى متثاقلة، فوق رأسه كَسْكيتْ سوداء لا تكاد تغطي شعره الكثيف المسترسل خلف قذاله، خطان بارزان يحفران وجهه النحيل الأهلب. حينما اقترب من الحانوت، توقف كعادته وحملق في الجمع المتحاشر المتناثر هنا وهناك، ثم هزّ رأسه وقطّب جبينه وحرّك شفتيه ولكنه لم ينبِس بِبنت شفة. بقي واقفا، يسرح بنظرات تائهة.

– لا سلام لا كلام... كأنك تحمل كل ذنوب البشر على كتفيك؟ قال رشيد بصوته الجهوري.

قابله قدور بنظرة باردة، غضّن وجهه ولكنه لم يجب. اقترب قليلا، وبحث لنفسه عن مكان وسط الشبان وجلس مادا رجليه على التراب.

– اعتصم بحبل الله، رحمته تَسَع السموات السبع.

– راك قلتها، رحمته تَسَع السموات السبع، ونحن نعيش في الأرض وسط الوحوش، ورحمة ربِّك لم تعد تصل إلى أحد من البشر (أجاب قدور بن موسى بامتعاض) أين هي رحمة ربِّك والمسلمون غارقون في أوحال الجهل والفقر والمرض؟

– هذا من خُزَعْبلات كتبك الكافرة، هي التي أعمت بصرك ولم تعد ترى رحمة الله التي تَسَع السموات والأرض. قال رشيد حلموش قبل أن يختفي خلف الكونطوار باحثا عن كيلوغرام من العدس، طلبته طفلة هزيلة الجسم بصوت لم يكد يسمعه الحاضرون، وفي انتظار خروجه، مكثت مسمرة عند العتبة، تشدّ في راحة يدها قطعا نقدية.

– لو كنت في مكانه لانتحرت منذ الأزل (قال عبد القادر كرّوش بصوت أجش) البكالوريا زائد سنوات طويلة بالجامعة، وتنتهي به الدنيا اللعينة إلى ذرع الأرصفة المهترئة، بلا عمل ولا مستقبل! مثلنا تماما، نحن الذين لم نتجاوَز عتبة السَرْتفيكا. لمن نشكي بؤسنا؟ إلى الله؟ هل يسمعنا؟ أنا أشك في ذلك! الدنيا بنت الكلب، تعطي بالوجوه. والله أيضا يرزق من يشاء، ومتى يشاء. هذه البلاد ملعونة إلى يوم الدين... الجفاف، الزلازل، الفياضانات. لم يبقَ لنا فيها أمل يُرجى... الهرْبة تسلَّك...

– الفتيان النابهون الذين يعرفون جيدا مصالحهم يذهبون إلى الجامعة لدراسة الطب والقانون والهندسة (قال رشيد وهو يطل من خلف رفّ) أما قدّور الساذج فلم تُغْرِه إلا الفلسفة. من تفلسف تزندق، قالها السلف الصالح؛ الله والروح وأصل الكون ومصير بني آدم من المسائل التي لا يجوز للمؤمن الخوض فيها. الحلّاج فقد عقله وراح يهذي في شوارع بغداد، عندما غامر ونبش في الذات الإلهية وصفاتها وعلاقتها بالإنسان. نصحته بالتجنّد في الجيش أو الدرك، بشهادته الجامعية تعلّق له نجمتان يوم دخوله إلى الثكنة. كلّكم يعرف بأن أخي بوعلام لم يتحصل حتى على شهادة البكالوريا، وها هو اليوم ينتظر نجمته الثالثة.

– قال بأنه يكره البذلة العسكرية وحياة الثكنة. يريد أن يهاجر إلى أوروبا.

– إذن سيذهب معنا حينما تأتي الباخرة. قال شاب غليظ الأنف بحاجبين بارزين ومشعّثين.

– ومن قال لك بأن الباخرة ستأخذك معها؟ ماذا سيفعلون بك هناك، قل؟ أنت لا تصلح لشيء، لا تحسن حتى تلميع الحذاء...

نظرات عديدة التفتت يمينا وشمالا باحثة عن صاحب الإجابة المتغطرسة. لم يكن الصوت مألوفا. في آخر الزاوية، جلس شاب ضامر، ببشرة داكنة أقرب إلى بشرة الزنوج، تحت ظل جدار الحانوت، وأمامه عتاد الإسكافي (أحذية قديمة مشققة، قطع من الجلد الأسود، مطرقة، مقص صدئ، سندان رقيق، وكمية من المسامير المتنوِّعة). تعرَّف الجميع على محمود علّوش. متى امتهن هذه الوظيفة؟ ومنذ متى استقرّ هنا؟ غاب شهورا، قيل بأنه عثر على عمل في وهران، ولكن يبدو أنه لم يجنِ شيئا من سفره.

– ما دخلك أنت؟ هل ستحملني فوق كتفيك؟ قال صاحب الحاجبين البارزين والمشعثين. وأنت؟ لم تجد إلا ترقيع الأحذية وتعتبر هذه شطارة. ثلاث مرّات وأنت تعيد امتحان البكالوريا وتفشل.

– الله يرحم ذاك الفم، قال صوت ضمن المتحاشرين.

رد محمود علّوش قائلا:

– أنا وصلت إلى غاية البكالوريا، أما أنت فلم تضع قدميك في الثانوية. ثمّ... إن البكالوريا لم يعد يصلح لشيء؛ الشهادات لم تعد تعيل أصحابها. انظر، قدّور أمامك، أربع سنوات في الجامعة من أجل لَيْمونة معصورة. لماذا تريدني أن أتعب نفسي. اللي ما ينفع ادفع. وفي انتظار الباخرة، أشغل نفسي مثلما اتفق...

– وماذا ستفعل هناك، أنت القزم النحيف؟ أنا قوي الجسم، سأقوم بأي عمل يعرض عليّ، الزراعة، البناء، المناجم، حفر الأنفاق...

– الله يرحم ذاك الفمّ، (أضاف نفس الصوت السابق) هناك، لا وجود لمهنة الإسكافي. الأحذية متوفرة وبأثمان رخيصة، بمجرد أن تُبلى قليلا، تُرمى في المزبلة وتُستبدَل بأخرى جديدة...

همهَم الإسكافي المتربّص كلمات بين شفتيه ولكنه لم يُجب.

أخذت الطفلة الشاحبة الكيس الذي مده لها رشيد حلموش، فأفرغت في يده الممدودة القطع النقدية العرقانة وابتعدت راكضة. تقدّم رجل مسن من الحانوت، يرتدي بذلة صينية ناحلة اللون، وقال:

– جَبْتُو القهوة؟

نظر إليه رشيد حلموش وعلى وجهه ابسامة تأسّف، ثمّ رفع كتفيه ويديه قليلا، علامة النفي.

– والزيت؟ أضاف الرجل خافضا صوته كأنه يعرف سلفا الجواب السلبي.

– والو... لا قهوة لا زيت ولا صابون. انتظرنا صبيحة كاملة، وقبل منتصف النهار بقليل جاء المدير وقال: « السلعة ماوصلتش، ارجعوا نهار آخر. متى؟ واحد ما يعرف... » مدير الصوجيديا وما أدراك، ينتظر مثله مثل التجار...

– البابور ماجاش، كيف تيجي السلعة؟

– يا أحمق، باخرة السلع غير باخرة المسافرين.

– أنا عندي كيف-كيف، البابور اللّي يَدِّي السلعة يَدِّي العباد.

عاد العامل، صاحب البذلة الصينية، أدراجه، متمتما شتائم غاضبة ضد البلاد وحكامها. بصق بضوضاء على التراب الحجري، مسح فمه

بظاهر يده، واتجه نحو مشجرة الصبّار والوزال الشوكي، وقبل أن يختفي، التقى بامرأة ملحفة بحايك فَقَد بياضه، عبرت البطحاءبسرعة فائقة خافضة العينين، في مشية مرتبكة كادت تسقطها أرضا، وفي ثوانٍ معدودة اختفت عن الأنظار.

قال عبد القادر كرّوش:

– هل وصلكم الخبر الجديد؟

قال رشيد حلموش:

– في الزمن الأغبر هذا، لم تعد تصلنا إلا الأخبار السيئة؛ لهذا، شخصيا أفضل عدم سماع أيّ خبر.

– سيّء بالنسبة لنا، ومُفرِح لبعض الناس!

قال الإسكافي بصوته الأبح:

– لماذا تنقله لنا إذن؟

قال صاحب الأنف الغليظ والحاجبين البارزين:

– لا تستمع إليهم، عبد القادر...احكِ لنا خبرك السيّء، أنا أموت في الحكايات، سواء كانت جيّدة أو سيّئة، عندي كيف-كيف. في كل الأحوال، فهي حكايات غيري ولا تخصّني، لذلك أحب الحكايات.

– يقال بأن هواري بومدين قد مات...

– ومن أين لك بمثل هذا الخبر؟

– التقيت بصديق يشتغل في الحزب، وقال بأنه مصاب بسرطان في الرأس، أخذوه إلى روسيا، وقد مات هناك في المستشفى. وستعلن الحكومة عن خبر وفاته بعد استِعادة جثته إلى البلاد.

– هذا كذب وبهتان! كيف يموت الرجل وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره ولا يزال في صحة جيدة؟

قال رشيد حلموش بانفعال ظاهر:

– وهل الموت قاصر على الشيوخ فقط؟ أم حسبتموه نبيا سيعمّر قرنا. في الحقيقة، تخلّصنا من بذرة الشيوعية التي أغرقت البلاد في الفقر

والعوز. بإذن الله تعالى، ستنبت بذرة الإسلام مع الخميني نصره الله وأعلى شأنه.

– وما دخل الخميني في بلادنا؟ سأل عبد القادر كرّوش.

– بلادنا قطعة من أرض الإسلام، إذا انتصر الإسلام وتمكّن في أيّ بقعة منها، ستصلنا خيراته لا محالة (قال رشيد حلموش) مات عبد الناصر الشيوعي الذي قتل الشهيد سيد قطب، وها هو رفيقه الوفي يلتحق به في قاع جهنم، ومعهما سينتهي عصر الشيوعية. إن خبرك فأل خير. سينتصر الخميني ويقيم دولة إسلامية، حينذاك ستَرَوْن الخير والعدل بأمّ أعينكم.

– من الناحية النظرية، الإسلام مغرٍ تماما مثل الشيوعية قبل أن تدخل حيّز التطبيق (قال قدّور بن موسى مستيقظا من غفوته) حلول جاهزة لكل اهتمامات البشر الدنيوية والسماوية. حلول ستقضي على كل المشاكل الموجودة، وسنعيش في الجنة. هكذا قال لنين، ثم اتضح بأن الجنة الموعودة أضحت جحيما وسجنا رهيبا لم تتخلص منه البشرية بعد. سيلقى العالم الإسلامي نفس المصير بعد سنوات قليلة فقط. لا جنّة بلا حرية. الحيوان أيضا يأكل ويشرب. أوّل شيء سيقوم به الحاكم الإسلامي هو إصدار قوانين المنع والردع، وأوّل ردّ فعل طبيعي هو اختراق هذه الممنوعات، ثم يستعين الحاكم بالهراوة لفرض احترام القانون؛ وهكذا نعود إلى دوّامة القمع. وبما أن العنف لا يولّد إلا العنف، فسنغرق حتما في حروب دموية لانهائية. أنا أقول بأن الإنسان يحتاج أوّلا إلى الحرية، هي التي تحفظ كرامته وتصونه من الذل والمهانة، وبدونها لا حديث عن حضارة ولا عن مجتمع تسوده العدالة والرفاهية المادية. الإنسان ليس حيوانا يحتاج إلى العلف والعصا فوق رأسه.

– عدت إلى أفكارك الشيطانية (قال رشيد حلموش بغضب دفين) حينما نقيم الدولة الإسلامية، سنربطك إلى جذع هذه النخلة ونجلدك حتى تتقيأ هذه الخزعبلات.

– إنكم لا تعرفون إلا الرجم والجَلد وقطع الأيدي. قل لي من فضلك، أنت العارف بدين ربّك جيدا، هذه القوانين التي تتحدّث عنها موجودة منذ أربعة عشر قرنا، أليس كذلك؟ ولماذا لم يطبقها المسلمون، وبقوا دائما في ذيل التطور والعدل؟

– الحق مع قدور. قال الإسكافي المتربص مادا عنقه كي يرى جيدا شبح الحانوتي الواقف في العتبة.

– أنت تسكت وإلّا طردتك من هنا (قال رشيد حلموش غاضبا، متقدما بعض الأمتار كي يُسمِع تهديده) واصِل ملازمة قدور وستنتهي مثله، وسنجدكما معا في مستشفى جوانفيل. نصيحة لوجه الله : اهتم بعملك وأغلق فمك، أفضل لك ولنا جميعا.

وقف قدور بن موسى بتثاقل، أدار وجهه نحو رشيد وقال بصوت يائس :

– أعرف بأنني أضيّع وقتي معكم. في الخراء أنتم، وفي الخراء باقون إلى يوم الدين. الحضارة ليست من شيَمكم. لا تعرفون البناء، كل ما تعرفون القيام به المنع والقمع لا غير.

ثمّ ابتعد، جارا قدميه في التراب واختفى خلف تين الصبار.

بعيدا في الأفق، كانت الشمس تستعد للغوص في البحر. ظلال تغطي مناطق عدة في ضفتي الوادي، معلنة عن قدوم الغسق. طفقت بعض الكلاب تنبح بانفعال ظاهر. خرجت مجموعة أطفال من مسلك جانبي بالحي، وقطعت البطحاء راكضة، زافرة، صائحة، تحمل بأيديها دلاء وجِريكانات فارغة، بيضاء وصفراء اللون. هناك في الأسفل، سيارة تشق الطريق الرجّاج وسط الغبار، عند رؤيتها تخلص رشيد حلموش بسرعة من زبون وأسدل الستار ثمّ أحكمه بقفل حديدي. توقفت السيارة. نزل المهدي، فيما مكث سليمان خلف المقود. قال المهدي متقدما نحو الجمع :

– وباخرتكم، هل وصلت ؟

أجابت أصوات كثيرة في آن واحد :

– ليس بعد يا المهدي...

– عوض تضييع الوقت في انتظار سراب لن يتحقق أبدا، أنا أقترح عليكم عملا صالحا.

قال رشيد وهو يسوّي جلابيته :

– هذا ما أحاول أن أقنعهم به منذ شهور، ولكنهم صمّ بكم لا يعقلون.

قال صوت :

– أنا معك يا المهدي. مللت من الانتظار.

– إذن، موعدي معكم يوم الجمعة صباحا بعد الصلاة مباشرة، سنقوم بتوسيع الطريق المؤدي إلى المقبرة وتحضير مكان لأداء صلاة الجنازة. لكم أجر عظيم عند الله، إنه الطريق الوحيد الذي سنسلكه جميعا، طريق يؤدينا إلى الجنة إن شاء الله.

– سوف نكون عند الموعد إن شاء الله.

ثمّ مباشرة، التحق المهدي ورشيد بالسيارة التي انحدرت متجهة نحو المدينة. بعد مسافة قصيرة، توقفت كلية لتفسح المجال لأطفال الحي الصاعدين، مثقلين بالدلاء المبللة، يتقدمون ببطء الحشائش الدودية، يلهثون بصمت. ظلمة الليل زاحفة من كل الجوانب. الكبار يسرعون الخطى، متخوفين من توبيخ الأمهات اللائي ينتظرن السائل النادر والثمين على أحرّ من جمر.

- 6 -

بعد محاولته الفاشلة للوصول إلى مكّة، وعَوْدته إلى عين الكرمة، اكتسب المهدي سلوكات جديدة؛ بدءًا، تخلَّص من ملابسه الأوربية مستبدلا إياها بلباس إسلامي: قميص على شكل جلابية وعلى رأسه شاشية بيضاء، كما أطلق العنان للحيته فانتشرت بفوضوية نحو كل الجهات مثل النبتة البرية في أرض جدباء، متقنِّعا داخل هيئة تعيد إلى الأذهان صورة البدوي الصحراوي البائد التي كادت تندثر، ومرفوقا بصديقه سليمان، طفق يتردّد على مسجد سيدي عبد الرحمن. يراهما الناس في كل الأوقات يحومان في الضواحي القريبة، مترصدَين ارتفاع الأذان فوق السطوح، وعند أوّل خشخشة يحدثها مكبِّر الصوت، يهرعان نحو قاعة المياه، يتوضآن بضجيج ملفت للانتباه، ثمّ يصطفان خلف الإمامِ مباشرة لأداء الصلاة، ملتفتَين يمنة ويسرة، ناصحَين، منبِّهَين، محدثَين جلبة لتسوية صفوف المصلين، كأنهما معلِّمان وسط تلاميذ سنة أولى ابتدائي. يقومان بتلك الحركات دون اكتراث للنظرات المستنكرة التي تنهال عليهما في انزعاج صامت.

كان المهدي ينزوي بعد الصلاة وسط أعمدة الصالة الكبيرة وينشغل بقراءة القرآن وكتابات فقهية أخرى. التحق به فتيان آخرون فتوسَّعت الحلقة وتـمتَّنت. أطالوا الجلسات، أحدثوا جلبة بأصواتهم... نبّههم الإمام مرات متكرّرة، ولكن لمن تقرأ زابورك يا داود؟ الانشقاق في الأفق. الفتنة آتية لا ريب فيها. مرّة، اشتدّ النقاش قبيل صلاة المغرب بقليل، بين الإمام سي عبد الحق والمهدي وأصحابه. تعالت الأصوات، تشنجت القلوب، استيقظت الأحقاد من رفاتها؛ فما كان على المهدي إلا أن اقترح على مريديه ألّا يصلوا خلف الإمام.

– إنه موظّف عند الدولة الشيوعية التي تملي عليه خطبه. يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر. يعملون بآية {ويل للمصلين} ولا يكملون البقية. ولا يمكن له أن يعصي أولي أمره، لأنهم عندئذ سيقطعون رزقه. نحن نقول بأن الله هو الرازق ولا نحتاج من الدولة الكافرة شيئا.

منذ تلك الحادثة، وعند موعد كل صلاة، يجتمع المهدي مع مجموعته في ركن من أركان المسجد ويصلي بهم، منفردين، منعزلين عن جماعة المصلين. اختلط الحابل بالنابل؛ البعض راكع، والبعض الثاني واقف. البعض صامت، والبعض الثاني قارئ. جاء الإمام عند المهدي محاطا ببعض الأعيان، في محاولة لإقناعه وأصدقائه بالعدول عن مواصلة الانشقاق، كانت الجلسة صاخبة، ملاسنة عنيفة كادت تتحوّل إلى مشدّات جسدية لولا تدخل العقلاء. وليُشهِد القومَ على صحّة أقواله، عكف الإمام في خطبة الجمعة على إيضاح مآسي الفتنة وعواقبها الوخيمة، فأطال في ذكر الاقتتال بين المسلمين وما أحدثه من سفك للدماء وفساد في الأرض، فتحدّث عن ظروف وحيثيات مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان زوج بنت رسول الله وأوّل المهاجرين إلى الحبشة، ثمّ علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء أحبّ البنات إلى قلب رسول الله، وأوّل من آمن به من الفتيان. الأوّل قتله متمرِّدون حاصروا منزله لأيام، وقد شارك في عملية الاغتيال محمد بن أبي بكر الذي دخل عليه فصرعه، وقعد على صدره، وأخذ بلحيته، ووصفه بـ « النعثل »، ثمّ تداول عليه رجال غلاظ جاءوا من أصقاع بعيدة، كمصر والكوفة، فعذبوه تعذيبا؛ قاموا بقطع

اليد التي خطت المُفَصَّل وكتبت القرآن، قبل أن يضع أحدهم ذباب السيف في بطنه ويقتله. ثمّ اتخذ أهله وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليا بالشام، قميصه المضرج بالدم، الممزق، وبالخصلة التي نتفها الرجل المصري من لحيته، والتي قامت زوجته نائلة بعقد الشعر في زر القميص، ذريعة للتخلص من علي وسلطته. تسبّب مقتل عثمان في فتنة قاتلة والفتنة أشدّ من القتل وألعن، راح ضحيتها آلاف المسلمين، وبالأخص في موقعة الجمل، حيث تقاتل جيش علي مع جيش عائشة بمساعدة طلحة والزبير اللذين قتلا بتلك المعركة على يد مسلمين وهما من صحابة رسول الله ومن المبشرين بالجنة. اقتتل القوم قتالا شديدا لمدّة سبعة أيام، يخوضون الحرب نهارا ويستريحون ليلا. سقط من المسلمين الآلاف، وانتصر فريق عليّ بن أبي طالب على فريق عائشة، وقضى المنتصرون أياما عديدة لدفن الجثث المتعفنة، والغربان والكواسر تحلق فوق ساحة الوغى. اشتدّ الخلاف بين المسلمين، فتقاتلوا في صفين لمدّة أربعين يوما: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص من جهة وعليّ وأتباعه من جهة أخرى. قتل مائة ألف من الفريقين، وقد أسرف الفريقان في القتل وانتهيا إلى إقامة الصلح ولكنهما لم يفلحا في إتمامه؛ فقامت جماعة الخوارج رافضة تلك الحرب بين المسلمين، وقرّرت قتل علي ومعاوية، الرجلين اللذين أفسدا في الأرض واستحلا حرمة البيت الحرام، لتستريح الأمّة. واتفق القوم على يوم واحد يكون فيه وقوع القتل. أمّا علي بن أبي طالب، فقد قعد له عبد الرحمن بن ملجم حين خرج لصلاة الصبح، صبيحة نهار الجمعة، فلما خرج للصلاة وثب عليه وقال: الحكم لله لا لك يا علي، وضربه على قرنه بالسيف. مكث علي يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفي ليلة الأحد ودفن في قصر الإمارة بالكوفة، وغمي قبره مخافة أن ينبشه الخوارج، وقيل إنه نقل بعد صلح معاوية والحسن إلى المدينة. وتروي الحكاية الشعبية أن أتباعه، وخوفا من العبث بجثته، قاموا بإبعادها، فدفنوها في مكان لم يفصحوا عن موقعه. وبقي القبر مجهولا لفترة طويلة. ويحكى أن كلاب صيد الخليفة هارون الرشيد هي التي أعادت اكتشاف القبر في رحلة صيد، حينما كانت الكلاب تركض لتلتقط الطريدة التي أسقطها أمير المؤمنين، تجمّدت قرب

مرتفع ترابي، مغطى بالأعشاب والآجام، تنبح في هيجان مذهل، رافضة أن تعبر المكان برغم ضربات سياط الحراس المطقطقة. أمر الخليفة بتفتيش المكان. فلمّا لم يجدوا شيئا فوق الأرض، حفروا تحت التراب، فعثروا على رفاة إنسان. قتِل رجل في ذاك المكان ودفِن في سرية. أحضر أمير المؤمنين العلماء والمنجمين والعرّافين وطلب منهم تفسير اللغز، وبعد مشاورات وتقاطعات، توصّلوا إلى أن الرفاة لا تكون إلا لعليّ كرّم الله وجهه. لا يبعد المكان إلا بضعة كيلومترات جنوب شرق المسجد الذي قتِل فيه. وبما أنها شخصية مقدّسة وطاهرة، فلا يمكن للكلاب أن تمرّ فوق قبره. ومنذ تلك الحادثة، تمّ بناء قبر وفوقه قبة مطلية بالذهب الخالص، إلى جانب مسجد ضخم. فأضحى القبر مزارا للمسلمين، ينافس الكعبة الشريفة في مكّة. ونجا من عملية الاغتيال معاوية بن أبي سفيان؛ لقد جرحه القاتل في رانفة أليته، وهو ساجد، ومذ ذاك جعل الحرس على رؤوس الخلفاء، واتخذ معاوية المقصورة. أمّا الداهية عمرو بن العاص، فلم يخرج تلك الليلة لعلّة وجدها في بطنه، أو لأنه اشتمّ رائحة الاغتيالات، فقتِل خليفته الذي صلى بالناس.

أراد إمام مسجد سيدي عبد الرحمن، الشيخ سي عبد الحق - الذي كان له الحظ في مجالسة العلماء في جامع الزيتونة بتونس، حيث قضى هناك سنوات الثورة التحريرية - من هذا التذكير أن يعلِّم الناس خطورة الانشقاق والفتن. ولم يكتفِ بخطبة واحدة، بل أضحى كل جمعة يخوض في مسألة وِحْدة المسلمين والابتعاد عن إصدار الفتاوى المضلِّلة خاصة حينما يكون صاحب الفتوى مبتدئا وغير مدرِك لأبعاد المسألة التي يفتي بشأنها. كما أنه لم يتردّد عن المناقشة العلنية والحوار السجالي مع المهدي وأنصاره. كانت حججه تذوب داخل الأجوبة العنيفة وصيحات الشباب المتهكمة. تدخّل بعض الأعيان لتهدئة الأجواء ومطالبة المهدي بالتعقل والابتعاد عن التطرّف والغلوّ. تكهرب الجوّ، وبدأ الحقد والغضب يتسربان رويدا رويدا داخل القلوب.

أدرك المهدي ألّا مكان لإمامَين في مسجد واحد، فتشاور مع أصحابه، واقترح سليمان الاستيلاء عنوة على مسجد سيدي عبد الرحمن، وطرد الإمام وأخذ مكانه. اقترح البعض جمع التبرعات وبناء مسجد خاص بهم،

ستستغرق العملية شهورا، بل سنوات. المهدي يريد مسجدا له ولأصحابه عاجلا. راودته الفكرة أياما، أقضّت مضجعه وأغرقته في تخمينات لا أوّل لها ولا آخِر، فحبس نفسه في صمت مقلق. في ليلة آرقة، عبرت الفكرة ذهنه مثل برق خاطف؛ ودون أن ينتظر طلوع الفجر، خرج يجري في شوارع عين الكرمة قاصدا بيت سليمان، فأيقظه وعرض عليه الفكرة لاهثا مبهورا.

– الفكرة رائعة ولكنها صعبة التحقيق.

– لا شيء يصعب علينا. أتتذكر مدينة الألف قبَّة؟ سنأتي بها من هناك، وسيقتنع أهل عين الكرمة بصحّة مبادرتنا!

- 7 -

من أين أبدأ حديثي يا مضيفتي العزيزة؟ كيف أحكي لك ما حدث لي في ذلك اليوم المشؤوم والأيام التي تلته، وأنا مختبئة، مرعبة، أحمل في أحشائي جرحا نتنا؟! مشَيْت تائهة في البراري أياما وليالِـيَ، كالعمياء، وجسدي يتأوّه ألما وجوعا وخوفا. كان جسدي عرضة للحكّة طوال الوقت، كأن قشرة من الجرب لاصقة به. في حقيقة الأمر، كنت ملفوفة بالعار. لقد تلوّث جسدي إلى الأبد. إلهي، لماذا تحدث لي مثل هذا الإهانة؟ أي ذنب اقترفت كي أوصَم بقدَر مذل كهذا؟ لا... لا... يا أختاه، جنّبيني هذا العذاب الذي لا يطاق. لا أجِد بداخلي الشجاعة الكافية لأحكي ما تلقيته من ألم في لحمي. أترين؟ إن الدموع تضبّب رؤيتي والحازوقة تقطع أنفاسي. أجد صعوبة في نطق الكلمات. اعذريني أختاه، يصعب علي مواصلة الحكي. بمجرد التفكير في الحادثة، يرتعش جسدي من البرد، أشعر بكرّة في حلقي وبضربات خنجر في بطني. لا... أتوسّل إليك. لنتحدث عن أشياء أخرى. أنت امرأة شهمة وطيّبة. يكفيك استضافتي منذ ستّة أيام، أشكرك جزيل الشكر ولا أعرف كيف أرد لك هذا الجميل. قمت بواجب الضيافة وأكثر. آويت شقية جاءت تدق بابك في منتصف الليل. لولا قرصة البرد وعواء الذئاب، لواصلت الاحتماء بالعراء إلى غاية الصبح. لم يغمض لي جفن لأن أسناني لم تتوقف

عن الاصطكاك. نهضت ومشيت. في مثل هذه الحالات، ينبغي تفادي الخدر. مشيت كالعمياء وسط الظلمة، كنت أرمي قدماي دون أن أعرف هل ستطأ ترابا أم تغوص في هاوية بلا عمق. لم أعرف كم مرّ من الوقت إلى أن لمحت نورا. مستحيل، ليس النور إلا سرابا. بصري يخدعني؟ أغمضت عينيّ، فتحتهما، لا يزال النور في مكانه. طفقت ساقاي تركضان بلا إذن مني. تعثّرت على جذع شجرة أو صخر، فسقطت بكل طولي. أطلقت صرخة. سمعت نباح كلب، غير بعيد عني، ضعيفا في البداية، ثمّ علا واقترب. بقيت ممددة. لم أجد بداخلي القوة اللازمة للتحرك. ثمّ قلت مع نفسي بأن الكلب صديق الإنسان، فتذكرت كلبنا « غيلاس »، ذلك الصديق الرائع، قبل أن يعطي « الإخوة » الأمر بقتل كل كلاب الدوار. آه، كم ذرفت من الدموع يوم أن أخذ جدي « غيلاس » إلى الغابة كي يتخلص منه. عاد مع غروب الشمس حزينا، مطأطئ الرأس كأنه حضر دفن قريب له. لم يذق طعم الأكل أياما، رغم أن الأمر صادر عن أحد أبنائه المجاهدين. إن النباح يكشف حضورهم ليلا عندما يأتون للأكل والراحة. قبل وصولهم كنا آمنين، معزولين في جبلنا، لا يزورنا أحد، ولكن بمجرد استقرارهم في الجبال المجاورة، تغيّرت حياتنا جذريا. التحق بهم عدد من رجال دوارنا. وكنا نحن النساء، نشقى لساعات طوال في عجن الدقيق وطهي الخبز وتحضير الكسكسي وجلب الحطب وتأجيج النار، كي يكون الأكل جاهزا في الوقت المناسب. يأتون بأعداد كبيرة، جائعين. مرّت شهور هادئة... وفجأة، داهم عساكر فرنسا أكواخنا باحثين عنهم. طبعا، لم يعثروا على أحد منهم؛ فهم يغادرون ديارنا قبل الفجر بقليل، ولا يصل عساكر فرنسا إلا بعد طلوع الشمس. طفقت الطائرات تحلق فوقنا، في ذهاب وإياب جهنمي، نازلة صاعدة، تبعث في نفوسنا الرعب والشعور بالعجز المطبق. ليس بالديار نهارا إلا النساء والأطفال؛ الرجال في الحقول والغابات المجاورة. كنا نعيش بصنع الفحم، نحن دشرة الفحامين. في ذلك اليوم، نهضت باكرا وفي حلقي غصّة، لم أكن أعرف سببها، كأن خطرا فادحا سيجرف بنا عاجلا. كنت بفناء الدار أطحن الشعير حينما تواصل إلى أذني صراخ أطفال، ثمّ سمعتهم يقولون: « عسكر فرنسا... عسكر فرنسا... » لم أصدق ما كنت أسمع. ارتفع الهرج والمرج وتعالت

الصيحات وكثرت النداءات، ضجيج مربك لا نميّز منه الشيء المفيد. بغتة وقف عساكر فرنسا عند أبواب الديار، مسبوقين بأصوات العرب الحركى تأمرنا بمغادرة المنازل لأنها ستحرق. ماذا أقول لك أختاه؟ لا أعرف نوعية العفريت الذي سكنني في تلك الصبيحة، فعوض الالتحاق بأهل الدشرة الذين تجمعوا تحت أشجار اللوز في الهواء الطلق قرب العين، وسوس لي الشيطان الرجيم بأن أختفي في زريبة البهائم. قلت مع نفسي، يا نائلة لن يبحث عنك أحد هناك. إنها خسارتي وشقائي. إذن، دون انتظار، تسللت عبر فتحة خلفية، فالتحقت بزريبة الغنم دون عناء. اختفيت تحت كومة تبن، وانتظرت وكلّي آذان صاغية لأدنى صوت أو ضجيج. أتتني جلبة من جهة العين، وفهمت متأخرة بأن السكان تجمعوا هناك، تحت ظلال أشجار اللوز والتين. بعد لحظة، شممت رائحة الحريق ثم سمعت طقطقات الحطب المشتعل. أصبح الجوّ ساخنا لا يطاق، والهواء خانقا. خفت أن تكون النار قد لحقت بالزريبة، نفضت عن جسمي التبن وخطوت بضع خطوات وأنا أرتعد خوفا، وفي نيتي الالتحاق بالآخرين. فجأة، مرق عسكري أمامي وأوقفني بسلاحه، ثم ظهر عسكري آخر عند الباب، فتجمدت من الرعب. أردت الصراخ، ولكن لساني أصيب بالخرس. تبادل العسكريان كلمات بينهما، كانا يتكلمان بلغتهما ولم أفهم شيئا، ولكنني أدركت قصدهما حينما أعطى أحدهما سلاحه لصاحبه وتقدّم نحوي مبتسما تلك الابتسامة الماكرة. حدث كل شيء بسرعة: أسقطني أرضا وسحقني بجسده أخيرا، قاومت الرعب وصرخت، فوضع المغتصب راحة يده على فمي ليمنعني من الصراخ، تخبطت، شددته من الشعر، ولكنه صفعني بقوّة حتى كاد يغمى عليّ. تدخل صديقه، عربي أسمر اللون بشلاغم كثة، وشدّني إلى الأرض من الكتفين بواسطة ركبتيه وغمّني بمنديل يفوح برائحة السردين. أقسم لك أختاه أنني قاومت ودافعت عن شرفي بكل ما استطعت من قوة. إن الله يشهد أنني لا أكذب. كان الرجلان أقوى مني. وهن جسدي وخار من الرعب. تضبّبت رؤيتي. شعرت بأحشائي تُمزَّق في ألم حاد، أشعر بوخزه الآن أمامك وأنا أحكي لك ما وقع. ورائحة العربي النتنة، وهو يسحقني بجسمه الثقيل ستتبعني إلى يوم الدين. يا له من كابوس مرعب. حينما استعدت صفاء

ذهني، كنت وحيدة، ممددة على التبن والروث، فستاني ممزق ووجع يؤلمني في أسفل بطني وخدوش على وجهي. بقيت جامدة من العار والألم والخوف لمدة من الزمن، شاردة الذهن، تائهة، لا أعرف ماذا أفعل. كيف سأواجه أهلي ؟ كيف سأبرّر موقفي ؟ لن يفهموا ولن يسمحوا أبدا، أبدا... مثلما تعرفين أختاه، المرأة هي الظالمة دوما. يعتدي عليها رجل، يغتصبها رغما عنها، وحدها تتحمل النتيجة. تُسأَل لماذا وضعت نفسها في طريق الغاصب ؟ ومثل حالتي، لا دواء لها. حينما تتكسّر الجرّة، تصبح فتاتا لا تصلح لشيء. لهذا هربت. لم أجد أمامي إلا الخزي والإهانة. لا بديل للهرب. تسللت داخل الأكواخ المحترقة، جمعت بعض الملابس، والتحقت بالوادي القريب ومشيت على وجه ربي، لعله يحميني، يوجه خطاي إلى ما هو أحسن. أعود إلى أهلي ؟ لا يا أختاه، مستحيل. إنك تمزحين ولا شك ؟ لا أجرؤ حتى على التفكير في مسألة العودة. انظري، إنني أرتعش. سيقتلونني. إن أخي الصغير مستعد لتحطيم رأسي بضربة شاقور. لا... لا... مستحيل. أتوسل إليك أختاه، لا تُسمعيني مثل هذا الكلام. كان عليّ ألّا أرضخ للعسكريَين. كان عليّ أن أقاوم إلى حدّ الموت. لو قتلت، وعثر على جسدي مشوها ملوثا، كانت العائلة ستعتز بي، لأنني حافظت على عرضي، ودفعت نفسي قربانا له. وعرضي عرضهم، وشرفي شرفهم. عندنا، ينبغي للمرأة أن تقاوم مغتصبها، مهما كانت قوّته، وعدم الرضوخ إلا بالموت. الموت أهون من هتك العرض. الآن أغادرك أختاه، عليّ أن أبتعد من هذه البقاع التي لعنتني. شكرا على الضيافة، وعوضك الله عنها أضعافا يوم القيامة. وداعا، أختاه، وداعا.

- 8 -

– أمواتكم ليسوا شهداء. قال المهدي بنبرة فيها كثير من التعالي والازدراء.

كان واقفا منذ لحظات وجيزة فقط، مسندا كتفه اليمنى على جذع الزيتونة الهرمة، يستمع إلى حكايات المجاهد حول الحرب، واعْمَر حلموش – الممدّد على جانبه، المتكئ على مرفقه فوق حصير

من الدوم نسجه أبوه خلال سنوات الحرب القاسية – يفيض مزهوا في سرد تفاصيل أحداث بطولية قام بها برفقة « اسْبُعَة »، مثلما يحلو له أن يكرّر، كعادته في نهاية الظهيرة أمام حشد من المستمعين المبعثرين حول الزيتونة. لقد تخلى عن سترته العسكرية فعوضها بلباس هجين، نصف قروي ونصف مدني: سروال أوروبي من كتّان سميك، سترة من نوع الأزرق الصيني، وعمامته المشهورة البرتقالية اللون بنقاطها السوداء بحجم حبات الحمّص. أعطى ظهره لجذع الزيتونة، ولم يرَ وصول الشاب، ولم ينتبه إلى تحية السلام التي لفظها بصوت خفيض. التفت المجاهد بخفة، يلوك الردّ العنيف الذي سيرميه على وجه الوقح الذي تجرأ على لعن الشهداء، ولكنه كظم غيظه حينما تعرّف على المهدي، مكتفيا بعبارة: هذا أنت يا... كاد يقول ابني ولكنه ابتلع اللفظة قبل أن تتشكل على لسانه. أطال عليه نظرة فاحصة، مليئة بالعطف، النظرة نفسها مذ كان طفلا صغيرا لأنه يذكّره بأمّه، نايْلة الفاتنة. مرّت سنوات عديدة، جارّة معها جنون وأحلام السنوات الأولى للاستقلال، ولكن نايْلة عشّشت بقلبه تضبط إيقاعه. طالما لعن الشيطان وسبّح بحمد ربّه رغبة في إخراجها من ذاكرته. أوّلا، بقضم الحياة بملء شدقيه، ثمّ أتت السنون بلقاحها، وزادته مكانته الاجتماعية تحفظا ووقارا، فجذب الفرامل، ركن إلى اليمين، ووضع مفاتيح سفينة الإبحار تحت السّجّاد. ولكن صورة عشيقته الجميلة الناعمة أبت أن تغادر العشّ. مكثت بداخله، تطلق من حين لآخر لحنا مغردا، يسافر بالرجل بعيدا، ليستعيد تلك الأيام الخوالي التي ملأته وَجْدا وشجنا. امتثل للأمر الواقع، مقتنعا بأنها ستطارده إلى آخر أيامه. إنه البلاء الحسن فليتحمّله بصبر جِلَّوْذٍ.

– اشرَح لنا يا المهدي لماذا شهداؤنا ليسوا شهداء، مثلما تقول.

– إن الشهيد جندي مات في سبيل الله. أمّا أنتم فإنكم جنود حياة الدنيا وملذاتها.

– أنا لم أفهم شيئا مما تقوله. أنت تستعمل عربية الكتب، ونحن مثلما تعرف لم ندخل المدرسة، لا مدرسة العرب ولا مدرسة الفرنسيين.

ثمّ التفت نحو الحشد الدائر بالزيتونة يريد إشهادَهم على صحة ما يقول:

– هل فهمتم شيئا ؟

– لا، لم نفهم شيئا يا سِّي اعمر. نطقت أصوات متعددة في آن واحد.

– أنت ترى يا بني، كلامك ذهب مع الريح. أنت محظوظ لأنك ابن سِّي امبارك، شيخنا المبجّل وصديقي القديم، وإلا لأذقتك طعم عصاي، ولا تكن الآن هنا واقفا تنظر إلينا وتستفزنا بلمس لحيتك الشبيهة بلحية العتروس.

– سأشرح لك بطريقة أسهل. قال المهدي.

– لا... احتفظ بشروحاتك لنفسك، لا نريد سماعها. قال اعمر حلموش، باحثا عن وضعية جلوس يجابه بها خصمه.

ارتفع صوت وسط الجالسين :

– اتركه ينيرنا بعلم أصحابه الملتحين. إنه يخالطهم منذ مدّة، ويكون قد تعلّم منهم الشيء الكثير.

تنحنح المجاهد بصوت خشن ثمّ عاد إلى وضعيته الأصلية :

– هيا يا سيدي... أسمعنا...

– الأمر أسهل من قراءة الفاتحة (قال المهدي بلهجة عالمة) إن الشهيد في الإسلام هو الذي يموت دفاعا أو ناشرا لدينه، أمّا الذين ماتوا من أجل الاستقلال فقد أعطوا حياتهم للأرض وملذاتها، وليس لدين الإسلام.

جلس المجاهد وواجه المهدي :

– أتظن يا شقي بأننا صعدنا إلى الجبال وحملنا السلاح وتكبدنا ما تكبدنا من محن وتضحيات جسام للدفاع عن دين النصارى ؟ هيا اغرب عن وجهي قبل أن يصعد الزِبْل إلى رأسي ويدفعني إلى ارتكاب ما لا تُحمد عقباه.

– والدليل (أضاف المهدي) أن الشيوعيين حاربوا إلى جانبكم، ملاحدة ينكرون وجود الله. لا تقل لي بأن هؤلاء حاربوا من أجل الدفاع عن الإسلام ؟ وأن أمواتهم شهداء يدخلون الجنّة ؟ إن الشهيد يذهب إلى الجنّة، أليس كذلك ؟ وهل يذهب ملحد إلى الجنّة ؟

التفت اعمر حلموش إلى المحلقين به، وقال ساخرا :

– وصلنا إلى آخر الزمان... اسمَعوا ما يتعلمونه اليوم في المساجد. لا يدخلون إلى بيوت الله للعبادة بل لممارسة السياسة والتشويش على الثورة المباركة. ألا يعرف أصحابك الذين علّموك هذه الترهات أن الدين بلا أرض تحويه يصبح غريبا حتى عن أهله. إن الإسلام بحاجة إلى أرض ينتشر بها والأرض بحاجة إلى تضحية أبنائها لحمايتها من غزو الأعداء من النصارى واليهود وغيرهم.

ثمّ رفع رأسه نحو المهدي، المتكئ دائما على جذع الزيتونة، وحدّق به مليا قبل أن يضيف بنبرة أهدأ :

– اسمعني جيدا يا ولدي... لا أعرف من أين تأتي بهذه الأفكار الهدّامة، ولكن لا تكرّرها ثانية أمامي. سجّل برأسك المعوج بأنك، لولا تضحية الشهداء – رحمهم الله وأدخلهم الجنّة رغما عن أنوف أصحابك الملتحين – الذين رفعوا السلاح في وجه الغزاة وهم نصارى وليسوا مسلمين، لكنت اليوم أنت المهدي وأنتم كذلك رعاة ماعز في الجبال أو خماسين عند الرومي يمص دماءكم إلى النسغ، وليس في مدارس الجزائر المستقلة، تعلمكم القراءة والكتابة، وباللغة العربية، لغة القرآن كتاب الله. نصيحة لوجه الله : اطرد هذه الأفكار المعوجة من مخّك الساذج إذا أردت أن تبقى في وئام معي ومع أهل الحي، وإلا... فأنت تعرف جيدا عمّك اعمر. بسهولة يصعد الزبل إلى رأسه. وحينذاك، لن تلوم إلا نفسك. سأمنعك من وضع قدميك في الحي إن أردت، سأنفيك من هذه المدينة. وليست كلماتي نفحات هواء في السماء. إن ذراعي أطول بكثير ممّا يمكن أن تتصوره يا ولدي.

– أرض الله واسعة. إن المجاهدين الحقيقيين يوجدون في أفغانستان لمحاربة الروس الملاحدة، ومن يتوفى هناك شهيد حقيقي، أما أمواتكم فليسوا شهداء على الإطلاق، ومجاهدوكم أيضا ليسوا مجاهدين، إنهم محاربون ليس إلا، والدليل أن الدولة تمنحكم منحا شهرية جرّاء خدمة قدّمتموها. فأين الجهاد في سبيل الله ؟

– ولماذا لا تلتحق بهم هناك في أفغانستانك ؟ قال المجاهد كاظما غيظه.

– سأفعل قريبا إن شاء الله.

– ستحارب في أفغانستان؟ ولكنك فقدت عقلك يا ولدي. وكيف ستصل إلى هناك؟

– الشيخ عبد القادر فتح قائمة للمتطوعين في مسجد النور بالبليدة. يكفي أن يسجّل الشخص نفسه وسيتكفّل هو بالباقي: جواز السفر، تذكرة الطائرة... أعرف إخوة ذهبوا منذ أيام قليلة فقط. إن شاء الله، سيكونون اليوم في جبهة الجهاد يقاتلون الكفار.

بقي اعمر حلموش مذهولا. إنه على علم، كجميع الذين يتابعون نشرات الأخبار في الإذاعة والتلفزة، أن الجيش الأحمر قد غزا بلاد الأفغان وأن مقاومة تشكلت في البلد لردّ العدوان، ليس أكثر. وهو لا يعرف تدقيقا أين تقع بلاد الأفغان. ولكن، أن يسمع اليوم على لسان شاب من حيّه أن شبان بلاده يُجنَّدون ليرموا كطعم سائغ لمدافع الدبابات الروسية الرهيبة، خبر يصعب تصديقه.

– فِقْ لنفسك يا شقي. لا أظن بأنك ترغب حقا في السفر إلى هناك. الحرب ليست لعب صبيان. عليك أن تكون عسكريا مدرّبا لخوض المعارك في جبال تلك الصحاري، وأنت لا تميّز بين بندقية صيد ورشاش حرب.

– لمحاربة أعداء الله، لا يحتاج المسلم إلى تدريب عسكري ولا إلى أسلحة متطورة. سينصرنا الله الغالب الجبار. يكفي الذهاب إلى الجبهة بإيمان صادق وقوي، وقبول الموت كشهيد مآله الجنة بإذن الله تعالى، ليكون النصر حليف المجاهدين.

– إن الجيش الأحمر جيش قوي هزم جيوش الألمان وما أدراك ما الألمان. لقد احتل بلاد الأفغان في بضعة أيام. بماذا ستواجهون دبابات الروس الخطيرة؟ بالسيوف وخناجر اليمن السعيد؟

– بفضل إرادة الله تعالى، ستتحوّل صحراء أفغانستان إلى مقبرة للدبابات الروسية وجنودها. إن السيوف والسهام ستمسخ إلى قنابل قاتلة، وستسقط رصاصاتهم كنفحات هواء منعش أمام مجاهدي الإسلام.

– إنك تهذي يا المهدي. الرصاصة رصاصة والسيف سيف. صدّقني إنها الحقيقة التي لا يجادل بها عاقل أبدا. اسأل المجرّب ولا تسأل الطبيب. ثمّ، من أين أتتك هذه الخرافات؟

– الشيخ عبد القادر في خطبة الجمعة الماضية قال بأن المجاهدين الأفغان يحرقون الدبابات الروسية بسهام من حطب. وأما رصاصات العدوّ فتسقط عند أقدام المجاهدين البواسل مثل مثلّجات ذائبة، وهذا بفضل الله تعالى وقدرته وإرادته في نصرة المسلمين على الكفار.

– إن تصريحات شيخك أشبه بحكايات العجائز الموجهة لتنويم الأطفال. هل سمعت الأقوال بنفسك؟

– لا... في تلك الجمعة لم أسافر. إخوة من أصحابنا هم الذين نقلوا لنا الخبر.

– أتصدّق هؤلاء «الإخوة»؟

– إنهم من الثقات، ولا أرى سببا في عدم تصديق أقوالهم. إنهم أتقياء ولا أظنّهم يكذبون. لا ينطقون إلا بآيات بينات وأحاديث شريفة.

– أنا لا أصدق أقوالهم وأطلب منك أن لا تصدق أيضا. ليست هذه الحكايات إلا دعاية لتجنيد شبان سذج مثلك، وإرسالهم إلى بلاد الأفغان. أكيد أنهم يستفيدون من مثل هذه الدعاية المغرضة.

– أنت لا تصدقهم لأن قلبك مسدود، لا ينفذه الكلام الرباني القرآني. والدليل أنك لم تبدأ الصلاة إلا منذ أشهر قليلة فقط. ويقال أنك...

قاطعه المجاهد غاضبا:

– بعثوك خصيصا لتحاسبني يا وَلد القـ... (قام على ركبتيه يريد الوقوف وعينه تبحث عن عصاه التي تركها بقرب الحصيرة) أنا أريد لك الخير... أنصحك كي لا تقع في شرك هؤلاء العتاريس، وأنت تحاسبني على ما أفعله وما لا أفعله، يا...

أخيرا، عثر على عصاه، فأمسك بها باليد اليمنى ووقف مُرغِيًا غضبا وانقضّ على المهدي، ولكن هذا الأخير، بخفة قط يقظ، قفز بعيدا خلف الزيتونة. عمد الكهل إلى مطاردته ولكنه انتبه إلى قدميه الحافيتين فانحنى لينتعل حذاءه، وعندما استعد للركض كان المهدي قد اختفى وراء أجمة من القصب والتوت الشوكي.

– ارمِ نفسك في البحر إن أردت. المرة المقبلة التي سأجدك في طريقيَ سأخصيك يا ولد الـــ....

- 9 -

تجمّعوا عند مدخل المدينة في أوّل النهار. وصلوا أفرادا وأفواجا، قبل أن تشرق الشمس ببهائها الساطع فوق هضبة سيدي المخفي. انتشروا طوال ضفتي الطريق في وضعيات وقوف وجلوس وإقعاء، يرتدون ملابس متنوّعة، ولكنها متحدة في تشكيلها القاعدي: أقمصة، جلاليب، سترات ومعاطف، بألوان باهتة لا تخرج عن الأبيض والرمادي والبني. على الرؤوس شواشي بيضاء مستديرة الشكل أو مسننة قليلا، أو طاقيات غريبة استُقدِمت توّا من آسْيَا الصغرى القروسطية. وفي الأقدام أحذية جلدية خشنة أو مطاطية رياضية. أما الوجوه، فتخفيها لِحًى كثة، سوداء. وفي الأيدي مسابح، تحرك الأصابع كرياتها بحركات آلية، مرفقة بتمتمات هامسة. يضمّ البعض إلى صدورهم مصحفا مجلدا ومزيَّنا بخطوط مذهبة، يحوي بداخله صورة أمير المؤمنين، خادم الحرمين الشريفين.

انشغل البعض بحكّ الأسنان بعود سواك، مستبسلين بضغط القطعة الخشبية بقوة، وفي ذهاب وإياب سريعين توقفهما من حين لآخر بصقة ناخمة على التربة المغبّرة. أما الباقي، يعني أغلبية الحاضرين، فاكتفوا بتحريك الأذرع وإلقاء النظرات غير المبالية حولهم.

يبدو أن هذا الجمهور الغريب ينتظر قدوم سيارة ما إلى عين الكرمة، فكلّما تعالى شخير محرك في الأفق، ترتفع العيون موجهة البصر نحو القارعة، لاصقة بهيكل المركبة إلى أن يصبح شكلها واضح المعالم، وحينذاك، يُديرون أبصارهم ويعودون إلى انشغالاتهم السابقة، وخيبات الأمل بادية على قسمات وجوههم.

وضمنهم مراهقون كثر، دخلوا توّا سنّ البلوغ، يحملون على وجوههم المرداء التي لا تزال تحتفظ بلآلئ حليب الأمّ على أرنبة الأنوف صفاء الأبرياء، وكانت الخدود الودكية، بلون الورد الطفولي تتحمّل بمشقة نشوء أفنان الشعر المتناثرة التي تعجن اللحية النابتة. انصهروا داخل مرح أشبه

بفترة استراحة مدرسية، ينفخون صدورهم ويرفعون رؤوسهم على طريقة سراديك القرية، كأنهم على قاب قوسين أو أدنى من احتلال كوكب المريخ.

وكان عدد الوافدين يتكاثر مع ارتفاع قرص الشمس في الفضاء اللازوردي وتبخّر رطوبة الندى الصباحي.

بقي المهدي واقفا، مسندا كتفه على العمود الكهربائي الخشبي، وعلى وجهه سكينة بادية للعيان. كان يحرك كريات سبحته السوداء، مرفقا الحركة الآلية بتمتمات من طرف شفتيه. بصره لا يكاد يفارق الاستقامة المتلاشية تدريجيا. غير بعيد عنه، أقعى رشيد حلْموش على حافة الساقية الفاصلة بين القارعة وحقل القمح الممتد إلى غاية ارتفاع الهضبة، في وضعية مرشد الصحراء، جامدا ولكنه يقظ. يرتدي جلابية رمادية مزوّقة بخطوط متعامدة بلون أكثر دكنا، أقدامه العريضة مندسة داخل صندل مطاطي مغبّر، وإلى جانبه، كان يجلس رجل أكدر اللون بشرته سفعتها حرارة الشمس، بحاجبَين بارزَين ومشعثَّين، تتدلى قدماه فوق ساقية المياه الموحلة، ينظف أسنانه بعود كبريت، يمسك به بشدة بين أصبعَين أظفرَين.

ورغم تطمينات سليمان مرواني الذي غادر عين الكرمة قبل ثلاثة أيام على متن شاحنة أبيه، والذي هتف مرتَين يعلن عن وقت وصوله ومعه الأمانة الثمينة، إلا أن المهدي قضى ليلة آرقة لم يغمض خلالها جفنيه.

« تقترب الساعة من العاشرة، ستصل الشاحنة من لحظة إلى أخرى » فكّر المهدي برعشة نغزت قلبه.

عبرت شاحنة الشرطة، بنوافذها المسيّجة بقضبان حديدية، المكان للمرّة الرابعة. كان المفتش الثخين يلقي النظرات الحائرة على الجماهير المصطفة على جانبي الطريق. قال لرفيقه:

– سأمنح أجرتي الشهرية كاملة لمعرفة ماذا ينتظر هؤلاء الملتحون !

– لا تشغل بالك كثيرا. أكيد أنهم جاؤوا يستقبلون شيخا من الشيوخ المصريين الذين يجوبون بلادنا في الشهور الأخيرة. نراهم باستمرار في التلفزة، يستقبلهم الرئيس شخصيا.

– لا أتصوّر المسألة بهذه البساطة. لقد استقبلوا شيخا في الشهر المنصرم، ولم يكلفوا أنفسهم بالانتقال إلى مدخل المدينة. استقبلوه

بالمسجد، وليس بهذا العدد الضخم. انظر إلى هذا « الغاشي »! لا يجتمعون بهذه الكيفية وأمام مدخل المدينة من أجل داعية، مهما كان شأنه. يوجد سرّ خطير لا نعرفه. شيء ما سيحدث هذا اليوم. تريد الصراحة، أنا قلق ومتخوّف من العواقب. مع هؤلاء الملتحين، علينا أن نتوقع أي شيء، قد لا يخطر على البال أبدا.

لحدّ اللحظة، يبدو التجمع سلميا. ولم يتلقوا أمرا بالتدخل.

نظر المهدي إلى ساعة يده؛ ما له الرقاص لا يريد التحرّك؟ هزّ معصمه بحركة مفاجئة، ثمّ قرّب الساعة من أذنيه كي يتأكّد من أنها لا تزال تشتغل. بدأ سكونه يتشقّق، وهمهم غاضبا ضد هذا الوقت الذي يرفض التقدّم نحو اللحظة الحاسمة.

الآن، ابتعد عن العمود الكهربائي ومكث واقفا، رجلاه منفرجتان قليلا، مشبكا ذراعيه على صدره البارز، ومحدقا في القارعة في صمت ضاغط. القلق يبدو على الوجوه كلما زادت الشمس في الارتفاع. تدريجيا، غادر الرجال وضعياتهم الجالسة أو المقرفصة كي يتجمعوا واقفين على حافتي الطريق، الأبصار لاصقة في الأفق، وفي حوارات هامسة، يتساءل البعض عن أسباب التأخير المحتملة.

في حوالي منتصف النهار، ظهرت الشاحنة المنتظرة بنفاد الصبر، وبمجرد اقترابها تعرّف الجمع على وجه سليمان المنهوك القوى، تسارع جميعهم محتلين القارعة المحروقة من فرط الحرارة، وببطء ملحوظ، انحازت الشاحنة نحو اليمين في صرير حاد، ثمّ توقفت، ومباشرة، أحيطت بالوجوه الحائرة والعيون الفضولية المتسائلة، الباحثة عن السرّ الذي جلبته معها من أقاصي الصحراء. عمّ الضجيج، تعالت الأصوات، انفلتت الألسنة.

بداخل قحافة الشاحنة، كان يرقد جَمَل، واستيقظ فجأة تحت الجلبة المتعالية من جميع الجهات، وألقى نظرات تائهة مرتبكة محركا عنقه الممشوق. عانق المهدي سليمان بحرارة، محيطا إياه بذراعيه وضاربا على ظهره براحة يده اليمنى، مرحِّبا مهلِّلا بصوت صاخب، وألبسة المسافر لا تزال تحمل أثار الرمل والغبار الأمغر.

قفز المهدي بخفة إلى داخل القحافة واقترب من الجمل ونظر إليه بإمعان، ثمّ انحنى وأدخل رأسه تحت بطن الدابة؛ يريد أن يتأكّد بنفسه

من الطبيعة الأنثوية للحيوان، مثلما نصح سليمان طويلا قبل رحيله. بعد معاينة دقيقة، وقف مزهوا وعيناه تتلألآن ابتهاجا وسرورا، ثم استدار نحو الجمع المنتشر أمامه وقال بصوت متأثِّر:

– ستعيشون يوما مشهودا، يغيّر مجرى التاريخ في هذه المدينة المباركة، وستردّده الألسنة طويلا. ربّما تساءل الكثير منكم عن سبب استقدام هذه الناقة من الصحراء! ولكم الحق أن تتساءلوا. املأوا قلوبكم إيمانا وخشوعا. إن رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلّم – حينما هجر إلى المدينة المنوّرة، وأمام تسارع الأنصار وتسابقهم لاستقباله، وكي لا يغضب أحدا منهم، اهتدى إلى فكرة الانسياق خلف ناقته كي ترشده الرشاد المبين. قال لهم: « خلّوا سبيلها فإنها مأمورة ». وتنتشي الناقة المأمورة فتجوب المدينة على وقع الشدو العذب الجميل، وبركت حيث كان يجب أن يُرفع مسجد الإسلام الأوّل ويبنى بيت محمّد. اليوم، وبعد مرور خمسة عشر قرنا، نحن، أتباعه الأوفياء، سنقتفي أثره. كلكم يعلم أننا بحاجة ماسة إلى مسجد، وهذه فرصة من ذهب، سيكون لنا مسجد، وفي أقرب وقت ممكن، هذا المساء، قبل غروب الشمس، إن شاء الله تعالى. الناقة هي التي سترشدنا إلى مبتغانا، بمباركة الله ورسوله الكريم.

بعد ذلك، وبحذر مفرط فيه، أنزل الناقة. وقفت قليلا تلقي النظرات البلهاء في كل الاتجاهات، تمدّدت بطولها الفارع وأسقطت بقايا الرمل والتبن العالق بظهرها، ثمّ مشت في سير دبيب، دون توجيه من أحد.

هكذا انطلق الموكب الغريب يجوب شوارع عين الكرمة. اصطف المنتظرون خلف الناقة، يغمرهم إحساس بالتفرّد والاعتزاز، مسرورين رغم الانتظار المرتقب تحت الشمس القائظة لساعات طويلة. تقدّمت الناقة التي لا يبدو عليها أدنى تغرّب، في سير دبيب ساعة وتهويد أخرى. تارة تحث الخطى، ترمي بقوائمها كمشي النعام، وتارة أخرى تتكاسل إلى حدّ يظهر لمرافقيها أنها على وشك التوقف. كان الحشد الملتحم، المتزاحم، يتكاثر على مرأى العين. المهدي في الصف الأول إلى جانب سليمان ورشيد وصاحب الحاجبين المشعثين. وخلفهم، وبأعداد مذهلة، يتحاشر المريدون، المتَوهِمون والفضوليون الآتون من كل حدب وصوب. أثناء المسيرة، التحق بالركب المتسكعون والبطالون، المتخمون بالفراغ والقرف، غير عارفين

كيف يملؤون أيامهم المضجرة، يجرجرون أقدامهم من مقهى إلى آخر، من ساحة إلى أخرى، من شارع إلى آخر، بلا توقف، بلا فائدة.

حينما دخل الموكب الشارع الرئيسي، أفرِغت المتاجر وتسارع الناس في موجات مندفعة، محدثين ضوضاء مصِمَّة مربكة. في ثواني معدودة، غصّت الأرصفة بجمهور لا يُعَدّ، بحيث إذا سقطت بيضة لا ترسو إلّا على رأس أحدهم، وعلى العيون تعلّقت أسئلة بلا جواب.

أما الناقة التي يبدو أنها بدأت تتسلى بالحضور الصاخب، وبالعناية المفرطة والحراسة الشديدة للمهدي وجماعته، الرافسين القارعة خلفها، فكانت تتقدّم بسهولة، في توارك ذابل، خاص بنجوم السينما، جامعة بين الجمال والإغراء وغرور مبالغ فيه.

كانت عيون المهدي تتلألأ سعادة، برغم ضوء الشمس الساطع. يلقي نظرات خفيفة حوله، وحينما يتعرّف على شخص ما يتصدّق له بابتسامة عريضة، معبّرة عن إحساس الانتصار الذي يغمره، مرفقة بحركة يد خاطفة. أما سليمان مَرْواني، وبرغم التعب، أخذ على عاتقه مبادرة إطلاق شعارات دينية، يردّدها الآخرون بأصوات متردّدة في البداية. فجأة، أطلق أحدهم العنان لحنجرته، لترتفع بأنشودة « طلع البدر علينا من ثنيات الوداع/ وجب الشكر علينا ما دعا لله داع/ أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع ». وفي اللحظة نفسها، تعالت عشرات الحناجر تردّد النشيد.

تزاحم المتطفلون الفضوليون في هرج ومرج، متفادين المشدّات اللفظية أو الجسدية كي يتمتعوا بالفرجة دون انزعاج من أيّ نوع. عام رجال الشرطة وسط الأمواج البشرية المتدفّقة؛ تجاوزهم الحدث ولم يفقهوا منه شيئا. كان المفتش أكثرهم استغرابا وحيرة، رغم أنه جرّب الحياة ويشهد له زملاؤه بصدق توقعاته التي غالبا ما تسبق الأحداث. ولكنه اليوم أصيب بصاعقة حقيقية. أسرّ لأحد زملائه أن فكرة استقدام جمل من الصحراء ليُترك هائما في شوارع عين الكرمة لا يمكن أن تخطر على بال شباب المدينة. هي بلا شك نصيحة أحد الدعاة المشارقة الذين يتناوبون على مساجد البلد. ولكن لأيّ هدف؟ هو اللغز الذي أغرق المفتش في تكهنات متشعبة، دون أن يستأنس بواحدة منها.

حينما وصلت الناقة بقرب سوق الخضر والفواكه، توقفت لحظة، استنشقت الهواء الساخن وبقيت مشرئبة العنق شبه مذهولة لثوانٍ بدت أبدية للمهدي وأصدقائه. ثمّ استدارت نحو زنقة جانبية تنفتح مباشرة على ساحة السوق الغاصة بالناس والسلع، كأن رطوبة ما جذبتها بقوة مغناطيس. تحرّك الفضوليون المكدسون كالجراد على الرصيف وفسحوا لها مسلكا، فتسللت وسطهم بخفة، دون أن تفقد من أناقتها. في هذا المكان المحدّد من المسيرة، حدث ما لم يكن في الحسبان. كان الجميع يتوقع أن تواصل الناقة تهويدها بطريقة مستقيمة، دون تخويد ولا وَخَدان. وتبعا لهذه الاستراتيجية المنطقية في ظاهرها، اتخذ كل فرد مكانه عبر الشارع الطويل على أحد الرصيفين بحيث يمكنه متابعة المشهد ولو عن بعد. ولكن الناقة أتلفت كل المخططات، بتغييرها لاتجاه المسيرة، ودخولها في زنقة ضيقة وقصيرة. وهو ما أدّى بهم حتما إلى إعادة النظر في الاستراتيجيات المتخذة، وذلك بالتنقل بخطى سريعة، أو الجري إن أمكن. أما المتعوِّدون على المكر والاحتيال، فتسارعوا لإيجاد الطرق المختصرة بنية الوصول إلى السوق قبل الناقة. ارتبك المهدي للحظة قصيرة، ولكنه وبسرعة، استعاد رزانته المعهودة. الذراع في الذراع، رافعين عقيرتهم بالنشيد الممجّد لعظمة الله ورسوله والناقة المحظية، تمكن الجمع من الحفاظ على توازن الصفوف برغم تدفق الدهماء الفوضوي، فدلفوا في الزنقة.

اندبقت السيارات وسط الازدحام المتلاطم. في البداية، انزعج السواق فأفرغوا جمّ غضبهم على المنبهات، محدثين بها ضوضاء تصم الآذان، ولكنهم وبمجرد وصول الأخبار الأولى حول طبيعة الحدث، انساقوا طائعين خلف الفضول والإشاعة المتعالية. اكتفى بعضهم بالانتظار وتقصي الأخبار عبر الأسئلة الملحاحة المكرّرة، أما البعض الثاني فركن السيارة مثلما اتفق وركض نحو الأمام كي لا يفوته شيء من المشهد الغريب. في دقائق معدودة، كانت ساحة السوق عرضة لغزو بشري لم تشهد له مثيلا في تاريخها السحيق. أما الزنقة التي سلكتها الناقة فتتكوّن في أعمّها من المحلات التجارية المتنوعة : مقاهي، مطاعم، محلات الأكل الخفيف، جزار، لبّان، إسكافي، مسمكة، إسفنجي تونسي ثخين يقطر دوما عرقا والمُزابي الملتحي، بائع الخردوات، وكذا بائع التبغ الأعمى الذي لا يغلط

أبدا في ردّ الصرف لزبائنه. في منتصف هذا اليوم القائظ، خرج الجميع لافظين كل ما بأيديهم، الملاك وزبائنهم، وكذا أولئك الذين يرافقونهم طوال النهار قتْلا للوقت بمساعدتهم على إنزال السلع وحملها إلى الرفوف وترتيبها، واصطفوا على الرصيف كي يشهدوا تقدّم الناقة الفاتر، فاغرين أفواههم، غير مصدقين ما تراه عيونهم. وعلى شرفات المنازل، عواتق، عين مندهشة على الناقة، وعين راغبة متفحصة على الفتيان المرافقين لها.

حينما وصلت الدابة إلى ساحة السوق، انقضَّت على ركام من الخضروات المشكلة من السلاطة والجزر والخرشف فراحت تقضمها قضما. الغريب في الأمر أن البائع الواقف خلف الركام لم يتحرّك ولم يتفوَّه بكلمة ؛ أخرسه الذهول... ربّما يرى الجمل لأوّل مرّة في حياته. وبخفة نمور، التف المهدي ومقربوه حول الناقة بغرض حمايتها من الأذى وتمكينها من سدّ رمق جوعها الذي يكون بلا شك قد جفَّف أمعاءها.

وبعد أن ملأت بطنها، استأنفت دبيبها وسط الحشد المتكاثر باستمرار وحماتها الذين يراقبون حركاتها عن كثب. ابتعدت عن ساحة السوق، والناس يتنحّون تدريجيا، عن الطريق ليخلو سبيلها ويتركوها تمرّ بسلام. أَوَليست مأمورة هي الأخرى ؟ انتهجت شارعا متوازيا مع شارع الثورة، والذي يؤدي مباشرة إلى الطرف الآخر من المدينة. وبقرب آخر منزل، ترتفع بناية مهترئة، يعود تاريخ بنائها إلى العهد الاستعماري. استخدمت لمدّة زمنية طويلة مرآبا للجرارات والآلات الفلاحية. ومع تدهور قطاع الفلاحة، بقي المرآب مهملا إلى غاية تحويله قبل سنتين إلى (سوق الفلاح)، تمّ تدشينه باحتفالية رسمية وبحضور كاميرات التلفزة لأوّل مرّة في عين الكرمة من طرف وزير للجمهورية الديمقراطية الشعبية، واعتُبِر البازار اكتشافا ثوريا لا مثيل له في خدمة الشعب والوطن. أراد العقيد الجديد الذي عيِّن رئيسا خلفا للعقيد السابق أن يضع حدا لظاهرة الندرة الخانقة التي عصفت بالأسواق في عهد سلفه، منتهزا فرصة ارتفاع محسوس لسعر برميل النفط في الأسواق العالمية، أمر بتحويل كل المساحات الممكنة إلى « أسواق الفلّاح » وملئها بالسلع المستوردة. ولكن سعر النفط انخفض بسرعة مذهلة، فتقلصت المداخيل المالية وضعف الاستيراد، لتجد هذه المساحات الكبرى نفسها تفرغ رويدا رويدا.

إذا في هذا اليوم، حينما توقفت الناقة بقرب سياج المرآب دون أن يدرِ أحد سبب هذا التوقف، كان المكان فارغا والعمال مجتمعين مثنى وثلاثى يثرثرون في أمور شتى لتضييع الوقت. الرفوف الحديدية الصدئة شبه فارغة ومطلية ببقع الزيت والدسم النباتي وبقايا متنوعة من العصير والمربّى... لا شيء نافع يباع. وفي انتظار التمويل الذي يؤجّل من شهر إلى شهر، يتفنَّن العمال، رجالا ونساء، في كيفيات تضييع الوقت دون بذل أيّ جهد يذكر، فما وجدوا إلا « البوليتيك » أي إقامة حلقات للتشاور حول القضايا الكبرى للأمّة، يقترحون الحلول المناسبة للخروج من الأزمة الخانقة، فتراهم ينفعلون ويرفعون أصواتهم ويقسمون بأغلظ الإيمان بأنهم يمسكون خيط الحلّ في أيديهم. وما على الزبائن المساكين إلا انتظار أن ينتهي هؤلاء الخبراء من التشاور كي يحظوا بخدمة ما. وفي انتظار ذلك، يطوفون حول الرفوف الفارغة، حانقين، شاتمين. ولكن، هل ينفع الحنق والشتم ؟ لا سامع يجيب، ولا مسؤول توجَّه إليه الشكوى !

مباشرة بعد أن توقفت الناقة أمام سوق الفلّاح، همس المهدي بدعاء خاشع كي تكون الوقفة وقفة نهائية ؛ إذ يسهل تحويل المرآب إلى مسجد. دون انتظار، اتجهت أشهر الإبليات نحو مكان مظلل، يحتوي في عمقه على مزهريات بها شتائل خضراء. وقبل أن يتحرّك عامل من العمال الذين خرجوا مسرعين لمتابعة المشهد، كانت الناقة قد نهشت باقة من أوراق السرْخَس وطفقت تلوكها. حينذاك، أسرع عامل يرتدي مئزرا أبيض ملطخا ببقع الدسم، صائحا، رافعا ذراعيه في غضب ظاهر، بِنِيَّة إبعاد الحيوان من الأغراس الخضراء، ولكنه لم يقطع إلا بضع خطوات حتى كان صاحب الحاجبين الأشعثين يقف أمامه حاجزا مانعا، يمطره بنظرات مهدّدة، شاهرا عصا غليظة يهزهزها في وجهه. واصلت الناقة الهرس والمضغ، دون اكتراث بما كان يدور حولها.

أحاط المهدي وأصدقاؤه بالناقة، مراعين عدم إزعاجها. كانت عيونهم تتلألأ سعادة ؛ لقد أحسنت الناقة الاختيار، وكيف لها ألّا تحسن وهي المأمورة ؟

غصّت قارعة الطريق والأرصفة بالمتجمهرين المزدحمين بحيث سدّوا كل منافذ الخروج. اشرأبت الأعناق، تدافعت المناكب، ترافست الأقدام ؛

الكلّ يريد رؤية ما يحدث بساحة سوق الفلاح. طفق بعض الملتحين بجلابيبهم المبللة بالعرق يصدّون الداخلين. أغلقوا السياج الحديدي، تدافع الناس وتعالت أصوات احتجاج ونداءات. انفتح السياج ودخلت مجموعة أفراد، ثم أُغلِق وفُتِح ثانية.

أمّا الناقة، فمكثت في الظل تمضغ وتجتر في اطمئنان ظاهر، تحرّكت قليلا ورفست المزهريات فتكسّر بعضها. فجأة، تغوّطت في طقطقات خفيفة غطتها ضوضاء المتزاحمين قرب السياج، وبعد أن أفرغت بطنها، جثت على ركبتيها الأماميتين، ثمّ بركت فتحَلْحَلت وضربت بجرانها على الأرضية المبلطة، وسط بقايا الورق والسيقان المتناثرة والتراب المبلل، مستدبرة خدّامها، مستعدّة للاستغراق في قيلولة مستحقة.

في تلك اللحظة، ارتجّ المهدي بكل جوارحه، متبوعا بكل الأصحاب الذين يعرفون الغرض الفعلي من استقدام الناقة، وتعانقوا بحرارة صادقة مهللين مبشرين بقدوم يوم عظيم. بعد ذلك، قفز بخفة على درج السلالم وطلب الصمت وألقى خطبة طويلة وأطال في شرح مشروعه ومنافعه. كان صوته مرتعشا من فرط الغبطة والانفعال، وارتخت قسمات وجهه البارز التقاطيع. أوضح بأن الله وجّه خطوات الناقة مثلما فعل مع ناقة الرسول محمّد، وأنه سيحوّل سوق الفلاح إلى مسجد بإذن الله تعالي، ومنه ستنطلق الفتوحات الحديثة لإقامة الخلافة الإسلامية، ثم ختم خطبته بدعاء طويل، ظنّ الناس أنه سيستغرق الظهيرة كاملة. بعد ذلك، أمر بطرد العمال ليحلوا محلهم، فتسارع الملتحون إلى إفراغ السوق؛ احتج بعض العمال وحدثت مناوشات ومشادات كلامية وجسدية، ولكن الملتحين كانوا عازمين على تنفيذ الأوامر، مستعملين في ذلك كل الوسائل المتاحة، غير آبهين بالاحتجاجات والمعارضات الفاترة. أغلقوا السياج واحتلوا المساحات الفارغة بين الرفوف في جوّ من البلبلة الفوضوية.

في الطريق العمومي، التصق الفضوليون كيفما كان بالقضبان الحديدية، يتبادلون النظرات المتسائلة. الآن، تقف مجموعة من الرجال أقوياء البنية، يحرسون المدخل ويفتحون السياج للمتأخرين من أفراد جماعتهم. حينما تمكّن مفتِّش الشرطة من شقّ الطريق وسط جمهرة الغوغاء المغروسين في أماكنهم مثل مسامير في رافدة ورشة البناء، مستعينا بالدفع والشتم

والتهديد، كان المكان محتلا احتلالا محكما. أمر بفتح الباب فتجاهله الحراس الشداد الغلاظ بمكر مقصود. خبط بغضب على الصفيح وهدّد باستعمال السلاح، فركض أحد الحراس ونادى المهدي. انفتح الباب قليلا فقط ليمر شخص واحد، وعليه أن يكون هزيلا ضامرا مثل ناسك متعبّد في الصحراء. أما المفتش، بكرشه الشبيهة بكرش المرأة الحامل في آخر شهرها فإنه أمام خيارين غير قابلين للتحقيق في هذه اللحظات: أن يخلّص جسده من الشحم الزائد، أو أن يتكرّم الحراس الشداد الغلاظ بفتح السياج على مصراعيه. ولكن، لا المفتش قادر على تحقيق الشرط الأوّل ولا الحراس مستعدون لتحقيق الشرط الثاني؛ لذلك بقي الوضع على حاله. في نبرة هادئة ولكنها صارمة، قال المهدي بأن السوق سيتحوّل إلى مسجد، وعلى المفتش أن يذهب فورا لإخبار رؤسائه. وبدون أن يمنح له فرصة الردّ أو طلب التوضيح، صفق الباب في وجهه. بقي الشرطي مشدوها لا يدري بالضبط ما هو ردّ الفعل الملائم أمام النظرات المصوّبة المنتظرة. هو المفتش الآمر الناهي، يهان بهذه الكيفية الحقيرة! تواصلت إلى أذنيه مقاطع من عبارات تسخر من جبنه، وكان ردّ فعله سريعا على الفضوليين، فحينا وبلا أدنى تفكير، أعطى أمرا لرجاله بإخلاء المكان، فسُلَّت المقمعات الخشبية وانهارت على الرؤوس والأكتاف، ترافقها القبضات والركلات، والكلّ مزدان بالشتائم البذيئة. عرف المكان تزاحما عنيفا: ركْض وسقوط ومشدّات... وفي ثوانٍ معدودة، تمّ كنس الأماكن المجاورة للسوق من الأجساد المكدّسة. مضغ المفتش أوامر صارمة لرجاله وغادر المكان مضطربا قلقا. القضية أصبحت خطيرة، وعليه أن يخبر المحافظ فورا ودون أدنى تأخير.

- 10 -

بعد أيام قليلة فقط من إعلان وقف إطلاق النار، غادر اعمر حلموش جبال الونشريس التي ما فتئت أحذيته الخشنة ترفس شعابها ووهادها خلال سنوات الجمر والنار، وبداخله قرار حاسم لن تثنيه أية قوة عن تحقيقه.

– لم نخُض حربا ضد الاستعمار وننتصر انتصار الأُسود كي نبقى جاثمين بجبالنا برفقة الغنم والقراد. عين الكرمة، يا عائشة، عين الكرمة تتدفق

فيها الخيرات. المعمرون يغادرون ديارهم ويتركونها فارغة. انطلق السباق. ومثلما كنت من السابقين في الصعود إلى الجبال، سأكون من السابقين أيضا للهبوط إلى المدينة. الحياة فرص يا بنت الجيلالي، إن لم تخطف سهمك في اللحظة المواتية، طار منك إلى الأبد. لن نترك الخَوَنة يتمتعون بخيرات فرنسا، هي في الأصل حقّ مشروع لنا، نحن المجاهدين. استعدي للرحيل إلى المدينة يا بنت الناس. سأغيب أياما قليلة فقط، لا تقلقي...

هكذا قال لزوجته قبل توديعها. تفحّصته بنظرة مريبة، فيها الكثير من الأمل والحزن، هي التي ابتهجت بنهاية الحرب ليعود إليها بعلها بعد كل ذلك الغياب، ولكن الفرحة كانت وميضا خاطفا. هل كتب لها أن تعيش دوما بعيدة عن زوجها؟ التهمته الجبال بالأمس، وها هي المدينة اليوم تبعث بلحنها المغري لتخطفه منها ثانية. تملّكها الخوف لأنها غالبا ما سمعت عمتها تقول: المدينة تسرق الرجال، كالضرّة تماما.

طلب المجاهد اعمر حلموش يد الفتاة عائشة، صاحبة السابعة عشر، أياما قليلة فقط بعد أن رآها لأوّل مرّة في زيارة ليلية عند أبيها، مسبَّل المنطقة وجامع أموال الجبهة. هي التي قدّمت الأكل للجنود الأربعة: كُسْكُس بالدجاج مرفقا بطاس من اللبن. دخلت عليهم خافضة العينين، تحمل القصعة بين يدين ترتجفان قليلا. ولكن، بمجرد حط القصعة، رفعت بصرها يؤجِّجها فضول رؤية المجاهدين؛ جميع النساء يتحدثن عنهم، ولكن قلة منهن تمكن من رؤيتهم، وبنظرات مختلسة. ألقت الفتاة نظرة دائرية خاطفة، مما مكنها من مشاهدة الأسلحة البراقة تحت ضوء الكانكي الخافت، والقشابيات البنية اللون، والوجوه الضامرة، الصارمة الملامح، والعيون اليقظة. وحينما أخبرتها أمها بأن أحد الجنود الذين تعشوا عندهم منذ أكثر من أسبوعين طلبها زوجة له، قضت جزءا من الليل تجتهد لاسترجاع ملامح الوجوه الباقية في ذاكرتها، كي ترسم وجها للخطيب بلا جدوى. صحيح أن الحرب شجبت الأعراس، ولكن عائلات كثيرة تزوّج أولادها وبناتها، بلا أدنى تردد. شهور معدودة، زيّنوها مثل سلطانة، ولفّعوها ببرنوس جدّها، وأركبوها بغلة إلى غاية السهل، ثمّ امتطى الموكب الصغير شاحنة، وبعد فترة أركبوها بغلة مرة أخرى، لتجد نفسها في دار زوجها. دام السفر تقريبا نصف يوم. كان أبوها فخورا بتلك

المصاهرة، وهي أيضا، رغم ما كان يخامرها من خوف، ذلك أن الأخبار الآتية من الجبال ليست دائما مفرحة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ها هو زوجها المجاهد اعمر حلموش يستعد لخوض حرب أخرى. ولكنها اقترنت به زوجة طيِّعة ولا تملك من الحلول إلا الانصياع إلى أوامره.

كان اعْمر حلموش يحضّن مشروعا جريئا، وصمّم على تنفيذه في أقرب الآجال. انسل من كوخه الجبلي عند أول صيحات الديكة، متلفّعا بقشابيته الوبرية البنية اللون، منتعلا حذاء الباطوغاس، وعلى رأسه عمامة رمادية اللون، يشدّ بندقيته المعلقة على الكتف بحزم وافتخار. مشى بخطى سريعة، صامتا. إنه يعرف الدروب الموصلة إلى المدينة على أطراف أصابعه، فقد سبق له أن سلكها مرارا وتكرارا، نهارا وليلا. تراوده فكرة عظيمة، ترعش بدنه كلما استحضر تفاصيلها. قبل بداية الحرب، اشتغل عاملا في مزارع عدة، وصورة تلك التي أسالت لعابه وأنبتت في ذراعيه أجنحة باز في هذه الصبيحة الربيعية، ماثلة في مخيلته، معشَشة تأبى الاختفاء. يتخيلها أجمل الديار، أكثر بهاء وشموخا من ذي قبل. « لحسن حظي أنني احتفظت بالبندقية(فكّر بعصبية) أراد القائد سي عبد القادر أن نضع أسلحتنا ونغادر المركز بأيدٍ فارغة. رفضت رفضا قاطعا. الحرب لم تنته بعد، وأنا أسكن في جبل أعزل. قلت له أنا بحاجة إلى بندقية صيد، لن أعود إلى قريتي بلا سلاح. كان متفهما. عمر مديد لصديقة أيام الشدّة ». لَمَس الماسورة براحة يده كأنه يتأكّد من أنها لا تزال بحوزته ويستطيع الاعتماد عليها اليوم كما بالأمس، وأطال الخطو مستنشقا الهواء الصباحي المنعش، وفكّر : « أكيد أن الرومي يكون قد هرب لينجو بجلده، وستبقى الدار بلا مالك. وإن وجدت شخصا بداخلها، سأطرده دون رحمة. إنه منزلي، حجزته منذ أمد بعيد » ثمّ بعد تأمل قصير : « ماذا سأفعل إن وجدت مجاهدا قد سبقني إليها ؟ أتعارك معه ؟ انتهت الحرب ضد العدوّ ونشعلها بيننا... لا... يلعن الشيطان. إن شاء الله سأجدها فارغة... وإلا... الله فتاح ورزّاق ».

وحينما وقف على طرف البطحاء الجاثمة على قمّة رابية سيدي المخفي، غير بعيد عن البناية القديمة بقبتها البيضاء التي تحوي ضريح الولي الصالح، كانت الشمس في سمتها، ترسل حرارة دافئة. تطل الهضبة

على المدينة، وفي الأسفل، عبر السهل المترامي الأبعاد، تتربع عين الكرمة بأبنيتها الواطئة المتقاربة حينا والمتباعدة في أغلب الأحيان. وقف اعمر حلموش مشدوها، ببصره التائه، المحلق عبر الأفق الأزرق، لا يصدق عينيه. أخيرا، سيستقر بالمدينة. تذكّر المرّات العديدة التي اضطر فيها إلى مغادرتها عند اقتراب الليل، سواء بإرادته أو تحت تهديد الشامبيط الذي يستوقفه مهددا ويستنطقه حول عمله وعنوان سكنه، ليأمره فورا بالخروج من المدينة والالتحاق بدواره أو بإسطبل المعمر الذي يعمل عنده. كم مرة كظم غيظه وطأطأ رأسه وتسلل كاللص خارج أسوار عين الكرمة، مجترا حقدا دفينا تضخم مع الأيام. يغادر الشوارع النظيفة المضيئة ليندفن في الدروب المتربة المظلمة.

اليوم، يقف شامخا، يواجه المدينة، غازيا، منتصرا، ينتابه شعور بألّا أحد سيوقف زحفه. هل حقا أن أحلامه ستتحقق بالسهولة التي يتصورها وسيصبح مثل الرومي، يملك منزلا مبنيا بالحجر بسقفه المرتفع، ونوافذه الكبيرة وغرفه المضيئة ؟ أخيرا سيتخلص من الكوخ الواطئ المظلم، يكاد ينهار على الرؤوس عند أوّل هبّة ريح.

كان باب الضريح مفتوحا، فنزع حذاءه ودخل، كل جوارحه أمل في أن يستجيب الولي الصالح لدعائه ويلفّه ببركته. ركع خاشعا، متمتما أدعية صادقة، ثمّ جلس على حصير من الدوم، مسندا ظهره إلى الجدار والبندقية على ركبتيه. بقي على تلك الحالة دقائق طويلة إلى أن غفا ونام. حينما استيقظ شعر بالبرد، وقف بخفة وتمدّد متأوّها متثاوبا، وخرج. كانت الشمس قد توارت تحت غيمة عابرة، وخفت النور الساطع قليلا. ما العمل الآن ؟ خطى أمتارا إلى غاية حافة البطحاء وتأمل السهل مرة أخرى. هناك، قريبا، في أسفل الهضبة، بقرب واد مغطى بالحشائش وأحراش التوت الشوكي والقصب، تقبع دار أحلامه بسقفها القرميدي الأحمر، في وسط الفناء ترتفع نخلة، بدت أنها تتحدى بطولها الفارع أشجار الزيتون والصنوبر الوافرة في الضواحي. أطلق زفرة يريد تحرير صدره من الضغط المباغت... « هيا بنا... أنا أم أنت يا داري العزيزة... الويل لمن سأجده بداخلك... ».

شدّ اعمر حلموش خيوط حذائه الخشنة وتحسّس بندقيته وسوّى عمامته، ثمّ بحث بعينيه عن درب ما يوصله إلى منزله الجديد. مشى

على حافة البطحاء مفكرا بأن زوار الضريح يكونون بلا شك قد سنوا مسلكا وسط الغابة. عثر على الدرب دون مشقة، فاقتفى أثره بخطى مديدة زلقة، كانت أشجار الصنوبر كثيفة الأغصان، تغطي جانب الهضبة إلى غاية الوادي، تتخللها أجمات من النباتات الشوكية، وفي بعض الأماكن كان الدغل متشابكا تسوط وجهه أغصان بأوراقها المسننة. ولكن لا شيء سيثنيه عن عزمه.

لم يكن المنزل صغيرا مثلما بدا له من فوق الهضبة. طاف حوله باحثا عن الباب، وكم كانت فرحته حينما صادف طريقا واسعا يؤدي مباشرة إلى حظيرة تبدو مهملة، وغير بعيد عن سياجها الخشبي الخرب يوجد باب صغير، هزّه بعنف ولم ينفتح. أيّ باب هذا الذي يستعصي على اعمر حلموش؟ نزل خصيصا من جبال الونشريس لفض الأبواب الموصدة. تراجع خطوات إلى الوراء وتأبّط سلاحه بقوة ذراعه، وحطّم الباب بضربة قدم عنيفة، ودخل يقدّم رأسه نحو الأمام، يجذبه الفضول. وجد نفسه في فناء واسع وفي وسطه النخلة الشامخة، وبمجرد أن رفع رأسه ليرى جريدها المتدلي ارتفع صوت خلفه:

- ماذا تفعل هنا؟ ولماذا كسّرت الباب؟

في حركة فظة، التفت نحو الصوت شاهرا سلاحه نحو الرجل الغريب الواقف في عمق الفناء يسوي ملابسه. يبدو أنه كان نائما وأيقظه صخب كسر الباب. كان يلبس سروالا أوربيا وشاشية حمراء. سأله اعمر حلموش بنبرة صاحب حق وسلطة معا:

- أين صاحب الدار؟

- أنا صاحب الدار.

- أنت عربي وهذه الدار ملك لرومي أعرفه.

- باعها لي الرومي قبل أن يغادر البلاد.

- هاه... أنت تعرف الرومي إذن؟

- نعم... كنت أشتغل عنده.

- ولماذا غادر الرومي البلاد يا....؟

تلعثم الرجل قائلا:

– وقف إطلاق النار... استقلال الجزائر... هرب المعمرون ولم يبق منهم أحد.

– هربوا ولم يبق منهم أحد... ولماذا هربوا ؟

– ...

– خرجت فرنسا من الجزائر لأننا طردناها... نحن المجاهدون الذين أخرجناها بقوة السلاح. هل أنت مجاهد ؟ أين كنت أثناء الثورة ؟ تخدم سيّدك الرومي، أليس كذلك ؟ وتأتي وتقول لي اشتريت دار الرومي. بماذا اشتريتها ؟ بالقمل المعشش في رأسك ؟ أم كانت زوجتك تنام مع الرومي ؟ اسمع يا هذا : ابتداء من هذه اللحظة، أنا هو سيّد هذه الدار. ستغادر المكان حينا، وإلا تكلمت بندقيتي هذه. أسمعت قولي ؟ يا الله، طر من هنا.

وجم الرجل في مكانه، لا يعرف الردّ المناسب على هذا المعتدي الفظ. كان الخوف باديا على محياه ونبرة صوته حينما قال :

– أنا أيضا شاركت في الثورة. ساهمت بالمال والطعام و...

– لا أريد أن أسمع شيئا. المجاهد هو الذي صعد إلى الجبل وحمل السلاح ضد الاستعمار. ونحن أولى بديار المعمرين من أيّ كان.

ثمّ بعد برهة صمت، رفع صوته قائلا :

– من المفروض أن الناس الجبناء مثلك، الذين كانوا يعيشون في وئام مع المعمرين، نسحبهم إلى أقرب شعبة، ونذبحهم من القفا ونرمى جثتهم للكلاب الضالة.

اقترب اعمر حلموش من الرجل شاهرا البندقية في وجهه. تراجع الرجل إلى الوراء وقال :

– سأشتكي إلى المجاهدين. أعرف مسؤول الناحية. سيطردك ويرد لي داري...

– أعطيك دقيقة لتختفي عن بصري (قال اعمر حلموش بنبرة مهددة) تزيد تفتح فمك أفرغ فيك رصاص بندقيتي.

ابتعد الرجل مسرعا، يجتر بين أسنانه أقوالا غير واضحة.

نفخ الغازي صدره وبدأ يتفقد منزله الجديد.

في صباح الغد، عاد صاحب الشاشية الحمراء ومعه رجلان، أحدهما مسلح يرتدي معطفا عسكريا برغم حرارة الجوّ. في البداية قدّم اعمر حلموش نفسه، وأكدّ بأن الدار داره ولا أحد سيخرجه منها. يبدو أن صاحب المعطف العسكري يعرفه لأنه ارتبك قليلا قبل أن يحييه تحية عسكرية ويتقدّم لمعانقته مرحّبا مهللا:

– أقدّم لكم سبع الونشريس، المجاهد الصنديد الذي أرعد جيش فرنسا. كنت معه في نفس الناحية قبل أن أصاب بجرح وأنقَل إلى وجْدَة.

ثمّ اختلى برفيقيه وتحدّث الجميع بصوت خافت لفترة وجيزة. بعد ذلك انسحب صاحب المعطف العسكري معتذرا عن الإزعاج. بقي صاحب الشاشية الحمراء واقفا قرب الباب مطأطأ الرأس، قبل أن يلتحق هو أيضا برفيقيه.

لم يعد صاحب السروال الأوربي والشاشية الحمراء مرّة أخرى يطلب حقه في ملكية الدار. بعد أيام قليلة، صعد إلى الدوار واستقدم زوجته وابنيه وعاد قبل غروب الشمس، خوفا من أن يستولي على الدار من هو أقوى منه، خاصة أن قوافل المجاهدين بدأت تغادر معاقلها في الجبال، وتبحث عن الغنائم. أليسوا المنتصرين ويحق لهم الانتفاع بخيرات الرومي التي تركها شاغرة؟ إنه صيف 62 الساخن بفوضى وحمى التملك والسيطرة والانتفاع بالمال ومواقع المسئولية. ولكن اعمر حلموش لم يكن يريد إلا حوشا بقرب المدينة، ليتخلص من حياة الضنك والفاقة التي أرهقت كاهل طفولته وشبابه.

- 11 -

قضى أصحاب الناقة ليلة هادئة. على الرفوف، تتناثر كميات معتبرة من الأكياس والعلب بداخلها مواد غذائية مشكوك في نظافتها. انهال الشبان الذين ينحدرون في أغلبهم من الضواحي الفقيرة للمدينة على علب البسكويت والمصبرات، وبعد الراحة والوليمة، حان دور الكساء. إنها فرصة سانحة للتخلص من القمصان الرثة والأحذية المشققة. صحيح أن النوعية المتوفرة رديئة ولكنها جديدة على كل حال، وبالمجان. إنها فرصة

العمر للكثير منهم. في تلك الليلة، وبعد صلاة المغرب مباشرة، ألقى عليهم المهدي درسا مطوّلا تطرّق فيه إلى مواضيع عدّة، مؤكدا على ما ينتظرهم من أعمال لإرساء مجتمع الخلافة الإسلامية. كان التعب باديًا في وضعيات الجلوس الأقرب إلى التمدّد، وفي التثاؤب الذي ينتقل من شخص إلى آخر. لقد احتل الرجال الفضاء حسب رغبة كل فرد وطبيعة العلاقات التي تمّت إقامتها طوال ذلك اليوم المشهود. كان اعتقادهم مطبوعا بثقة عمياء، لا يمكن لأيّ قوة في العالم أن تزعزعه. تصوَّروا جماعتهم بمثابة يد الله التي إن نزلت على رأس أيّ فرعون خرّ ساجدا تائبا. لقد حظيت جماعتهم بالرعاية الإلهية التي قادت خطوات الناقة إلى غاية هذا المرآب. أما المهدي، وفي ساعة متأخرة من الليل، حينما تمدّد ليذوق طعم راحة الفاتح المغوار، تصوّر التعديلات الأولى التي سيدخلها على هذا المكان، فحدّد مكان المقصورة والمنبر، ثمّ المدخل الخاص بالإمام. تخيّل المئذنة العالية المنطلقة نحو السماء، مثل برج بابل. وحينما أدار بصره حوله، كاد أن يرى ألوان الزرابي المبرقشة. ولم يخامره شك في أيّ لحظة حول احتمال فشل مغامرتهم. وحوله، انتشر الأصحاب، في حلقات صغيرة، يتحدثون بأصوات منخفضة، حالمين بالغد المشرق العجيب حيث سيصبحون أسياد العالم، أو على أقل تقدير أسياد عين الكرمة.

هكذا مرّت الليلة الأولى، في سكينة لا مثيل لها.

في صباح الغد، كانت اليقظة مباغتة فظة عند أولى تباشير الفجر، حينما شاهدوا بعيونهم الناعسة العدد الهائل من رجال الشرطة الذين يحيطون البناية؛ أرعدهم الهلع وجعلهم يبتلعون ألسنتهم لدقائق طويلة، ولكن الردّ كان سريعا وجماعيا. قال المهدي:

– لا نرضخ للتهديدات.

أردف رشيد حلموش بصوته الخشن:

– جماعتنا لا تخاف إلا الله. المسجد مسجدنا، وسندافع عنه إلى آخر رمق من حياتنا. سنقيم معركة لا تقلّ عن معارك الصحابة الأولين.

تهامس الرجال بأسماء المعارك المشهورة: بدر، أُحُد، الخندق، خيبر... مما نفخ في صدورهم قوة جبّارة، ستمكنهم بلا شك من مواجهة العالم بأيدٍ عارية. ولكن مشكلا صغيرا حيّر المهدي: ما مصير الناقة الآن بعد أن

أدّت مهمتها على أحسن وجه؟ ماذا سيفعلون بها؟ إنها لا تزال ممدّدة في زاويتها، غير مبالية بما يحدث حولها، تجتر آخر الأوراق الملتصقة بالسيقان المكسّرة. اقترب منها المهدي ولامس رقبتها بلطف، ملقيا عليها نظرات تعاطف ومحبة. إنه على بُعد سنوات ضوئية من أن يتوقّع المصير الخسيس الذي ينتظرها، مصير يتناقض كلية مع طابع « الناقة المقدّسة » الذي اكتسبته بجدارة.

تقدّم المفتش خلف الباب وطلب التحدث مع قائد المجموعة. قال بنبرة تهديدية، تتخللها رغبة خفيّة في إمكانية التفاوض:

– من الأفضل لكم أن تغادروا المكان بلا مناوشات. ليس لديكم ما تفعلونه هنا. السوق محاصر بالشرطة، وسيصل المحافظ بعد لحظات. إنه رجل صارم، لا يؤمن إلا بالقوّة.

قال المهدي، رافعا صوته لإسماع الجميع:

– لن نغادر هذا المكان. إنه بيتنا المقدّس. هكذا أراد الله الذي قاد خطوات الناقة من مدخل المدينة إلى هنا. وحسب مشيئته، سنعمل على تحويل هذا السوق إلى مسجد.

قال المفتش مندهشا:

– والله أنتم مجانين حقا! أتتصوّرون البلد بلا حكومة؟ أم أن الدولة غائبة؟

تدخّل سليمان، وهو يتقدّم، فاسحا المجال بمرفقيه:

– لن يمنعنا أحد من إقامة مشروعنا. ونحن مستعدون للتضحية بالنفس من أجل هذا.

ارتفعت صيحات « الله أكبر » خلفه، وقبضات الأيدي ترتفع فوق الرؤوس. بلا أدنى تردّد، أغلق المهدي الباب في وجه المفتش، ومكث الشرطي الثخين جامدا، يشتطّ غضبا، ذراعاه متدليتان، يفكّر في السلوك الواجب اتخاذه. لامس غمد المسدّس، كأنه يستمد منه طاقة تمكّنه من مواجهة هؤلاء المتهورين، ثمّ التفت نحو الأعوان الواقفين خلفه، على بعد أمتار فقط، وحرّك رأسه علامة العجز والاستغراب.

هكذا بدأت المواجهة بين المعسكرين، حازمة، يتصلب كل طرف، متشبثا بموقفه الذي يراه الحقيقة المثلى.

انشغل المهدي ورجاله بلا توانٍ لتهيئة المرآب الكبير. بدأوا بإفراغ الرفوف ثمّ فكها. كدّسوا السلع في الصالة الخلفية. وبعد ذلك نظفوا المكان. ولم يتوقفوا إلا لإقامة الصلاة الجماعية أو تناول وجبات خفيفة من المأكولات التي جمعوها من الرفوف.

في نهاية الصبيحة، وصل المحافظ وتقدّم نحو الباب مسبوقا بالمفتش. ضرب الباب بقبضته وانتظر؛ تشاور المهدي مع أصدقائه، وانتهوا إلى قرار عدم التفاوض إلا مع الوالي. تعالت الضربات على باب الصفيح دون جدوى، وتبادل المحافظ أخبارا متفرقة حول هوية المحتلين، ولكن الباب بقي مغلقا. اقترب المحافظ من الباب وخبط عليه بعنف وبعصبية ظاهرة... لا حياة لمن تنادي. بعد قليل، ارتفع صوت من الداخل:

- نريد التحدث مع الوالي.

قال المحافظ، وعلامات الانفراج تكسو ثغره:

- افتحوا... لي كلام معكم.

- لا حديث لنا إلا مع الوالي.

بعد أن تأكّد المحافظ بأن المحتلين يرفضون التفاوض معه، أعطى أوامر صارمة والتحق بسيارته وغادر المكان.

كان اليوم قائظا والحرارة خانقة. في بداية الظهيرة، بدا التعب جليا على وجوه وحركات رجال الشرطة. جلس الكثير منهم على صخور أو على مرتفعات من التراب والحصى، واتكأ بعضهم على الجدران والأعمدة الكهربائية، وقد وزِّعت عليهم ساندويتشات وقارورات المياه المعدنية. غير بعيد عنهم، تجمع الفضوليون يتابعون المشهد، يتكاثر عددهم مع مرور الساعات. حاول المفتش إبعادهم، بالتهديد والوعيد والشتم، ولكن بلا جدوى، فقد تصلبوا جامدين كأنهم أصنام إبراهيم. أعطى مرارا أمرا بإبعادهم. وتحت ضربات المقامع الخشبية، فينسحبون إلى الوراء، ولكن بمجرد غفلة الأعوان للحظات طفيفة يستعيدون المساحات الضائعة ويستولون خلسة على أمتار مربعة أخرى. ولكن عموما، انقضى النهار بلا أحداث عنف.

في نهار الغد، تداولت شخصيات رسمية عديدة على المكان، لا يعرفها المهدي لا من علي ولا من عائشة. جاءوا لإقناعه بإخلاء البناية. ولكن

كل محاولاتهم باءت بالفشل. في نهاية الظهيرة، تقدّم كهل مكرّش، مكستَم بأناقة، تخنقه ربطة عنق مزركشة معوجة قليلا، مرفوقا بحراس مكسْتَمين هم أيضا، يتحركون حوله بخفة كلاب الصيد المدرّبة. مباشرة، فكّر المهدي بأن الرجل مسؤول كبير يمكنه اتخاذ القرارات الحاسمة؛ فاختلى مع سليمان ورشيد وتبادل معهما حديثا مقتضبا، ثمّ تقدّم نحو الباب، وبحركة يد آمرة، أشار إلى الحراس بفتحه. ثمّ قال واثقا:

- نخبرك سيدي الكريم بأننا اتخذنا قرار تحويل هذا السوق إلى مسجد. ومثلما تلاحظ، لقد باشر رجالنا العمل منذ البارحة.

نظر إليه الكهل، راسما ابتسامة ماكرة على شفتيه، ثمّ قال:

- اسمع يا بني... هذا السوق ملك الشعب ومنافعه كبيرة لسكان المدينة. إن الدولة قد استثمرت أموالا ضخمة ليتحوّل من خربة إلى سوق الفلاح يقصده المواطنون من بعيد لاقتناء حاجياتهم. لذلك نطلب منكم أن تخلوا المكان بهدوء. أمّا فيما يخص المسجد، أتعهد أمامكم جميعا بأنني سأمنحكم قطعة أرضية مناسبة، وسنساعدكم بمواد البناء الضرورية وبالعمال لإتمام الأشغال في أسرع وقت ممكن.

- وعودكم كلّها كاذبة.

- ربمّا أنت لا تعرفني. أنا هو الوالي، المسؤول الأوّل على هذه المدينة.

- متشرفين سيّدي الوالي... ولكن هناك أمر لا تدركه. أصبح هذا المكان مقدّسا لأنّ الله أراد لهذه الناقة (وأشار بيده إلى الحيوان الممدّد في عمق الساحة المغطاة) أن تتوقف هنا وليس في أيّ مكان آخر. لذلك لا نرضى بديلا لهذا المرآب مهما كانت أهميته.

- اسمعني جيّدا يا ابني...

ولكن المهدي صفق الباب بعنف في وجه الكهل. طأطأ هذا الأخير رأسه مفكرا، تقلصت قسمات وجهه و تطايرت من عينيه شرارات الغضب. ولكنه لم يتفوه بكلمة. وبخطى وئيدة مثلما جاء، التحق بسيارته متبوعا بحراسه، وسبقه أحدهم وفتح الباب الخلفي، فاندلف بداخلها، وانطلقت السيارة السوداء بسرعة مخلفة وراءها زوبعة من

الغبار المتطاير، ليستنشقه الفضوليون ورجال الشرطة الواقفون على طول الرصيفين، رغما عنهم.

عاد المهدي إلى أصدقائه ونشوة الانتصار تعلو محياه. التف حوله الجميع ليروي لهم تفاصيل المقابلة.

وقبل غروب الشمس، بدأ أعوان الشرطة الرابضون بالمكان منذ يومين بالانسحاب، محدثين ضجيج سيرك. وبقرب السياج تركوا الفورغون الرسمي وبداخله المفتش وثلاثة شرطيين. غادر الفضوليون المكان بدورهم، فلم يبق شيء يستحق المشاهدة، أمّا المهدي وأصدقاؤه فقد احتفلوا بالانتصار في جلبة صاخبة، يغمرهم اقتناع راسخ لا يتسلل إليه أدنى شك بأن الحكومة انهزمت أمام عنادهم وتصلبهم، وسهروا طويلا يسترجعون تفاصيل المعارك الإسلامية الكبرى، يخطّطون لمشاريع مستقبلية ويحلمون بالانتصارات والفتوحات العظيمة. بعد منتصف الليل، غرقوا في نوم لذيذ، مطمئنين بأن هذه الليلة ستكون أهدأ من مثيلتيها. خيّم على المكان صمت مقبري، ثمّ انطفأت كل المصابيح، لتزيد المكان رهبة وعزلة. في لحظة ما، تسلل شبح يرتدي بذلة القتال الخاصة بقوّات التدخل السريع، قفز فوق السياج وتقدّم نحو الواجهة الزجاجية الفاصلة بين الساحة والصالة الكبرى، ألصق جبهته على الزجاج وبقي في تلك الوضعية مدّة من الزمن، ثمّ أشار بيده أن تقدّموا، وبعد ذلك هجم عدد لا يُحصى من رجال الشرطة، بالخوذات والدروع والمقامع المطاطية. فجأة، انفجر الزجاج محدثا دويا مخيفا، ولم يجد حماة أشهر الإبليات وقتا لإدراك كنه الصاعقة التي باغتتهم في هذه الساعة من الليل، حتى تهاطلت الضربات والركلات على رؤوسهم المدوّخة من قلة النوم. حاول أقواهم التصدي للهجمة المفاجئة، ولكن رجال فرقة التدخل السريع لم يأتوا إلى المكان لصيد الذباب. إن صوت رائدهم الغاضب وهو يأمرهم بإخلاء السوق بلا رحمة لا يزال يرن في آذانهم. إن كل فرد منهم قد احتكّ، ولو مرّة واحدة، بالغضبات الشرسة للرائد الزّائر دوما، بسبب وبدونه، كي يسمح لنفسه بالتراخي في تطبيق الأوامر. تلقى المهدي ضربات عنيفة قبل أن يجد نفسه مكبلا من اليدين، يُـمسَك

من الذراعين ويجَرّ إلى غاية شاحنة ويرمى بداخلها وسط أصدقائه. كلما امتلأت واحدة منها تنطلق وسط الظلمة باتجاه مجهول.

في الصباح، ومع شروق الشمس، طفق الفضوليون يتوجهون نحو سوق الفلاح لمتابعة مسلسل جديد من المواجهة بين أصحاب الناقة والشرطة، ولكن في عين الكرمة، تمثّل عملية انتقال الأخبار آلة لا تعرف العطل أبدا. وفي هذه الصبيحة، في المقاهي، في محطات الحافلات، في الشوارع... لا حديث بين الناس إلا عن أصحاب الناقة، وكيف أخرِجوا عنوة في غياهب الليل، والتكهنات المحتملة حول المصير الذي ينتظرهم.

- 12 -

مالت الشمس نحو الغروب. وصل اعمر حلموش توّا إلى منزله، وجلس على مقعد خشبي يستعد لنزع حذائه. لحظتها، تعالت طرقات قوية على الباب، وصوت ينادي باسمه. استرق السمع، كان الصوت أنثويا وبه رعشات رعب ظاهرة. « غريب... لسْتُ هنا إلا منذ بضعة أيام، ويعرفون اسمي وعنواني »، فكّر متسائلا عن صاحبة الصوت في هذا الغسق. وقف بخفة، يتحسّس بندقيته التي أسندها إلى الجدار بقربه. عند الباب، وقفت امرأة غريبة الأطوار، تلتحف حايكا أبيض ينسدل على كتفيها، تلهث من فرط التعب، قالت متوسّلة :

– سي اعمر... الحمد لله أني وجدتك بالبيت... أنقذنا يا سي اعمر... أنقذنا...

– ما بك يا مخلوقة ؟ ماذا حدث لك ؟

اقتربت منه، سكتت برهة تسترجع أنفاسها، ثم قالت :

– الشيخ امبارك... زوجي... سيقتلونه...

– الشيخ امبارك ؟ ومن اعتدى عليه ؟

– داهم رجلان بيتنا، أخرجاه عنوة وأخذاه معهما إلى الغابة. قالا بأنهما سيذبحانه.

– رجلان ؟ متى حدث هذا ؟

– منذ لحظات فقط. يبدو أنهما مجاهدان مثلك.

– مجاهدان ؟ وماذا فعل الشيخ امبارك حتى تزوره الجبهة ؟ وفي هذا الوقت ؟ لسنا في أيام الحرب.

– لا أعرف يا سي اعمر. ولكن أسرع، أنقذ زوجي.

ودون انتظار اقتفى اعمر حلموش أثر المرأة التي سبقته تركض باكية شاكية. كان الدرب منحدرا، ملتويا، تحفه نباتات كثيفة الأوراق، مما ضاعف من إظلام الجوّ. في لحظة ما، انتبه المطارد أن عبق الخُزامى قوي الرائحة، يلفح وجهه. أسرع الخطى إلى حد ملامسة ظهر المرأة. إنه عطرها الفوّاح. أبطأت السير قليلا لتبدأ الصعود، فكاد يدحرها بجسمه المندفع. تفحّص الشعر الأسود المعقوص، وجزءًا من الرقبة النحيفة. سقط الحايك على كتفيها، تشدّ طرفه بيد وتستخدم الثانية كواقٍ ضد أوراق الأغصان التي تسدّ أجزاء عدة من الدرب. من الجهة الأخرى للوادي، خلف تلعة أردوازية، على طرف الغابة، ظهر كوخ بسقف من الزنك القديم.

– هذه دارنا يا السي اعمر (قالت المرأة ملتفتة نحو منقذها) لقد ذهبوا من هنا.

ثمّ أشارت بذراعها نصف العاري إلى جهة اليسار. وهنا، في الجوّ الغسقي، حطّ اعمر حلموش نظرة فاحصة على المرأة ؛ اندهش من صغر سنّها... قامة رشيقة، جيد مشيق، عينان لوزيتان، وجنتان بارزتان. صحيح أنها نحيفة، ولكن ملامح وجهها جذابة، طافحة بالأنوثة. كيف تمكّن ذلك الشيخ الهرم من الظفر بواحدة في مثل هذا الجمال والعمر ؟ أيكون قد استولى على قلبها بتميمة من تمائمه السحرية ؟ أم أنها احتمت به أيام الحرب هاربة من عار ما ؟ هكذا فكّر اعمر حلموش وهو يطيل الخطى وسط أشجار الصنوبر بحثا عن الخاطفين. في لحظة، تمنى لو يصل متأخرا. بعد اختفاء الزوج، ستصبح الفاتنة أرملة وحيدة، ويدخلها تحت حمايته... عاشقة ؟ زوجة ثانية ؟ مثلما تريد. لا، ما هذه الأفكار الخبيثة ؟ أي عفريت لوّث صفاء تفكيره ؟ لحسن الحظ أن أصواتا حادة أرجعته إلى الواقع وأنقذته من الوساوس الهدّامة. توقف عن الحركة واسترق السمع، وعندما تأكّد من مصدرها،تقدّم بخطى وئيدة، شاهرا بندقيته استعدادا للمواجهة. بقرب أجمة وارفة الأوراق، أحاط رجلان يرتديان ستائر عسكرية الشيخ الممدّد على ظهره فوق الأرض. كان أحد

الخاطفين منحنيًا على الشيخ، جاثيًا على ركبة واحدة، يمسك خنجرا باليد. وكان الشيخ يتوسّل إليه، يقسم بأغلظ الإيمان أنهما أخطآ ضحيتهما، وأنه من سكان سيدي المخفي قبل أن تندلع الحرب، وأن الذي يقصدانه بتهمتهم ليس شخصه بالتأكيد.

– قف في مكانك... لا أحد يتحرك...

تفاجأ الرجلان بصوت القادم. توقف ماسك الخنجر بخفة وقال :

– من أنت ؟ نحن مجاهدون.

– أنا سي اعمر حلموش. ومن أنتم ؟

– آه، سي اعمر. وصلت في الوقت المناسب. أنا سي علي البوشي. تقدّم لترى كيف نعاقب « البياعين ».

– الشيخ امبارك، أعرفه. لم يكن مع فرنسا مثلما تتصورون.

احتجّ الثاني قائلا :

– ربّما نسيت حكاية سي جلول وسي أحمد – رحمهما الله وأدخلهما الجنّة مع الأنبياء والصالحين – كانا جريحين وأخفيناهما بداخل زاوية سيدي لَمْهَني. يومان بعد ذلك، حاصر الجيش الفرنسي الزاوية عند الفجر. ورغم جرح الأخوين، فقد جرّهما عساكر العدوّ راجلين إلى غاية الثكنة البعيدة بأكثر من عشر كيلومترات. توفي سي أحمد في نصف الطريق، وأما سي جلول فعذِّب إلى حدّ الموت. من باع الشهيدين غير هذا الشيخ الخبيث ؟ هو الذي كان قيّما بتلك الزاوية. اختفى منذ تلك الحادثة ولم يعرف أحد مقصده. أنا نفسي، زرت الزاوية ليلا أكثر من مرة بحثا عن الخائن فلم أجد أثرا له. كم قلت لهم : لنذبح كل شيوخ الزوايا، إنهم مع فرنسا منذ دنّست أقدامها هذه الأرض الطاهرة، ولكنهم لم يسمعوني.

– أنت مخطئ. ليس هو الشخص الذي تبحث عنه. قال لك بأنه يسكن هنا في زاوية سيدي المخفي منذ ما قبل الثورة.

– يقول ما يريد. يقسم على المصحف ولا أصدقه. إنه هو... لقد سبق أن رأيته أمامي. عيناي لا تخطآن أبدا.

– هؤلاء الدراويش يتشابهون مثل الغنم. يصعب التفريق بينهم.

اقترب اعمر حلموش أكثر وتفرّس في ملامح الرجلين. يعرفهما جيّدا. لقد قضى برفقتهما شهورا عديدة في عمليات متفرقة. تعانق رفقاء الكفاح بحرارة صادقة، وتبادلوا أخبارا عن أحوالهم الشخصية وعن راهن الوضع. أخيرا، قال اعمر حلموش:

– يا سي موح، انتهت الحرب، دَعْنا نعِش فرحة الاستقلال. وهذا المسكين، مهما اقترف من أخطاء، فإنه تعيس ولا حول له ولا قوة. نحن أسياد البلاد، وينبغي أن ننظر إلى المستقبل ولا نتشبث بأحقاد الماضي. منزلي قريب من هنا، هيا بنا نأخذ عشاء ونستريح. تقضيان الليل إن أردتما، وغدا يوم جديد.

وقف الشيخ امبارك، ودون أن يتفوّه بأدنى كلمة، تسلّل بين أشجار الصنوبر. في ظلمة الليل الزاحفة، تعالت قهقهات المجاهدين الثلاثة وأصواتهم الصاخبة، وهم ينحدرون بخطى وئيدة نحو حوش الرومي.

في الغد، قبل غروب الشمس بقليل، جاءت زوجة الشيخ امبارك تطرق باب المجاهد. صعقته المفاجأة. إلهي ما أجملها؟ لقد مسِخَت إلى جنيّة تسلب الألباب. كان وجهها مضيئا، وابتسامة مشعّة ترفرف على شفتيها المحمّرين بالسواك. غطت شعرها جزئيا بمحْرَمة زاهية الألوان، وبعينيها بدا الكحل كثيفا جذابا، وما زادها إغراءً، تلك النظرة الخجولة وطأطأة الرأس وذلك الصوت الخفيض. أطال المجاهد النظر في وجهها دون أن ينطق حرفا. ماذا أصابه حتى يُخرَس بهذا الشكل؟

– مساء الخير سي اعمر (قالت المرأة بصوت خجول مشيرة ببصرها إلى ما تحمله بين يديها) هذا « البغرير » لك. حضّرته خصيصا لأشكرك على فعلك النبيل. لولاك لكنت اليوم أرملة.

انتبه اعمر حلموش إلى رعونته في استقبال الفاتنة التي أتت بقدميها إلى غاية عتبة منزله، واسترجع رزانته وقال:

– لم أقم إلا بالواجب يا مخلوقة. نحن جيران، ورسولنا الكريم أوصى بالجار. أنقذت حياة بريء. إن زوجك بريء من تهمة الوشاية، أليس كذلك؟

تردّدت المرأة قبل أن تجيب:

– الله أعلم يا سي اعمر... تزوجته منذ أشهر قليلة فقط.

في تلك اللحظة، تعالى صوت عائشة، زوجة المجاهد، قادمة تسأل عن هوية الضيف.

– ادخلي يا جارتي، لماذا تقفين بالباب ؟

– شكرا، سيّدتي. جئت أشكر سي اعمر. هدية بسيطة...

ثمّ مدّت الصينية المغطاة بمنديل إلى عائشة، وانسحبت بخطى عصفورة.

خرج خلفها اعمر حلموش لبضعة أمتار يودّعها. وقف طويلا يتابع اهتزاز جسمها النحيف إلى أن اختفت عن أنظاره. مكث شارد الذهن، يسرح في أحلام لذيذة :

« من أتى بهذه الحجلة الجميلة إلى حقلي ؟ ما سرّها كي ترضَى الاقتران بذاك الدرويش ؟ إنها تليق بفحل مثلي. هل ستستجيب بسهولة إن راودتها ؟ لا تخيفني العراقيل. فرنسا وجيشها وما أداراك لم تهزّ شعرة من رأسي. لا شيء يستعصي عني الآن. أنا سيّد هذه الديار، أحل وأربط مثلما يحلو لي. انتهت الحرب، وحان وقت جمع الغنائم. بعد الدار والأرض، جاء دور الحريم. وستكون هذه المخلوقة أوّل ثمرة لي. رمّانة ناضجة في فم أدرد ؟ هل يستطيع الشيخ الوهن أن يشبع أنوثتها فعلا ؟ والله أنا شاك في الأمر. امتلك قلبها بحرز أو يكون قد أشربها عشبا خطيرا. الأيام بيننا يا شيخ. سأزوره، وأخرج له حكاية الجنديَّين الجريحَين. ربّما يكون هو الفاعل مثلما أكّد سي موح ؟ سأبحث عن الحقيقة، هي التي ستوصلني إليها ».

- 13 -

– اسمك ؟

– عبد الله.

– مهنتك ؟

– عبادة الله.

– عنوانك ؟

– أرض الله.

كان الموقوفون يردّدون الإجابات نفسها. كرّر المفتش الأسئلة مرارا وبأساليب ملتوية ولكنه لم يتمكن من استخراج معلومات أكثر. آلات مبرمجة، لا تنطق إلا بما سجِّل بها. إنه السجين العاشر الذي يمتثل أمام غطرسة المفتش. يبدو أنهم أبرموا عقدا سريا بينهم، والويل ثمّ الويل للناكث. أعاد المفتش إدخال المهدي مرّة ثانية. دخل هذا الأخير بخطى وئيدة، رافعا رأسه بشموخ وتحدٍّ، شبّك ذراعيه على صدره وانتظر واقفا. طلب منه المفتش أن يجلس قبالته، طامعا في تلطيف الجوّ، وترويضه إن أمكن. إن تمكّن من إقامة حوار معه، قد يتلفظ ببعض الأخبار دون إرادة منه. ولكن المهدي بقي رابط الجأش، صلبا كجلمود صخر، مبعدا بصره بحركة اشمئزاز. ببطء مدروس، وقف المفتش وتقدّم منه، مجهدا نفسه لابتلاع الغيظ الذي يؤجج صدره.

– تكلّم أيها الفارس المغوار! ألست خطيبا فصيح اللسان؟ أم أنك أصبحت أصمّا أبكما لا تفقه شيئا من أمور الدنيا؟

التزم المهدي الصمت. انشغل بصره برزنامة ملوّنة مثبتة على الجدار بقرب خزانة حديدية. نفد صبر المفتش، إنه ذو طبع غضوب، فرفع صوته وهدّد وزأر، ولكن لا حياة لمن تنادي. انغلق المهدي على نفسه كلية. كان كلام المفتش يطن في أذنيه مثل نهيق في هضبة رمضاء. حينما تأكّد بأنه لن يحلب كلمة واحدة من سجينه، عاد المفتش إلى كرسيه يائسا. كيف يتصرّف مع هؤلاء الأوباش؟ لا تزال تهديدات المحافظ ترن في رأسه حينما استقبله هذا الصباح:

– أريد أسماءً، وتقريرا مفصلا عمّا جرى. كيف تحدث مسيرة بهذه الخطورة وأنتم لا تعلمون عن تحضيرها شيئا؟! هذا ليس لعب مراهقين مثلما يتخيل إليكم. أكيد أن وراءهم رؤوسا مدبّرة تهدف إلى زرع البلبلة والمساس بأمن الدولة واستقرارها. أعرف بأنكم تقضون أغلب أوقاتكم في الحانات والمواخير، ولكن اعلموا أن الخطر لا يأتي من هذه الأماكن. انظروا إلى جهة المساجد، بدأت تحدث أشياء لا تبشر بالخير أبدا. إن الثورة الإسلامية في إيران تقترب زاحفة وستعصف بدول كثيرة. ابتداء من اليوم، أريد منكم أن تتعلموا الصلاة وتحسِّنوا مستواكم في اللغة العربية كي تفهموا جيدا كلام الأئمة والخطباء. وأريد تقارير مفصلة هنا

على مكتبي عما يحدث في هذه الأماكن التي بدأت تفلت من المراقبة. أخبر رجالك بالأوامر الجديدة، إنها أوامر شفهية غير قابلة للكتابة. وتكون العصا شديدة على ظهر من عصى.

قضى المفتش يومه في استنطاق المساجين، الواحد بعد الآخر. وجوه كثيرة مألوفة لديه، وجوه يلتقي بها في الشوارع وفي المقاهي، دون أن يعرف خبرا عن أصحابها، لا الاسم ولا المهنة ولا حتى العنوان. أغلبيتهم شبان لا تتجاوز أعمارهم العشرين، خرجوا توّا من مراهقة مكبوتة تعيسة، وطردوا من المدارس مبكرا. لا يسكنون وسط المدينة، يأتون إليه زائرين متسكعين، باحثين عن فرص للاسترزاق. يملكون أقاليم خاصة بهم في أحياء الضواحي، تلك الأحياء المهمشة المهملة، بل والمنسية، لا تطأها قدم أيّ مسؤول. ويعترف المفتش بأنه لم يذهب هناك إلا مرّة واحدة، ردّا على شكوى ساكن جاء إلى مركز الشرطة دامي الوجه يشتكي ظلم جار له. وهناك اكتشف وضعا معقدا للغاية : عائلتان تتخاصمان حول مسلك صغير يستخدم معبرا إلى الطريق العام. أراد الشاكي منع جاره من استخدام المسلك الضيق الذي يمرّ بقرب بابه، فتخاصم الرجلان. وبعد ملاسنة حادة، تدخّل أقرباء كل واحد منهما، وكبرت المعركة باستخدام العصي والأحجار. هدّدهم المفتش بالسجن إن تمادوا في الشجار. عليهم أن يجدوا حلاّ بالتراضي، أو اللجوء إلى العدالة. الأرض ملك البلدية، وقد احتلتها العائلتان بلا رخصة، مثلما فعل جميع سكان الحي القصديري. منذ تلك الفترة، لا يعرف المفتش الكيفية التي تمّ بها حلّ المشكل، ما يعرفه هو أن لا أحد من الرجلين جاء ليشتكي مرّة أخرى.

جاء عبد الله مرواني عند المفتش ليطمئن على ابنه سليمان. بين الرجلين علاقة صداقة قديمة. اعترف بقصوره في تربية ابنه، خاصة بعد أن غادر مقاعد الدراسة. كان يتوسّم خيرا في المسجد ورواده، أحسن من ارتياده الخمارات وأوكار السوء والفاحشة، وإذا بالابن يغرق في وضعية أعقد، لأنها متعلقة بالسياسة. إن من يتحدى السلطة يمارس السياسة طوعا أو كرها. خرج من السجن فوقع ببابه. ما العمل للخروج من الورطة ؟ إن التاجر مواطن صالح لا يعرف إلا عمله وعائلته. أما ما يقال

هنا وهناك عن السلطة وأعمالها، فلا دراية له به. إن التزام الحياد موقف متجذر في العائلة. لقد مكّنهم من تجاوز سنوات الحرب في أمان. طمأن المفتش الوالد القلق ثمّ رافقه إلى غاية الرصيف، وبعد ذلك أمر بإحضار سليمان، وخاطبه قائلا:

– قل لي يا سليمان، ماذا ينقصك كي تقيم علاقات مريبة مع هؤلاء الأوباش، لا جذور لهم ولا ثروة، ينحدرون من الجبال والهضاب العليا البعيدة بحثا عن قطعة خبز؟ إنهم متعوّدون على البؤس. يعيشون بالنهب والتسوّل. أتعرف أين يسكنون؟ مغارات لا تليق حتى للجرذان، يتزاحمون بداخلها بشكل مقرف. كل أشرار عين الكرمة آتون من هذه الأحياء القصديرية. لو كانت السلطة بيدي لطردت هؤلاء العرايا نحو كهوفهم في الجبال، ولردمت تلك الأكواخ بالبلدوزير ليعودوا للعيش مع الذئاب والحمير، هذا أحسن لهم ولنا جميعا. بومدين هو الذي فتح أعينهم باشتراكيته الحمقاء التي تشجع على الكسل، رافعة شعار المساواة بين الفقراء والأغنياء. وسخوا المدينة، حوَّلوها إلى مزبلة عمومية. آه على زمن فرنسا! لم يكن يجرؤ هؤلاء المقملون على تلطيخ أرصفتها بأقدامهم الملوّثة. يدخلونها مرّة واحدة في الأسبوع، وللتموين فقط. يدخلونها ورؤوسهم مطأطأة. يتركون حميرهم وبغالهم عند باب المدينة. كان الشامبيط يمنع حتى دخول العصي. نظافة المدينة مضمونة والأمن متوفّر. كانت العائلات الحضرية، العربية والفرنسية على حدّ سواء، تتجوّل دون أن يزعجها أحد مثل يومنا هذا. تجدهم في كل زاوية، مسندين ظهورهم إلى الجدران، يعرُّون نساءنا بعيونهم الشبيهة بعيون الغربان، واليوم يريدون إقامة الخلافة الإسلامية! ماذا يعرف هؤلاء عن الدين؟ لا شيء. يقلدون الإيرانيين! ولكن هؤلاء شيعة ونحن سنّة. زيادة على أنهم ليسوا عربا، أما نحن فنعيش إسلامنا بشكل جيد منذ القديم. ألا يكفينا إسلامنا حتى نستورد إسلام الخميني؟ ولا أظن بأن هؤلاء الأعراب البؤساء وهؤلاء البربر الأجلاف، المتمسكين بقمم الجبال منذ الأزل، الذين لم يعرفوا الحضارة إلا مع العرب الفاتحين، هم الذين سيعلموننا ديننا. إن هؤلاء سيعيدوننا حتما إلى قرون التخلف، قرون البؤس والحروب الدائمة. نصيحة لوجه الله يا ابني سليمان، ولمعزة أبيك

عندي، ابتعد عن الجراد المرّاد، اعتني بتجارة أبيك، لقد كبر وهو بحاجة إلى ابن يقف إلى جانبه ويسنده.

استمع سليمان بصمت، مطبّقا أمر الامتناع عن الإجابة عن أيّ سؤال. كان شرطي بلباس مدني يجلس في عمق الصالة، يتابع حديث المفتش دون تدخل.

بعد يومين من الاعتقال، أطلق سراح أغلبية الموقوفين، باستثناء المهدي. كان المفتش يريد مواصلة الاستنطاق واثقا بأنه سيقطف لا محالة بضع الثمار. في سجّله وسائل جهنمية لإرغام السجناء على إفراغ ما بجعبتهم من أسرار. ولكن ما لا يعرفه هو أن المهدي ورفاقه يستمدون طاقة المقاومة وشراسة المواجهة من نماذج مُثلى يقلدونها بطريقة عمياء. ما يجهله المفتش هو أن فيلم « الرسالة » أصبح منذ الأيام الأولى لعرضه في قاعات السينما « الفيلم الصنم » الذي هزّ مشاعر هؤلاء الشبان ولفّ أذهانهم بنظارات سحرية، أصبحوا لا يميّزون الأشياء إلا بواسطة عدساتها. إن الأبطال الذين كان هؤلاء يسمعون عنهم ويقرؤون عن سيرهم في كتب التاريخ والفقه أضحوا أحياء يرزقون أمام أعينهم، يفرحون ويحزنون، يلينون ويغضبون غضبة الجاهليين. في هيجان صبياني، يتحاشر الشبان في قاعات السينما المظلمة، ويتسارعون إلى التصفيق الحار وإطلاق الهتافات الصاخبة لاستقبال فارس الصحراء، الفارس المغوار حمزة، القادم من بعيد وسط زوبعة من الرمال وتموجات الضوء الساطع، ممتطيا جواده الأصيل، شاهرا سيفه للرياح العاتية، كي ينقذ الرسول محمّد من أذى القرشيين المشركين، كما يردّدون الشهادة التي يطلقها المعذبون بإيمان فياض، مشجعين إياهم على المقاومة وعدم الرضوخ. كانوا يتصرفون بسذاجة مربكة، كأن المشاهد السينمائية أحداث حقيقية، والشخصيات هي نفسها الشخصيات التاريخية. غاب عن أذهانهم بأنهم ليسوا إلا متفرجين لفيلم هوليوودي وضِع أصلا للفرجة، وأن تلك الأدوار، مهما كانت درجة إتقانها، ما هي إلا تمثيل يؤديه ممثلون احترافيون، لا علاقة لحياتهم الخاصة مع حياة تلك الشخصيات، وقد يتقمّصون أدوار المسلمين والمشركين على حدّ سواء وبنفس القدرة والإتقان. ويغالي بعض المتفرجين إلى درجة الوقوف والتقدم نحو الشاشة العملاقة لإطلاق بصاق مليء بالحقد والاستنكار الصادق على صورة

هند، المرأة التي انتقمت من حمزة لأنه قتل أخاها، فأجّرت عبدا أسود ليغتاله غدرا. بعد ذلك وكي تفي بالوعد الذي تلفظت به يوم قتل أخيها، انحنت على الجثة الهامدة الممدودة وسط ساحة المعركة وفتحت الصدر وأخرجت القلب لتمص دمه. اندلعت الصرخات من كل أرجاء القاعة، لاعنة، شاتمة، تلك الغولة التي لم تحترم حرمة الميّت، فمثّلت بجثة صحابي جليل ومن أشدّ أقرباء الرسول.

أما الناقة المسكينة، فقد قبلت إدارة حديقة الحيوانات والتسلية بتخصيص مكان لها وسط المجترات الأخرى. ولكن الإشاعة عنيدة وسريعة الانتشار، فتزاحم الزوار أمام السيّاج مكرّرين دون كلل تفاصيل المسيرة، قدّموا لها الهدايا وأحاطتها النساء برعاية خاصة، خاشعات مبتهلات، طالبات من الأولياء الصالحين حمايتها ورفعها إلى مكانة القديسات. شكّل حماتها تجمهرا صاخبا أمام سور الحديقة يطلبون تحريرها فورا. وأمام الخوف من أن تتحوّل هذه المظاهر الاحتجاجية الأولى إلى مشدّات عنيفة مع الشرطة، قرّر مدير الحديقة، باتفاق سرّي مع الوالي، ذبح الناقة ومنح لحمها إلى سبع هرم، يقضي أيامه متثائبا تحت حرارة الشمس. ولكنه أعلن بشكل رسمي أن الناقة أرجِعت إلى بيئتها الطبيعية في الصحراء. وكي يبدو الخبر حقيقيا، كلّف سائقا بمهمة إعلام الزوّار أنه الشخص ذاته الذي أخذ الناقة في شاحنة الحديقة وأطلق سراحها وسط الفلاة، بقرب مدينة الوادي.

خلال ليالي اعتقاله الطويلة، لم يكف المهدي عن التفكير في كيفية الحصول على مسجد خاص به. الآن، وبعد فشل مغامرة الناقة، لم يبق أمامه إلا خيار واحد. وهذه المرّة، سيضع خطّة محكمة، يدرس فيها كل الاحتمالات، بحيث يكون النجاح حليفه الأكيد.

- 14 -

الدنيا بنت الكلب... هل تستحق فعلا أن نحرق دمنا كي لا نُداس ونغرق في وحلها؟ للبعض، تمنح بلا حساب ودون أن يحركوا ساكنا. أما للبعض الآخر فلا شيء، ولا حتى الفتات الذي يُرمَى للدجاج، وإن قاموا

بتجفيف البحار. كان الشيخ امْبارَك يقول بأن كل فرد يولد إلا ورزقه معه، مسطرا في خطوط راحة يديه، ومهما فعل فلا يقدر على تغيير شيء منه، ولو بمثقال ذرّة. هكذا هي الدنيا. ما عسا يفعل الميت في يد غسّاله؟ سوى الصبر وانتظار يوم الحساب العسير. يقال بأن للفقراء أكبر حظوظ من الأغنياء للدخول إلى الجنة. أمنية جميع بؤساء المعمورة. قطعة خشب ترمى للغريق. هل من أجلها نتشبث بالحياة بكل قوة أعصابنا، ونحرس على احترام أوقات الصلاة ونصبر على صوم شهر رمضان...؟ طمعا في محو ذنوبنا والتعويض عن شقائنا بمكانة ولو ضئيلة في جنة الخلد. ولكن مثلما تقول لالّة فطومة: أحييني اليوم واقتلني غدا.

إن الله كريم رحيم. بنو آدم هم الغيلان والذئاب التي تأكل بعضها البعض بشراسة وقسوة أكبر من التي تمارسها الحيوانات. إن الرجال شياطين مهما تدثّروا بمظهر الملائكة. الشيخ امْبارَك، حينما صادفته أول مرة، وأنا منحنية بقرب ضريح سيدي المخفي أتوسل بركته وحمايته، توسمت فيه خيرا، بل وبدا لي شيخا طيبا ودودا ورحيما إلى أقصى ما تحمله هذه الكلمات من معاني نبيلة. بتلك اللحية والجلابية والصوت الخفيض حد الهمس، انتابني شعور أن مَلَكا زارني في ظلمة الضريح الشفافة. أدركت، وبعد فوات الآوان، أن الصورة لم تكن إلا قناعا خادعا، طُعما يصيد به فرائسه. صحيح أنني كنت آنذاك أشبه بخرقة متجولة، وأنه أطعمني وآواني، يوما بعد يوم، كي أستعيد عافيتي ويستطيع في الوقت المناسب أن يقضمني بملء شدقيه، مثلما كانت تفعل غولة جدتي مع ضحاياها. حينما طلب مني أن أكون زوجته، لم أتردد لحظة. كنت فاكهة يانعة معسلة، تسقط من غصنها عند أول نسمة تحركها. بعد عشية وضحاها، تغيّر وضعنا نحن الاثنين، منتقلا من الأبيض إلى الأسود. أضحى هو البعل المستبد، الآمر الناهي، والذي يريد أن يطاع كما يطيع العبد سيّده، وأنا الزوجة الأمة، الخادمة الطيّعة. بصراحة، لم أتفاجأ. كان الوضع طبيعيا بالنسبة لي ح هكذا كان أبي يتصرف مع أمي. ولكن الشيخ امْبارَك، كنت أراه مختلفا عن غيره: يحفظ القرآن، ويداوي الناس، فهو أقرب إلى آلامهم. لم يكن الرجل على هذه الصورة التي ألصقتها به منذ اللقاء الأول. أكنت تحت تأثير محنتي الأولى

وأسقطت أحلامي وأمنياتي عليه؟ ربّما... اتضح لي بعد أيام فقط أنه زوج مثل بقية الأزواج، مستبد، متطلب، سريع الغضب وغيور. وفوق كل هذا، لم يكن فحلا مثلما كان سي اعْمر، ذاك الجواد الأصيل، إن أتى امرأة أنساها في كل الرجال. الآن، ومع مرور السنوات، أكاد أجزم أن حياتنا كانت ستكون عادية لو لم يدخل سي اعْمر حياتنا بتلك الشهامة وتلك الجرأة التي جعلتني أحتقر زوجي وأنفر منه. في ذاكرتي، انبثق الرجلان في حياتي في وقت واحد تقريبا. إنها سنة وقف إطلاق النار. ولكن هل كان في مقدوري أن أفعل غير ما فعلت؟ إنه الوحيد الذي كان فعلا يستطيع إنقاذ الشيخ امْبارَك من الذبح الأكيد. كان مجاهدا، ويسكن على بعد أمتار من كوخنا. فحينما هجم الجندبان علينا وأجبرا زوجي على الخروج من البيت وجرجراه نحو الغابة المجاورة، إن الفكرة الوحيدة التي ملكت هاجسي هي الركض نحو منزل سي اعْمر الذي كان جاثما على الهضبة المقابلة خلف الوادي مباشرة، كبيرا، شامخا، وطلب النجدة قبل فوات الآوان. كان الغسق قد حل منذ لحظات، وبدأت الظلمة تخيّم على الغابة، ولا يمكن للمجاهد ألّا يكون في بيته. منذ تلك الحادثة المشؤومة، بدأت علاقتنا الزوجية تتفتت وتتآكل مثل جثة تحت الشمس الحارقة. بعد أيام قليلة فقط، وبعد عودته مع الغروب، وجد دلوين مملوءين ماءً يتوسطان الفناء الضيق، كنت قد جلبتهما توا، رفع أحد الدلوين ونظر إليّ نظرة تساؤل غاضبة. دون انتظار السؤال، قلت له بأنني جلبتهما من حوش الرومي، أي من حوش سي اعْمر، المكان الأقرب الذي توجد فيه عين، فانفجر في وجهي بفظاظة أخرستني:

– ومن رخّص لك بالخروج؟

– لا يوجد في البيت ماء و...

– والدلو الذي جلبته بالأمس؟

– غسلت به الثياب.

– لا أقبل أي تبرير. ابتداءً من اليوم، لا أريد أن تضعي قدما خارج البيت دون مرافقتي.

رمقته لحظة بنظرة شاردة، ثم قلت بلهجة واثقة:

– لو لم أخرج في ذلك المساء، لذبحك الجنديان مثل ديك عاشوراء، ولم يكن في مقدورك أن تقف الآن أمامي حيا ترزق، وتنفخ صدرك ضد امرأة لا حول لها ولا قوة. كان عليك أن تظهر غضبك وقوتك حينما جاء الجنديان وأخرجاك من بيتك مثل جذع شجرة مقطوعة. شلّك الخوف إلى حدّ لم تدافع عن نفسك ولو بالقول. من المفروض أن تشكرني لأنني أنقذت حياتك، وعوض ذلك، تريد أن تسجنني في هذا القربي الحقير. جاحد مثلك، لا يوجد حتى في جهنم.

فجأة، بدأ يصرخ ويمضغ الشتائم القذرة والتهديد بالطلاق. إن ما ضرني وأخرجني من هدوئي حينما وصفني باللقيطة والعاهرة وأنه آواني مثلما يأوي كلبة جرباء. حينذاك، صرخت بأعلى صوتي :

– لو كنت أعرف طبعك القذر لتركتك تُذبح من القفا يا واحد الحركي البيّاع...

كان جوابه الوحيد أنه انقض عليّ وضربني بلكمة فكدت أسقط أرضا، ثم ثانية وثالثة ؛ ارتبكت واستدرت للهرب، فتعثرت على الدلوين وسقطت أرضا. طاردني بضربات قدم على كامل جسمي أحدثت لي أوجاعا لا تُطاق، فبدأت أصرخ بأعلى صوتي. كان فمه يتقيأ شتائم بذيئة ومن عينيه يتطاير شرر الجنون. لم أتعرف عليه. لقد مُسِخ إلى شيطان. أين هو الشيخ امْبارَك الذي استقبلني بكلمات ودودة ومطمئنة ؟ وكأن اللكمات والركلات أججت غضبه، فأمسك بعصاه المصنوعة من غصن زيتون وأمطرني بوابل من الضربات الواخزة. تكورت بجسدي على الأرض، أحمي رأسي بذراعيّ، مانحة ظهري وبقية جسمي للعصا، وأنا أواصل الصراخ بكل ما أوتيت من طاقة، أحاول الزحف كالعمياء في حركات يائسة. أوقف الحائط زحفي. كان نفَس الشيخ الحاقد متواترا مع إيقاع الضربات. شعرت بضباب يلف بصري، أظن بأنني كنت على وشك الإغماء، حينما سمعت صوتا أليفا يرعد في الظلام الزاحف. إنه صوت سي اعْمَر. دخل راكضا إلى وسط الفناء، يمسك رشاشه بين يديه. جمدت حركة الشيخ، لا يعرف ماذا يفعل بعصاه. نهضت بخفة والتصقت بذراع منقذي.

– ضربني مثل دابة وأنا لم أفعل له شيئا. قلت بصوت بحّ من الصراخ.

– يا للعار... (قال المجاهد وهو يسوي سلاحه على كتفه) ركضت من بيتي إلى هنا بسرعة الريح لأنني اعتقدت أن أحدا قد تعرَّض لكما مثل المرة الماضية. وماذا أجد؟ عراك زوجي. لم أفكر فيها أبدا.

ثمّ استدار نحو زوجي:

– أيّ عقرب لدغتك يا الشيخ؟ لا أعرفك عنيفا إلى هذا الحد. ما هو الأمر الخطير الذي يجعلك تنزل على زوجتك بالعصا مثلما تنزل على أتان ترفض المشي؟

– إنها زوجتي ويحق لي أن أضربها حينما أريد ومثلما أريد. ردّ الشيخ محتدا.

– لم أقم بأيّ فعل يسيء إليه (قلت وأنا أمسح دموعي) ضربني لأنني خرجت أملأ الماء من العين. يمنعني من الخروج من البيت.

تقدّم المجاهد نحو زوجي وقال بنبرة تهديد:

– اسمع لي جيدا يا الشيخ امْبارَك. إن الاستقلال يعني حرية وكرامة رجال هذا البلد ونسائه أيضا. انتهى زمن العبودية والمرأة حرة مثل الرجل. لا يحق لك أن تضرب زوجتك. يمكنها أن ترفع دعوة قضائية ضدك وستجد نفسك في السجن. ثمّ أين الضرر إن خرجت تجلب الماء من العين؟ الحي هادئ، والجيران يتعارفون ويتعاونون، أليس كذلك؟

وبعد صمت تأملي قصير، أضاف:

– افتح أذنيك يا الشيخ. أنا لا أريد مشاكل في هذا الحي. أنا مسؤول عن أمنه وسأتدخل بنفسي إن حدث أيّ مكروه. يكفي أننا أغمضنا أعيننا عن ماضيك في الثورة ولا نريد أن ننبش أكثر. لهذا، الزَم حدّك، أخفِ رأسك في غار وانتظر مرور العاصفة بسلام، خلِّ الناس تنساك. المرّة المقبلة، سأفتح الملف وآتي بالشهود. إذا كنت أنا متسامحا، فغيري لا يزال يشحذ الموسى ويبحث عن الرؤوس المشبوهة. إن رائحة الدم لا تزال تزكم الأنوف، والأحقاد التي تؤجج القلوب لم تندثر بعد. قد أعذر من أنذر، ولا أكرّر كلامي مرّة أخرى.

التزم الشيخ امْبارَك الصمت مثل طفل مذنب يوبَّخ علانية. أنا أيضا بقيت بلا صوت ولا قدرة لي على التمييز، غارقة في أفكار شتى.

لم أكد أسمعه حين تلفظ بعبارة الوداع ولكن وقع خطواته السريعة وهو يتدحرج في المنحدر بقيت تطن في صدغيّ وتشغل بالي للحظات طويلة.

منذ تلك الليلة، خفض الشيخ امْبارَك رأسه وابتلع لسانه. أظن بأن الغيرة هي التي حركت غضبه. كنت شابة وجميلة، وكان شيخا وبلا دخل في قرارة نفسه، أدرك بأنه لا يمكن أن يحتفظ بي طويلا. قبلت به زوجا لأنني كنت بلا مأوى، لا دار ولا دوار مثلما يقولون. بعد الاستقلال، قلّت زيارات الناس إلى الأولياء الصالحين، بل أضحى الكثير لا يؤمنون حتى بقدراتهم على إنزال الشفاء على المرضى وتدخلهم العجيب في الاستجابة لدعوة الداعين. وحدها قراءة القرآن في المآتم والجنائز تدر بعض الخيرات علينا، أغلبها أطعمة وألبسة. عند ولادة المهدي، لولا صدقة الجيران الجدد وبالأخص سي اعْمَر، حفظه الله وأكثر خيراته، لا أعرف كيف كنا سنقضي ذلك الشتاء ببرده الشديد وأمطاره التي كادت تجرف كوخنا نحو الوادي. في تلك السنة، سقط الثلج واستقر لأيام عديدة، ونحن نفتقر إلى أغطية وغذاء وحطب. حينذاك، أدركت فعلا عدم جدوى مهنة زوجي، واقترحت عليه تغييرها، والبحث عن عمل بأجر معلوم، باليوم، بالأسبوع، بالشهر، المهم أن نجد بين أيدينا نقودا نشتري بها ما نحتاج إليه مثل غيرنا من الناس. نظر إلي مبهوتا كأنني نطقت كفرا. كنت عنيدة، عدت إلى الموضوع مرارا وتكرارا، ولكن بلا جدوى؛ لم يكن يسمعني، لم يرض بقبول الفكرة في ذاتها. بعد شهور، وعملا بنصيحة لالّة فطّومَة، طلبت منه رخصة البحث عن العمل كخادمة في بيوت أغنياء المدينة، فكاد يشلني بنظرته الكاسرة. قال مقهقها ساخرا:

– الاستقلال فتح لكُنّ العيون وأردتن أخذ مكاننا. حلّت المشكلة. البسي سروالي وشاشيتي واخرجي إلى الشارع، وأنا ألبس فستانك وأمكث بالبيت، أعجن وأحضر الأكل.

وخرج غاضبا مزمجرا. لم أستسلم، أعدت الكَرّة بعناد فظ، وذكرت له أسماء نساء الحي اللائي يشتغلن ويقبضن أجرا محترما حسّن من مستوى معيشة العائلة بشكل ملحوظ، كما شرحت بأن جارتي مستعدة للتكفل بابني أثناء غيابي، لكن رأس الشيخ امْبارَك صخر لا تزحزحه أعتى الرعود.

طاردته لأسابيع فواجهني بالحجة تارة وبمغادرة البيت تارة أخرى، ولكنه لم يصرخ في وجهي ولم يرفع عصاه بالتهديد والوعيد.

– قلت لكِ لا. قراري غير قابل للنقض ولا للمناقشة. لا أقبل بأن تعيلني زوجتي حتى و إن متنا جوعا. كظمت غيظا عظيما وأنا أسمح لك بالخروج. لست الرجل الذي يعيش بعمل زوجته. ماذا يقول الناس عني؟ الشيخ امْبارك، شيخ زاوية سيدي المخفي، تعيله امرأته. أتدركين الذل الذي سيلاحقني؟

– لماذا تسميه ذلا؟ إنه عمل شريف، وليس سرقة ولا تسوّلا. الذل هو الفقر الذي نحن فيه والصدقات الزهيدة التي تأتينا بها من فضلات الناس. ما أشبه حياتنا بحياة المتسوّلين.

شيئا فشيئا، على كرّ الأيام والأسابيع، أضحت حياتي جحيما لا يطاق. لا يمكن الاستمرار على تلك الوتيرة. إذا كان هو شيخا لا يحتاج إلا إلى خبز وبصل وماء، فليس الوضع كذلك معي. كنت في العشرين من عمري، والحياة أمامي ساطعة متلألئة، تغريني بالارتماء في أحضانها دون أدنى تردد أو تفكير. أنا في ضاحية مدينة تتوسّع بسرعة مذهلة، زادها الاستقلال حماسا واندفاعا؛ فكيف لي أن أمكث في عصمة شيخ هرم لا يوفر لي أدنى شروط الحياة الكريمة. لذلك، قررت الانفصال عنه. في البداية، تدبرت أمري مع لالّة فَطّومَة لأجد عملا أقتات به، وفي مساء ذلك اليوم، أخبرته بقراري: إما أن تتركني أشتغل أو تطلقني. لم يفاجئه قراري، كأنه كان يتوقعه بعد الذي حدث بيننا من مشاجرات حول موضوع العمل أضحت تتكاثر مع الأيام. في الأماسي التي يعود فيها فارغ اليدين، وكم هي كثيرة، أواجهه بنبرة انتصار واستهزاء: أترى البؤس الذي ينخر بيتنا؟ لو تركتني أشتغل، لوجدت مرقا ساخنا ينتظرك، يدفئ بطنك ويقويك. وحدها عيناه الثاقبتان كعيني صقر جريح تواجهني، وأقرأ فيهما العجز الحاقد والعناد الانتحاري. يغمغم كلاما مبهما قبل أن ينهض من مكانه وينشغل بأمر ما. في ذلك المساء، لم ينبس ببنت شفة. في الصباح، حينما رآني أسوي الحايك الأبيض الذي استلفته من لالة فطومة، قال:

– أنت... يمكنك الذهاب إلى جهنم. أنت طالق بالثلاث. ولكن الطفل سيبقى معي.

خفضت بصري لثوانٍ، وجدت الاقتراح يخدمني في مرحلتي الانتقالية، ولكنني تصنعت الاندهاش والرفض. جادلته بكلمات طفت على اللسان دون أن تخرج من القلب. لماذا الكذب؟ لم أعد في سن أخاف من صدمة الاعتراف. بل أنا بحاجة إلى الصدق لعلّي أتخلص من الذنوب العالقة برقبتي. لا أريد التوغل أكثر في الوحل. « اخرج عريان أمام الربّ يكسيك » مَثَلٌ حكيم. كنت خائفة من أخذ الطفل معي، يكون حملا ربما استعصى عليّ حمله، ربما كان عائقا أمامي لأعيد حياتي من جديد، من الأفضل إذن أن يبقَى مع أبيه. ليس رضيعا، سيغلق سنته الثالثة بعد أسابيع. سأزوره من حين لآخر، ومعي الملابس والغذاء. ولكنني أدركت خطئي بعد أيام قليلة فقط؛ إن الولد يكبر بسرعة، في العاشرة سيصبح رجلا يستطيع العمل وإعالة عائلة. كلمات في مهب الريح. حينما تتكسّر الجرة، لا فائدة من محاولة ترميم الأجزاء المهشّمة. شهران بعد ذلك، عدت أسترد ولدي، وجدت عملا واستأجرت غرفة تأوي لياليّ الآرقة المنعزلة. لا يمكنني نسيان ذلك اليوم، سأرويه لقبري يوم أتمدد تحت مترين من التراب. وجدت الشيخ في حالة غضب جنوني. دفعت الباب ببطء، وألقيت نظرة خائفة داخل الفناء. كان الطفل هناك في زاوية يلعب فوق كوم أوساخ. رقّ قلبي وندمت على فعلتي. ظننت أنه وحيد، فتقدمت منه وانحنيت لأخذه في حضني، متمتما كلمات ودودة. لم أكد أضمه إلى صدري حتى دوى صوت الشيخ راعدا:

– حطي الطفل وعودي من حيث أتيت أيتها العاهرة.

– إنه ابني، ومن حقي أن أراه.

– كان ابنك قبل أن تغادري هذا البيت، أما الآن فإنه ليس ابنك ولا علاقة لك به. أهملته مثلما تفعل العاهرات. أمنعك من وضع قدميك في بيتي. اخرجي وإلا...

ألقى نظرة حواليه يبحث عن عصاه. لا أعرف من الجن الذي وسوس في أذني أن خذي الطفل واهربي به؛ فبحركة خفيفة، أمسكت الطفل من الخصر بيد، وتأبطته وركضت عبر المنحدر، ولكن الشيخ، ورغم وهنه، التحق بي عند الوادي قرب شجرة الزيتون الهرمة، ولا أفصِّل

في ما عانيته ذلك اليوم. لم أرد ترك الطفل، والشيخ كذلك، أمسك به. نزلت عليّ الضربات مثل حصى البرد. قاومت، صرخت مثل مجنونة، بلا فائدة؛ لذلك، ومن عمق شقائي ويأسي، صرخت في وجه الشيخ امْبارَك:

– إنه ليس ابنك... المهدي ليس ابنك...

– أيتها الزانية... وتجرئين على الاعتراف بفجورك. سأريك إذا كيف أعامل الفاسقات الزانيات أمثالك.

وانهال عليّ بالعصا بقوة غيظه وغضبه وكرهه لي. سقطت أرضا وسقط معي ابني. أمسك العصا بكلتا يديه يرفعها إلى أعلى وينهار عليّ ضربا. أحسست بعظامي تتكسّر. كان يتقيأ شتائم لم أسمع أشنع منها وتهديدات ترجف البدن. أقسم أن يقتلني: « سأقطع جسدك إربا إربا وأوزعه على الغربان الناعقة. سأمحيك من على وجه الأرض... ». أدخل في نفسي رعبا قضّ أوصالي. لم أعد أفكر في ابني، بل في إنقاذ جلدي من الهلاك المحتوم. استجمعت آخر قواي وركضت مغمضة العينين بين الدروب الملتوية. سقطت مرارا ولكنني تمكنت من الوقوف ثانية، وهو يتبعني كالعفريت المارد، لا يضعف ولا يتعب ولا يكلّ. طلبت النجدة، لا أحد استجاب كأننا في قفار غير آهلة بالسكان، وكجواب، لم أتلق إلا صدى صراخه الشاتم الواعد بأخذ الثأر. السي اعْمَر المعتاد على إنقاذي لم يظهر له أثر. ربما كان غائبا. هو أيضا تغيّر، ولم نعد نراه في الحي يطوف بين أحراشه وبيوته مثلما كان يفعل. لم يعد يصادف طريقي كعهده سابقا. لم أره منذ ما يقرب السنة.

عدت إلى غرفتي، أغلقت الباب خلفي وشهقت بالبكاء. صرخت كما الطفل اليتيم المهمل وحيدا، وهو ما كنته فعلا، إلى أن جفت دموعي. انهار جدار من حياتي، كأن زلزالا هدّه هدا. انقطعت الصرة مرتين: الأولى ضد إرادتي، والثانية بإرادتي ورغبتي الملحّة. هل بقيت لي طاقة أواصل بها حياتي من جديد؟ في ذلك اليوم، شطبت بالأسوَد على حياتي الماضية، وأقسمت ألّا أنظر إلى الخلف أبدا. وبعد سنوات طويلة، حينما وقف المهدي أمام بابي يطلب رؤيتي، أنكرته، وقلت له بأنه مخطئ، ولست الأم التي يبحث عنها. والغريب أنني لم أتلعثم ولم أتردد ولم أبكِ يومها.

أقفلت الباب كأنني فتحته على متسوِّل جاء يطلب صدقة، فرفضتها له وعدت إلى انشغالي غير مبالية بشيء. من الصعب التلفظ بمثل هذا الاعتراف القاسي، ولكنني فعلته. أنستني السنوات في شقائي، وما كنت أريد لأحد أن يذكِّرني بتلك الأيام العجاف.

في ذلك العهد، كنت ساذجة، مندفعة، مهووسة بالمدينة وبريقها، وبالاستقلال ووعوده السرابية، ولم أكن أدري أن ما ينتظرني أقسى وأمرّ، وأن امرأة وحيدة بلا رجل يحميها عرضة لكل الإهانات، وهي عبارة عن فرج مباح، لا يتحرج أيّ متسكع في طرق بابه.

- 15 -

إن ما أرويه لكِ يا جارتي العزيزة سرّ يندفن هنا. لا أريد أن يصل مسامع سي اعْمر؛ سيُسقِط هذا الكوخ على رؤوسنا، سيطردنا دون رحمة في الليل قبل النهار. لا يخفى عليك أن ذراعه طويلة ولا يخاف الله؛ سينفينا من هذا الوادي ولن يتجرأ أحد على رفع صوته دفاعا عنّا. نحن ناس فقراء، لا سند لنا غير الله. نجينا من الحرب بأعجوبة ولم نعثر إلا على هذه المَرْجة مأوى لنا. ولا أخفي عنك بأن زوجي أخذ رخصة من سي اعمر قبل أن يبني هذا القُرْبي، أتخيّل أنكم اتبعتم نفس الإجراء، أليس كذلك؟ لا أحد يستطيع غرس قصبة واحدة دون موافقة سي اعمر، مهما كان شأنه، وإلا سيقف الشامبيط عند رأسك قبل طلوع الشمس ليأمرك بهدم ما بنيت ومغادرة المكان فورا، مثلما حدث في الشهر الماضي مع الأخوين بن بكّوش، فقد أجبرهما على فكّ جدران الكوخ، قصبة وراء قصبة، وفي المساء ذهبا يبكيان ويستعطفان سي اعمر. لقد سمح لهما ببناء منزلهما ولكن بشرط تغيير المكان. مَن أراد أن يسكن، فما عليه إلا قطع الوادي، والبحث لنفسه عن قطعة أرض مسطّحة في المنحدر المحاذي للغابة، أما الحقل الفاصل بين منزله والوادي فلا يحق لأحد أن يضع به ولو صخرة للجلوس، يريد تحويله إلى بستان. منذ أيام قليلة، رأيت بستانيّا يقلب الأرض ويغرس أشجارا تحت إمرة سي اعمر. ينبغي الاعتراف بالحقيقة يا جارتي العزيزة، سي اعمر رجل

حقيقي، « ذرغاز » مثلما يقول الزواوي. صعد إلى الجبل وحمل السلاح لمحاربة فرنسا، وعندما خرجت، أخذ مكانتها وأصبح سيدا، يملأ جيوبه بما لذّ وطاب من الخيرات. من يستطيع الوقوف في طريقه؟ قولي.. من؟ على كل، ليس زوجي، ذلك الجبان الذي يخاف من ظله؛ بمجرد ظهور العساكر الفرنسيين، آمرين سكان الدشرة بالرحيل، انحنى خاضعا طيّعا. « وي ميسيو، تيدي سويت » (نعم سيدي، فورا) وزجّوا بنا كقطيع غنم في محتشد لاصاصْ، وبقينا هناك سنتين في ظروف مزرية، لا أراك الله مثلها أبدا. كل شيء يمكن للمرء أن يتحمّله، إلا شيئا واحدا: الانتظار في طابور أمام المرحاض. ليس أذل للمرأة من هذا الموقف. مكثنا بالمحتشد عامين كاملين، اللسان وحده يستطيع ذكر تلك الأيام الشقية. ولم يجد زوجي التعيس من مهنة يرتزق بها إلا بيع السردين. يعود بعد منتصف النهار متسخا تسبقه الرائحة العفنة على بُعد أمتار، ويحتاج تنظيف ملابسه إلى ماء كثير. حنفية واحدة لأكثر من مائة عائلة... تنتظر الواحدة فينا بالساعات الطوال كي يحين دورها. ولا أحدثك عن المشاجرات الدائمة حول الدلاء والأطفال وعسكري الحراسة الذي يتدخل بغلق الحنفية وطرد الجميع. أحيانا، ينقطع الماء لأيام متواصلة. تشاجرت مع زوجي مرارا كي يغيّر مهنة الهمّ والغمّ، ولكن زوجي الأحمق لاصق بسردينه مثل ذبابة بركام أوساخ. وإلى يومنا هذا، بعد أكثر من سنة من الاستقلال، لم أتوقف يوما عن نصحه بأن فرص العمل متاحة أكثر من ذي قبل، فلماذا لا يبحث لنفسه عن مهنة محترمة، أو على الأقل نظيفة. لمن تحكي زابورك يا داوود؟ الحائط يكون قد ملّ من لومي وعتابي واستجاب لي. بالأمس فقط، حزمت نفسي ووقفت له كالرجل، وبّخته بقسوة مثلما أفعل مع أولادي الصغار حينما يثيرون أعصابي. والغريب أنه لم ينزعج ولم تظهر عليه علامات الغضب. قلت له صراحة أن عليه أن يغيّر مهنته وإلا لن أغسل ملابسه القذرة ابتداء من اليوم. خرج كأن شيئا لم يحدث. تصوّر أن التهديد عبارة عن كلام عابر لن ينتج منه شيء. ولكن لا؛ في المساء، جمعت أسماله الرثة، ولففتها ورميتها في الفِناء: اغسلها أنت، صرخت كالمجنونة. أتعرفين ماذا فعل؟ عند المساء، خرج يملأ الماء بنفسه وجلس على صخرة في زاوية الباحة، وضع

القصعة الحديدية بين ساقيه وطفق يغسل مثلما نفعل تماما. أقسم لك بأنني أشفقت على حاله. وقفت أنظر إليه وهو يدعك السروال، ثمّ تقدّمت ورفعت القصعة من بين قدميه وأتممت العمل بنفسي. ما عساني أفعل يا جارتي العزيزة ؟ أأتركه في ذلك الموقف المخزي ؟ لقد كتب الله لي أن أقضي حياتي وسط روائح السردين العفنة التي لم أذق طعمها أبدا. إنه مكتوب أختك فاطمة. هل تعتقدين أنني أعيش في جنة النعيم ؟

لِنَعد إلى حديثنا الذي أريد أن أسرّه لك به. ربّما كسّرت رأسك بحكايات السردين وحميد زوجي. قلت لك إذن أنني قبل يومين، رأيت شيئا لا يصدّق، نعم، وبعينَيّ هاتين التي سيأكلهما التراب يوما. ومثلما يمكن أن تتذكري، كانت الحرارة خانقة. عدت من زيارة خفيفة عند أختي التي لا تسكن بعيدا من هنا، على بعد كيلومترين لا أكثر. أقسمَت أن أشاركها الغداء، ومن حديث إلى آخر، نسيت نفسي، إلى أن عاد زوجها من السوق، وهو يشتغل خضّارا متجولا. حينئذ، عرفت أن الظهيرة قد حلّت وعليّ أن أسرع للعودة إلى داري ؛ تركت الأولاد بمفردهم، ولا أعرف ماذا سيحدث مع أولئك العفاريت. لم أزد كلمة واحدة، رميت الحايك على ظهري وخرجت من عندها أحث الخطى. كانت الحرارة مرتفعة، ومع شحمي الزائد، لم أقطع نصف المسافة حتى تبلل جسدي بالعرق، كمن دفّق عليّ دلو ماء. في حقيقة الأمر، لم يكن الوقت مناسبا للخروج ؛ كان وقت قيلولة وراحة، فلم أصادف بشرا عبر الدرب الضيق المحاط بأحراش القصب والتوت الشوكي. فجأة، وعند دورة، تواصل إلى سمعي صوت لم أتبيّن معالمه، ثمّ حفيف أوراق ورفس أقدام. رفعت رأسي، أبطأت المشي، وجهّزت حواسي استعدادا لاستقبال أوضح. تصوري بمن التقيت ؟ سي اعمر وما أدراك، دائما بسترته العسكرية، ولكنه بلا سلاح. مرق كالمارد أمامي، يسرع الخطى. أظن – والله أعلم – أنه خرج من مخبإ وراء الأحراش. كان منشغلا بقفل حزامه وتسوية عمامته، والعرق يتصبب على وجهه الأسمر الذي لفحته الشمس. أخفيت وجهي بذيل الحايك وتنحيت جانبا كي أسمح له بالمرور ؛ فقد كان عرض المسلك صغيرا إلى حدّ أن شخصا واحدا يشعر بالضيق، ثمّ إن انشغاله بتسوية ملابسه قد يجعله لا ينتبه إلى حضوري ويصدمني بجسده الفارع. كنت أعرفه. وفي العادة، حينما أصادفه، أسبقه بتحية

السلام. ولكن في تلك اللحظة، أعترف أن الخجل قد شلّ إرادتي. فكّرت أنه اختفى جانبا ليرش الماء، حاشاك. مرّ بجانبي، وكاد يلامسني. توقفت، أدرت وجهي المطأطأ نحو القصب وانتظرت مروره، كما تفعل المرأة عندنا تجاه غريب. بعد أن ابتعد أمتارا قليلة، سمعته يغمغم كلاما لم أفهم معناه، ولكنني أدركت أنه تعبير عن السخط والغضب. الظاهر أنه انزعج من مصادفة شخص في طريقه، وفي تلك اللحظة بالذات. بعد فترة وجيزة، عرفت السبب، وإذا عُرف السبب بطُل العجب؛ في اللحظة التي وصلت إلى مدخل المنحدر المحاط بحشائش وأغصان وارفة الأوراق، تسلّلت منه امرأة، وقفْتُ واجمة أتفحص ملامحها. الصراحة راحة يا جارتي العزيزة، إن جمالها ليوقظ الشيخ من قبره. امرأة كالقمر وفي ريعان الشباب، مكحّلة، محمرّة، كأنها تزفّ عروسا في ذلك اليوم، وزادتها حبات العرق المتلألئة على خديها وجبينها جمالا وإغراء. اسأليني أنا المجرّبة، أعرف النساء وكيدهن. كانت تسوي محرمتها بيد، وبالأخرى تنفض الغبار عن فستانها المدعوك. كانت خصلات شعرها المفحّم، المدهونة بزيت الزيتون تبرق تحت أشعة الشمس الساطعة. لا أخفي عنك بأن الرعب قد تملكها حينما رفعت رأسها ووجدتني أمامها. بقينا نحن الاثنتين مذهولتين من فرط المفاجأة. سبق لي أن التقيت بها في العين تملأ الماء، وتبادلنا أطراف الحديث. إنها هي فعلا. أَوَصلتك بعض التفاصيل عن علاقتها بالمجاهد؟ فقدت لسانها ، ارتبكت، ثمّ ابتسمت بمرارة، قبل أن تقول متلعثمة:

– معزاتي... عطشت المسكينة... ودلو الماء؟ أين الدلو، لقد تركته في الصباح هنا. ربّما رماه الأطفال وسط القصب... نزلت إلى الساقية أبحث عنه فلم أجد شيئا. ربّما أخذه زوجي إلى البيت. سأذهب لجلبه. إن معزاتي المسكينة تكون قد ماتت عطشا.

ثمّ اتجهت بخطوات متعثرة نحو معزاة كانت مربوطة بجذع تينة في الجهة المقابلة. لم أنطق بكلمة، كنت واقفة أنظر إليها بعينين مريبتين دون أن أفهم بوضوح عمّا تتكلم تدقيقا. ولكن، قبل أن تصل إلى جذع التينة، انتصبت بكامل قامتها وعادت أدراجها، تجمدّت أمامي، رمقتني بنظرة تحدٍّ، ثمّ خفضت عينيها وقالت بصوت لطيف فيه كثير من التوسل:

– يا خالتي، استري ما ستر الله... من ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة.

ثمّ تقدّمت نحوي وانحت تقبل يدي، وبعد ذلك، ودون أن تنظر إليّ، ابتعدت عني واختفت وسط الأحراش. إنها الحقيقة يا أختي ولا أزيد عليك كلمة واحدة. رويت لك ما شاهدته بأمّ عينيّ اللتين سيأكلهما التراب يوما. هذا كل ما في الأمر. مجاهد كبير يلطّخ سمعته مع امرأة لا يعرف أحد أصلها ونسبها. وإلا كيف ترضى بالزواج مع درويش في عمر جدّها ؟ معك حق، إنها جميلة وصغيرة، ولكن مجاهد كبير مثل سي اعمر، متزوج وله ما شاء الله من الأولاد، يستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة، فلماذا يقيم علاقة محرّمة ؟ آه على زوجته المسكينة، لو تعلم ! ولكن ماذا في مقدورها أن تفعل ؟ ما عليها إلا كبت غيرتها، ووضع كمامة على فمها. رجل في قدْر سي اعمر، يستطيع تطليقها في الصباح، والزواج بعشرة في المساء. لا يزال شابا، وله حوش يتّسع لعرش بأكمله. تتهافت العائلات الثرية على تزويجه بأجمل فتياتها. آه على الدنيا الظالمة... تمنح للبعض بالقناطير وتبخل على البعض الآخر حتى بالفتات.

اسمحي لي يا جارتي العزيزة، لقد أطلت المكوث عندك. تركت أولادي بمفردهم، ينبغي أن أعود إلى البيت. يكون زوجي قد أنهى قيلولته. ولكن احذري، السرّ يندفن هنا. لا تعيديه على أحد، ولا حتى على زوجك. إنها موضوعات نسائية، نتسلى بها، حكايات نؤثّث بها أوقات فراغنا. أبقيك على خير جارتي العزيزة، إلى اللقاء.

- 16 -

حينما اعتلى سي عبد الحق، إمام مسجد سيدي عبد الرحمن منذ سنوات عديدة، درجات السلّم الخمس المنفتحة على الباب الخشبي الضخم، لم يخامره الشك بعد. وصل توّا من بيته مدركا بالغريزة أن موعد الصلاة لم يحن بعد. يمشي الهوينا، متوكئا على عكازه المفضل، المصنوع من غصن زيتون، ومن حين لآخر يطلق نحنحة خفيفة، كي يكشط حلقه من نوبة سعال يلازمه منذ فترة. حينما انحنى لنزع حذائه، تواصل إلى أذنيه صوت المهدي الأبح. لم يشاهده حقيقة إلا لحظات بعد ذلك، عند وصوله إلى منتصف القاعة الكبيرة ؛ كان بصره

كليلا، لا يرى الناس إلا على شكل أشباح. وفي هذا اليوم بالذات، عند دخوله، كانت عيناه تمتلآن بضوء الشمس الساطع، وكانت الحرارة مرتفعة تنذر بقدوم رمضاء قاحلة. تصوّر الشيخ الإمام، بطيبته الساذجة، أن المهدي يشغل الناس بدرس، في انتظار قدومه. منذ حادثة الناقة، أصبح المهدي وأصدقاؤه لا يغادرون المسجد إلا لماما، وكان الإمام يراهم دوما، في ذهاب وإياب متواصلين بين قاعة الصلاة وبيت الوضوء. فكّر الإمام بأنه ربّما كان متأخرا، ولكن هذا النوع من القلق لا يحيّره؛ ذلك أن زوجته واقفة بالمرصاد تذكره بين هنيهة وأخرى بالوقت وبضرورة الالتحاق بعمله، ثمّ إنه يثق ثقة عمياء في عاداته المنضبطة انضباط البندول الإيطالي الذي لا يلحقه أي عطل. إن تجربة ربع قرن قضاه في أداء أفعال تتكرّر مرات عديدة في اليوم، يقطع المسافة نفسها من منزله إلى المسجد، يلقي دروسا وخطبا متشابهة، يقرأ السور القرآنية نفسها، يحكي الحكايات نفسها حول الأنبياء والرسل والصالحين، وكذا عن الكفّار والمشركين، كل هذا حفر في ذهنه آلية دقيقة التشغيل، وعبرها سكينة روح لا تتزعزع.

عندما وضع المهدي قدميه فوق المنبر، امتلأ صدره بلذّة فردوسية. من أعمق ألياف ذاته، يرن صوت دفين يؤكّد له بأن هذا المنبر الذي يملك تأثيرا عظيما على المؤمنين لا يليق إلا لشخصه دون سواه. ولكن شيئا ما كان يزعجه في ذلك المنبر الخشبي المنقوش بكتابات لا تكاد تُقرأ، كان يرى نفسه في وضعية مرتفعة لا تسمح له بالسيطرة على الجالسين التائهين في أحلام شتى.

التحق الإمام الشيخ بمكانه المعتاد بقرب المحراب، واتكأ على الجدار مربعا ساقيه، وانتظر أن يتوقف المهدي عن درسه وأن يفسح له المجال، ولكن هذا الأخير تجاهله عنوة، مواصلا كلامه إلى ما لا نهاية. حان وقت الصلاة، وظهر القلق في حركات الجالسين وتعالت نحنحات متفرّقة وكثرت الالتفاتات والنظرات إلى الساعات اليدوية بإلحاح. أشار رشيد حلموش مرارا بحركة يد خفيفة نحو المهدي، وأخيرا، أنهى خطبته بدعاء طويل عريض، ثمّ نزل ببطء يتصبّب عرقا والرضا يعلو تقاسيم وجهه. وقف رشيد بخفة واقترب من مكبّر الصوت وبدأ يؤذّن للصلاة. استيقظ

سي عبد الحق من سباته، وأخرج ساعته الجيبية المعلقة بسلسلة فضية إلى صدر جلابيته، وقرّبها من عينيه بيد مرتعشة إلى حدّ لمس أنفه. التحق المؤذن بمكانه، فتحرّك الإمام ليؤمّ المصلين، ولكن المهدي انفصل من الصف الأوّل وأعلن بداية الصلاة؛ وقف الجالسون واصطفوا بخفة، واحتج الإمام بصوت ضعيف، فشدّه أحد الملتحين من ذراعه وأبعده. ما عساه يفعل والمهدي قد بدأ تلاوة الفاتحة؟ ضغط على ما تبقى له من أسنان، وصبر للمقلب الذي عصف به. عند انتهاء الصلاة، احتج لدى المهدي احتجاجا شديد اللهجة، فنظر إليه هذا الأخير نظرة ازدراء وقال:

– يا السي عبد الحق، إن أيامك قد انتهت في هذا المسجد. لقد أممناه اليوم. حان وقت تقاعدك أو... أطلب من الوالي أن يبني لك مسجدا جديدا.

– إن المسجد ملك لوزارة الشؤون الدينية، وأنا الإمام الرسمي هنا. لا تملك الحق ولا القوة لعزلي.

– إن المسجد ملك لله وللمصلين وليس لوزارة الشيوخ التي تتحدث عنها. ثمّ إنك تتقاضى أجرة لتؤمّ المصلين، وهذا لا يجوز في الإسلام.

– لا يجوز! من أين أخرجت هذه الفتوى؟

– قالها علماء أجلّاء لا تسمع عنهم أنت.

– شوف آسيدي. لا تعرف إلا سور إقامة الصلاة وتأتي لتعلمني ما يجوز وما لا يجوز. أنا حفظت الستين وعمري لا يتجاوز العاشرة، ولا تنسَ أني درست في جامع الزيتونة قبل أن تخرج من بطن أمك...

– لا تجادل فيما لا تعرفه يا السي عبد الحق. أنت موظف ولا علاقة لك بالدين. أصبحت شيخا لا تقوى حتى على الوقوف، وذاكرتك مخرّبة. خذ تقاعدك واترك جيل الشباب يسيّر هذا المسجد.

– سأشتكي إلى الوزارة وستطردكم الشرطة من هنا مثلما طردتكم من سوق الفلاح.

– هكذا يا السي عبد الحق، تهدّدنا الآن وتقف مع الطغاة... رشيد، سليمان... خذوه وأرموه خارج المسجد... لا أريد أن أراه هنا مرّة أخرى. هذا المسجد مسجدي، اليوم وغدا وأبدا. ولا يخرجني منه أحد.

تسارع الرجلان وشدّا الشيخ من الذراعين وجرّاه إلى غاية الباب الخارجي ورمياه على البلاط. لا أحد من المصلين تجرّأ على التدخل، ولو بالقول.

هكذا، نصّب المهدي نفسه إماما لمسجد سيدي عبد الرحمن.

اشتكى سي عبد الحق الإمام الرسمي لوزارة الشؤون الدينية التي سارعت إلى إرسال مفتش مكلّف بإيجاد حلّ للمعضلة، استُقبل استقبالا شرسا من قبل أصحاب الناقة، فلجأ إلى الشرطة يطلب العون. ولأسباب مجهولة، رفضت الشرطة التدخل، واكتفى المفتش باستدعاء المشاغبين، يريد أخبارا دقيقة حول الحزب السرّي الذي ينتمون إليه. باءت المحاولة بالفشل، وانقلب السحر على الساحر. المهدي هو الذي طلب من الشرطة أن لا تتدخل في أمر لا يعنيها مباشرة. حينما قدّم المفتش التقرير المفصّل للمحافظ، كان ينتظر إصدار الأمر بإيقافهم، ولكن المحافظ طلب منه عدم التدخل والاكتفاء بالمراقبة الشديدة وإخباره بأيّ جديد، ثمّ أضاف موضّحا:

– بمثل هؤلاء سنقضي على الأفكار الشيوعية المعشّشة في أذهان الناس. إن الانتقال إلى الرأسمالية يتطلب تهيئة الذهنيات التي انطبعت على الاشتراكية منذ الاستقلال. وهؤلاء الشبان هم الجسر المتين الذي ينقل المجتمع إلى النظام الرأسمالي. هذه هي السياسة الجديدة للبلاد، ومن لم يفهمها ويخدم من أجل تحقيقها على أرض الواقع، خير له أن يتقاعد.

– صدقت سيدي المحافظ. انتهى زمن بومدين وسياسة التقشّف التي حوّلت جميع الناس إلى فقراء يشحتون. أمّا الرئيس الجديد، فإنه زهواني ويحب الحياة، والحياة مع الرأسمالية وليست مع الاشتراكية. خلِّي الناس تخدم، تبني وتعلي، تحوّس، تزور البلدان، تنحِّي الدمار اللِّي بها.

فشلت كل محاولات المصالحة بين الطرفين، ذلك أن المهدي أقسم ألّا يتنازل قيد أُنْمُلة، ألّا يفتح ثُلمة ولو بحجم سمّ إبرة. أما المصلون المتناثرون بين الأعمدة، الغارقون في فضاءات مضبّبة، فقد اصطنعوا اللامبالاة الكلية، كأن لا مصلحة لهم، لا في العير ولا في النفير. الحقيقة أن أغلبيتهم يساندون التغيير خلسة. الصمت علامة الرضا... أم الخوف ؟ ذهب بعضهم إلى القول، عبر وشوشات خافتة، أن الإمام الهرم يضجرهم بحكاياته حول

الجنة والنار، وحكايات الأنبياء الغابرة التي لم تعد تنفعهم في شيء. بينما يحدثهم المهدي عن معاناتهم اليومية وإمكانيات تحسينها.

منذ الأيام الأولى لتنصيب نفسه إماما، انزعج المهدي من المنبر الخشبي المنقوش بحرفية نادرة لم يعد يتقنها أحد في هذه الأيام، يعود تاريخ صنعه إلى القرن السادس عشر، وقد أنجزه نجار خصيصا ليقدّمه إلى مسجد سيدي عبد الرحمن بمناسبة ذكرى المولد النبوي الألف، حيث أقيم حفل ديني دام أسبوعا كاملا، مصحوبا بولائم يومية، جلبت مئات الرجال والنساء من كل حدب وصوب، وبالمناسبة ذبحت عشرات الخرفان والعجول، وأكل الناس الشُرْبة والكسكسي إلى حدّ التخمة، ورقصوا رقصة الهداوي وتداول المدّاحون والشعراء على المنصّة لإطلاق العنان للقصائد الطوال المقفاة تقفية موسيقية، تجاوب معها المستمعون بحماس فياض. بدءا، وجد المهدي هذا المنبر عاليا، ثمّ أليست كل تلك الرسومات المتداخلة إحياءً وتحنيطا للعهد الوثني الجاهلي؟ لو امتلك فضول فك طلاسم تلك الخطوط المتشابكة المنقوشة على الخشب راسمة أشكالا جمالية متنوعة، كان سيكتشف أبيات شعر وحِكما وأدعية قرآنية، خصّها النجّار الملهم أياما ولياليا، مستثمرا كل ماله وعلمه وتجربته في النقش والنسخ، كي يخرجها إلى العالمين تحفة لا نظير لها. كان المنبر يحتوي على ثمانية درجات، بترها المهدي بمنشار من الثلاث السفلى، وفي الأيام الموالية انتبه المصلون إلى قِصَر المنبر، ولكن هذا المنبر هو آخر اهتماماتهم. من سيكسّر دماغه من أجل سلّم خشبي قديم؟ تقريبا لا أحد!

بالصدفة، وقع الخبر عند آثاريّ مهووس ببقايا الحضارات القديمة، والذي يقضي جل وقته يحفر وينبش في المواقع الأثرية الفينيقية والرومانية والتركية... كان يعلم بأن ذلك المنبر قديم وله قيمة تاريخية أدّت بمنظمة اليونيسكو إلى تصنيفه تحفة أثرية يجب الحفاظ عليها. حرّكته الغيرة، فكتب رسائل مفصلة إلى مديرية الفنون وحماية الآثار بوزارة الثقافة، هو العارف بأنه لو وضع رسالته في قارورة ورماها في بحار الجنوب، لكان حظه في تلقي الجواب أكثر بكثير من إرسالها إلى الوزارة. فعلا، انتظر أسابيع ولم يتلق ردا، فحاول مغتاظا أن ينظم مظاهرة احتجاجية في الساحة المقابلة للمسجد؛ إنه الدليل القاطع على إدمانه

على القنوات التلفزية الفرنسية على المدى الطويل، الانفصام مضمون مائة بالمائة، ولا تعيد توازنه حتى دمية باربي. وجد نفسه وحيدا، تحت وابل من الصفارات والاستهزاءات، ولم يجد حتى ذراعا واحدة ترفع معه شريط الورق المقوى الذي قضى، هو اللاتيني المتجذر، صبيحة كاملة كي يخط شعارا بالعربية إلى جانب الشعار بالفرنسية، يكون مقروءًا. بالطبع، لا يمكن لسلّم خشبي يعود إلى أربعة قرون تلت، أن يحرّك حميّة أشخاص يغامرون لإنقاذه من التلف. ثمّ إن الناس سكنهم الخوف، وعدد الملتحين يتكاثر يوميا ولا يترددون في اللجوء إلى استخدام العصي لإجهاض كل محاولة للتمرّد ضدهم. الآثاري عنيد وحالم، تقدّم للمحكمة لرفع دعوى، ولكن قاضي التحقيق رفض الدعوى بحجة أن القضية لا تستحق كل هذا التهويل، ونصح الآثاري بالابتعاد عن الملتحين. إنهم يتلقون دعما ماديا ومعنويا من أعلى هرم السلطة. الغريب أن بين عشية وضحاها، تفاجأ الآثاري بالتهم المنسوبة إليه، ففي خطبة صلاة الجمعة، وأمام أرضية غاصة، انتقل الإمام الجديد من متّهَم إلى متّهِم، وألبس الآثاري الخطايا الأصلية السبع؛ أوّلا، إنه لا يؤدي صلاته بدليل أن لا أحد رآه دخل المسجد ولو مرّة في حياته، بل أكثر من هذا، يجزم شهود عيان بأنه يدخل كل مساء خميس إلى بيته متعتعا بالسكر، وأخيرا، لم يكن خافيا على أحد أن الرجل درس في بلاد شيوعية، وعوض أن يعبد الله مثل جميع مسلمي هذه الأرض، يقضي وقته في عبادة الأصنام الرومانية والإغريقية التي يعتني بها عناية فائقة. إنه وثني ومشرك مثل أسلافه الجاهليين. وفوق كل هذا وذاك، إنه يقتسم مكتبه في مقرّ عمله بالمتحف البلدي مع سيّدة متزوّجة، هو الأعزب! في مساء ذلك اليوم، أخبره حارس المتحف بالاتهامات الخطيرة التي وجهها ضده المهدي، ثمّ نصحه بالاتصال به والتحدث معه كي لا يعيد الكرّة في الجمعة المقبلة، فهو يملك منبرا مؤثرا ويمكن أن يضرّه. وهو ما فعل دون انتظار ولا تردّد، إذ وجده جالسا بقرب المقصورة والمصحف بين يديه، فقدّم نفسه وعرض سبب مجيئه. استمع إليه الإمام الشاب متفرسا في قسمات وجهه بنوع من الغرابة، وفي لحظة ما وقبل أن ينهي الآثاري كلامه، قاطعه قائلا:

– هل توضأت قبل أن تدخل المسجد؟

ارتبك الزائر وابتلع غيظه مع البصاق، وقال:

– يا الشيخ، ما دخل الوضوء في حديثنا؟ جئت أحدّثك عن الاتهامات التي تلفظت بها في خطبة الجمعة...

– هل كنت حاضرا؟

– لا.

– وكيف عرفت؟

– صديق هو الذي أخبرني.

– وصديقك هذا، هل يصلي؟

– نعم، وإلا كيف يكون قد عرف؟!

– وأنت يا أخينا، لماذا لا تصلي؟

– يا الشيخ، لم آتِ إليك للحديث عن الصلاة، فهذه مسألة تخصني أنا دون غيري. ولكنني أريد أن أعرف لماذا ذكرتني بسوء، وأنا لم أقم إلا بالدفاع عن معلم تاريخي ثمين، أهداه حِرفي إلى هذا المسجد منذ أربعة قرون في الذكرى الألف للمولد النبوي الشريف؟

رمقه المهدي بنظرة ازدراء هازا رأسه، ثمّ وقف بخفة، ووبّخه بصوت مرتفع كي يجلب انتباه أصحابه المجتمعين في زاوية غير بعيد منه:

– عوض تضييع وقتك ووقتنا بتوافه الأمور، نطلب من المولى القدير أن يبعدك عن الأصنام الجاهلية التي تعبدها، وتزعج المؤمنين بالحديث عن سلّم خشبي مهترئ، عليك أن تتوضأ وتبدأ صلاتك، أنت متأخر جدا، أثقل الديون هي ديون الصلاة. أنفع لك ولنا جميعا. تربح في حياة الدنيا والآخرة.

ابتعد المهدي تاركا الآثاري مغروسا في مكانه يلتهب غضبا وعجزا، لا يعرف كيف ولا بأيّ سلاح يواجه هذا الإمام المتغطرس. غادر المسجد، يجتر سعارا يؤجج النار بداخله وشعورا بالكبت والعجز لأنه لم يتمكن من إجراء حوار حقيقي مع خصمه حول كنه التاريخ وكيفية ظهور الديانات وعلاقاتها مع سلطة الرجال أفرادا وجماعات. حوار الفلاسفة والشعراء... وليس حوار الأئمة والأنبياء...

- 17 -

حينما وطئ نعلي البالي الأرضية المبلطة لذاك الرواق الطويل العريض أوّل مرّة، بقيت مشدوهة فاغرة فمي من العجب العجاب الذي يمتد أمام بصري المرتبك... ما أجمل البيت ! الغرف واسعة، مضيئة، مؤثثة بأفخر الخزائن والطاولات والكراسي، السقوف عالية مزينة، النوافذ والأبواب متسعة. أمّا المطبخ... آه يا جارتي العزيزة، كيف يمكن لي أن أصف لك كل تلك الجوهرة التي لم تر عيني مثلها أبدا ؟ قضيت شهورا كي أتمكن من نطق تلك الألفاظ الغريبة وأتمكن من التفريق بينها، وليس بإرادتي ولكن لأن صاحبة البيت، لالة مريم، واقفة بالمرصاد عند رأسي، من الصباح إلى المساء، آمرة ناهية. وأنا الفخورة بكوخي الواطئ اللاصق بجنب الهضبة كحلزون جاف، في خوف دائم من أن يصدم رأسي سقف الديس والتبن. قلت مع نفسي في ذلك اليوم : « يا نايلة الشقية، كنت مدفونة حية وأنت تجهلين. ها قد ولدت اليوم من جديد، خرجت من وحل الفقر والشقاء. لذلك، عليك بإرواء الضمإ الذي يؤجج أحشاءك، إلى حد التخمة، إلى حدّ النشوة المسكرة. هل يعرف المرء ماذا تخفي له الدنيا الغادرة ؟ ».

قالت لالة مريم أن الفيلّا كانت ملكا لأحد الفرنسيين الذي باعها لزوجها قبل مغادرته المدينة بسنوات طويلة قبل الاستقلال. اشترتها بالنخالة ؟ لمن تقولين هذا الكلام؟ سي اعْمر أيضا اشترى حوش الرومي؟ روت لي لالة فطومة، هي العارفة بأسرار الناس، أن المعمرين بدأوا يغادرون المدينة قبل شهور عديدة من وقف إطلاق النار. كانوا على علم بقدوم الاستقلال وبنزول المجاهدين من الجبال، فخافوا من بطشهم ومن ثأر العرب عموما، وذهبوا تاركين منازلهم وأملاكهم. إن الأذكياء والشجعان خدموا أنفسهم مثل السلاطين، فيما بقي الجبناء والكسالى مثل زوجها ملتصقين بالتلال المجاورة للمدينة ينتظرون أن تهب لهم السماء كسرة شعير وكأس لبن، حارسين غاباتها من الغربان والذئاب.

كان عملي يتمثل في تنظيف المنزل وغسل الأواني والثياب. كل تلك الأروقة وذلك البلاط العريض، إنه فعلا عمل مرهق. ورغم ذلك كدت

أطير فرحا يوم سلّم لي سيد الدار أجرتي الأولى، دسستها في نحري ورأسي يغلي بصور وألفاظ الأشياء الجميلة التي تمنيت شراءها. لأول مرة، تكون بحوزتي نقود هي ملك لي، لا ينافسني فيها أحد، وهي من ثمرة جهدي وشقائي؛ لذلك عملت كل ما في وسعي من طاقة جسدية وذكاء كي أرضيَ صاحبة المنزل، تلك الحضرية، بنت المدينة، والتي كانت تقف عند رأسي مثل حراس السجناء، من لحظة دخولي إلى لحظة خروجي. أجدها أمامي وخلفي في كل تحركاتي، تراقب أدنى تهاون، ناصحة آمرة في كيفية استعمال المكنسة والمنشفة، وغسل الأواني والثياب، وبالأخص في كيفية النطق بالكلمات. كنت ريفية قحة وكانت مدينية أصيلة، فكانت تترقب كل كلمة أتفوّه بها، لتنهرني وتعلمني نطقها الذي تعتبره الأصح والأفضل. كنت أتفجر غيضا حينما تواجهني ساخرة وتطلب مني تكرار اللفظة حتى أتمكن من نطقها الجديد. كنت تلميذتها وشغلها الشاغل. تجد لذتها في إظهار بداوتي والسخرية منها، وأن من واجبها أن تعيد تربيتي وتعليمي كيفيات العيش الحضرية. كانت سخريتها تقرفني، ولكنني أكظم حنقي وأجتر الأجوبة الصاعقة التي كنت أنوي مجابهتها بها وأبتلعها راضية خائفة، مدركة أن فتات الجرة ستسقط على رأسي أولا وأخيرا. والحق يقال أنني تعلمت منها الكثير؛ ها أنت ترين يا جارتي أنني أتكلم مثل أهل المدينة، ولم يبق من تربيتي الريفية إلا الفقر اللاصق بقفاي كما القراد بجلد البقر. ولالة مريم لم تكن سيّدة متجبرة فقط، بل كانت تظهر وجهها الكريم أحيانا، ففي نهاية الأسبوع، عند مغادرة البيت، تجمع لي دوما شيئا من الألبسة والأغذية وتضعها في قفتي. لم أكن أشتري الشيء الكثير. ومن جهتي، كنت أبذل قصارى جهدي كي أسترق منها عبارة شكر أو ابتسامة رضا. الأواني كثيرة ومتعددة الأحجام والأسماء، والأرضية المبلطة تحتاج إلى مسح وإعادة مسح، وأيّ خدش أو قشر خضر يظهر للعين كوسخ عفن. تعلمت النظافة وأصبحت هاجسي الأول. تسللت العدوى في صمت ورِقَّة، وبعد شهور قليلة قلّت الحراسة وأصبحت أحرص بنفسي على نظافة البيت دون حاجة إلى غطرسة صاحبته.

كانت حياتي عائمة في بحيرة من العسل أو تكاد. ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن؛ بدأت أهتم بجمالي ولباسي وغزا جسدي قليل من

النعمة مما أثار انتباه زوجها وفتح عينيه النهمتين عليه. كان يملك محلا لبيع الأثاث الجديد والقديم، ولكنني عرفت بأنه يتاجر في كل شيء، حتى في الحيوانات. كان نخّاسا وحلقة وصل بين البائع والشاري، وغالبا ما يعود إلى البيت في أي وقت من النهار كي يحط ويأخذ مبلغا من المال. أدركت بسرعة أنه ينظر إلي بعيون طمع ورغبة، فقد كنت امرأة وأعرف الرغبة الجامحة اللامعة في عينيه السوداوين وبالأخص في سرواله الذي ينتفخ وحركته الرعنة في محاولة إخفاء ذلك. كان لطيفا معي، فصيح اللسان ومعتدا بنفسه أكثر من المعتاد، وعلى وجهه، ترتسم تلك الابتسامة الزاهية الساخرة، لشخص لا يشكّ لحظة في تفوقه وانتصاره. حينما يطلب مني خدمة، أتسارع لأدائها على أحسن وجه. أليس هو الذي يدفع لي أجرتي في نهاية كل شهر؟ أخدمه بصمت ودون أن أجرؤ على رفع بصري نحوه. ولكنني أشعر بثقب نظرته واشتعال الرغبة بداخلها. الدار واسعة وبها غرف كثيرة، فيجد لذة في مفاجأتي وحيدة في زاوية من الزوايا، مخترقا عذرا كي أخدمه. وهنا بدأ يلامسني عمدا، ربما ليختبر ردّ فعلي. لم أقل شيئا، ولم تتبادر مني حركة رفض أو انزعاج. مرة، تجرّأ ووضع راحة يده على نهدي، فارتعشت وكدت أفضحه بصرخة غير إرادية، ولكنني كتمت نفسي بضغط يدي على فمي. في البداية، أزعجتني مراودته؛ كنت خائفة من زوجته، وفي الوقت نفسه انتابني خجل العار الذي يمكن أن أرتكبه. ماذا ستقول عني؟ سارقة رجال؟ فاجرة؟ حاولت التخلص من مجساته اللاصقة، ولكن أينما لجأت إلا وطاردني بخبث وصمت. حاولت تفادي لقاءاته، فكنت أتصنع الصم حينما يناديني، وغالبا ما تتدخل زوجته لتنهرني: « نايلة... ردّي على سيّدك ». فيستقبلني بسحنة غاضبة، رافعا صوته لائما موبخا في حركة مسرحية سرعان ما يتخلى عنها ليتحوّل إلى شخص ودود بشوش، خافضا صوته. كنت أقع في حباله الملتوية دون أن أعرف كيف أتصرف. بدأ يقدّم لي الهدايا خفية عن زوجته، وعند تسلم أجرتي أجد دائما بعض الأوراق الزائدة. كنت مثل كبش العيد، الفرق هو أنني كنت أعي مصيري المحتوم. رويدا رويدا، أعجبتني اللعبة واندمجت في قواعدها، وأصبحت أردّ الصاع صاعين، فأتظاهر بأنني مهانة وأتصنع حركات الخجل والحشمة، وأؤجج رغبته بإظهار بعض مفاتن جسدي.

بداخلي، بدأت تراودني أحلام، حولتها شيئا فشيئا إلى أشياء ملموسة. ربما ستتبخر حياتي الشقية مثل ماء بركة تحت شمس ربيعية دافئة، فتركت نفسي أنزلق ببطء تدريجيا في الحلم الرائع الذي ملك جوارحي، مع العلم أن اليقظة المفاجئة بعد نوم حالم يترك دائما مذاقا مرا في الفم، وتحسرا حزينا في الذاكرة. ولكن، ما قيمة الحياة بلا أحلام ترعش أحشاءنا وتلهم حماسنا، وتملؤنا عنفوانا وحيوية، وتوقظ شهيتنا إلى الحياة وملذاتها الفاتنة. إن الأحلام هي ملح الحياة، يزيدها طعما ومذاقا ويزيدنا شراهة. هل حاولت يا أختاه أن تأكلي طبقا بلا ملح؟ أخخخ... تراب لا طعم له.

في ظهيرة دافئة، كنت منشغلة في المطبخ وسمعت قفل الباب يفتح. عرفت أنه هو، إنه الوحيد الذي يملك المفتاح ويدخل بلا طرق. هل يعرف بأنني وحدي بالبيت أم أنه أتى صدفة كعادته؟ توقفت عن الحركة. كتمت نفسي، ولكن سمعي تشبّث بوقع أقدامه. تمنيت ألّا يدخل المطبخ... سيأخذ الشيء الذي أتى من أجله وينصرف... إن لساني يهمس هذا الاحتمال، ولكن رغباتي العميقة تأمل العكس. جسدي يشتهيه. رغبت في تجربة جديدة، وهاهي تمنح نفسها لي في طبق من ذهب، فلماذا أرفضها؟ اقترب من ظهري يتنفس بصوت مسموع:

– ألم تذهبي معها إلى الحمام؟

كان على علم إذن... أتى من أجلي. تلعثمت قائلة:

– لا... كلفتني لالّة بشغل عليّ أن أنهيه قبل عودتها.

تجرأت ورفعت بصري نحوه، وفي الثانية التي التقت فيها عيوننا في تواطؤ خبث، أدركت مدى الانجذاب القوي الذي يدفعنا الواحد نحو الآخر. رعشة هزّت جسدي، كأن رغبته العنيفة ألقت عليّ تيارا كهربائيا، وارتسمت على محياه ابتسامة منشرحة، ابتسامة زهو صادق، تفيض شهوانية. كما أدركت أيضا أن لا مكان للكلمات، حتى وإن استقيناها من أجمل وأخلد أغاني الحب. بعد النظرات المتيمة والمداعبات المحفزة، ها قد حان دور الأجساد كي تنتشي وتعيش تلك اللحظات التي طالما تاقت إليها وكبتتها مرغمة متحسرة. كان المنزل فارغا، وحارسته غائبة. بلا كلمة، أمسك بيدي وجرني خلفه. طيعة وراضية، تركته يقودني نحو جنة خرابي.

مارسنا الحب مثلما يمارسه العشاق المضطهدون. بدت لنا كل حركة هي الأولى والأخيرة، لذلك عشناها بشدّة جوارحنا وأجسادنا المحمومة. لقد أخطأت في شأنه، فقد اتضح أنه رجل مجرّب في معاملة النساء، زيادة إلى لطف لم أعهده مع السابقين الذين يتصرفون مثل الديكة. يولجونه في أحشائي بلا مقدمات، يفرغون حمولته بعنف وينهضون. المرأة بالنسبة إليهم حفرة تفريغ لا أكثر. أعترف اليوم بأن الأمر كان مختلفا مع الجيلالي. في تلك الظهيرة ولأوّل مرة في حياتي، عرفت معنى النشوة الشهوانية، عرفت لذة الجسد حينما يهيج في جموح لا ترده أية قوة مهما كان جبروتها. في ذلك اليوم وفي أيام أخرى، دامت علاقتنا خمسة أشهر بالتمام والكمال. وفي اليوم الذي أخبرته فيه بأنني حامل، اسودّ وجهه. انتظرت ثلاثة أشهر كي أبشره بالقادم الجديد، فقد أجّلت لحظة الكشف مرارا، ولكن كان ينبغي للسرّ أن يكشَف قبل أن يفتضح بنفسه.

– ألم تقولي بأنك كنت متزوجة ولم تخلفي ذرية ؟

– نعم، إنها الحقيقة (قلت كاذبة وأنا أحاول إخفاء ارتباكي).

– وكيف حدث أنك لم تحملي ؟ قلت ثلاث سنوات ؟

– لا أعرف السبب. كان زوجي شيخا كبيرا ولم يكن ينام معي إلا نادرا.

– إنها شوكة كبيرة يستعصي علينا نزعها.

– أنت الرجل والحل بين يديك.

– اتركيني أفكر... لا مشكلة إلا ولها حل.

في الغد، أعطى لي موعدا في المخرج الغربي للمدينة عند غروب الشمس. ذهبت متثاقلة الخطى، القلب منقبض، أجترّ سيناريوهات عديدة. لم أكن مغفّلة. كنت أعرف عموما ماذا ينتظرني. كان الجيلالي نخاسا ماهرا يعرف كيف يحوّل القضايا إلى صالحه. من المستبعد جدا أن يعرِّض حياته الزوجية للخطر من أجلي. إن زوجته من عائلة ثرية ومتشعبة الأغصان، إن الميزان يميل إلى كفها بلا حتى أدنى تفكير. وصل قبلي، ووجدت شاحنته الصغيرة متوقفة عند آخر الشارع ففتحت الباب وصعدت في صمت. لم يكن مزاجي يساعد على الكلام. بدوره لم يقل شيئا، وانطلقت السيارة وسرنا مدة من الزمان. كان الظلام يخيّم برهبته

عندما توقف تحت أشجار صنوبر، غير بعيد عن الطريق الرئيسي. في البداية، كان لطيفا معي. ثمّ تغيرت لهجته وأضحت حازمة ومهددة. نزلت الأوامر كالساطور: عليّ بالتوقف عن العمل في بيته ابتداء من الغد؛ سأذهب صباحا عند السيدة وأخبرها بأنني قررت السفر إلى بلدتي وعليّ أن أختلق الحجة المناسبة، كما منعني من محاولة الاتصال به، لا في البيت ولا في المحل. وضع رزمة أوراق نقدية بين يديّ وقال: « اذهبي إلى وهران، هناك ستقصدين عجوزا تساعدك على إنزال الجنين. ها هو العنوان في هذه الورقة. تركبين القطار صباحا، وستصلين قبل غروب الشمس. وهران مدينة كبيرة، ولن يتعرف عليك أحد، وستجدين شغلا هناك. إذا احتجت نقودا اتصلي بالعجوز، هي تعرف كيف تخبرني ». ثمّ غيّر من سحنته واستدار كلية نحوي وقال بتودد:

– لا يمكن أن نفترق هكذا. مرة أخيرة، ليكون الوداع خفيفا.

– مثلما تريد.

في الحقيقة، فترت شهية جسدي منذ انقطع الحيض وعرفت أنني حامل، ولم تعد استجاباتي له إلا من باب العادة والحفاظ على علاقتي به، وبالذات في الأمسية التي يخبرني فيها بالانفصال النهائي. ورغم ذلك رضخت لرغبته... زائد واحد أو ناقص واحد، غير مهم. أخذني داخل السيارة، على الأريكة، لم أشعر بشيء، ساعدته كي يلجني جيدا. وحده نخيره عند القذف شوّش قليلا على الصمت والظلام المخيّمين حولنا. أثناء العودة، كلمني عن وهران المدينة، عن شوارعها ومحلاتها وناسها الطيبين المضيافين: « سترين، لا شبه بينها وبين عين الكرمة »، ما فتئ يكرر. بقيت خرساء. لن أنطق بحرف حتى وإن سقطت السماء على رأسي. كنت أتخبّط في هواجس كئيبة. أنزلني في المكان الذي أخذني منه، واختفى من حياتي إلى الأبد. تبخّر هكذا دون سابق إنذار، قبل أن أجد الوقت الكافي لهضم ما يحدث لي. كنت أرغب في الاحتفاظ به وبقاء الحالة على حالها. ولكن هيهات... ينزلق الرجال مني مثل أسماك وادي طفولتي، بمجرد إطلاق صيحة فرح بشدّه بين راحة اليد إلا وينزلق عائدا إلى الماء دون أن أعرف كيف ولماذا. شرارة نار وتنطفئ. صعب أن نمسك

حوتا باليد الفارغة، ينبغي استعمال أدوات وأطعمة أكثر جاذبية وإغراء. تعلمت الدرس ولكن على حسابي وبعد أن تكسرت الجرة.

حبست نفسي في غرفتي لأيام عديدة، أجتر شقائي. كنت ضائعة وسط فلاة لا رحمة فيها. أنظر إلى رزمة الأوراق النقدية بمرارة؛ لو امتلكتها في سياق مغاير لرقصت فرحا وصرخت سعادتي على جميع الأصعدة، ولكن في حالتي الراهنة، بجنين لقيط في الأحشاء، بلا أدنى حل في الأفق سوى انتظار شهر الولادة، فكأنها أوراق خردة بلا أدنى قيمة. شيئا فشيئا، استسلمت للقنوط واليأس. لم أكن أخرج من الغرفة إلا عند الضرورة القصوى. توقفت عن العناية بجسدي، وانقطعت شهيتي فلم أعد أبتلع إلا جرعات ماء وفتات خبز. أصبحت مشعثة الشعر وذبلت عيناي من الأرق والبكاء. كنت أعرف ودون أن أرَى وجهي في المرآة أنني أشبه بنساء الغجر المتسولات اللائي ألتقي بهن في شوارع المدينة. وحينما أفكر في الأمر، أهز كتفيّ بعدم الاكتراث. ليحدث ما يحدث. لم أعد أبالي. في حقيقة الأمر، لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعله بالضبط. وهران بالنسبة لي غابة كثيفة الأشجار، مخيفة معتمة. كيف لريفية مثلي أن تدخلها مطمئنة واثقة من نفسها؟! ومن أين أدخلها؟ وعند من أذهب؟ وما مكتوب في الورقة وأنا الأمية لا أفك رموز الحروف؟ تعطّل تفكيري وخيالي. كنت خرقة بالية تهيم على وجهها في الظلام الدامس.

ولكن، مثلما كانت لالة فطومة تقول دائما: « ربي ما يغلق باب حتى يفتح باب من حيث لا ننتظر ». إن الدار التي اكتريت بها غرفة تتكوّن من أربعة غرف تحيط فناءً واسعا تستخدمه العائلات القاطنة بها: جارتي على اليمين تسمى لالة حليمة، تسكن هنا منذ سنوات، قبل بداية الحرب، وتعيش وحيدة مع ابنتها التي تتجاوز الأربعين من العمر، عازبة لسبب صحي ظاهر إذ أنها عرجاء من القدم اليسرى. قالت لي ذات مرة بعد أن دعتني إلى كأس شاي في غرفتها:

– أصيبت ابنتي زليخة بشلل جزئي منذ صغرها. أنهت سنتها الثالثة وهي لا تمشي بعد. وأنا الجاهلة الأمية اكتفيت بزيارة الأولياء الصالحين والطلبة الذين كتبوا لي تمائم علقتها على صدرها وبعض الأعشاب. ولحسن الحظ أن عجوزا فرنسية رأتني وأنا أحاول إيقافها وسحب

قدميها لتخطو بعض الخطوات عند الساحة العمومية، فنصحتني بزيارة الطبيب وكلمتني عن السيد ألفونس، ودسّت بيدي ورقة نقدية. كان الطبيب الرومي يتكلم العربية بطلاقة، وبعد أن فحصها، قال: « لقد تأخرت كثيرا سيدتي. أجئت من بعيد؟ » وحينما أخبرته بأنني أسكن المدينة غضب وأعلى صوته: « لماذا كل هذا التأخير؟ لماذا؟ »، ثمّ نظر إليّ بابتسامة رؤوفة وقال: « لا تقلقي سيدتي، سنعالج الطفلة، وبعد أشهر قليلة ستركض مثل الغزالة ». وحينما أردت دفع ثمن الفحص، أغلق أصابع اليد التي مدت الورقة النقدية ونصحني بشراء الحليب للصغيرة، ثمّ فتح خزانته الصغيرة وأخذ علبتين من الدواء وقدّمهما لي، وطلب مني أن أعيدها إليه بعد أسبوعين. قام الطبيب بالمستحيل ولكن الطفلة بقيت عرجاء. فلولاه لما استطاعت أن تمشي بتاتا. بعد شهرين، أعطاني رسالة ونصحني بالذهاب إلى مستشفى وهران. العين بصيرة واليد قصيرة، فماذا كان لامرأة وحيدة، بلا مال ولا سند، أن تفعل؟ والزمن زمن الحرب، والانتقال من مدينة إلى أخرى لا يتم إلا بالرخصة. الطبيب المسكين قتل في كمين في ليلة ممطرة غير بعيد عن المدينة عندما كان راجعا في سيارته من العاصمة، ووقع الخبر على أهل المدينة كالصاعقة. في الأيام الموالية، انتشر خبر مفاده أن الطبيب قُتل خطأً، فقد كانت سيارته أشبه بسيارة معمر ظالم. حينما عرفت خبر موته بكيت طويلا وطلبت من الله أن يدخله الجنة حتى وإن كان روميا كافرا. كان خدوما، لا يفرق بين المرضى، يداوي الفقراء مجانا، ويدفع ثمن الدواء من جيبه. من النادر أن نجد طبيبا يشبهه في أيامنا هذه ».

في نهاية قصتها، ذرفت المسكينة دموعا شفقة على حال ابنتها المحكوم عليها بالعنوسة: « من سيفكر في الزواج بعرجاء؟ الشيوخ أنفسهم عند وفاة زوجاتهم أو في حالة التثنية لا يختارون إلا الصبايا الجميلات من غير تشوه جسدي. ماذا عسانا نفعل يا نايلة يا بنتي؟ لكل واحد ما كتبه الله له ».

وعندما طال مكوثي بالبيت، تجرأت زليخة وطرقت الباب. ذهلت عندما رأتني في تلك الحالة، فركضت وأخبرت أمها. وأمام إلحاحهما لمعرفة

سبب انهياري وإهمال نفسي، اعترفت بكل الحقيقة، في بعض كلمات أولا، ثمّ في شلال دافق، تتخلله شهقات، رويت لهما حياتي، كل حياتي.

قالت زليخة وعيناها تطفحان بالدموع رأفة لحالي:

– حينما كنت أشاهدك تخرجين كل صباح، الرأس مرفوع، والوجه مزوّق، ترفلين في تلك الملابس الأنيقة، أبدا لم يتبادر إلى ذهني أنك تخفين همّا بهذا الحجم.

ثمّ أضافت لالة حليمة:

– لا تحملي همّا يا ابنتي، سنهتم بك. اعتبري نفسك عضوا من عائلتنا وستصبحين أجمل وأظرف من السابق. آه على الرجال! من النوع الحقير... أوباش يستحقون الحرق بالنار الهادئة. أنا أيضا، كنت ضحية غدر من قبل رجل أحببته وحصل الذي كان سيحصل، ولكن رحمة الله واسعة، ولكل بني آدم رزقه على هذه الأرض. البؤس لا يقتل. يتحرك المرء قليلا حوله فيعثر على ما يسد به رمقه ويحمي جسده من البرد. بعد أربعين سنة، الحمد لله، بنتي وأنا في حالة جيدة. لسنا في بحبوحة عيش ولكننا لسنا في فقر مدقع.

في تلك الليلة، سهرنا نحن الثلاثة طويلا، نتبادل الحديث تلو الحديث، نحكي شقاءنا وأحلامنا. حضّرت لنا زليخة شربة عدس لحسنا من ورائها أصابعنا. وهناك، عرفت مأساة لالة حليمة. بصوت مرتعش، غرقت في تلك السنوات الأليمة، استحضرت ذاكرتها دشرتها البعيدة، الجاثمة في أعلى الجبال، والوجوه الأليفة وأشلاء صور طالما تعنتت لرميها في سلّة المنسيات.

– كنت في السابعة عشر من عمري، وفي ذلك العمر، نندفع أولا ونفكر ثانيا. كل شيء حدث في وقت وجيز. أحمد، الرجل الذي تسبب في شقائي، كان جارا لنا. حدثني عن عالم من الأحلام. ابتلعت كلماته كما الأرض الظمأى قطرات الغيث. كنا نلتقي في عمق منحدر، غير بعيد عن العين. كانت لحظات قصيرة مسروقة، ولكنها أشبه بأحلام رائعة. لا أخفي عنكما بأنني كنت أنتظر الموعد على أحر من جمر. كأنه سحرني. كانت صورته وكلماته تملأ كياني وتصد عني كل تفكير. مرّت سنوات عديدة قبل

أن يتوقف قلبي من الارتعاش عندما أتذكره. حينما بدأ بطني ينتفخ، تبخّر حمامي العزيز. قالت لي أخته حينما سألتها عن غيابه بأنه تجند في العسكر. دوختني الصدمة. كاد يغمى عليّ أمامها. إن الرجل الذي يصبح عسكريا لن يعود إلى الدوار أبدا. أخفيت روعي وسط الدموع والعزلة، وحيدة مع دليل ذنبي الذي يتضخم على كرّ الأيام. في ظهيرة قائضة، حملت شجاعتي بين يدي وذهبت عند أمّه ورويت لها كل شيء. رغم الاندهاش والصدمة الظاهرة على محياها ولكنها وعدتني بالمساعدة. « سأكلم زوجي، ربّما تفهم الوضع، ووجدنا حلا مناسبا ». ولكن فحّامها الخشن الرأس رفض رفضا قاطعا. بل اتهمني وعائلتي بشتى النعوت. أسرّ بالموضوع لبعض رجال القرية، فانتشر الخبر كوباء الطاعون. وصل إلى مسامع والدي. أغلق الباب واستفسر عن الحقيقة. وأمام سكوتي المذنب، أخرج حزامه وانهال عليّ ضربا حتى أغمي عليّ. وبعد ذلك، انطلق إلى بيت الفحّام طالبا عنوان ابنه لينتقم من تدنيس شرف ابنته. ولكن في تلك الفترة، لم يكن الرجال الذين يغادرون القرية يتركون عنوانا أو خبرا عن وجهة سفرهم. وتحت حدّة الغضب، أقسم أبي أمام الملأ بقتل الشاب عند أول ظهوره. ردّ الفحام بعجرفة : « قبل أن تتهم ابني، عليك أولا بتربية ابنتك. إن بنات العائلات لا يمنحن أنفسهن قبل الزواج ». تحولت الملاسنة إلى مشادات جسدية. تدخل رجال العائلتين وتشاجروا في معركة عارمة، استعانوا فيها بالعصي. جرح الكثير، ومنهم عمي الذي تلقى ضربة أليمة على جبهته، أردته أرضا. من الغضب، أمسك أبي سكينا وأراد ذبحي. فلولا أمي التي ركضت وأغلقت باب الغرفة، لما كنت اليوم على قيد الحياة. جاء أعمامي وبعض الجيران، يهدئون من غضبه. بالكاد، تمكنوا من نزع السكين من يده وإبعاده عن باب الغرفة. تسمرت في زاوية، أحشائي تلتهب نارا وخوفا، أتابع ما يقال في ساحة الدار. استخدم أعمامي كل الحجج الممكنة، في نية صادقة لتفادي ارتكاب الجريمة. « الطفلة لا تزال صغيرة، ليست على دراية بأمور الكبار. لا يقتل أب ابنته بهذه السهولة. سيصل الخبر إلى القايد ويخبر رجال الدرك ويأتون إلى غاية القرية لأخذك إلى السجن. قريبا، سيعود الولد ويعترف بخطئه، وسيتزوج البنت... » إلى آخر ذلك من الكلام اللين

الملطف. ولكن أبي جن جنونه ولم يهدأ إلا في ساعات متقدمة من الليل. يتقدم نحو الباب ويصرح مهددا بقتلي. قضيت ليلة مروعة، لم يغمض لي جفن. لا يمكن لي البقاء في الدار. كنت خميرة الصدام، الجمرة التي ستلهب الهشيم في أية لحظة. وهتف صوت من أعماقي، رنَّ صداه إلى حدّ الصمّ يردّد جازما أن أحمد لن يعود إلى القرية. لذلك تسللت خارج الغرفة وخارج الديار ملفوفة بظلام الفجر الصاعد، راكضة نحو المجهول، نحو مصيري المحتوم. هكذا باشرت حياتي المتنقلة، غير المستقرة. في البداية، كنت أقتات بفضل صدقات المحسنين. ولكنني لم أكن أبقى في مكان أكثر من ليلة واحدة. أبيت في الزوايا المهجورة. بعد أيام معدودة، وأنا مارة بقرب مزرعة، شاهدت مجموعة من النساء يشتغلن في جني الطماطم، فقصدتهن مستفسرة عن كيفية العمل معهن. بعد ربع ساعة، انحنيت وسط صفوف البقول، أقطف الطماطم، مزهوة بحظي، خفيفة كبساط الريح. عند غروب الشمس، اقتربت مني عجوز أدركت من خلال لهجتي أنني غريبة عن المنطقة، ودعتني لقضاء الليل عندها. « حتى يفرَّج ربي » مثلما قالت. في الأيام التالية، أحسسّت برئيس العمال يحوم حولي كالنحلة حول زهرة بها رحيق عطر. أغراه جمالي وشبابي. كنت أبدو مثل شمس وسط العجائز المنحنيات، النحيفات. يبادرني بالتحية والمجاملات كلما مررت بقربه. وأنا منشغلة باختيار حبات الطماطم الحمراء، أشعر بوخزات نظراته التي لا تكاد تفارق جسدي. كان يلاحقني بوابل من الكلمات العسلية، المطمئنة، وبغمزات رعناء وبحركات إيحائية بليدة. كان طويل القامة، نحيل الجسم، بشلاغم كثة أكلت نصف وجهه. طاردني دون هوادة، بنفَسه المخلوط بتبغ الشمّة، وعرقه الممزوج بالغبار وشحم محرك الجرّار، ونظراته الطافحة رغبة جامحة. في صبيحة، ابتعدت عن الحقل واتجهت نحو الوادي القريب بسبب إسهال مفاجيء، فتبعني. راقبني منتظرا وأنا أختفي خلف أجمة من التوت البري والعوسج. عندما ظهرت ثانية، قفز من خلف عرينه وبادرني بصوت متلعثم، خان ارتباكه :

– فتاة جميلة مثلك وتشتغل في الحقول كالرجال... هذا لا يليق...

– أنا وحيدة ولا رجل لي يعيلني.

– أنا رجلك إذا شئت... سأجعلك سيدة معزّزة مكرّمة...

نظرت إليه لثوانٍ، أتفرس في وجهه لأوّل مرّة، وقلت :

– الوعود سهلة... لقد وعدني رجل قبلك، وها هي النتيجة...

أزحت الفوطة الواسعة التي كانت تنسدل على جسمي وأظهرت بطني المنتفخ، ثمّ أضفت : خدعني وهرب عني، تركني للفضيحة والعار...

فتح الرجل عينيه اندهاشا، غمغم اعتذارات مقتضبة ثمّ استدار وابتعد عني، ومنذ ذلك اليوم، توقف عن ملاحقتي. في صباح الغد، أتى إليّ وقال : إن كنت بحاجة إلى شيء ما، فلا تتردّدي عن طلبها مني. « اعتبريني أخا لك » قال دون أن يقدر على مواجهة نظرتي. كانت العجوز امْبارْكة أوّل من عرف بأنني حامل، فطلبت مني أن أتوقف عن العمل، وألازم البيت، وستتكفّل هي بكل لوازمي. رفضت وواصلت العمل إلى أن أصبحت فعلا غير قادرة على أدائه. ساعدتني على وضع مولودي. كم تمنيّت أن أرزَق ولدا. ولكن الطبيعة تملك قوانينها الخاصة التي ليست بالضرورة مطابقة لرغبات البشر. إن القدر حاضر دوما بصرامة قاسية لقولبة العالم حسب نزواته العصية الإدراك. ولا أخجل عن الاعتراف بأنني حزمت مرارا على التخلص من الصبية. كم مرّة، رفعت المخدة بين يدي المرتعشتين، نظرت إليها بعينين دامعتين، وأنا أتأجج شوقا لخنقها، كي أضع حدّا لشقائي. ولكن الشجاعة خانتني. كان نداء عميق بداخلي يمنعني من الفعل. زيادة إلى أن العجوز امْبارْكة رحمها الله، والتي ورثت منزلها هذا، كانت رؤوفة بي. هي التي رفعت معنوياتي، اقنعتني أن أرضخ للقدر، ربّ ضارة نافعة، مثلما كانت تقول. اللي مكتوب في الجبين ما يمحوه اليَدِين، يا ابنتي ».

في تلك الليلة، خففت من وطأة مأساتي. فتحت عينيّ وقلبي لشقاء غيري. وبعد انسحاب المرأتين، تمددت على فراشي أستخلص الدرس من تجربة البشر، وأقسمت أن أكون قوية، وسوف لن تهدني نائبة من نوائب الدهر، مهما كانت قوة وبشاعة صدمتها. أدركت تمام الإدراك أنني لست وحدي في شقائي، وأن حالي ليس أسوأ من أحوال غيري. الزمن كفيل بردم المآسي وتعويض أصحابها بما هو أخف وأمتع.

في الغد، لممنا أمتعتنا زوليخة وأنا وقصدنا الحمّام. قضينا وقتنا بين الغسل والثرثرة والتمدد على البلاط الساخن، وختمنا يومنا بحصة تجميل

تليق بالعرائس. استعدت شبابي وحيويتي. سخرت من قنوطي ويأسي. ما أحمقني، مجنونة أستحق ردفة بمشحط زيتونة. الآن يمكنني التفكير في مشكلتي بكل صفاء ذهن.

- 18 -

ما إنْ سَمع اعْمَر حلموش أولى صيحات الدّيكة حتى قفز من فِراشه، ارتدى قشّابيَته وأحكم قدمَيه العريضتَين جيّدا داخل « الباطوغاس » القديم كما يفعل دوما في أفجار أيام الصيد، وبعد ذلك وبحركة غريزية أمسك بندقيته وعلّقها بخفة على كتفه اليمنى، خطا خطوات قليلة، تردّد، تمتم : « لعنة الله على الشيطان ! قد يجرني الغضَب إلى إطلاق الرصاص، وتكون العواقب وخيمة... »، فأمسكها من جديد بين يديه وتأملها مليا، ثم أعادها إلى مكانها حيث كانت معلّقة على جدار رواق المدخل الطويل العريض « ليسوا إلا أطفالا مشاغبين ! تكفي عصاي لتفريقهم ! ».

في الخارج، لا تزال الظلمة سائدة، كما لا تزال الأشياء لم تلفظ أشكالها الشبحية. ارتَفع نباح كلاب خجول من الأكواخ الهشّة المغطاة بصفائح حديدية صدئة، والتي تتشبّث بصعوبة ظاهرة على مرتفعات سفح ربوة سيدي المخفي، هناك في الضفة الأخرى للوادي. وسّع خطاه وهو عازم على تقديم يد المساعدة للسي عبد الحق، الإمام المخلوع، الشيخ الطالب الذي تعرّف عليه في زاوية بجبال بوسَكّين خلال حرب التحرير ؛ فبعد أن طرق أبوابا عديدة دون جدوى، لجأ الإمام إلى قسمة المجاهدين يطلب النجدة، فأقسَم اعْمَر حلموش أنْ يعيد له عرشه، خاصة بعدما علم أنّ المعتدي هو المهدي، الفتى المشاكس الذي سبق أنْ تصادم معه.

– يا سي اعْمَر، أنتَ تعرف المهدي جيّدا. هو ابن حيّك وقيل لي بأنّك كنت على علاقة جيدة مع المرحوم أبيه. ربّما سيسمع كلامك ؟

– يسمَع أو لا يسمَع ! هذه ليست مشكلة. لقد نبتَت له أنياب وبدأ يعضّ كالكلب المسعور في عزّ الصيف. الوقِح ! واجهني مرّة بكلام غريب حيث قال هازئا بأنّ شهداءنا ليسوا شهداء وأنّ مجاهدينا ليسوا مجاهدين. لا أعرف من أين أتى بهذه الخزعبلات. على كل حال، اطمَئن

يا السِّي عبد الحق! لا يمكن لفتيان بلحَى العتاريس أنْ يمْلوا علينا قوانينهم العرجاء. سيعود إليك مسجدك، بل مسجدنا جميعا، وذلك ابتداءً من الغد. عُد إلى بيتك ونَم قرير العين. ستلقاني عند فجر صباح الغد عند باب المسجد، وسترى بعينك بأنّنا مازلنا واقفين ولا يرهبنا أحد. لم نُحرّر هذا البلد لنتركه بين أيدي هؤلاء الجهلة يعبثون به.

تدخّل سعيد جنّادي، مجاهد متعلّم، مَسؤول القسمة ونقابي جريء لا يبتلع كلماته أبدا، بزهو ظاهر:

– لم نطرد فرنسا ونضحي بمليون ونصف المليون من الشهداء كي نسلّم البلد للمصريين، الحفاة العراة، الذين يسمّون أنفسهم « الإخوان المسلمين »، وهم في الحقيقة « إخوان الشياطين ». ابتداءً من الشهور الأولى لاستقلال بلادنا، تخلّص منهم القائد الزعيم عبد الناصر لأنّه أحسّ بزحف خطرهم على مصر، فملأ بهم البواخر وأرسلهم إلينا. « اذهبوا إلى بلاد البربر. إنّهم بحاجة إلى من يعلّمهم العربية ومبادئ الإسلام ». كأننا قبائل الهنود الحمر. ففتحنا لهم أبواب مدارسنا التي أهملها الفرنسيون، آويناهم وملأنا بطونهم النهمة الضخمة، باسم عروبة الساذج بن بلة وهذا البهتان المزوّق الذي يسمّى الوحدة العربية. وعوض مساعدتنا على محو آثار الاستعمار الفرنسي، بادروا إلى محو ثورتنا العظيمة. زعَموا أنّهم يلقّنوننا مبادئ الإسلام كما لو كنا مسيحيين أو قبائل وثنية من أدغال إفريقيا، يتوجّب إسلامهم بقوة السيف. من حسن حظ الجزائر أنّ الفحل اليقظ سي بومدين أزاح هذا « الزواخ الهزّي » من هرم السلطة قبل أن يتعفن الجرح، وأوجد الحل الملائم مع عراق صدام حسين.

تنهّد الإمام وقال بصوت يائس:

– أخشى أن يكون الوباء قد استفحل ويستحيل علاجه. إنّ فتياننا يتشبثون بهؤلاء الدراويش كما يتامى الحكاية ببقرتهم، ويتنافسون على تطبيق تعليماتهم المدمِّرة. إنّ فكرة الإتيان بناقة من الصحراء وجعلها تمشي عبر شوارع عين الكرمة لتختار لهم مكان المسجد لا يمكن أن تنبثق من أذهان أبنائنا؛ لقد أوحاها إليهم، بلا شك، أحد الدعاة المصريين الذين أصبحوا يتداولون بكثرة على مساجدنا. إنّها حرب لا تريد أن تفصح عن اسمها.

– الحرب نعرفها ولا تخيفنا، (ردّ اعمر حلموش بصوت مندفع)هل يوجد جيش أقوى من الجيش الفرنسي؟ وقد هزمناه شرّ هزيمة! وإذا اقتضى الأمر أن نخوض حربا أخرى، فنحن مستعدون، كما بالأمس تماما...

إنّ اعْمَر حلموش ليس مواظبا على ارتياد المسجد، فلا تطأ قدماه زرابيها إلا لصلوات الجمعة والأعياد، ولا يمكث إلا لسماع الخطبة وأداء الصلاة، أما أوقاته الشاغرة فيقضيها في مقر قدماء المجاهدين، حيث يعيد الأيام إلى أمجادها التليدة، ويستحضر القصص والبطولات وذكريات رفاق السلاح، الأحياء منهم والأموات، ويتدرّب هو أيضا على الخطابات الحماسية الممجدة لإحياء تلك الأيام حيث تقام لها مناسبات سنوية مكررة إلى حد التخمة. ولكن القسمة هي أيضا مغارة كنز يزورها يوميا عدد لا يحصى من الرجال والنساء، يطالبون بحق مشاركتهم في الثورة ويلتمسون توقيعا، بل توقيعين لشاهدين يقسمان بأغلظ الإيمان أنهما رأيا وسمعا، كي يتحصّلوا على البطاقة السحرية التي ستفتح لهم أبواب مغارات الكنز الوفير، كنوز الحياة الدنيا، وكذا الآخرة. أوَليسَت الجنة مخصصة أولا وأخيرا للمجاهدين والشهداء، مجاهدي وشهداء الأمس واليوم وجميع الأزمنة؟

وكان المجاهد أمام الله والعباد اعْمَر حلموش يمارس سلطته بزهوٍ يحلق به في السموات السبع. يكفي لرجل، وبالأخص امرأة، أن يستعيد شيئا من مجده، أن يقسم بأنّ بطولاته أيام الثورة كانت تحكى حول المواقد في جميع أكواخ جبال بوسكّين والبيك وبرج سينغال وإلى غاية زكّار بضواحي مليانة، كي ينتفض كالديك الرومي ويخرج ريشه كالطاووس ويقدّم شهادته على حسب ما يمليه المادح الذي لا ينسى إحضار المجاهد في جميع أفعاله البطولية حتى وإن كانت هزيلة وقد لا تتعدى إيواء وإطعام مجموعة من المجاهدين، أو قضاء أيام في سجون المستعمر رهن التحقيق والتعذيب. ولا يتوانى عن رفع القلم الذي يقدّم له مرافقا بابتسامة كاسر ليخط اسمه ولقبه وهو لا يكاد يميّز بين الباء والتاء. ما كان اعمر حلموش يجهله هو أنّ مجموعة من رفاق السلاح كانوا يقايضون تلك التوقيعات برزم ثقيلة من الأوراق النقدية تنتقل خلسة تحت البرانيس والقشاشيب، وهو لا ينال منها إلا الكلام المعسول

في إعلاء شأن أيامه الخوالي. وكانت مغارة كنوز سي اعْمَر الكومَنْدان – مثلما أصبح يسمّى – هي قصص أمجاده، الحقيقية منها والمتخيّلة، والتي اختلطت مع الأيام حتى لم يعد هو نفسه يميّز بينها. تراكمت القصص مع تراكم السنوات، وانحطّت فوقها طبقات جديدة قد تغطي تماما تلك القديمة. تتجذّر الأساطير مع طول الأيام وتكرار قصِّها إلى أن تعتلي عرش التاريخ وتصبغه بألوانها.

حينما أطل اعْمَر حلموش على الساحة الصغيرة المحاذية للمسجد، لمح شبح الإمام سي عبد الحق يتقدّم بخطى وئيدة نحو درجات السلّم. كان الباب الخشبي الضخم مغلقا، دليل قاطع على أن المهدي وأصحاب الناقة لم يصلوا بعد. تنحنح المحارب القديم وضغط أصابعه على خيزرانه الزيتوني، وسرَت في شرايينه حيوية سنواته العشرين، في زمن كان يبارز رجلين وثلاثة في آنٍ واحد دون انقباض في القلب ولا اختلاج في الذراع. بخطوات سريعة وطويلة، التحق بالإمام وسلّم عليه مطمئنا إياه، ثمّ حصّن نفسه عند العتبة وهو على أتمّ الاستعداد لمواجهة أصحاب المسجد الجدد. نظر إلى ساعته اليدوية: « لن يتأخروا عن الوصول، اقترب وقت أذان الفجر ». فاجأه سعيد جنادي بالوقوف أمامه، ملفوفا في برنوسه الأبيض، يشدّ هو أيضا عصا غليظة في قبضة يده اليمنى. قال وهو يتخذ مكانه إلى يسار صديقه القديم، وعيناه الصغيرتان تراقبان الزقاق الضيق، متمتما: « سنريهم من هم أسياد عين الكرمة ! ».

بعد دقائق معدودة، ظهر المهدي وسليمان عند طرف الزقاق المظلم، يمشيان جنبا إلى جنب، بخطى دبيب خافت، لا يدريان ما ينتظرهما من مفاجآت. لماذا يغذيان الشكوك الواهمة وهما يتسيّدان على المكان منذ قرابة الشهر؟ يعرفان بأنّ الشيخ الإمام قد طرق جميع الأبواب طلبا للنجدة دون أن يتحرك أصبع واحد لتقديم يد العون، فلم يجنِ في أحسن الحالات إلا الوعود التي تبخّرت مع الأيام. لقد تمّ استدعاؤهما إلى محافظة الشرطة، فزحفوا على المركز في جماعة تعدّت العشرين فردا، ودافعوا عن غنيمتهم بالمخالب وتوعّدوا كل من تسوّل له نفسه بمعارضتهم بإشعال فتيل نار قد تضاهي لهيب جهنّم. استمع إليهم المحافظ ودوّن أقوالهم وكتب تقريرا مفصلا بعثه إلى مسؤوليه وبقي ينتظر الردّ والتعليمات التي

لم تأتِ؛ الشيء الذي ضاعف من ثقة المهدي وأصحابه في أنّهم كسبوا المسجد نهائيا، خاصة أنّ المساعد الأول المسمّى بولَحْناك جاءهم ذات مساء وأدّى معَهم صلاة المغرب وهو متقنِّع في جلابية وشاشية بيضاوين لا يكاد يُعرَف، أدّى صلاته في الصف الأوّل ثم غادر مع المغادرين دون أن يقول شيئا. قرأ المهدي تلك الزيارة من شخص لا يعرف عنه التزامه بالصلاة كما لو أنها موافقة ضمنية على قبول الوضع الجديد. إذا كانت الشرطة أغمضت العين على استيلائه وجماعته للمسجد، فمَن سيعارض؟ فمَن سيوقف جماعة أصحاب الناقة على الزحف نحو إتمام مشروعهم الرباني الجليل؟ لا أحد! هكذا تصوّر المهدي وأصحابه، ولم يقرأوا حسابا لجماعة المجاهدين، أولئك الشيوخ الذين لا عمل لهم سوى ذكر أفعالهم الحربية التي انتهت منذ أزيد من خمسة وعشرين سنة. والطامة الكبرى أنّ المهدي كان على بعد آلاف الأميال من تصوّر إمكانية تدخّل « عمّي اعْمَر » كما يسميه منذ صغره، إذ يبدو بعيدا عن الصراع الدائر، وهو لا يكاد يغادر منزله في الطرف الجنوبي للمدينة.

عندما شاهد المهدي أشباح الرجال الواقفين قرب الباب الخشبي الضخم، فكّر بكل بساطة أنّهم من الشيوخ المبكرين الذين يقض الأرق لياليهم. أسرع سليمان إلى إدخال يده في جيب سترته الجلدية السوداء التي تغطي جزئيا جلابيته العريضة كي يُخرج المفتاح، وتوجّه توّا نحو ثقب القفل وهو يتمتم سلاما دون أدنى نظرة إلى الحاضرين. أما المهدي، اليقظ بطبعه بحكم تربيته الصعبة، فقد أثقل خطواته وفحص المكان بعين ثاقبة، وأدرك أنّ خطرا ما يختفي تحت صاحب القشابية الداكنة. عندما وطأت قدمه أولى درجات السلم، تعرّف على شخصية « عمّي اعْمَر » المهيبة. وقبل أنْ يبادر بأيّ رد فعل ضد حضور المجاهد غير العادي في هذه الساعة الصباحية، كان هذا الأخير قد انقض على سليمان وأمسك اليد الحاملة للمفتاح من الذراع. انزلق المفتاح وسقط أرضا. ولكن اليد الخشنة لم تتراخى. صرخ اعمر حلموش بصوت آمر:

– سعيد، خُذْ المفتاح...

وبعد ذلك دفع بخصمه بقوة أردته أرضا. تسمّر المهدي في مكانه، وتلاقت العيون وتصادمت في مواجهة شرسة. حرّك المجاهد عصاه ورفعها

قليلا مستعدا لإلقاء الضربات على خصمَيه إنْ تجرّآ على التهجم عليه. أدرك المهدي أنّ الرجل جاء ينوي خوض معركة ضروس وقد سبق أن رآه في مبارزة ودية جادة مع أحد رجال الحيّ، من أولئك الريفيين الذين نزحوا من جبالهم للسكن في الضاحية الجنوبية بقرب الوادي. كانت المفاجأة قاصمة ويعرف أنّ يديه غُلّتا، لا تقدران حتى على المقاومة، ناهيك عن الانتصار واسترجاع ما يراه يضيع منه وينتقل إلى غيره. صرخ سليمان وهو يقف بصعوبة:

– أرجع لي المفتاح...

– إنه مفتاح المسجد، (قال سعيد جنادي الواقف بشموخ، ملوّحا هو أيضا بعصاه) والمسجد ليس ملكية لكم.

– ابتداءً من الآن، سي عبد الحق هو إمام ومسيّر هذا المسجد، (قال اعمر كرّوش) وحذار لمن يتصدى له!

– المسجد مسجدنا (ردّ المهدي وهو يضع قدما على درجة أعلى من السلّم) وسنسترجعه اليوم بإذن الله.

– تسترجعه؟ ردّ اعمر حلموش بنبرة ساخرة، قبل أن يضيف مهددا:

– حاول اختراق عتبة الباب وسأريك ما باستطاعتي أن أفعل أيها العتروس الوقح.

– هذا ما سنراه... ردّ سليمان بعنجهية. كان لا يزال بقرب الباب المفتوح الآن، وقد دخل سعيد برفقة الإمام إلى قاعة الصلاة. صرخ اعمر حلموش وهو يرفع خيزرانه في حركة عفوية وينهال بها على ظهر سليمان:

– تتحدّاني أيها النذل؟...

تلقّى سليمان الضربة القوية على ظهره برغم محاولته لتفاديها، فأطلق صرخة مكتومة وركض يتدحرج عبر درجات السلّم القليلة.

– اختفوا عن وجهي... ابحثوا عن مسجد لكم في مدينة أخرى...

أما المهدي فلم يتحرّك من مكانه. ألقى نظرة باردة على المجاهد السابق وقال بنبرة تهديد وثقة بالنفس:

– عُد إلى بيتك يا السِّي اعْمَر. هذه القضية تتجاوزك ولا شأن لك بها، لا أنتَ ولا زملاؤك من قسمة المجاهدين. هذا المسجد مسجدنا، ولا يمكن لأيّة قوة أن تنزعه منّا. الله هو الذي قاد الناقة إلى اختياره لنا، لذلك...

ارتفع أذان صلاة الفجر عبر مكبّر الصوت وغطى بقية كلام المهدي. ساد صمت مترقّب بين الرَّجلين، ثم وصل شيخ يتوكأ على عكازه، غمغم : « صباح الخير » بين أسنانه القليلة وصعد الدرجات ببطء سلحفاة ودخل قاعة الصلاة. بعد ثوانٍ معدودة، والأذان في منتصفه يمتد فوق سقوف المنازل، حضر ثلاثة شبان، سلّموا على المهدي بحرارة ودلفوا المسجد. انتظر اعْمَر حلموش حتى اختفوا وألقى نظرة تحذير ووعيد إلى المهدي وصاحبه، وحرّك عصاه بعصبية واختفى بدوره داخل المسجد، فيما مكث المغلوبان يترقبان ويجتران سيناريوهات استعادة المسجد من جديد.

- 19 -

توقف المهدي عند أسفل غابة الصنوبر لاهثا، وألقى نظرة مستعجلة عبر الجذوع والجنيبات البرية المتداخلة الأغصان ؛ أين الدرب الذي اعتاد سلكه ؟ فحص المكان بنظرة بطيئة. مشى خطوات طول الحافة. غاص في ذاكرته كي يخرج صورة ذلك الدرب المألوف. تقاذفت في ذهنه الصور وتضبّبت. فكّر بأنه ربّما أخطأ الطريق. لا، مستحيل ! يستطيع التجوّل عبر دروب المنطقة مغمَّض العينين. كيف حصل أن وجد نفسه في مكان مجهول إذن ؟ أطال التفكير ثمّ التحديق. دون جدوى. ثمّ وفي نفاد صبر غاضب، اندفع وسط الحرش، مستعينا بذراعيه لإبعاد الأغصان المتدلية التي تعيق سيره. على أية حال، فإن كل الدروب الصاعدة ستؤدي حتما إلى مزار سيدي المخفي المنتصب بشموخه على قمّة الرابية. كالضرير التائه، توغّل تحت الأغصان الوارفة الظلال، واضعا نصب عينيه عدم الانحراف عن الاتجاه الصاعد، ولكن كثافة الجنيبات البرية أرغمته مرارا على تغيير المسير بحثا عن فرجة أو أثر أقدام بشرية كانت أم حيوانية. بين الحين والآخر، يتوقف وينظر نحو الأعلى، فلا تقابله إلا الأغصان المتشابكة المورقة، تتخللها الفُرَج الصغيرة المتلألئة التي تتسرّب منها أشعة الشمس. في لحظة ما، انتابه إحساس بأنه يطوف حول جوانب الرابية في دائرة ستعيده إلى نقطة غير بعيدة عن نقطة الانطلاق. بدا له أن الوقت قد طال أكثر مما ينبغي. استعجل الوصول. يا ليته كان نسرا ليحلق فوق الضريح بضربة جناح واحدة ! توقف لثوانٍ يسترجع

أنفاسه ويحاول تحديد وجهته بالتقريب، فانتبه إلى تمزّق قماش عباءته من جهة الكمّ الأيمن، كما التصقت الأشواك بساقي سرواله وبخاصة في الجوربين الصوفيين، فانحنى وطفق يمسكها الواحدة بعد الأخرى بحركة فظة ويرميها جانبا. ثمّ فكّر بأن الدروب المتبقية هي الأخرى غاصة بالأشواك، فتوقف عن نزعها. بعد ذلك، استأنف الصعود المضني، متجنبا الأجمات الشوكية بحركات عشوائية. في تسرّعه وارتباكه، سوَّطته أغصان على الوجه، فأجّجت غضبه، ليتفاجأ بسماع شتائم بذيئة تصدر من فيه، كأنه يقذف بها خصما حاضرا. ابتلع الشتائم والتفت حواليه؛ وحده الصمت يخيّم على المكان. من بعيد، أتاه نباح كلب ضعيف متواصل، أقرب إلى العواء. تنهّد وغمغم تعويذة وحوقلة، ثمّ واصل السير مصمِّما ألّا يتوقف إلا عند باب المزار.

بعد مدّة خالها دهرا، أشرف على البطحاء المضيئة، وحينما خرج من الغابة مطأطئ الرأس يتخبّط ليتخلص من الأشواك البرية اللاصقة بقدميه، أجبره الضوء الساطع على إغماض عينيه. مشى أكثر من ساعة وسط الظل ليجد نفسه بغتة تحت أشعة الشمس المبهرة، وفي مكان عار تماما. هنا جلس يستعيد أنفاسه، ويستجمع شتات ذاكرته، ثمّ وقف يتأمّل البناية الجاثمة وسط البطحاء، بجدرانها المشعة ببياض يعمي البصر. كلّما اقترب من الضريح أكثر إلا وزاد اقتناعا بأنه سوف يعثر على ضالته هنا. ألم يسبق له أن اكتشف بداخله ذلك المخطوط الذي غيّر حياته رأسا على عقب؟ أرعشه نفاد الصبر. صور مضبّبة من ماض محاصر تتلاطم في ذهنه، جاذبة إياه نحو حنين لذيذ. وقبل أن يجتاز عتبة الباب الخشبي المطلي بالأخضر، ألقى نظرة نحو الأسفل: في السهل الممتد إلى ما لا نهاية، تقبع عين الكرمة وسط البساتين المهملة، منطوية على خدرتها المستفحلة، منتظرة أن تُزف عروسا للأسياد الجدد. مكث واقفا، مترددا، حائرا، فيما كانت مخيلته تطارد وجوها وأصواتا، كم اشتاق إلى الإمساك بها، وتعليقها هنا، في الأفق السابح في زرقة هلامية.

ولكن نداءً عَصيّ المقاومة يغريه بالدخول إلى الضريح، الصامد أمام تقلبات الزمان والطبيعة، الساخر من قوانين الفناء الشرسة. براحة يد مرتعشة، دفع الباب فارتفع صرير أشبه بأنين الأشباح. شعر بوخز

في أحشائه فتوقف واجما. سوّطته روائح المقفول والبخور لتوقظ في نفسه تلك الأجواء الغريبة، حيث تتلاشى فيها الفوارق بين الواقع والخيال، بين الطبيعي والسحري، وتقرّبه من عوالم الكائنات اللامرئية التي طالما حدثه عنها أبوه بيقين لا يقبل النقض، كأن الأمر يتعلق بأفراد العائلة أو الجيران. مكث مبهوتا في منتصف العتبة مدة من الزمان، مترددا، تتقاذفه صور وأصوات لا يرى لها أوّلا ولا آخِرا. بعد ذلك، اقترب من الضريح، انحنى باتجاه اليمين ونزع الألواح بحركة فظة، كأنه تذكّر فجأة وجود الدّرّة اليتيمة بداخله. ثمّ، وبيد عصبية، أمسك المخطوط المغبر، أخرج الأوراق الصفراء بكميات صغيرة وحطّها على الحصير. توغلت اليد بداخل الفتحة بحثا عن أوراق إضافية. شعر بقلبه يخترق صدره حينما اختفى الذراع كلية في الفراغ، وهيّجه الفضول فاقتلع لوحات خشبية أخرى. أدخل ذراعه إلى غاية الكتف. كانت الحفرة تبدو عميقة. حرك اليد في اتجاهات عدة، ولكنه لم يصادف حاجزا. أخرج ذراعه، وبحث عن شمعة فعثر على طرف لا يتجاوز حجم الإبهام، أوقد شعلة وأضاء بها الحفرة. أرسل صيحة خافتة، تلاشت في الدجى، وأتاه رجع الصدى كتيار كهربائي أرعش جسده في هزّة تلهّف قصوى، وبعدها مباشرة رنّت كلمات اعمر حلموش في أذنيه، فتذكّر تلك الليلة الشتوية التي صادفه الرجل بداخل الضريح وحدّثه عن وجود نفق مجهول لم يتمكن أحد من العثور على مدخله. في تلك الليلة الباردة، كانت ريح عاتية تزمجر على قمة الرابية، فلفّ صفيرها جزءا من الكلمات المهموسة، مما أضفى على الحكاية غرابة لم يتمكن المهدي من التخلص منها سنوات طويلة بعد ذلك.

كما تذكر حكاية أبيه الشيخ امبارك، قيّم الزاوية؛ فقد حدّثه مرّة عن امرأة طاعنة في السن اعترضت طريقه في فجر خريفي بقرب مدخل المزار.

– يا سيدي الشيخ، لماذا ردَمْتم بئر الزاوية؟

– في حدود معرفتي، لا توجد بئر هنا يا مخلوقة.

أشارت العجوز بيدها إلى زاوية وقالت:

– كانت البئر هنا قرب نخلة. أتذكر وأنا صغيرة، كنت أجيء مع أخي لنملأ دلائنا، خاصة في شهر رمضان الكريم. ماؤها فيه بركة ويصلح للعلاج، لأنه يأتي من بئر زمزم.

– من بئر زمزم؟ ومن أخبرك بهذا الأمر العظيم؟

– سمعت الخبر من جدتي رحمها الله. قالت بأن أمّ الولي الصالح فقدت طاسها بداخل بئر زمزم أثناء حجها إلى البقاع المقدّسة، وعند عودتها وجدته عائما على سطح ماء هذه البئر. لهذا الماء منافع جمّة، له قدرات علاجية عجيبة. كان سيدي المخفي يستخدمه للرقية، وكان يزيل الأمراض من الأجساد في لمح البصر، فيعود المرضى إلى ديارهم معافين.

أدار الشيخ امبارك رأسه لمدّة ثوانٍ معدودة يتأمّل الزاوية التي أشارت إليها العجوز، وحينما أعاد بصره إليها ليطلب منها توضيحات أكثر كانت قد اختفت، كأن الأرض ابتلعتها. أجال بصره في كل الاتجاهات، فلم ير لها أثرا. غمغم تعويذة وحوقلة، ثمّ مشى خطوات، وكله شوق إلى رؤية شبح المرأة يبتعد في غبش الفجر، ولكن البطحاء كانت فارغة، غارقة في الصمت والظلمة. خُيِّل له أن المرأة الغريبة تكلمت عن نخلة أيضا... لم يكن متأكدا تماما. في الأيام الموالية، تحدث مع بعض شيوخ عين الكرمة مستفسرا عن البئر المزعومة، فلم يتذكر أحد ممن سألهم أن بالمكان بئرا؛ وفي المقابل حدّثه شيخ طاعن في السنّ عن جذع نخلة نصف محرَق، تمّ قلعه بأمر من قيّم الزاوية السابق. أكّد الرجل بأنه كان في العاشرة من عمره ورافق أباه وجدّه يوم اجتثاث الجذع الذي أحرقه بَرق دون شك.

أكّد الشيخ امْبارَك أن الرؤية قضّت مضجعه مدّة من الزمان ثمّ تلاشت مع كرّ الأيام وتسارع الأحداث.

مات الشيخ امبارك منذ سنين، وكم قضى من الساعات يجوب حوافي الضريح، متوغلا إلى داخل الغابة الصنوبرية، بحثا عن مدخل النفق. ويتذكر المهدي أن الشيخ، في لحظات احتضاره، قد نطق مرارا باسم الولي الصالح سيدي المخفي. ما السرّ يا تُرى؟ هل للأمر علاقة مع النفق؟ ربّما زاره ملاك قبل أن تفارق الروح الجسد وكشف له عن السر.

هل ستتحقق المعجزة أخيرا؟

خفق قلبه بحدّة. أحس بالنبضات تدق بصدغيه.

دون إرادة جلية، أخرج خنجره وطفق ينزع ألواحا أخرى من جهة العرض، فظهرت فتحة واسعة مظلمة... طنّت برأسه أصوات تناديه،

تغريه على الولوج، أشبه بتأوهات عرائس البحر التي طاردت أوليس في عرض بحر معتِم. انحنى قليلا، قدّم رِجلا، ثم أدخل رأسه، خطى خطوات، فابتلعه الظلام.

- 20 -

« أنا التي أنقذته. أقول هذا بلا فخر. الأعمار بيد الله، ويبدو أنّ يوم السّي اعْمَر لم يحن بعد. رجل بسبعة أرواح ! أنا أعرف ما أقول. الله تبارك وتعالى هو الذي قاد قدميّ عبر ذلك الدرب الوعر الذي لا أعبره إلاّ نادرا، فعثرت عليه ممدّدا على طرف الساقية، الوجه على الأرض، رأسه ملطّخ بالدماء. تعرّفت عليه في الحين. لاحظوا معي أنّ قشّابيته المربّدة بخطوطها البيضاء ماركة مسجلة على كتفيه، ولا يمكن لي أنْ أنسبها إلى غيره. كنت عائدة من عند ابنتي، المتزوّجة مثلما تعرفون بابن أختي، ليس الكبير الذي يزورني من حين لآخر، لا، إنه الثالث، ذلك الذي هجر إلى فرنسا منذ ثلاث سنوات والذي عاد في الصائفة الماضية بـ 404 بيضاء تشْعَل كما الشمس. للأسف الشديد أنّه لا توجد طريق معبّدة إلى غاية منزلي، وإلا لأمكنكنّ رؤية العجب العجاب. ساح بنا في دورة بالمدينة ثم في الطريق الكبيرة، كان يجب أن تروه في بذلته الزرقاء، كأنه وزير، أو على الأقل موظّف كبير في الحكومة. ابنتي أيضا ستصبح مهاجرة في فرنسا. إنّه بصدَد إعداد ملف لطلب الفيزا ليأخذها معه. وقريبا إن شاء الله، قولوا معي إن شاء الله... أنا، لالاّكم فطومة البَركانية، سأمتطي الباخرة باتّجاه مارسيليا. هيه، هيه... أرى على وجوهكن المريبة أنّكنّ لا تُصدّقن أنني قادرة على مثل هذه المغامرة. أعرف أنكّن تضحكن تحت الذقون، ولكن سترين بأمّ أعينكن وستسمعن بشحم آذانكن، عاجلا أو آجلا، أنّ لَالاّكم فطّومة ستتحصّل على بطاقة الإقامة في فرنسا. أعرف اللغة الفرنسية... أي نعم، أعرف الفرنسية ! صحيح أنني لا أتحدّث بها، ولكن مع مَن تريدون لي أن أستخدمه ؟ مع سَردين زوجي البليد ؟ معكنّ، أنتنّ اللائي غادرتن جبالكن منذ سنوات قليلة فقط ؟ العربية، تكسّرنها بالشاقور وتخلطونها مع بربريّتكنّ الخشنة التي لا تصلح إلا

لرعي الغنم وقطف التين والزيتون. أين تعلّمت الفرنسية؟ ولكنكن يا جاراتي العزيزات، ألا تعرفن بأنني عشت سنتين كاملتين في معسكر « لاصاص »[1]، ثمّ إنّ مارسيليا ليست مدينة فرنسية بالتمام والكمال؛ لقد حكى لي زوج ابنتي بأنها تعجّ بالعرب والأقدام السود، وجميع هؤلاء لا يحسنون الفرنسية ويسهل التفاهم معهم. نعم، معكِ ألف حق يا جارتي الحبيبة، لقد ابتعدت عن الموضوع. لعن الله الشيطان الوسواس الخناس. قلت إذا أنني وجدته مرميا في الساقية، اقتربت منه إلى غاية لمس ساقيه، وانحنيت لأرى جيّدا وقلبي يكاد يخرج من صدري من كثرة الخوف والرهبة. سي اعْمر... سي اعمَر... ربّما لم يكن إلا دائخا. ولكنه لم يتحرّك، ولم ينطق بكلمة. دقّقت النظر في جرح رأسه، الشعر اللاصق بالدم المعفّر بالتراب، وإلى جانبه حجرة كبيرة بحجم دلاّعة، ملطّخة بالدم هي الأخرى. وهنا، تضاعف خوفي وارتعش كامل جسدي؛ أدركت أنه لم تزلج قدماه ويسقط مثلما تصوّرت في البداية، لقد اعتدى عليه شخص ما بتلك الصخرة، وأكيد أنّه خدعه من الخلف، وإلا يستحيل أن يتمكن منه، هو الرجل الطويل، ما شاء الله. وتعرفن جيّدا سي اعمر! إنه أقوى من ثور وأخف من قط؛ وحدها الضربة الخادعة يمكن أن تسقطه بهذه الكيفية المشينة. ما عساني أفعل، أنا المرأة الضعيفة، غير إخبار الجيران؟ وركضت بأسرع ما استطعت، وأنا أصرخ وأشير بذراعيّ. خرج رجل من كوخه وهو يسوّي عمامته فرويت له ما رأيت. بعد ذلك، جاء رجال آخرون عبر الدروب المتفرّعة، أرَيتُهم مكان وقوع الجريمة. نعم الجريمة! أنا متأكّدة بأنها جريمة! وهذا ما وصل إليه رجال الدرك، وجاءوا إلى الحيّ وأخذوا مجموعة من الشباب من أولئك الذين يقضون أيامهم في الدوران بلا فائدة غير إزعاج الناس الطيّبين. أكيد أنهم يبحثون عن هوية المُعتدي؛ ذلك أنّ سي اعمر لا يمكن الإدلاء بشهادته ضد من اعتدى عليه، مثلما تعرفن، إنه في غيبوبة منذ أيام. لم يستيقظ ولَم يتفوّه بكلمة؛ لهذا السبب، منعونا من رؤيته. لقد جئت البارحة مع لالّة عَيْشة، ولكن ذلك الهارب من الغسّال الذي يحرس عند الباب رفض دخولي. وحدها زوجته يمكنها زيارته، وكذلك أولاده. وقد وجدت رجالا كثيرين، كما الآن

1. مراكز إدارية لجمع سكان الأرياف والقرى أيام حرب التحرير لعزلهم عن المجاهدين.

تماما، تجمّعوا في الرواق ينتظرون السماح لهم بالزيارة، جيران، أصدقاء، مجاهدون... ولم يُسمَح لهم بالدخول. ولكنني لن أمكث هنا أنتظر إلى غاية سقوط الليل، سأجرّب حظّي مرّة أخرى... لعلّ الله يلين قلب هذا الميّت الذي هرب من غسّاله ويتركني أزور جاري العزيز ! ».

اتكأت المرأة الثخينة على يديها، هزّت جثتها الضخمة ووقفت وهي تتنفس بصوت مسموع دون أن تتوقف عن الكلام. ألقت نظرة تفحص باتجاه الرواق الطويل الغارق في ضياء تشوبه ظلمة شفافة، سوّت حايكها وغادرت مجموعة النساء المنتظرات منذ أزيد من ساعتين، جالسات أو مقرفصات في ركن غير بعيد عن باب الدخول العريض. فرغم أنّ رئيس الممرضين شرح لهن أن الزيارة ممنوعة إلا أنّهن مكثن هناك يثرثرن ويتابعن، بنظرات مختلسة محتشمة، حركة الغادين والرائحين من أصحاب المآزر البيضاء والبذل الخضراء.

غير بعيد عَنهن، خلف الواجهة الزجاجية الكبيرة، تجمّع رجال، أغلبهم شيوخ، بقنادير وشواشي بيضاء، العيون المتلهفة لاصقة بباب في عمق الرواق. كلّما ظهر مئزر أبيض إلا وتوقّف التنفّس، وانفتحت العيون على اتّساعها، وامتدّت الأسماع. ولكن، وفي كل مرّة، وحده وقع الأقدام الخفيف على البلاط يكسّر شيئا ما الصمت الضجر في هذه الظهيرة الساخنة.

تقدّمت لالّة فطّومة بخطى واثقة، تتمايل بوزنها الذي تجاوز القنطار، دون أن تتوقّف من تسوية حايكها ببياضها المريب، قبل أن تتجمّد على بعد خطوتين من الحارس الأصلع، بجسده النحيل الطويل ووجه الأكدَر الذي أكلته شلاغم فحمية كثة، وخاطبته دون مقدمات:

– اسمَح لي خويا... أنا جارة سي اعمَر منذ الاستقلال، ويمكن لزوجته عَيْشة الموجودة بجانبه، وجميع هذه المخلوقات المنتظرات منذ الصباح، وكلهن جارات وقريبات سي اعمَر، أن يشهدن بأنّ كلامي حقّ. نريد أن نراه لحظات قصيرة فقط، دقائق معدودة، لنَطمئن على صحّته...

لم يتحرك الحارس، ولم يبدُ أنه قد تأثّر بكلام المرأة. ولكنّ عينيه تفحصتا الزائرة الثخينة بإمعان، والتي اقتربت خطوة أخرى وانفتح وجهها المدوّر على ابتسامة عريضة. ثمّ غمغم بضجر ظاهر:

– يا المخلوقة... لقد جئتِ البارحة وأفهمتك أنّ سي اعمر في حالة صحية خطيرة. الزيارات ممنوعة بأوامر من الطبيب. لماذا بربّك وضعوني هنا؟ لصدّ الذباب؟

– أعرف... أعرف سي محمّد... أنتَ على حقّ. ولكننا نريد أن نراه من بعيد، من عتبة الباب، نحيِّيه بأيدينا، نعبّر له عن تضامننا ومواساتنا... أن نطمئن على أنه بخير...

في تلك اللحظة، خرجت ممرّضة تحمل بين يديها صينية عليها أدوية وأدوات حقن. وعوض أن تخلي لها الطريق للمرور، واجهتها:

– الله يرحم والديك يا بنتي، قولي لنا كيف هي حالة سي اعْمر؟ هل استيقظ من غيبوبته؟

– ليس بعد. الطبيب معه منذ البارحة. حالته ليست على ما يرام. الطبيب يفكّر في نقله إلى العاصمة؛ هناك عندهم وسائل، أما هذا المستشفى...

وقبل أن تجتر المرأة الطيبة سؤالا آخر، كانت الممرّضة قد شقّت طريقا للعبور وهي تدفعها بليونة، لتختفي في غرفة محاذية تحت عيون النساء اللائي لم يضيِّعن لقطة من المشهد، واللائي يحفرن مخّهن لتوقع ماذا يمكن أن تكون الموظفة قد أسرّت من معلومات لجارتهن. التفتت لالّة فطومة بسرعة السلحفاة كي تتابع توّجه الممرّضة التي أغلقت الباب خلفها، وقبل أن تستعيد وضعها الأول وتواجه الحارس من جديد، كان هذا الأخير قد دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه هو أيضا. فمكثت السائلة في حيرة من أمرها، وهي تعدّد الأسئلة العالقة في ذهنها والتي بقيت بدون أجوبة. أخيرا، استسلمت لخيبتها وعادت أدراجها باتجاه رفيقاتها. وفي منتصف الطريق، قالت صائحة:

– سي اعْمر في حالة خطيرة، وسينقلونه إلى العاصمة...

مباشرة، انتفضت النساء واقفات ومتسائلات في زوبعة من التعليقات ملأت الرواق صخبا وضجيجا؛ ما أدى بالرجال الواقفين خلف الواجهة الزجاجية إلى اعتقاد أن تطورا مشينا قد حدث لصديقهم سي اعْمر،

فاندفعوا فاتحين الباب الخشبي العريض وهم يتسارعون ويتساءلون بأصوات عالية قلقة. عمّت فوضى عارمة أجبرت رئيس الممرضين على الخروج فجأة من غرفة جانبية، وتسمّر وسط الرواق مانعا الرجال من التقدّم، فاتحا ذراعيه وناهرا إياهم بصوت جهوري:

– واش اصْرا؟ غير الخير؟ وقت الزيارة انتهى... من فضلكم، هذا مستشفى... قليل من الصمت...

وأمام إلحاح الرجال وتساؤلاتهم المتقطعة عن صحة الجريح، خفض صوته وقال:

– سي اعمَر صديقنا جميعا... إنه أكثر من صديق بالنسبة لي. إنه أخ عزيز ورفيق سلاح. عرفته في جبل بوحَرب، أكلنا الخبز والملح معا. كنت ممرّض جيش التحرير. أنا أيضا، أتألّم لما حدث له، وهو في حالة غيبوبة كلية منذ ثلاثة أيام. لقد جنّدنا كل أطباء المستشفى، ونحاول المستحيل لعلاجه. الباقي في يد الله. عودوا إلى دياركم وادعوا له بالشفاء. هذا كل يمكنكم فعله الآن.

وبعد ذلك، وبمساعدة دركيَين والحارس النحيف، قام بإخراج جميع الرجال والنساء، غير مبالٍ بالشكاوي والتأوهات التي ما فتئت لالّة فطومة تتلفظ بها وهي تهبط السلالم بحذر شديد، يد تحمل قفتها الصغيرة التي لا تكاد تفارقها أبدا، ويد أخرى تشدّ العمود الحديدي لجدار السلالم.

القسم الثاني

- 21 -

في ظهيرة قائظة، حينما كان المهدي يتصفح مخطوطات رثة، موضوعة على رف بطريقة فوضوية، بداخل مسجد سيدي عبد الرحمن، وبالصدفة، وقع على فقرات أجّجت فضوله بعد دقائق معدودة من القراءة. كانت المخطوطات ذات الأوراق الصفراء المنفصلة بعضها عن بعض تبدو مهملة هنا منذ أمد بعيد دون أن تلفت اهتمام أحد من القراء. فمنذ أن نصّب نفسه إماما للمسجد، ألقى مرارا نظرات خاطفة على تلك المخطوطات النائمة تحت غبار سميك، مفكرا بأن الوقت قد حان لنقلها إلى مكان معزول، بما أن لا هو ولا غيره ينوي قراءتها، ثمّ استبدالها بتلك الكتب الحديثة المجلّدة والمزينة بالخطوط المذهبة. وقف دون نية الإطالة، فأخذ مخطوطا بين يديه، فتحه في صفحة غير محدّدة وبدأ القراءة، السطر ثمّ الفقرة إلى غاية إتمام الصفحة. ما عثر عليه كان مذهلا. لقد سحرته تلك السطور المائلة قليلا. بقي يقلّب الصفحة وراء الأخرى، في وضعية وقوف غير مناسبة للقراءة. وحينما شعر بالتعب، انتقل بضع خطوات وجلس مسندا ظهره إلى عمود، دون أن ينزع بصره عن الكتابة. وحينما هزّه سليمان ليخبره بأن وقت الصلاة قد قرب، حملق في صديقه كمن يستيقظ من نوم حالم، لا يزال ذهنه مشدودا إلى صور وأصوات متداخلة، بعيدة وقريبة في آن. تذكّر مزار سيدي المخفي وسيرة الأولياء الصالحين. ألقى نظرة بلهاء حواليه؛ كان سليمان واقفا عند رأسه، ورشيد

غير بعيد ينتظر، وحولهم المصلون الجالسون، السارحون في همومهم، ينتظرون إقامة الصلاة.

هذه الصفحات خطّها عبد الرحمن بن محمّد في القرن العاشر الهجري. كان يشتغل إماما لمسجد صغير. وخارج أوقات الصلاة، كان ينزوي في المقصورة وينسخ الكتب النادرة التي يستقدمها من بعيد. كلّما انتهى من نسخ مخطوط يسجّل اسمه بحروف بارزة، ثمّ يعيد قراءة المخطوط ويكتب تعليقاته على الهامش بخط أصغر، هذه التعليقات التي وجدها المهدي محرجة بل ومتعدية على النص نفسه، ممّا دفعه في حالة غضب إلى شطب فقرات كاملة. على الرفوف ستة مخطوطات كتبت بالخط نفسه، المائل قليلا، مع شروح وتعليقات وافرة على الهامش. فهِمَ المهدي لماذا يحمل هذا المسجد اسم سيدي عبد الرحمن. لم يتبادر السؤال قبل ذلك إلى ذهنه قَطّ. جميع الأماكن تحمل أسماء، بعضها غريب، ولكن قلّ من يسأل عن أصلها. في البداية، لم يكن إلا مصلى صغيرا يرتاده ناس الديار المجاورة، ولكن منذ تولي عبد الرحمن بن محمّد إمامته، بذل نشاطا حثيثا ليحوّله إلى زاوية ذات صيت تجاوَز حدود الجبال المحيطة. صادف أن أصيب أحد التجار الأثرياء بمرض خبيث، فتصدّق بقطعة أرض واسعة محاذية للمصلى، مرفقة بكمية من المال لبناء مسجد، ربّما تكفيرا عن ذنب كبير ارتكبه في حق الأيتام والضعفاء. لسنوات عديدة، أهمل عبد الرحمن بن محمد حرفة النسخ ليشرف بنفسه على بناء مسجد يضاهي في شكله مساجد الخلافة الكبرى. وبالعناية نفسها التي بذلها في خطّ الكتب النادرة، سيّر الأشغال، عاملا وموجّها، إلى أن أضحت البناية مركزا دينيا يحوي قاعة لتدريس القرآن وقواعد اللغة للصبية، وقاعة للصلاة تتسع لمئات الأشخاص، وقاعة للوضوء حيث يمكن الاستحمام بها، ومكتبة بداخل المقصورة – إنها هوايته الأولى والأخيرة – وأخيرا مرقدا للزوار والمسافرين الذين تجبرهم الأحوال الجوّية أو التقلبات السياسية أو المشاكل الصحية على التوقف في عين الكرمة لأيام عديدة. كان يقوم بتحفيظ القرآن وتدريس النحو والصرف وشيء من البلاغة بنفسه. اشتهر اسم الزاوية وأضحت مزارا للدعاة والخطباء. حسب الذاكرة الجماعية المتواصلة بين الأجيال، فإن عبد الرحمن بن محمّد قد عمّر طويلا

متجاوزا القرن، وخلال سنواته الأخيرة اعتزل التدريس والإمامة، مكتفيا بخطبتي الجمعة. اعتزل الناس وخص كل وقته للصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، بعيدا عن ضوضاء الحياة الدنيا ومغرياتها الهالكة. يأتيه الناس من أقاصي الدنيا طلبا للفتوى والإرشاد. وعند وفاته، حظي بجنازة مهولة، قلّ من حظي بها في عين الكرمة.

الكرامات في حياة المهدي بن تومرت: هو عنوان المخطوط الذي قضّ مضجع المهدي وأربك مداركه. مصادفة غريبة. هل هي المؤشرات الأولى لأحداث عجيبة ستقع عمّا قريب؟ من السطور الأولى، عرف أن الاسم الحقيقي للذي سيصبح ابتداء من هذا اليوم شيخه وموجهه الروحي والعملي، هو محمّد بن تومرت، أمّا لقب « المهدي » الذي اشتهر به، لم ينله إلا في أواخر عمره في أحداث مذهلة، يصعب للعقل تصديقها. في تعليقاته الهامشية، وصف الناسخ ابن تومرت بالمخادع والمضلّل، بل والساحر الذي لجأ إلى خدع إبليسية كي يقنع العامّة، المشكلّة أساسا من البربر سكان الجبال الذين تميل عقولهم بسهولة إلى الاعتقاد بالسحر والشعوذة، بقدرته على إيتاء المعجزات، الامتياز الذي خصّه الله للرسل والأنبياء، مؤكّدا بأن الرسول محمّد هو آخر الأنبياء ومعه تختفي المعجزات، مهما كان نوعها. كلّما تقدّم المهدي في قراءة المخطوط إلا وازداد تعاطفه مع ابن تومرت، وفي المقابل غذى كرها شديدا ضد الناسخ الذي لطّخ بتعليقاته حياة المتصوّف الجليل. وأثناء القراءة، اتخذ قرار محوها حرفا حرفا، ومعها اسم الناسخ كي يختفي من الذكر إلى الأبد.

في بداية القرن السادس الهجري، غادر محمّد بن تومرت مسقط رأسه في منطقة سوسة الجبلية في جنوب مراكش، باتجاه مكّة المكرّمة. كان عمره يشرف على الثلاثين. سافر مصمّما على تأدية مناسك الحج وإتمام تعليمه في مسائل الفقه وتفسير القرآن. دام سفره خمس سنوات، حيث حضر دروس أكبر شيوخ المشرق آنذاك، بمن فيهم الشيخ أبو حامد الغزالي. إقامة عادية وغير جالبة لأي انتباه: طالب من أرض المغرب الإسلامي، متعطش للعلم، ينتقل من مدينة إلى أخرى كي يعمّق معارفه حول دينه، ليعود بعد ذلك إلى ذويه ينفعهم بقليل مما اكتسب. وفي المقابل، كانت عودته متقلّبة، تميّزت بأحداث محيّرة في بداية القرن السادس للهجرة. يقول المؤرّخون بأن

مدّة عودته كانت أطول من مدّة إقامته في المشرق. تأخّر عمدا في مدن عديدة من المغرب، بنيّة تطبيق أحكام الشريعة بالحرف.

في قسنطينة، حيث مكث بها شهورا، وتدخّل في حياة المدينة، برفقة بعض أصدقاء السفر؛ إذ يحكى أنه صادف يوما رهطا من الرجال ينهالون بالعصيّ على رجل أعزل، فتدخّل قائلا:

– لماذا تضربونه يا قوم؟

ردّ أحد الرجال:

– إنه سارق يستحق الشنق.

– سارق! السارق لا يُضرب، بل تُقطع يده.

نادى على أصحابه، فأوقفوا الضرب وأمسكوا بالسارق. تأمّل الرهط هذا المتدخّل النحيف... ما وظيفته كي يسمح لنفسه بمثل هذا السلوك؟ هل ينتمي إلى رجال السلطان؟ ولكنه غير مسلّح وخطابه أشبه بخطاب الأئمة! ثمّ إن عسكر السلطان معروفون بلباسهم الخاص.

– ماذا سرق لكم؟

– سرق لنا شاة وباعها لأحد معارفنا الذي بلّغ عنه.

– إذن، فلنأخذه إلى قاضي المدينة ليأمر بقطع يده.

قال أحد الرجال:

– تقطع يده بسبب سرقة شاة! هذا جنون! لم يكن مرادنا إلا تأديبه كي لا يعود إلى مثل هذا العمل.

تلا محمّد بن تومرت آية قطع يد السارق، وما على القاضي إلا التطبيق.

– ولكننا لم نسمع يوما بأن القاضي قد قطع يد سارق ما، رغم كثرتهم.

– لو فعل، لما تمادى أحد على سرقة أموال وممتلكات المسلمين. هيا بنا إلى القاضي.

تشاور الرجال فيما بينهم بعض الوقت، ثمّ ابتعدوا بخطى خفيفة، تاركين السارق يرتعش بين أيدي ابن تومرت وأصحابه. عند القاضي، قال ابن تومرت واثقا، بلهجة آمرة:

– هذا الرجل سارق، وأحكام الشريعة تلزم قاضي المدينة بأن يقطع له يده.

ذهل القاضي من المفاجأة ومن هؤلاء الغرباء الذين يراهم لأوّل مرّة. يعرف مثلهم حكم القرآن في حق السارق. ولكن زمان قطع الأيدي قد ولّى، ولم يعد القضاة يعملون به، ذلك أنّ السرّاق أضحوا من الأعيان المقربين للسلطان ولا يستطيع أيّ قاض أن يمسهم بسوء، بل القضاة أنفسهم يعيّنهم السلطان، وإذا أصدروا حكما لا يعجبه، يلغيه ويلغي القاضي معه. كان القاضي كهلا صقلته تجارب الحياة ومتعوّدا على تليين القانون ومداراته لإرضاء نزوات السلطان وأقربائه، فقال :

– ماذا سرق لك ؟

– لي، لا شيء. لقد سرق شاة لرهط من الرجال وجدتهم يضربونه بالعصي، وأتيت به عندك كي ينال جزاءه حسب شريعة الله.

– أين صاحب الشاة ؟ أين الشاهد الذي رأى المتهم أثناء عملية السرقة ؟ حضورهما ضروري كي نقيم الدليل ونحكم بعدل.

التزم ابن تومرت الصمت، وأدرك أن القاضي قد أوقعه في حرج بيّن.

– هل تعرف صاحب الشاة ؟

– في الحقيقة، لا أعرفه.

– هل كنت حاضرا أثناء السرقة ؟

– لا.

– الشريعة تلزم القاضي أن يتأكّد أوّلا من أن للشاة مالكها ومن ثبوت السرقة بحضور شاهد يشهد باليمين القاطع بأنه رأى هذا الرجل وهو يسرق تلك الشاة، وإلا كان حكمنا ظلما وعدوانا على رجل من المسلمين.

وأمام صمت ابن تومرت، تنحنح القاضي واعتدل في جلوسه، راضيا بانتصاره على هذا الغريب. ثمّ تأمّله بنظرة فاحصة مليئة بالاستغراب وقال :

– سأسجن هذا الرجل لمدّة ثلاثة أيام، وإذا لم أتلقّ شكوى من صاحب الشاة ضده، سأكون مجبرا على إخلاء سبيله.

قضى ابن تومرت الثلاثة أيام برفقة أصحابه يجوب أزقة المدينة وأسواقها، يتفرّس ملامح المارة، بحثا عن رجل من الرهط، ولكن المدينة

غاصة بالناس: مقيمون ومسافرون ومتسوقون... أنّى له أن يتعرف على وجه قد رآه خلسة وفي مدّة وجيزة لا تتجاوز الدقائق؟ كمن يبحث عن إبرة في كدس تبن. ابتلع غيظه وشحذ أسلحته، ثمّ سافر إلى بجاية، مدينة ساحلية تتمتع بمناخ معتدل وميناء قديم يرتاده التجار والسيّاح والمغامرون من كل حدب وصوب، فكانت مدينة متفتحة بخلاف قسنطينة القلعة المحافظة. وصلها وأصدقاؤه يوم العيد، وكان أهل المدينة من الحضر المرفهين الذين يقيمون الحفلات الغنائية عند كل مناسبة سعيدة. وقع ابن تومرت على فرقة موسيقية تؤدي حفلا ساهرا، محاطة بمتفرجين من الإناث والذكور، يتبادلون أطراف الحديث، مزهوين، مبتهجين، بعضهم يرقص تحت أنغام الموسيقى... النساء يضحكن بصوت عالٍ، دون حرج ولا حشمة، وكان رجال الفرقة الموسيقية يرتدون ملابس حريرية فاقعة الألوان، ويحملون خواتم وأعناقهم مزدانة بسلاسل ذهبية. ذهل ابن تومرت من المشهد الذي وجده مخلّا بأحكام شريعة الإسلام:

– انظروا إلى هذه المشاهد الإبليسية! رجال بهيئة نساء، ونساء بسلوك الرجال؟

دخل وسط المحتفلين وبادرهم بخطاب أخلاقي تاهت كلماته وسط ضجيج الآلات وقهقهات الابتهاج، وحينما أدرك عجز الكلمات في تغيير أدنى شيء من المشهد المتواصل أمامه، أمر أصحابه بتوقيف الحفل بقوة العصي. وفي خضم الشجار الصاخب، تعالت صرخات النساء، واستغل بعض الحاضرين الفرصة للاستيلاء على الأساور والأقراط الذهبية، أمّا المهدي وأصحابه فصبوا جمّ غضبهم على الآلات الموسيقية، فكسروها ورفسوا قطعها بغيظ دفين. اشتكى الموسيقيون إلى السلطان الذي أعطى أمرا بالبحث عن المشاغبين والإتيان بهم إلى القصر. وإزاء الخطاب المفخّم المليء بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الذي واجه به الشيخ الشاب حاكم المدينة، لم يتمكن هذا الأخير من التمييز بين الحقيقة والزيف لكونه لم يكن ملما بالعلوم الدينية. ولكن أمن المملكة يعلو فوق كل الاعتبارات الأخرى مهما كانت قدسيتها، لذلك أمر حراسه بطرد المشاغبين خارج أسوار إقليمه.

هكذا، ومن مدينة إلى مدينة، واصل ابن تومرت رحلته الجهادية، متبوعا بمريدين يتكاثرون يوميا، شاهرا الخطاب الديني في يد والعصا في اليد الأخرى، بنيّة تطهير المجتمع من آفاته الشيطانية. قادته مغامراته إلى غاية مسقط رأسه في جنوب مراكش، وأقام أسابيع وشهورا في مدن كثيرة : متيجة، تنمالت، تلمسان، وجدة، أمليل، فاس، مكناس، ماريلا وأخيرا مراكش. كان محاطا بمشيّعين مستعدين لمرافقته إلى جزر الوقواق دون تعب أو خوف من سلطان أو أمير إقليم ما، رغم أن مثل هؤلاء لا يتردّدون في استخدام أدمى الطرق لإخماد أيّ تمرّد ضد سلطتهم. ولم يكف محمّد بن تومرت طوال هذه المدّة عن رفع لواء ممنوعاته دون تعب أو كلل ؛ يبدأ أوّلا بكلام معسول عن قوانين الله وشريعته السمحاء، وحينما يدرك بأن وقعها على المستمعين كوقع المطر على أرض جدباء بحيث لا ينفع الوعيد بالجنة ولا التهديد بالنار، يلجأ إلى قوّة العصي المكرهة ولكنها ذات فاعلية أكيدة. صمّم على منع الاختلاط بين الذكور والإناث وبيع واستهلاك الخمور بكل أنواعها وممارسة الموسيقى وإقامة الحفلات، ولم يسلم من غطرسته الحرفيون أنفسهم، المختصون في صناعة الآلات الموسيقية.

في تلمسان، مدينة الفنون والعلوم، اشتهر بتدخلاته القوية ضد كل أجواق العازفين الذين يدخلون البهجة على نفوس التلمسانيين بمناسبات الزواج والختان والأعياد الدينية. ينزل ابن تومرت وأصحابه كالغربان على المحتفلين والعازفين الذين يتفرّقون طائعين أو مرغمين، وحينما تكون العائلة ذات نفوذ ومال ورجال، تنطلق مشادّات جسدية ومواجهات دامية بالعصي والسيوف، أمّا في حالة العكس، فيطلب ربّ العائلة نفسه توقيف الحفل تجنبا للمتاعب.

في فاس، انسلوا عبر الأزقة الضيقة، وخرّبوا كل المحلات التي تحوي دَرْبوكة أو دفا أو قلّة خمر، ولكن في مكناس أُشبعوا ضربا مبرحا وطُردوا خارج أسوار المدينة ؛ كان صاحب الحفل على علم بوجودهم، فأعدّ لهم الرجال والأسلحة. ورغم الانزلاقات والمواجهات الدامية، لم يضع محمّد بن تومرت حدّا لنشاطه. كان يؤمن إيمانا راسخا بأن إنقاذ المسلم من أهوال القيامة لن يتمّ إلا بعد تطهير حياة الدنيا من الرجس المتفشي، وتصوّر نفسه المنقذ من الضلال، وله من الإيمان ما يصمد لجبال

من العقبات. وليختم مساره المضطرب، توّج نفسه إمام المهدية المنتظر، إمام البعث المشهور، ذلك الذي سيملأ الأرض عدلا وإحسانا مثلما ملئت ظلما وعدوانا. تحكي أساطير الشيعة أن المهدي، الإمام الثاني عشر، طفل في الخامسة من عمره، اختفى يوم قتل أبيه، الإمام الحادي عشر، حسان العسكري الذي سجنته الشرطة العباسية في معتقل السمراء الواقع شمال بغداد. ارتفع الطفل إلى السماء هروبا من جلاديه، وهناك ينتظر الساعة المناسبة ليُبعَث من جديد، وحينما سيعود، سيمتد سلطانه على المعمورة جمعاء، وسيخر له الناس ساجدين، وسيكون منقذ جنس البشر من طغيان أشرارهم. حدث الاختفاء سنة 260 للهجرة. ومنذ ذلك التاريخ، لا يعيش مريدو حسان العسكري إلا على وقع عودة الإمام المخفي، ابن سيدهم. سيكون الفارس الروحي، ذلك الذي سيجعل جميع الكائنات ناطقة. سيكون الرجل الكامل، الكلي، ذلك الذي يمسخ قلوب الرجال. وسيكون ملكه نذيرا ليوم القيامة، يوم الحشر، ساعة الحساب والعقاب. لا يجلب الإمام المنتظر معه كتابا موحى إليه أو ديانة جديدة، ولكنه سيكشف أسرار كل الرسل والأنبياء، لأنّه يتقمّص جوهر الوحي باعتباره الرجل الكلي الذي يمثّل الحقيقة النبوية الخالدة.

لقد حدث التتويج في الجمعة الثانية من رمضان من سنة 515 للهجرة. قدّر المؤرخون عمر محمد ابن تومرت ما بين الأربعين والرابعة والأربعين. وعلى هامش الصفحة التي تروي أحداث التتويج، سجّل الناسخ بأن انتظار ابن تومرت هذه السن لإعلان المهدية وبهذه الطريقة العجيبة ليس إلا تماه مع حياة الرسول محمد بن عبد الله القرشي، الذي عرف الوحي في الأربعين من عمره، مضيفا بأن ابن تومرت اعتكف في جبال الأطلس، عابدا متصوفا، باحثا عن مكان منعزل أشبه بغار حراء، لأن بداخله اعتقادا راسخا بأن الله حباه وسيجعل منه أحد أنبيائه. ولولا أن محمدا بن عبد الله رسول المسلمين قد أعلن بوضوح لا يقبل أي تأويل بأنه خاتم المرسلين، لأعلن ابن تومرت النبوة ودعا إلى دين جديد. ولكنه أعرف بالمصير المأساوي للأنبياء المزيفين، وأشهرهم مسيلمة الكذّاب، لذلك صدّ على نفسه هذا المسلك المحفوف بالمخاطر. فلم يبق له إلا تقمص شخص المهدي المنتظر، إمام الشيعة.

وأمام هذه الادعاءات، اشتّط المهدي غضبا وكاد يمزق الورقة كلها. امتلك نفسه عندما وصل الشرخ إلى النصف، واعدا، قاسما بالسماوات السبع أن يمحو أثر تلك الافتراءات.

كان على التتويج أن يكون مرافقا بمعجزة بيّنة، كي يقتنع الحاضرون بأن يدا ربانية هي التي تدخلت ونصّبت ابن تومرت إمام الشيعة المنتظر، على تلّ حجري يشرف على مقبرة، جمع محمد بن تومرت أهل قبيلته التي يعرف جيّدا الذهنية الغيبية التي تطبع اعتقاداتهم، لذلك غامر بمثل هذه المبادرة الجنونية. قبل صلاة الجمعة، وفي قيظ خانق، خاطبهم قائلا :

– حمدا وشكرا لله العلي القدير الذي خلق الكون والإنسان ثمّ أنزل عليه الكتب ليهتدي للطريق القويم، وسلام على سيّدنا محمد بن عبد الله خاتم المرسلين الذي تنبأ بظهور المهدي المنتظر في أرض المغرب، ليعيد المسلمين إلى عزّتهم الأولى. زمانه آخر الأزمان، المبشر بيوم القيامة. الاسم هو الاسم، النسب هو النسب. هذا اليوم يوم مبارك، لأنه سيعرف حدثا جليلا، سيقع أمام أعينكم. انظروا حولكم... ألا ترون سيادة الظلم وطغيان الجور وانحلال الأخلاق ؟

وقبل أن ينهي خطابه، قفز ذراعه الأيمن، عبد المؤمن بن علي، إلى وسط الجمع وصاح بأعلى صوته :

– لا تتجلى المهدية إلا في شخصك الكريم. لقد حباك المولى واختارك إماما منقذا للمسلمين.

ثمّ اعتلى صخرة كي يراه الجميع وقال بنبرة مرتجفة :

– أبشروا يا قوم، إن محمّد بن تومرت هو المهدي المنتظر... المهدي المنتظر أمامكم... عاش المهدي بن تومرت...

من كل أنحاء الهضبة تعالت أصوات التأييد والمبايعة. ولكن محمّد بن تومرت، المهدي الجديد، يعرف أحق المعرفة بأن مبايعة القرويين والأعراب لا تصمد أمام الأيام إن لم تكن متبوعة بمعجزة خارقة. بوقار ملحوظ، استدار نحو المنخفض حيث يرقد الأموات وقال بصوت أجش :

– إن ربّ هذا الكون ورسله وملائكته والأموات الذين تنتشر قبورهم أمام أعينكم يعرفون أن قضيتنا عادلة وتخدم الإسلام والمسلمين. علينا

بمحاربة المرابطين المشركين الذين حادوا عن دين الله وعادوا إلى شرك الوثنية باتخاذهم قبور بشر مزارات أشبه بمزار الكعبة الشريفة. انشغل الناس عن عبادة الله وانغمسوا في عبادة الأولياء الصالحين. صحابة رسول الله أنفسهم لم يحظوا بهذه المكانة، فكيف لأشخاص عاديين وإن كانوا من أهل الخير ؟! وتعرفون أيضا أن الذين يستشهدون وهم يحاربون المرابطين الكفرة مآلهم الجنة. وفي الجنّة، مكانة الشهداء بقرب نبينا وأصحابه الأجلاء.

توقف لحظة، استنشق نفحة هواء ساخن، رفع ذراعيه نحو السماء وقال بصوت أقرب إلى الصراخ:

- أيها الأموات... أنتم الموجودون في دار الحق، كونوا شهداء على ما أقوله الآن أمام معشر المسلمين الأتقياء. إذا كنت على خطإ، فليسحقني الله في هذه اللحظة... إذا كنتم تسمعون قولي هذا، فأجيبوا...

سكت المهدي، مبقيا ذراعيه نحو الأعلى. غرقت الهضبة وما عليها في صمت مطبق مخيف. انتظر الجميع بفارغ صبر إشارة من الأموات. فجأة، تحققت المعجزة: الرجال، كل الرجال القابعين في كل شبر من التل الحجري تحت شمس حارقة، سمعوا إجابة الأموات؛ من المقبرة القريبة، تعالى صوت جماعي مخيف، وارتفع بطيئا مثل غيمة ثقيلة، خافتا في البداية، ثمّ راح يقوى رويدا رويدا إلى أن صمّ الآذان. انهال الصوت على القرويين الذين جمّدتهم الدهشة، وأدخل بأجسادهم رعشة خوف لم يعيشوا مثلها أبدا، من ذلك الخوف المبهم الذي لا يفسَّر. من تحت القبور، تكلّم الأموات، مدعمين بالدليل الذي لا يقبل النقض، أقوال المهدي الجديد. حنط الرعب أجساد الحاضرين، جمّدهم، أخرسهم، لا يقوون على إبداء أية حركة. بصوت مليء بنشوة الانتصار، كسّر عبد المؤمن بن علي الصمت المقلق، صارخا بكل جهده (الله أكبر)، مرات عديدة. مباشرة، تحرّرت الحناجر وارتفعت كما لم ترتفع من قبل، مرعدة، مجلجلة، في ضجيج كاد يهز أرضية الهضبة المشققة من فرط الحرارة.

انطلاقا من هذا اليوم المشهود، لقِّب ابن تومرت بالمهدي وعامله الناس مثلما يعاملون وليا من الأولياء الصالحين، معاملة يمتزج فيها الاحترام والخشوع والخوف. ولكن المهدي ابن تومرت لم يعمّر طويلا، فمات وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره.

ذهِل المهدي وهو يقرأ تفاصيل المعجزة. فكّر بأنها تتناسب مع شخصية محمّد بن تومرت. ولكن الدهشة لم تدم طويلا؛ فقد سجل الناسخ عبد الرحمن بن محمد على هامش الورقة أقوالا أربكته، وحسب هذا الدخيل في حياة الناسك، فإن المعجزة ليست بمعجزة، وكل ما في الأمر أن أحد أصحابه الأوفياء،المعروف باسم عبد الله البشير الونشريسي هو الذي دبّر الحيلة التي أدّت إلى تغليط الحاضرين. لقد اتفق مع بعض الأعراب السذج الذين وعدهم بمكافأة عظيمة مع الانخراط المضمون في صفوف جيش المهدي الجديد الذي سيكون بلا أدنى شك خليفة المسلمين المقبل، وحفر لكل واحد منهم حفرة بين القبور، غطاها بالتراب والأعشاب وجعل لهم متنفسا، آمرا إياهم بإطلاق أصوات غريبة عند الإشارة. وأضاف الناسخ بأن عبد الله البشير قد قتلهم جميعا وبداخل حفرهم؛ لا ثقة مع أعرابي بدوي متقلب الطبع، مندفع ومعدوم يمكن لأيّ شخص أن يشتري ذمته بأبخس ثمن، وإبقاؤهم على قيد الحياة يعني أن السرّ سيفشَى في يوم ما ويشكل خطرا على حياة المهدي بن تومرت السياسية والدينية على حد سواء. كان التعليق مكتوبا بخط أصغر وبحبر غامق. بقي المهدي سارحا يعيد تفاصيل الحادثة ويتخيّل الأعراب وهم مندسون تحت التراب بين القبور. مع من يقف؟ مع صاحب السيرة أم مع الناسخ الجريء الذي حشر أنفه فيما لا يعنيه؟ ولكن المعجزة رائعة ومعبّرة ولها دلالات دينية هادفة، فكيف يشوّهها ناسخ مجهول لم يعاصر ابن تومرت، بل جاء بعده بأربعة قرون؟ أنَّى له أن يكشف سرّ المعجزة بعد اندثار أجيال عديدة؟ وإذا كان الأعراب قد قُتلوا بعد الحادثة مباشرة، تساءل المهدي، من جازف وأفشى السرّ الخطير في حياة ابن تومرت؟ لا سيما أن السيرة تؤكّد على طبعه العنيف الذي لا يتسامح مع أحد، ولا يَضعُف أمام المواقف العاطفية، مستعدا لاستخدام أدمى الطرق لتحقيق مشروعه الإسلامي، مثلما فعل في ما سُمِّيَ بحادثة التمييز؛ فأثناء حصار مدينة مراكش، همس له عبد الله البشير بأنه يشك في ولاء أواخر المنتسبين إلى جيشه، وكانوا قد فروا من داخل أسوار المدينة، ربّما كانوا جواسيس لصالح عدوّه اللدود يوسف بن تاشفين:

– إنهم خونة. لا أثق في أحد منهم. يمكن لواحد منهم أن يطعنك غدرا، أو أن يضع سمّا في أكل الجيش. ينبغي التخلص منهم.

لم يجب المهدي بن تومرت لحظتها، وأخذ وقتا للتفكير، وأخّر الهجوم الوشيك على القلعة برغم المعلومات المشجعة التي تأتيه بين الحين والآخر من رجاله والتي تؤكد أن حالة جيش العدو بداخل الأسوار ليست بخير، حيث تنقصه المؤونة والماء يوزّع بالتقتير، كما أن حالتهم النفسية منهارة، وسيستسلمون عند أولى الهجمات. وفي اليوم الموالي، قبل الغسق بقليل، وأمام الجيش المتحمس للهجوم، أعلن عبد الله البشير أن المهدي بن تومرت رأى في المنام أنه يستطيع التمييز بين أهل الجنة وأهل النار. فكرة مغرية للفرسان الذين سيخوضون حربا ضروسا بعد ساعات فقط، فقد طمعوا في معرفة مصيرهم بعد الموت المرتقب قريبا. في حقيقة الأمر، كانوا مقتنعين بأنهم يسيرون في طريق متوجهة صوبا إلى الجنة، أرادوا الاطمئنان فقط فطالبوا تجربة ميدانية. وقبل أن يبدأ في الفرز، ألقى خطبة طويلة وصف فيها ملذات الجنة وعذاب جهنم. بعد ذلك، رفع يده اليمنى وبدأ التمييز. اصطف الجمعان، الواحد مقابل الثاني. وبالمصادفة كان الجمع المعد للنار صغيرا ولا يحتوي إلا على المنتسبين الجدد الذين فروا من داخل الأسوار. قفز عبد الله البشير إلى وسط الصفين وقال:

– هذه مشيئة الله. المهدي لا ينطق على الهوى، فكلامه نابع من صدق رباني، وقراره لا يقبل النقض. ماذا نفعل بالزنادقة في صفوفنا؟

ثمّ التفت إلى سيّده، ماسكا سيفه بحزم وشاهرا إياه نحو الأعلى، وقال:

– أطلب من أميرنا المهدي أن يوافق على قتل هؤلاء المنافقين الذين اندسوا بيننا. وبما أن مصيرهم جهنم، فليذهبوا إليها عبر أقصر طريق.

وافق المهدي بإشارة يد خفيفة، وفي لمح البصر، كانت رؤوس المندسين تتدحرج على التراب، دون أن يدركوا حيثيات المسرحية التراجيكوميدية التي حيكت ضدهم وعلى أذقانهم.

وفي الهامش دائما، شرح الناسخ بأن هذه القسوة في طبع ابن تومرت راجعة أساسا إلى عزوبته المتواصلة طوال حياته، إلى أصوله الجبلية وإلى سفره الطويل راجلا إلى المشرق والذي دام أزيد من سبع سنوات.

كان متقشفا وزاهدا في المأكل والملبس. إن المعجزة متناسقة مع شخصية ابن تومرت المتصوفة. وهي تستجيب لافتتان المؤمنين بالحوادث السحرية التي تزيدهم خوفا من الغيب وتشبثا به، وهذا الغيب هو الدعم القوي للإيمان. تذكّر المهدي أباه الشيخ امْبارَك وكيف كان الفقراء والمرضى يأتونه باستمرار لأنهم يعتقدون صادقين أنه يملك شيئا من العلم بالغيب، وبه يقدر على علاج أجسادهم وتهدئة أرواحهم.

أعاد المهدي قراءة المخطوط مرة ثانية، مقتفيا التعليقات لمحوها بقلم أسود كي لا يتمكن أحد من قراءتها، وهو لا يكف يلعن الناسك ويتوعده بأبشع العذاب. كما اتخذ قرار تغيير اسم المسجد إلى « المهدي بن تومَرت » الذي سيصبح من الآن فصاعدا شيخه الجليل الذي سيستنير بتعليماته.

في الأيام الموالية، كان يجمع أصحابه كل ظهيرة بعد صلاة العصر ليقرأ على مسامعهم سيرة المهدي بن تومَرت، صفحة وراء صفحة، شارحا مفصلا بأن المجتمع الذي يعيشون فيه لا يختلف عن مجتمع شيخه قبل قرون عديدة. لقد طهّرها الشيخ لمدّة من الزمن، ولكن بعد موته، عادت الدهماء إلى عاداتها الجاهلية، وحان وقت تطهيرها من جديد. أسرّ لأصحابه بأنه أضحى من الضروري ظهور مهدي جديد، يقود عملية التطهير.

- 22 -

– ما معنى « بنت الحرام » يا أمي ؟

كانت نايلة منشغلة بغسل الملابس المكدسة في الإناء الحديدي المثبت بين قدميها ولم تنتبه لوصول ابنتها. وخزها السؤال كلدغة العقرب وشعرت برعشة تسري في جسدها. رفعت رأسها واستدارت بغتة.

– ومن أين أتيت بهذا الهراء ؟

رمت ليلى محفظتها عند عتبة الباب وتقدمت نحو الزاوية التي تستخدم كمغسل ومرحاض. كانت في حالة يرثى لها. شعرها أشعث، وجهها أحمر من فرط الخدش على الخدين، العينان دامعتان. صرخت الأم فاغرة فاها :

– مع من تشاجرت ؟

ثمّ وقفت بخفة، لافظة ما بيديها من ثياب مبللة وأسرعت نحو الطفلة الصغيرة. انحنت على الجسد النحيل، أخذته من الكتفين وحدّقتها بنظرة اندهاش ورعب.

- مَن ابنُ الهَجّالة الذي فَعل فيك هذه الفعلة الشنيعة ؟

- ثلاثة أطفال، ردّت الطفلة بصوت لا يكاد يسمع وسط الشهيق والحازوقة. قالوا بأنني بنت الحرام. وحينما شتمتهم، تهجموا عليّ وأشبعوني ضربا. أسقطوني أرضا. أنظري إلى ملابسي، إنها مطلية بالوحل. لحسن حظي أن رجلا تدخل وطردهم وإلا...

خفضت الطفلة رأسها وأجهشت بالبكاء. ضمتها الأمّ إلى صدرها وسحبتها نحو السرير لتغير لها ملابسها، مغمغمة تهديدات راعدة ضد الأطفال الأشرار. قضت نايلة بقية الأمسية كلها في مواساة طفلتها، باحثة عن الألفاظ والعبارات المناسبة.

في ذلك اليوم الممطر، بدأت ليلى تعي اختلاف وضعها عن غيرها من الأطفال. ولكنها كانت فكرة غائمة، بلا تلك الدلالات الأخلاقية المشحونة بالحقد والكراهية التي يمنحها الكبار للفظة « بنت الحرام »، مرفقة دوما، حينما يتلفظون بها، بتكشيرة ازدراء تغير من ملامح الوجه، لتعبر وحدها بأن الشخص يتكلم عن شيء حقير ممجوج.

في ذلك المساء، وبرغم الكلمات المواسية والحركات الودودة، الدافئة، الصادرة عن أمها، زيادة إلى قسمها بأن تنتقل بنفسها إلى المدرسة يوم الغد لتقديم شكوى إلى المدير، انغلقت ليلى داخل شرنقة عازلة، صامتة، مستاءة، عبوسة. تركت جسمها ينهار على البلاط الإسمنتي البارد، مسندة ظهرها إلى الحائط، ضامة ركبتيها بذراعيها الضامرين، خافضة رأسها، وبقيت هكذا، صامة أذنيها عن التماسات وتوسلات والدتها المرتبكة الحائرة. وبعد تأكدها بأن الطفلة لن تتزحزح عن مكانها، حطّت نايلة العشاء (مرق عدس وقطعة خبز) على المائدة وقربتها من ابنتها قبل أن تتمدد على فراشها باحثة عن نوم استعْصى قدومه. في موعده المعتاد، تسلل النوم إلى عتبة وكره كي يهجع قليلا، فوجد الحيرة ورفيقها الوفي الأرق قد سبقاه وعشّشا منتصرين. تمددت نايلة في الظلام، تترقب نَغَفتها. ولكن ليلى بقيت جامدة كتمثال متحف مهمل. فاجأها النعاس

وهي على تلك الوضعية الجنينية. مرات عديدة، اقتربت منها أمها بخطى صامتة، وحاولت أن تنقلها إلى فراشها، في حيطة وحذر. ولكن، بمجرد لمسها، تنتفض الطفلة، تحرك ذراعيها وساقيها في هزات فظة. أخيرا استسلمت نايلة للوضع الشاذ وغرقت في نوم مضطرب.

منذ تلك الحادثة، ضايقت ليلى أمها بالأسئلة المزعجة. هل مات أبوها حقا مثلما قالت لها ؟ وأين عائلتها ؟ الأعمام والأخوال، الجد والجدة، يؤدون لهما الزيارات في الأعياد ويدعونهما إلى الحفلات والأعراس ؟

شيئا فشيئا، بدأت ليلي تنفر من الذهاب إلى المدرسة، ثمّ تجرأت على التغيب دون إخبار أمها. وطبعا، النتيجة الحتمية أنها أعادت السنة تلو السنة إلى أن طردت نهائيا. وقد بذلت نايلة قصارى جهدها كي تحبب لها المدرسة. بلا فائدة. في كل مرّة ترى الطفلة أمها تحمل المحفظة وتلبس حايك الخروج، تتحوّل إلى قطة مسعورة. وحينما لا ينفع البكاء وغمغمات الرفض في إقناع الأم لتتخلى عن قرار إيصالها بنفسها إلى المدرسة، تلجأ إلى الصراخ والتمرغ على الأرض. بعد محاولات عديدة، استسلم صبر نايلة أمام عناد بنتها الشرس.

هكذا بدأت ليلى تعيش أيام الفراغ التي لا تنتهي. إن الأم وبعد أن اقتاتت بممارسة مهن مؤقتة، تمكنت من إيجاد وظيفة في المستشفى الجديد للمدينة. فكانت تتغيب باستمرار، تاركة الطفلة وحيدة في البيت. ولم يكن باستطاعة ليلى أن تمكث منغلقة على نفسها طوال النهار، فبدأت تخرج وتقضي جل وقتها متسكعة في شوارع وسط المدينة، الغاصة بالمحلات التجارية والمتسوِّقين. كان يغريها ذلك الانسياب المتدفق للناس، الذاهبين الرائحين، وهي تتجوّل وسطهم، دون أن يعبأ بها أحد. كانت تندفع حماسا وحيوية حينما تلصق جبهتها وعينيها على واجهات الزجاج وتحدق في الملابس المعروضة وسط أضواء المصابيح الساطعة، سابحة في أحلام يقظة، حيث ترى نفسها متدثرة بتلك الفساتين الجميلة ومنتعلة تلك الأحذية اللامعة. تنسى نفسها هناك، تطيل المكوث إلى حد التعب، أو انزعاج أصحاب المحلات الذين ينهرونها، تارة برفق، تارة أخرى بعنف وغضب. كما تجرأت على مد يدها لتخطف بعض الفواكه

وأدوات الزينة الرخيصة من على طاولات الباعة المتجولين وسط حشود القرويين المتسوقين.

وبداخل هذه اللامبالاة وهذا الفراغ الصبياني، تمدّدت السنوات بسرعة وفي غفلة عن ليلى. كادت لا تنتبه إلى تحوّل جسدها. انتفخ صدرها بسخاء ملحوظ. نبتت قامتها كما البرعم في أرض خصبة مسقية. كانت تتجوّل في جسد فتاة بالغة، كالثمرة اليانعة، المغرية، المثيرة للشهية، في حين لا زالت تظهر سلوكا ومواقف طفلة بريئة، غير مدركة للكمائن المنصبة في طريقها.

إن حماية الشرنقة مؤقتة دائما. والإنسان، بميله المبهم نحو التلوّث، لا يتحمّل معاشرة الفضاءات العذراء، الطاهرة. بسرعة مذهلة، وفي حركة مراوغة خفيفة، تُنخر الشرنقة من جوانب عدّة، تُشق، تُسحق، يصيبها مرث فتُمسَخ طبيعتها. وبما أن الهواء ملوّث دوما، يتسارع الإنتاش وتعمل العناصر الإمراضية على دفع العدوى إلى غاية التعفن والنتانة.

في يوم، كانت ليلى تذرع زنقة فرعية، شبه فارغة، توقفت بقربها سيارة، فأطل السائق رأسه الشبيه برأس غراب، وكشر عن ابتسامة ثعلبية، علقت بشفتيه المنتفختين من كميات الشمّة اللاصقة تحتها، ونهق:

– صباح الخير يا الحجلة... ما رأيك في جولة مريحة بالسيارة؟ أنظري، يا صغيرتي، تشعل شعيلا، وصلت من مرسيليا منذ أسبوع فقط. هيا، تعالي، دورة صغيرة فقط، سترين، إنها أجمل من الطائرة.

حرّك الفضول طمع الطفلة-الفتاة، وزادها الاندهاش ولوعا. حطّت نظرة خاطفة على السائق، الضامر الوجه مع شلاغم أكلت فمه، وشعر جعد، قبل أن تمدها طويلا على الهيكل اللامع تحت الشمس الصباحية الدافئة. ودون أن تنبس ببنت شفة، مع رعشة خوف في القلب، دارت « صاندريلا » دورة حول عربتها السحرية بخطى متأنية. انفتح الباب ككوة نور في السماء السابعة. اندست داخل الأريكة الناعمة الملمس وانكمشت بزهو طفلة، وكل حواسها منجذبة نحو اللحظة الحاسمة، لحظة الإقلاع، لحظة ترى فيها الجدران والسقوف فارة إلى الوراء، كما نديفة غيمة تحت نسيم ربيعي خفيف. بعد دقائق، تدفقت أمام

عينيها المبهورتين الأشجار الحافة على الطريق، البساتين، أعمدة الكهرباء والتلغراف، التلال البعيدة، زرقة السماء في الأفق... كانت المناظر المحلقة تملأ ذهنها كحلم عجيب. وكان صوت الهبّال المصفر بحديثه المتهافت، الذي تتخلله جملة (هاه، واش قلتِ يا الحجلة؟)، متبوعة بقهقهة صفراء، يبدو لها كصدى بعيد في عمق وهاد قفر. كانت « صندريلا » تحلق في سماء الجنيات الساحر، كطائر مهاجر يكتشف الأقاليم العجيبة.

ولكن لكل حلم نهاية. وما أصدم النهايات وما أوجعها؟ أخرِجت ليلى من جنتها بفظاظة ركلة في القفا. ابتعدت السيارة عن الطَريق السريع واندست تحت أشجار حجبت أشعة الشمس جزئيا. استيقظت الطفلة–الفتاة بغتة لتجد نفسها غارقة في صمت ثقيل، سجينة الأريكة الناعمة. فتحت عينيها على اتساعهما، ولم ترَ إلا وجه السائق المُشَلْغَم، المزين بابتسامة مكشّرة، ينحنى فوق جسدها. كان نفَسه يعبق برائحة التبغ. أرجعها رعب مباغت إلى واقعها فأطلقت صرخة وقالت:

– أرجعني إلى المدينة، أرجعني...

– نعم، نعم... لا تصرخي أيتها الحجلة الصغيرة، قال السائق متلعثما.

– أريد العودة إلى البيت... أمي تنتظرني. أرجعني إلى المدينة... قالت ليلى وهي ترمي نظرات هلع حولها. هنا فقط، أدركت خطورة تواجدها مع غريب وسط أحراش خالية.

قدّم الهبّال يدا واثقة نحو فخر الفتاة النصف عارية. أخيرا، اتضح لها قصد الرجل. بشكل غريزي، صدرت منها صرخة مدوية. انتفض السائق واستقام بمكانه. بحثت ليلى بيديها المرتعشتين وعينيها الهلعتين في واجهة الباب الداخلية. عثرت على قفل الفتح، حركته بعنف، ثمّ رمت بجسدها بخفة جرو، وتخلصت من القفص الذهبي. ركضت على غير هدى، وبالقدر الذي سمحت لها ساقاها. نزل السائق خلفها صائحا:

– لا تخافي يا صغيرتي... أرجعي، لا تخافي...

ولكن ليلى تشق الطريق المغبر، غير آبهة بوعود الرجل. فكّر في ملاحقتها، ثمّ عدل عن الفكرة. إن الخوف قادر على خلق أجنحة في ساقي تلك المجنونة. استسلم لعجزه عن قطف الثمرة المُعسَّلة، تنفس

زفرة حسرة مثل تيس هائج، امتطى عربته بحنق كاد يخنقه، أدار المحرك بفظاظة وانطلق دون أن يعرف بالضبط ماذا سيفعل.

– هيا، يا حَجلتي الصغيرة، اركبي، سأرجعك إلى المدينة، إلى بيتك إن شئت، قال للفتاة الراكضة عبر حافة الطريق. إنك في الاتجاه المعاكس. عين الكرمة من الجهة الأخرى. لا تخافي، حسبتك امرأة...

كانت العودة عذابا عسيرا. ذهن ليلى يغلي من القلق والتلهف لرؤية ظلال البنايات الأولى، والتخلص من ورطتها بأسرع ما يمكن. شعرت بنفسها مسجونة كما السمكة في قفة الصيد البحرية. بدا لها سقف السيارة واطئا، يضغط بقوة على رأسها، يكاد يمتص منها الهواء. وبمجرد أن تعرفت على زنقة، صرخت أن توقف، وانسلت إلى الخارج، ضاربة الباب بعنف غاضب. أخيرا، تحررت من سجنها. استنشقت الهواء بملء رئتيها، وابتعدت تقفز، فرحة بالعودة إلى بيتها دون أذى.

أحدثت في نفسها تلك الرحلة التي كادت تتحول إلى فاجعة، انقلابا جذريا. بدءا، عكست لها المرآة جسدا غريبا، صعب عليها قبول ملامحه الجديدة. أصابها ذهول من فرط التغيير الذي لم تنتبه له. لأول مرة، أدركت فعلا بأنها لم تعد طفلة، بأنها كبرت. فجأة، تغير كل شيء لديها. فبعد تحوّل الجسد، جاء دور الروح.

في الأيام الموالية، حينما كانت تمشي كعادتها على أرصفة الشوارع، انتبهت إلى أن عيونا تترصّدها، وتتبع خطاها أينما حلت. أدركها الوعي بوضعها الجديد وبالانجذاب الذي تحدثه عند مرورها بقرب الرجال. وكي يكون للطعم مفعول يسري كالنار في الهشيم، تفننت في تزيينه وعطره بالروائح الفواحة. انفتح حواليها عالم جديد: الألبسة الأنيقة وأدوات التجميل والحلاقة. وكي تتمكن من اقتنائها، يلزمها مال كثير. وهي لا تملك منه شيئا. وأين المشكل؟ في بضع دورات تجريبية، أدركتها حرفة اكتساب المال. فأضحى شغلها الشاغل. شهور قليلة بعد الحادثة، كان المسخ كاملا. فتمكنت الفراشة من امتصاص رحيق جمالها ووقودها من كل العربات، دون حتى تمييز بين غثها وسمينها.

- 23 -

لم ينتظر المهدي طويلا حين أتته فرصة سانحة ليطبق بالحرف واحدا من قوانين الشريعة، ففي أحد الأيام، وبعد انتهاء صلاة المغرب مباشرة، وفيما كان الناس يتدافعون لمغادرة المسجد، سمع صوتا يستنجد عند الباب الخارجي:

– سارق... سارق... أوقفوه... إنه ينتعل حذائي...

وقف بخفة ثعلب جائع اشتم رائحة خمّ، وجرى بخطوات متسارعة. في ساحة المسجد الصغيرة، كان رجل يمسك بذراع رجل آخر، شادا إياه بقوة، وصائحا:

– انزع حذائي أيها الشقي... حذاء إيطالي مستورد، اشتريته قبل يومين، وتسرقه بداخل بيت الله، ألا تخاف عقاب الله؟ عار عليك!

كان السارق شابا لا يتجاوز العشرين من العمر، ضُبط متلبسا والحذاء في قدميه. أخْرَسته المفاجأة ولم يجد بداخله الكلمات المناسبة ليردّ التهمة عن نفسه، كأن يتحجّج بأن الأمر التبس عليه لأن حذاءه يشبه حذاء الرجل، أو أن بصره كليل ولم يميّز جيدا بين الأحذية المتناثرة في فوضى كبيرة أمام الباب. لم ينطق بشيء من هذه الذرائع التي ربما خففت من وطأة الحادثة على نفوس الحاضرين. كان يرتدي سروال جينز وقميصا أنيقا وعلى وجهه شعيرات لم تر موسى الحلاقة منذ أيام. وأمام صمت الرجل، تأكّد المهدي أنه سارق بالفعل، والدليل ماثل هنا في قدميه. تقدّم بثبات وأمسك السارق من الذراع وخاطب الحاضرين:

– إنكم شهداء على أن هذا الرجل قد سرق حذاءً هنا في المسجد...

قال صاحب الحذاء:

– أقسم لك بالله يا شيخنا بأن هذا الحذاء هو حذائي، وقد اشتريته منذ أيام فقط. ويمكن للتاجر أن يشهد على ذلك، إنه يعرفني، وأنا زبون دائم عنده.

– صدقناك يا رجل. وسينال السارق العقاب الذي يستحقه وحسب شريعة الإسلام.

التحق سليمان ورشيد وأمسكا السارق من الذراعين ودفعاه نحو الداخل. ابتهاج عظيم سرى على محيا الجميع. إنهم عثروا على كوباي يجرّبون فيه أولى اكتشافاتهم التي ستقدم للبشرية خدمة جليلة وستقضي على إحدى الآفات الخطيرة المتفشية حتى بداخل بيوت الله.

إن صاحب الحذاء حينما استمع إلى كلام المهدي حول قطع يد السارق، انحنى وأجبر اللص على نزع الحذاء، ثمّ ابتعد قليلا وانتعله. بعد ذلك، وفيما كان الملتحون من رواد حلقات المهدي بالمسجد يحيطون بالرجل كي لا يهرب، ابتعد خلسة، غير راغب في أن يجد نفسه مشاركا في فعل يجهل نتائجه، خاصة وأن أخبار هذه الجماعة أضحت حديث العام والخاص في عين الكرمة. رضي باسترداد حذائه الإيطالي، فغادر المسجد، مقسما مع نفسه أنه من الآن فصاعدا لن يأتيَ إلى المسجد إلا منتعلا الصَبّاط القديم المشقوق. أكيد أنه لن يثير طمع أحد، وإن حدث فلن يخسر شيئا.

انتفض المهدي في كل الجهات كي يجمع العناصر الضرورية ليطبق شريعة الله: شاقور مشحوذ، قرمة سيجلبها سليمان من حمّام قريب، قرمة واسعة الدائرة ومسطحة، وأخيرا قِدْر من الزيت المغلي كي يعوّم الجدَعة المبتورة بداخلها. يبدو أن الزيت المغلي يوقف سيلان الدم ويسهل اندمال الجرح.

غرق التعيس في صمت مذنب. طأطأ رأسه وأخفى وجهه بكلتا يديه كي يتجنّب أنظار الفضوليين المتهمة، المتكاثرين، المساندين والمتحمسين لحضور عملية البتر. في قرار نفسه، تؤججه رغبة الاعتراف وطلب العفو من قضاته وجلاديه معا، ولكنه لم يجد لا الجرأة الكافية ولا اللحظة السانحة. الغريب أنه لم يكن خائفا؛ بالنسبة إليه، فإن أقصى عقوبة ستسلط عليه هي تسليمه إلى الشرطة، ولم يفهم مغزى كل ذلك الهرج والمرج، كل ذلك الذهاب والإياب، إلا حينما شاهد سليمان يشق طريقه وسط الحاشدين حوله، وبين يديه وضَم أسود متآكل الأطراف، وعليه شاقور مغروس نصفه بداخل الخشب. حينها ارتعدت أحشاؤه وشعر بمغص تلاه ألم حاد، وانتابه رعب مرعش أخرجه من سباته. فكّر بأنه إزاء

مجانين، وأن الشرطة أفضل منهم بكثير، فمعها سيطمئن على الأقل بأن يده ستخرج سالمة حتى وإن تعرّض للتعذيب.

حطّ سليمان ترسانته على الزربية، باحثا بنظرة فاحصة عن أفضل مكان للقيام بتنفيذ الحكم، وبقي المهدي واقفا قرب المنبر الأبتر، مشبّكا ذراعيه على صدره منتظرا وصول قدر الزيت المغلي.

أمّا السارق التعيس، فقد دارت به الدوائر ولم يعد يفكّر إلا في إنقاذ ذراعه من البتر. وبما أنه لم يتحرّك فإن الأيدي التي كانت تشدّه ارتخت شيئا ما. كان الرعب باديا على ملامح وجهه الذي زاد اسودادا. مسح المحيط بنظرة مختلسة باحثا عن ممر يمكن أن ينسلّ عبره... هناك على اليسار باب جانبي يفتح على الحديقة، منفتح جزئيا. حبس أنفاسه، أغمض عينيه لثوان، ثمّ وضِدّ كل التوقعات، حرّر نفسه باندفاع قوي وانطلق بسرعة الذئب الخطّاف، حافي القدمين، وفي ركضه المصيري اصطدم ببعض الرجال، دفع الباب واختفى عن الأنظار. المفاجأة أربكت الجميع. جاء ردّ الفعل متأخرا. رشيد أوّل الراكضين خلف الهارب، ولكن جلابيته حالت دون مواصلته للمطاردة فتوقف عند العتبة، ينظر يمينا وشمالا في الظلمة السائدة لعلّه يلمح شبح السارق. تبعه سليمان لائكا غيظه بصوت مسموع. هو أيضا، بعد دخوله الحديقة تفطّن إلى أنه حافي القدمين، فتوقف ساخطا شاتما، وفكّر بأن يعود إلى الداخل لانتعال حذائه ومواصلة المطاردة، ولكنه حينما رمى نظرة فاحصة حواليه ورأى العتمة الزاحفة استسلم لليأس، ثمّ إنه يعرف قدراته المحدودة في الجري... همهم عبارات غضب بين شفتيه وعاد أدراجه إلى الداخل، فوجد المهدي يوبّخ الرجلين اللذين كانا يمسكان بالسارق وتركاه يفلت من أيدي العدالة الربانية بهذه السهولة المخزية. بعد دقائق، فرغ المسجد من الفضوليين، واقترح المهدي الحفاظ على القرمة والشاقور، تحسّبا لحالة حدوث سرقة مماثلة في المستقبل. قال:

– ينبغي إحضار حبل لربط يدي ورجلي المتهم. السارق المقبل سوف ينال جزاءه حسب ما تمليه شريعة الله.

- 24 -

حينما تسمّرت ليلى عند عتبة المحل، كان الجيلالي بولَحْبال جالسا على أريكة من السَوخر وأصابع يده اليمنى تداعب حبّات السبحة التي جلبها من مكّة في حجّته الأخيرة، وشفتاه تتمتمان بعبارات الحمد والشكر للمولى الذي فضّله على كثير من أقرانه مالًا وصحة، ومكّنه من إقامة حجّة يطهّر بها نفسه من الذنوب، وهو يعلم كم هي كثيرة وثقيلة، ويخجل حتى بتذكّرها. ولكنه اليوم طاهر مثلما ولدته أمّه قبل ما يقارب الستين سنة. كان لا يزال في لباسه الرسمي الذي عاد به قبل أسبوعين فقط: جلابية بيضاء وشاشية مطرّزة بخيوط ذهبية ولحية خفيفة تزيده وقارا وهيبة. كان غارقا في نشوة روحية وسعادة لا يحدّها حدّ.

انتبه إلى أنّ قليلا من الظلام خيّم فجأة على مكانه، فأدرك بحكم العادة أن شخصا ما غطى الباب، المنفذ الوحيد الذي يسمح للنور بالولوج إلى داخل المحل. أيكون القادم زبونا أم صديقا متأخرا في تقديم التهاني؟ فمنذ عودته من مكّة حيث أدّى مناسك الحج، لا تمرّ صبيحة دون أن يقصد شخص من معارفه محله لتقديم التهاني وطلب الدعاء له بالخير لأنّ العائد من مكّة، في عرف المخيّلة الشعبية، يصبح مقربا من الله وبالتالي يكون دعاؤه مستجابا حتما.

وقفت الفتاة المراهقة، نحيلة الجسد وطويلة القامة قليلا، عند العتبة في حيرة ظاهرة. تردّدت لثوانٍ قبل أن تتجرأ على خط خطوات في الرواق الفسيح بين السلع المعروضة بنظام متقن. إنّ ما جذب اهتمام التاجر في تلك اللحظة الظفيرتان المتدليتان على مقدّمة الكتفين، الموضوعتان على قميص صوفي أزرق شفاف. وبمجرّد رفع رأسه وتركيز بصره على القادم، أبطأت الفتاة خطوها، وقد غمرها ارتباك شلّ إرادتها. تساءلت في صمت إنْ كان من اللائق أن تتوقف أم تواصل سيرها؟ أغلقت عينيها باحثة عن طاقة داخلية تساعدها على المواجهة. بعد ذلك، تنفّست بصوت مسموع، ونفخت صدرها في حركة فظة رافقتها بتقطيب حاجبيها وزمّ شفتيها، كما لو أنها تستمد منها القوة الضرورية لإكمال الخطوات الثلاث التي تفصلها من التاجر الذي لا يزال جالسا يتابع تحركها باستغراب.

ولكنها أوقفت وثوبها المرتبك في منتصف المسافة الفاصلة بينها وبين الرجل الذي جاءت تطالبه بأبوّة قالت لها أمها بأنها أكيدة وغير قابلة للنقض. جاءت تسترجع حقها المسلوب منذ أربع عشرة سنة وهي في هيأة أقرب إلى متسوّلة من زبونة. ثمّ، ودون مقدمات، ولا حتى اتخاذ الوقت الكافي للنظر إلى صورة « أبيها » الذي تقترب منه لأول مرّة بهذه المسافة، لفظت كل ما بداخلها في جملة واحدة، وهي الجملة الوحيدة التي ما فتئت تجترها طوال مسافة الطريق مخافة ألّا تجد الجرأة الكافية للنطق بها. لقد مرّ أسبوع كامل مذ قرّرت مواجهته، وهي تستيقظ كل صباح وعلى لسانها: « اليوم سأواجهه بالحقيقة... اليوم سأزوره في حانوته وأقول له « أنت أبي... أنا ابنتك »، ولكنها، وفي كل مرة، تخونها قدماها ويتجمّد لسانها قبل حتى أن تصل إلى زاوية الشارع العريض حيث يتواجد محل بيع الأثاث المنزلي.

كم مرّة ذرعت الرصيف المقابل، في ذهاب وإياب متواصلين، وهي تردّد في قرار نفسها: « خلاص، الآن سأقطع الطريق وأتسمّر أمامه وأمطره بالحقيقة ». تغلي الكلمات في شرايينها كما تغلي حبات العدس داخل القدر، ولكن التفجير يؤجّل في كل مرة إلى وقت لاحق. استيقظَت هذا الصباح بعد نوم مضطرب وسهاد أبقاها مفتوحة العينين إلى الهزيع الأخير من الليل، فغمغمت: « كثرة التفكير يشل الحركة. ثرثرتُ طويلا دون فائدة، دون فعل » وهي ترتدي ثيابها قبل الخروج.

– أنا ابنتك !

– ماذا ؟!

انتفض الجيلالي بولحبال وعلامات الدهشة تخرجه من سباته الصباحي. استنشقت الفتاة نفحة هواء عميقة لمجابهة الإحساس بالاختناق الذي انتابها فجأة. فقالت وهي ترفع صوتها قليلا:

– أنا ليلى... ابنتك...

أطلق التاجر قهقهة صاخبة، لفّ السبحة حول أصابعه، واشرأب عنقه كي يتأمّل جيدا هذه الزائرة المجنونة.

– يا صغيرتي، إن « جْوانفيل » في البليدة، وليس هنا في محلّي.

ولكن الفتاة لم تتحرّك بل واصلت النظر إليه وهي تردّد بصوت خفيض:

– أنا ابنتك وأنت أبي...

حينها وقف التاجر متثاقلا، فتح درجا، أخذ بضعة قطع من النقود ومدّها لها:

– خذي وروحي شوفي شغلك...

اقتربَت ليلى منه خطوة أخرى مما أربكه وجعله يقوم بحركة من يديه وذراعيه كما لو أنه يصدّ معتديا، فنطقت بجرأة أكبر:

– لست متسوِّلة... إنني ابنتك...

– ما هذا الهذر يا صغيرتي؟ أبنائي أعرفهم، إنّهم في بيتي أو في أماكن عملهم ودراستهم. هيّا خذي هذه النقود، اشتري حلويات واتركيني أكسب رزقي.

– أمّي هي التي قالت لي بأنّ أباكِ يسمّى الجيلالي...

– الجيلالي؟ يوجد العشرات من الجيلالي في عين الكرمة.

– وقالت لي أيضا أنه يملك محلا في وسط المدينة.

– مطّ الجيلالي شفتيه وقطّب جبينه، ألقى نظرة إلى أفق بعيد عبر باب المحل فوق رأس الفتاة قبل أن يسأل:

– أمّك قالت لك هذا الكلام؟

– نعم...

ردّت الفتاة بلهفة، غير مصدّقة بأن الرجل لان أخيرا. ربما يكون قد صدّق كلامها.

– وما اسم أمّك؟

– نَايْلَة... قالت لي بأنها اشتغلت عندك خادمة...

– صُعق الجيلالي بولحبال كما لو أنّ لسعة أفعى انغرزت في جسده. تشوّشت ذاكرته وغمرها شلال من الصور والأصوات انبثقت من ماضٍ سحيق، اعتقد جازما بأنه قد امحى إلى الأبد، واندثر ملفوفا بالحجرات التي رجم بها الشيطان في مكّة... نهائيا... بلا رجعة. إنه الآن إنسان طاهر من أيّ ذنب كما يمكن لأيّ حاج أن يكون، إنّه قدّيس، ملَك.

كيف أمكن لهذا الماضي أن ينبثق من جديد في حياته الحاضرة؟ لا، هذا الفعل لن يكون إلا وهْمًا من إبليس اللعين؟ محاولة إغراء أخيرة يائسة. تلعثم بضعة كلمات غير مفهومة، ثمّ استرجع رباطة جأشه والتزم الصمت مفكرا لثوانٍ معدودة. فيما مكثت الفتاة لاصقة بمكانها تنظر إليه وخفقان قلبها يزيدها انفعالا ولهفة لسماع ما سيقوله « أبوها »، مصممة على إخراج الحقيقة من قبرها الذي أواها سنوات، حتى وإنْ كانت اللطخة أليمة، بل ومؤذية.

بعد صمت مربك دام دهرا، رفع الحاج الجيلالي بولحبال رأسه، تأمّل الفتاة مليا وقال بنبرة رزينة وصوت ناصح حنون:

– اسمعي جيدا يا بنيتي... أنا لا أعرفك ولا أعرف أيّة امرأة باسم نايلة. (خفق صدره وارتعش لسانه وهو ينطق باسم الفاتنة تلك التي شغفته وجنّنته ذات يوم) خادمتي تشتغل في منزلي منذ سنوات عديدة وهي لا تزال. لا أعرف ماذا تكون أمّك قد رَوت لك من أكاذيب، ولكنني لست الرجل الذي تبحثين عنه. يوجد عدد لا حد له من الرجال باسم الجيلالي...

– أرغمت أمّي على أن تقول لي الحقيقة. لشهور طويلة وهي تراوغ وترفض الاعتراف. أخيرا، حكَت لي كل التفاصيل. الآن، أنا أعرف أنك أنت أبي وليس رجلا آخر.

فقد التاجر صوابه وردّ بعصبية وصوت متشنج:

– وأين كانت أمّك خلال كل هذه السنوات؟ لماذا لم تخبرك وأنت صغيرة؟ لماذا انتظرت حتى تصبحين امرأة كي تواجهك بحقيقة مولدك؟

ردّت الفتاة والدموع تخنق صوتها وتضبّب بصرها:

– أريد معرفة حقيقة مولدي... أريد معرفة أبي...

– اذهبي وابحثي عن أبيك في مكان آخر. أنا لست الرجل الذي حدّثتك عنه أمّك.

– ولكن أنا متأكّدة...

– هذا كلام فارغ وافتراء على ربّ عائلة محترم زار بيت الله...

ولكن الفتاة الضامرة رفضت التزحزح من مكانها، فكرّر الحاج الجيلالي بولحبال أمره لها بالخروج وعدم وضع قدميها مرة أخرى في محله. كان صوته غاضبا ويداه ترتعدان. فاندفع باتجاهها ودفعها بفظاظة إلى غاية الرصيف وهو يهدّد بإحضار الشرطة إنْ فعلت ثانية.

انفجرت ليلي بالدموع. غطّت وجهها براحتي يديها ومكثت لحظات وهي تشهق بصوت مسموع قبل أن تبتعد وسط المارة، تكظم جرحها ومرارتها، دون أن تتضح لها معالم أيامها القادمة.

عاد الحاج الجيلالي بولحبال إلى عرينه بخطى واهنة، ارتمى على أريكته وهو يجهد نفسه لاسترجاع هدوئه بترتيل آيات قرآنية يطرد بواسطتها وساوس القدر اللعين الذي يتلذّذ بمطاردته حتى بعد توبته التي ختمها بزيارة البقاع المقدسة والطواف حول الكعبة الشريفة ورجم الشيطان. إذا كان لسانه قد استجاب لرغبته، فإنّ عينيه رفضتا الانصياع. كانت صور وأصوات من زمن آخر وحياة أخرى تغريانهما على السفر إليها واستحضارها بلهفة تتحدى ترهل الجسد وطغيان العبادة.

- 25 -

كان رشيد حلموش جالسا على مقعد إزاء باب الحانوت، وحوله شباب الحي، متناثرين في وضعيات جلوس ووقوف وإقعاء. قال:

– أيها الشباب، هل أنتم مستعدون لعمل الغد؟

– غدا! ماذا يوجد غدا؟

– كيف؟ أنسيتم بهذه السرعة؟ والمهدي الذي يعتمد عليكم كل الاعتماد!

قال عبد القادر كروش:

– أنا أفضل انتظار الباخرة.

– ولكن الباخرة لن تأتي.

– لا يا حبيبي إنها آتية لا ريب في ذلك.

قال الإسكافي النحيل، وهو يشرئب عنقه من خلف الجدار :

– شْكونْ قال لك بأنها لن تأتي ؟

ردّ رشيد حلموش :

– أنا الذي أؤكد لكم الخبر... تضيّعون وقتكم، تنتظرون سحابة صيف لن تمطر قطرة واحدة.

– في جميع الأحوال نحن ماكثون بلا عمل، لذلك نعتبر الانتظار شغلنا الجديد.

– إن طريق المقبرة بحاجة إلى عرق أذرعكم. خاصة وأنكم ستعبرونها جميعا في يوم ما. إن الواجب الديني يفرض علينا أن نجعلها مسطحة وواسعة.

قال عبد القادر بانفعال ظاهر :

– ومن قال لك بأننا جميعا سنعبرها يوما ؟ أنا أنتظر الباخرة وسأغادر هذه البلدة إلى غير رجعة.

قال صاحب الحاجبين الأشعثين البارزين :

– لقد سبق لك وأن ذهبت ورجعت فارغ اليدين.

– تلك حكاية قديمة، كنت لا أزال أحمل في قلبي خيرا لهذا البلد، أمّا الآن فقد أصبح قلبي مضخة صماء، أفرغته من كل العواطف. لا يلدغ المرء من الجُحر أكثر من مرّة. هذه المرّة، إن وطئت قدماي أرض الخيرات والحريات فلن أرجع أبدا، حتى وإن مسِخت إلى « كانيش ». إنهم يحبون هذا النوع من الكلاب أليس كذلك ؟ حلّت المشكلة إذن، سأتحوّل إلى « كانيش » وستتكفّل بي عائلة من العائلات الثرية هناك...

قال بائع السجائر والكاوْكاو :

– أنا سأستيقظ باكرا في يوم الغد وألتحق بطريق المقبرة. لقد قمت بدورة بالأمس واخترت المكان الذي أحطّ فيه بضاعتي.

ردّ رشيد غاضبا :

– ممنوع ممارسة التجارة هناك.

أجاب البائع وعلى شفتيه ابتسامة مكر وافتخار:

– لا ممنوع ولا هم يحزنون. التجارة باركها النبي وهي ترافق البشر أينما حلّوا. لا أستغرب أن يمارسها الناس في الجنة وفي جهنم على حدّ سواء.

قال الحانوتي:

– سنعدّ قائمة نسجّل فيها أسماء الحاضرين. وحذار للغائبين! عليهم أن يبحثوا عن مقبرة أخرى لدفن موتاهم.

ردّ الإسكافي النحيل في الوقت الذي كان فيه يتخبط لنزع مسمار من « صبّاط » عسكري مهترئ:

– بالشْوِيَة عليك يا رشيد! أتقوم بتأميم المقبرة ونحن لم نضرب ضربة فأس واحدة بعد؟

– اخرس أيها الإسكافي اللعين، سيأتي يوم نضطر فيه إلى قطع لسانك الشبيه بلسان العقرب...

– لن تحظى بهذا الشرف. تريد دخول الجنة على ظهري! على كل حال ستأتي الباخرة وسأذهب مع قادر وموسى. سنترك لكم مقبرتكم. أدفنوا فيها أنفسكم أحياء. هذا أفضل عمل ستقومون به!

– باخرتكم لن تأتي.

– لا، سوف تأتي وخمسة في عيون الحساد والأعداء.

قال صاحب الحاجبين البارزين:

– أنا سأذهب لترقيع فأسي المنكسرة، لتكون صالحة للعمل نهار الغد.

قال رشيد حلموش وهو يستعد لغلق الحانوت:

– بارك الله فيك. هذا ما ينبغي أن يفعله كل واحد منكم. موعدنا غدا في هذا المكان قبل طلوع الشمس. تصبحون على خير.

- 26 -

مرّت شهور ولم تسقط قطرة مطر واحدة على سقوف منازل وأراضي عين الكرمة؛ أضحى الماء نادر الوجود، وطوال ساعات النهار ترى

الأطفال يجوبون الطرقات، مثقلين بالدلاء و« الجيريكانات »، باحثين عن منابع المياه، الطبيعية منها والاصطناعية. أمّا الرجال فأرهقوا أعصابهم في نقاشات لا نهاية لها وتنبؤات هي أصلح لعهود الأنبياء الغابرة، في انتظار أن يلين قلب سيّد العالمين ويدفعه إلى إرواء عطش أرضه وعبادها المستغيثين. ولكن الظاهر أن ربّ السماوات والأرض منشغل بمسائل أكثر أهمية وليس مستعدا للتخلي عنها والاستماع إلى شرذمة ضمأى لا تحسن استغلال الخيرات النائمة عند أقدامها. طال الجفاف، زاحفا، قاسيا، لا يلوي بتأوّهات الأرض الجدباء، حاملا بين جناحيه تلك الرمضاء التي تمتص نسغ الأحياء. تشاءم الشيوخ من الوضع السيّئ وقفزت بهم ظنونهم مباشرة إلى احتمال حدوث كارثة طبيعية ستردم المدينة ومن عليها... لا يملون من التكرار بأن في حياتهم الطويلة لم يعيشوا جدبا شبيها بهذا الذي جثم على رؤوسهم منذ شهور. أكثروا من الصلوات والأدعية الخاشعة، وأخرج الأئمة من متون الكتب المنسية كل الحكايات والأساطير التي تروي بالتفصيل الدقيق ما حدث في العهود الخوالي من كوارث أصابت الشعوب القديمة التي سحقها الغضب الرباني ومحاها من وجه الأرض في لمح البصر، كما أصابت الأنبياء الطائعين الصبورين. إن الله يمتحن عباده المؤمنين. حان موسم الحصاد وجاء المُزارع يطلب حقه. الويل، ثمّ الويل للكنودين والجاحدين والناكرين لنعمته، والمتمردين والساخرين، وأولئك الجبناء الذين يتخلفون عن الركب، والمنافقين والمؤلّفة قلوبهم...

تشاور المهدي مع أصحابه الذين أضحوا لا يغادرون المسجد إلا لحاجات ضرورية. اتفقوا على تنظيم صلاة للاستسقاء، لعلها تجلب الغيث. طلب المهدي من جميع المصلين أن يشاركوا في التجمع المشهود الذي سيقام على قمة رابية سيدي المخفي، في البطحاء المحاذية للمزار. وجماعيا، سيدعون الله كي ينزل المطر المنقذ من الهلاك. إن الربّ قريب وسيجيب دعوة الداعي إذا دعاه. أوصى المهدي المشاركين في المسيرة المقدّسة ألّا يجلبوا معهم أي شيء من صنع الغرب الكافر. ينبغي التقدّم أمام الخالق الجبّار في طهر ملائكي. كما أوصاهم بالتيمّم قبل الانطلاق، حركة رمزية للإقرار بعدم وجود الماء، وبارتداء اللباس الإسلامي، أي القندورة والقميص والشاشية، ومن الأفضل حمل المصحف في اليد،

ثمّ قطع المسافة الفاصلة بين المدينة والمزار راجلين. وأخيرا، على الذين يطيقون الصوم أن يصوموا.

انتشر الخبر بسرعة الريح. في اليوم المشهود، وقبل طلوع الشمس، طفق المشاركون يتوافدون أفرادا وجماعات على مسجد المهدي بن تومرت والذي لا يزال الناس يذكرونه باسمه القديم: سيدي عبد الرحمن. مراهقون متحمّسون، يتحدثون بأصوات اندفاعية في لامبالاة بريئة، شيوخ حازمون برغم ارتعاش أيديهم، يتوكؤون على عكازات ويلوكون أدعية بين الشفاه الناشفة، كما يوجد كهل أعرج بقشابية رمادية، برغم الحرارة المرتفعة، وأعمى بنظارات سوداء يطارد مرشده بسيل من الأسئلة الملحاحة ويميل برأسه إلى اليمين كي يسمع جيّدا، ومجنون مبتسم دوما، يقضي معظم أيامه يجوب شارع المدينة الرئيسي مقلّدا صوت وهيأة شخص يمسك جهازا ويهتف... ولكن أغلبية المشاركين هم رجال أشدّاء في مقتبل العمر، جادّون في مظهرهم ومستعدّون لتسلق كل جبال الدنيا لإنجاز صلاة الاستسقاء، يرتدون جلابيب وشواشي وصنادل، وجوههم مخفية نصفها بلحى طويلة وكثّة، تزيد للجوّ مسحة من رهبة التصوف.

بعد لحظات، سيعطي المهدي إشارة الانطلاق نحو أزمنة الأنبياء والرسل والوحي والأفعال العجيبة الغريبة. هكذا الناس منذ قديم الزمان، إذا تعاقبت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء واشتدّ الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السَّلع والعُشَر، ثمّ صعدوا بها في جبل وعر وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرّع، فكانوا يرون أن في ذلك أسباب السُّقْيا. هكذا كانوا يتقربون إلى الله بالقرابين كي يستجيب لدعائهم في إرسال الغيث، فما هو قربان المهدي وأصحابه يا ترى؟ هل كانوا سيذبحون الناقة المقدسة؟ أم يستبدلونها برؤوس من المردة الكفرة؟

بعدما تأكّد المهدي من امتلاء الساحة المحاذية للمسجد، غمغم عبارات البسملة والحمدلة وخطى أولى خطوة نحو استقدام الغيث. ها قد بدأ السفر... بمعية صديقيه الحميمين، سليمان ورشيد، قاد المهدي المسيرة بخطى ثابتة. في البداية، كان الراجلون يشكلون عنقودا متماسكا، ولكن بعد مدّة من الزمن، تلاشى العنقود، وأفرغ من حباته الداخلية؛

انفصل الرجال رويدا رويدا، فرادى وجماعات ثنائية وثلاثية، مثل عنقود عنب يتسلى طفل بنزع حبات متفرّقة منه، مختارا تلك الكبيرة الناضجة، تاركا فراغات متناثرة. وطوال الطريق، كان الرجال يخرجون من ديارهم ويلتحقون بالركب، أمّا النساء المحتجزات بداخل أسوار البيوت فقد اكتفين باختلاس النظرات المضطربة من النوافذ ومن خلف الستائر ومختلف الثقوب الموجودة، مطلِقات صيحات تعجب ودهشة (هي نفسها كلما تعلق الأمر باكتشاف الخارج) حينما يتعرفن على قريب أو جار. عند بطحاء دار حوش الرومي، بقرب الحانوت، كانت مجموعة من الشبان ينتظرون، ومن بينهم صاحب الحاجبين البارزين والمشعرين وبائع السجائر. وقبل أن يصل الموكب إلى مستوى الحانوت، تحرّكت الأقدام مسرعة لتنسل بصمت وسط الحشد الزاحف نحو قمة التل.

بقرب الحانوت، وقف عبد القادر كرّوش متكئا على الجدار وبن موسى قدور بشعره الأشعث والإسكافي النحيف الجالس على قطعة آجر مهشمة. قال عبد القادر كرّوش بصوت ساخر:

– انظر إلى هؤلاء الأنبياء الجدد! أين يهيمون بوجوههم بهذا الاندفاع؟ سيطلبون من ربّ العالمين أن يفرغ لهم قطرات من خزّانه الكبير. لماذا؟ أليس على علم بأن سماءه قد بخلت علينا بمائها منذ سنوات عديدة، هو العليم الذي لا تخفى عنه خافية؟ في أوروبا، لا يطلب أهلها شيئا ولا يقيمون أي صلاة، ورغم ذلك فالمطر عندهم لا ينقطع عن السقوط، وأنهارهم متدفقة دوما وبحيراتهم تنافس بحورنا، وفوق كل هذا، إنهم ليسوا مسلمين... أما المسلمون فإنهم لا ينقطعون عن السجود والدعاء، بلا جدوى... الجفاف لاصق بهم مثل القراد العنيد... أنرني يا قدور الفيلسوف، ألم تعثر على تفسير في كتبك الكثيرة؟

نظر إليه قدور وعيناه نصف مغمضتين وقال:

– إن المطر ظاهرة طبيعية قد فسّر العلماء كيفية تشكيلها وحدوثها منذ قرون، ولا علاقة لها مع المشيئة الإلهية، مثلها مثل الزلازل والفيضانات والكوارث الطبيعية الأخرى. ولكن عندنا، كما في العصور الغابرة، مازلنا نتشبث بالخرافات والمعجزات وأساطير الأولين، ونرى في كل شيء إرادة الله جاثمة، حارسة، مراقبة، يسحب بيد ما يمنحه بيد أخرى...

– إن الله لن يُنزل قطرة ماء علينا... إنه يعلم جيدا لون قلوبنا الأسود والشرّ الكامن فيه. يعرف أننا منافقون ومنقلبون حسب وجهة الريح ورغبة الأقوى. إن الذي يعثر على باب الجنة يدخل ويغلقها خلفه كي يمنع الآخرين من الدخول إليها.

– لقد غادر الله الأرض منذ زمن بعيد وأخذ في أمتعته السماوات المانحة للخيرات. الآن، الأرض بلا سماء، لا واحدة ولا سبعة، كي تنفتح وتتكرّم علينا بالذهب والفضة. لم يبق لنا إلا نار الشمس اللاهبة اللافحة، والتي ستحرقنا يوما. عوض حفر الآبار وبناء السدود والبحث عن حقول المياه الجوفية وتحلية مياه البحر وإعادة إحياء الغابات المحترقة بزرع الأشجار، وإقامة سدود خضراء على مشارف الصحراء لوقف زحف الرمال، نقضي أوقاتنا نبقبق ونبطبط في علب المصبرات الصدئة ونصلي صلاة الرياء والنفاق.

– كسالى، لا نصلح لشيء، نحن حثالة البشرية...

تدخّل الإسكافي موافقا:

– أنت على حقّ، نحن حثالة البشرية.

قال عبد القادر:

– حينما كنت في ألمانيا، رأيت الناس كيف يشتغلون، ربوهات حقيقية. تمرّ اليوم عبر شارع تجدهم يدمّرون عمارة، تعود في الغد، تجد عمارة جديدة في مكانها.

قال قدور:

– قرأت مؤخرا في مجلة بأن فرنسا وبريطانيا ستقومان بحفر طريق تحت البحر الذي يفصل بينهما. قريبا سيسافر الناس بين البلدين عبر السيارات والقطارات. ونحن ماذا نفعل؟ نكتفي بصلاة على رأس كدية بها قبر مهجور، يقال بأنه لرجل صالح. ماذا فعل هذا الرجل الصالح؟ ماذا ترك لنا من إنجازات؟ قضى حياة معدمة، غارقا في مناجاة هذيانية، لم يتمكن حتى من إعالة نفسه، ويقال بأنه صاحب كرامات ومعجزات! ألم أقل لكم بأننا بلد مجانين؟

– صحيح ما تقول. ومدننا وطرقنا، من شيّدها؟ هل بنيناها نحن؟ الله يكثر من خير فرنسا اللي بنات وعلّات! لولاها لمازلنا نسكن في الخيم وقرابي القصب والديس.

– آه، لو كنت ربّا لأنزلت عليهم جفاف قرون، لعلّهم يستيقظون من سباتهم العميق.

بصق قدور بغيظ، متنحنحا بصوت مسموع، التَوَت النخمة المحبحبة الكثيفة المزبدة، على التراب وتغطّت بالغبار.

الآن، أصبحت قافلة الراجلين أشبه بالثعبان الخرافي، الممتد في التواءات زاحفة، بحيث لا يظهر لا الرأس ولا الذيل. اختفى المتقدّمون وسط أشجار الصنوبر الضامرة، أمّا المتأخرون فلا يزالون يجرجرون أقدامهم على زفت آخر زقاق المدينة. أثناء السير تأخر المسنّون والمرضى والبدُن، والتحق بهم المتأخّرون وتجاوزوهم مسرعين، يشقّون الدروب الحجرية لاهثين، وعيونهم لاصقة في قمة الكدية التي امتلأت إلى حدّ الفيضان، متخذة مظهر هرم بشري. رويدا رويدا، لم يعد الصاعدون عبر المسالك الضيقة، وسط الصنوبر وأحراش التوت البري، يجدون مساحات شاغرة فوق البطحاء، فاضطروا إلى الوقوف في الدروب الوعرة، يتشبثون بالأغصان الواطئة.

وقف المهدي أمام باب المزار، يبتهج من فرط الرضا لأنه تمكن من جمع مئات المؤمنين الذين حضروا متحمسين لإعلاء كلمة الله وإطلاق الأدعية من هذا المرتفع والله قريب وسيجيب دعوة الداعي إن دعاه. إن المهدي مستعد لأخذهم إلى أعلى مكان في المنطقة كلها كي يقتربوا أكثر ويسمِعون أصواتهم أحسن. تذكّر المهدي بن تومرت وأصوات الموتى الصاعدة من القبور. ما أروع معجزة ابن تومرت! لحظتها قرّر المهدي ألّا يغادر القمّة إلا إذا أحس بقطرات الغيث الأولى تبلل لحيته. تنحنح طالبا الانتباه ثمّ حوقل وبسمل وأقام الصلاة. صمت ثقيل خيّم على الكدية. أنهى الداعون صلاتهم برفع الأيدي نحو السماء، وأبصارهم لاصقة بالزرقة الباعثة لليأس، منتظرين إشارة ربانية تعلن بداية سقوط الغيث. دوى صدى « آمين » الجماعي بعيدا، زاحفا إلى غاية سقوف

المدينة. تلكّأ المصلّون دقائق معدودة تحت الحرارة القائظة، العيون لاصقة في الفضاء الشفاف. كان العرق يتصبب على الوجوه والعيون ترف من فرط الضياء الساطع. ولكن المعجزة لم تحدث، ولا شيء يبشّر بحدوثها. صمّمت السماء ألّا تغيّر لون ثوبها، متحدية، عنيدة، بل وغير مبالية بقنوطهم وبؤسهم. أخيرا، نفضوا الغبار من جلاليبهم وغادروا قمّة الرابية، حاملين في قلوبهم رعشة أمل. أكيد أنهم سيحلمون بالمطر هذه الليلة، سيستعيدون ذكريات الأيام الماطرة والعيون المتفجّرة ماء صافيا رقراقا والأودية الجارفة والخضرة الرطبة المنعشة.

وقف المهدي متثاقلا، تقدّم خطوتين إلى غاية حافة البطحاء وأطال النظر في الفضاء الأزرق، سارحا بخياله بعيدا. تجمّع حوله أصحابه منتظرين أدنى إشارة منه. قال دون أن يلتفت إليهم:

– سأمكث في هذا المكان... أصلي، أصوم، أقرأ القرآن، وأنتظر الغيث الذي آراه آتيًا لا محالة. لن أتحرك من هنا إلى أن أشعر بالقطرات الأولى تبلل وجهي. سينزل الغيث وسيكون إن شاء الله خيرا عميما.

ثمّ استدار نحو رشيد حلموش وقال:

– يا رشيد، أطلب منك خدمة صغيرة.

– اطلب ما شئت، أنا في الخدمة.

– أنت تسكن قريبا من هنا، أريد منك أن تعود إليّ قبل غروب الشمس بقليل من الحليب والتمر كي أفطر بها.

أغمض عينيه، تمتم أدعية ثم قال:

– الآن، عودوا إلى دياركم مشكورين، أنتم في رعاية الله وحفظه.

قبل الغسق عاد رشيد إلى المزار، حاملا معه فطور الصائم، زائد دلو ماء وسجادة صلاة. شارك صديقه الأكل البسيط، وجالسه إلى غاية إقامة صلاة العشاء ثمّ عاد أدراجه نحو المدينة. بقي المهدي وحده يسبح في الفلاة المتلألئة. الجوّ حار ولم يرَ ضرورة الالتحاق بداخل المزار مثلما كان يفعل في طفولته، في تلك الليالي الباردة، كي يتخلص من تهديدات أبيه بالضرب المبرح. وضع الزربية قرب جذع صنوبَرَة وتمدّد بكل جسمه المنهك بالتعب والتوتر الوجودي. أبهرته مساحة السماء الشاسعة،

والنجوم المعلقة كالمصابيح والهلال الجاثم هناك في الجهة الجنوبية بضوئه الشاحب، ونفثت في كيانه حبورا خفيفا خيّل إليه أنه سيرتفع توّا في السماء مثل سجادة ألف ليلة وليلة السحرية، وسيتّخذ مكانه وسط المصابيح المعلقة. تسلى بعدّ النجوم، الواحدة بعد الأخرى، تشوّش ذهنه، وامتلأت عيناه بنقاط مشعة متداخلة. ثمّ ودون أن يشعر بقدومه، خطفه النوم وأسكنه في بستان مبلل بالندى. هو أيضا حلم بالمطر. رذاذ منعش، بل غمائم ملساء مثل الحرير، بيضاء ساطع لونها. في الحقيقة، حلم بالثلج، وإن كان لم يرَ الثلج في حياته. كل ما يعرفه عنه هي تلك الصور المبثوثة في كتب الجغرافيا حينما يتعلق الحديث عن مدن ومناطق الجليد. رأى نفسه يقفز مثل عصفور، متنفسا تلك الرطوبة المنعشة... ثمّ فجأة، اختفى المنظر بجرة قلم، وعادت الطبيعة إلى ثوبها الأصلي، جدب وجفاف. استيقظ بغتة وسط الليل، يخنقه الحصر، ضاغطا على صدره مثل حزام مشدود بقوة. حوله كان الظلام يغذي أسراره الباعثة للرعب في قلب الكائنات. اختفى الهلال. رياح ساخنة تصفر خافتة وتهزّ الأغصان العالية. حملق في الظلام حواليه وتذكّر قبر الولي الصالح سيدي المخفي وكتاب التصوّف وسيرهم الخارقة. أرعشته رغبة إعادة قراءة الحكايات العجيبة، فدفع الباب الذي أطلق صريرا مخيفا وأشعل شمعة. لا شيء تغيّر... ركع قرب القبر، قلع اللوح الخشبي، أخرج المخطوط الثمين وتلمّس أوراقه طويلا، وكان يغمره شعور بسعادة لا توصف، ثمّ أرجعه إلى مخبئه مفكرا بأن الوقت ليس مناسبا لقراءة أخرى غير كتاب الله. ربّما غضب سبحانه وتعالى ورفض الاستجابة للدعاء، نكاية في عباده الذين يشركون كلامه المقدّس مع هذيانات وهرطقات فلاسفة وشعراء غاوين وضالين، يهيمون في أودية جافة لا مستقرّ لها. ولكن النداء كان أقوى، ففي الليلة الموالية، وجد المهدي نفسه منجذبا بقوة مغناطيسية نحو سيرة المصرّين على معرفة الذات الإلهية والتقرب إليها بل والذوبان في سرّها، مستعينا بضوء شمعة باهت، مربعا على حصير، صدره مائل إلى الأمام، وأنفه سابح في روائح مسكرة من النباتات التي ما تفتأ العجائز تحرقها في جمر الموقد القابع في زاوية مظلمة، فركب سفينة المغامرات الساحرة المذهلة التي لا يكاد يصدّقها العقل. ولكن هذه المرّة، وبعد

القراءة، فتر حبّ المهدي لتلك السِّيَر، إذ وجدها، مقارنة مع سيرة ابن تومرت، مملّة، وحيدة، هاربة من المعارك المصيرية، لا تؤسّس إلا للفراغ والفقر والحرمان.

خلال النهار، يلتحق به أصحابه لتلاوة القرآن والإبحار في الأدعية التي لا تترك شيئا إلا وأقحمته ضمن رغباتها الملحّة. وعند غروب الشمس يفترقون. صام المهدي كل أيام الأسبوع، مكتفيا بحبات تمر وجرعات من الحليب في الإفطار. وفي مساء اليوم السادس، طلب من رفقائه أن يبقوا لقضاء الليل معا، يتلون القرآن ويستعدّون لصلاة أخرى في بطحاء المزار.

طلب المهدي من المصلين أن يتجنبوا الحركة أثناء الوقوف، والاختلالات أثناء الركوع، وأن يصبروا أثناء السجود لأنه سيطول، وألّا يتبادلوا التفاهات أثناء الجلوس. إن كل تسلية أو إهمال قد يقلل من فعالية الصلاة. وقف المهدي كجذع نخلة، نافخا صدره، مشبكا ذراعيه على مستوى أعلى البطن، الساقان متسعان، القدمان مثبتتان بقوة على التراب كأن ريحا عاتية ستجرف به نحو الأسفل، وبهذه الوقفة الصلبة سيقاومها. قرأ سورة طويلة إلى أن بحّ صوته وشعر المصلون بألم في الظهر وفشل في السيقان، ثم انحنى للسجود، فأطال السجدة إلى أن ظن الناس أنه قد نام، بل وغفا بعضهم متناسيا سبب حضورهم فوق الرابية تحت الشمس اللاهبة. فكّر بعضهم بأن الإمام أصيب بوعكة صحية فأغمي عليه، تاركا القوم ساجدين، غير عابئ بما سيفعل الدهر بهم. ولكن لا أحد وجد في نفسه الجرأة لفصل الجبين عن الأرض والاستفسار عمّا حدث... بعد ذلك وقف وقرأ سورة نوح الذي أرسل الله عليه السماء مدرارا وأمد قومه بأموال وبنين وجعل لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. كانت السجدة الثانية أطول من الأولى. أخيرا، ارتفع التكبير منقذا المصلين من التخمينات الضالة، ثمّ في حركة موّحدة، رفع الجميع أيديهم نحو السماء متوسِّلين الغيث الذي يريدونه مدرارا. طاردت الأبصار السماء الزرقاء، الشفافة مثل الزجاج النظيف، في عصبية راعشة، ولكن السماء أظهرت قلبها القاسي وأصرّت ألّا تلين، أن تتصلّب مثل الحجر، وألّا تغيّر لونها مهما طالت الأدعية وارتفع هديرها. لم تبادر أيّ غيمة مهما كانت صغيرة وباهتة لتمتِّع العيون المحمومة، المشتاقة إلى قطرة ماء.

أكثر من أتباعه، طارد المهدي السماء بإرادة صياد لا يصيبه كلل، محدقا بعينيه المتسعتين، راكعا، رافعا يديه نحو الأعلى، يريد للسماء أن تستجيب فورا، أن ترسل الغيث شلالا لا نظير له. أنتَ قريب تجيب دعوة الداعي إذا دعاك وها قد دعوناك جماعة ونحن الآن في انتظار القطرات الأولى التي ستسقط هنا، ليشهد فريق من المؤمنين بحدوث المعجزة مثلما حدث مع محمّد بن تومَرْت حينما تكلم الأموات، أو مع إبراهيم عبد الله حينما تحركت الكعبة الشريفة لاستقباله. وسترفعه هذه المعجزة إن وقعت إلى مصاف الرسل والأنبياء والقديسين. استجمع قواه العقلية، في تركيز لم يسبق له مثيل، فرأى فيما يرى النائم أن غيمة صغيرة انبثقت من الأفق، ثمّ انتفخت واسودّت وبللت بؤبؤة عينيه؛ ارتعش قلبه ابتهاجا. هل سينطلق البرق اللامع مبهرا أبصار العابدين المحمومة؟ ودوي الرعد الذي يصمّ الآذان؟ والغيث الذي سيكون فيضانا ويغرق المدينة وأهلها الكافرين؟ والسفينة التي يبعثها الله لتنقذه وأصحابه؟ لا، ليسوا بحاجة إلى سفينة. كدية سيدي المخفي مرتفعة وبها رفات ولي صالح ينحدر أصله من العائلة الشريفة، فلا ترقى إليها المياه مهما كثرت وهاجت.

ذهل المهدي للرؤية الخاطفة. كاد يقف صارخا مهللا. ولكنه لم يلاحظ حركة حوله تنذر بثبوت الرؤية، والعيون كلها لاصقة بالسماء. أدار بصره لحظة نحو الأصحاب... إنهم جامدون كالتماثيل التي بلا روح. أعاد بصره نحو السماء. بهِت من اختفاء الغيمة. السماء زرقاء ساطعة، لا غيمة ولا سواد ولا هم يحزنون. الرؤية كانت سرابا، بل وهما من ابتداع الشيطان. وحدها الزرقة اللامعة تسبح ساخرة، باعثة القنوط في النفوس، بل وموحية بأن الله قد تخلى عن عون عباده.

أحس المهدي بضغط قوي يشدّ صدره إلى حدّ الاختناق، استنشق الهواء الساخن بقوة وانتظر بعض الوقت... بدأ مُصلّو آخر الصفوف يغادرون البطحاء منحدرين عبر المسالك الترابية الضيقة. وقف متثاقلا وألقى نظرة آملة نحو السماء... لا شيء يوحي بتغيّر ما. ثمّ مشى مندفعا مسرعا باتجاه المدينة، دون أن ينبس ببنت شفة ولا ألقى نظرة نحو أصحابه الذين اندفعوا متسارعين هم أيضا مقتفين أثره، تاركين الكدية ورفات الولي الصالح تعود إلى سكونها الأبدي.

- 27 -

يقف عبد القادر كرّوش منتظرا وصول تلك التي هيّجت مشاعره وأجّجت شهوته المكبوتة في الأيام الأخيرة وذلك منذ أزيد من ساعة. كان يُسند ظهره إلى جدار متهرئ لزنقة جانبية ضيّقة، مشبكا ذراعيه على صدره، وبصره لاصق في الزاوية اليمنى حيث توقّع ظهورها. وكان بين الفينة والأخرى يتفحص ساعته اليدوية ليقنع نفسه للمرّة العاشرة أنّ وقت الموعد قد فات فعلا ولا أثر لصاحبته. تمدّدت الدقائق، طويلة ثقيلة، ومعها نما الضجر الملفوف بشحنة صاعدة من الغضب بسبب اعتقاده فجأة أنه ضحية وعد كاذب أطعمته به فتاة لعوب وجعلته يخرج في هذا الهجير اللاهب ويتسمّر حارسا لجدار وزقاق ورصيف كالأبله، هو الذي يتصوّر نفسه ذكيا يستحيل الوقوع في مثل هذه الفخاخ النسائية الدنيئة.

« لا، مستحيل ! لا يمكن لليلى أن تعبث بي وتعدني بلقاء ثم تتركني أتقلى تحت الشمس الحارقة ».

كان عبد القادر قد تزيّن وتعطّر كالذاهب إلى عرس : سروال جينز آخر موضة، سترة بمربعات متعددة الألوان، حذاء بِكَعب مرتفع وقميص بِطوْق عريض ركّبه بإحكام فوق طوق السترة، الشعر مدهون بالبريانتين، الوجه حليق بعناية مع شريطين صغيرين من الشعر المنحدر إلى منتصف الخد، وتلك الشلاغم الذكورية الكثة التي زادت من هيبة رجولته.

« أتكون قد استخلفتني بشخص يملك سيارة تحملهما بعيدا عن المدينة ؟ آه لو كنت أملك مركبة ! ولكن لا، لا يمكن لمثل هذا أن يحدث. رأيت عينيها تلمعان غبطة حينما اقترحت عليها فكرة اللقاء... أكيد أنها ستأتي... ».

نظر إلى ساعته يتفحص وضعية الرقاص وهو يجترّ سيناريوهاته الانهزامية، وإذا بليلى تتسمّر أمامه وعلى شفتيها ترفرف ابتسامة وهاجة محت في جزء من ثانية كل توجساته :

– صباح الخير...

ثم بعد صمت لاستعادة تنفسها المتسارع، أضافت:

– أظن أنني لم أتأخّر عليك كثيرا...

– لا، لم تتأخَّري يا شمسي ويا قمري... أنا هنا من أجلك، ومستعد لانتظارك أبد الدهر... المهم أن تفي بوعدك... كيف ألومك وأنت تُقبلين عليّ بهذا الانشراح الذي يملؤني سعادة؟ لا أكاد أصدّق عينيّ بأنني أراك أمامي وجئتِ من أجلي أنا، أنا وحدي.

كان العاشق الولهان قد أعدّ جملا صقل مفرداتها طيلة ليلة البارحة، حيث بقي ساهرا يخطّط تفاصيل هذا اللقاء. ماذا سيقول لها؟ وماذا سيفعلان بوقتهما وسط الأزقة؟ لا مكان خال يؤويهما ويخفيهما عن الأنظار؛ لذلك حينما فاجأته بوقوفها بغتة أمامه، هو الذي ترقّب وصولها من زاوية الزقاق، تبخّرت تلك الكلمات وتشوّشت تلك المخططات ولم يعد قادرا على المبادرة بأيّ كلام ولا فعل، مكتفيا بالردّ على ابتسامتها بابتسامة ملأته حبورا وغبطة.

– هيّا نتمشى قليلا... أم تريدنا أن ننصّب خيمة أمام هذا الجدار؟

ويبدأ سفر العاشقين المبتدئين، يذرعان الرصيف بخطوات وئيدة، جنبا إلى جنب، يتوقفان عند كل منعطف ويحدقان في الزقاق اللاحق، يتبادلان النظرات المبتهجة التي لا تزال ملفوفة بالحياء والتردّد.

كانت الأزقة فارغة في مثل هذا الوقت من النهار ومناسبة للقاءات العاشقين السرية.

بسرعة، استعاد عبد القادر بشاشته ورباطة جأشه، لافظا تلك التوجسات والمخاوف التي أججت ضجره طوال ساعة الانتظار. كان يتبختر بجانب عشيقته، ينفخ صدره في نشوة حوّلته إلى أسعد رجل في المدينة. وكانت ليلى، على غير عادتها، رائقة النفس، مبتهجة، ثرثارة، تنتقل من موضوع إلى آخر، ولا تمنح الفرصة للصمت كي يوسوس لها بأفكار سيّئة؛ فتحدّثت عن ذوقها في اللباس والأكل وعمّا تحب وتمقت، وما تفضله أكثر من غيره، وبالأخص أحلامها الكبيرة بالسفر بعيدا عن هذه المدينة الحاصرة للأنفاس، القاتلة للرغبات، سفر تريده بلا عودة.

تتباطأ الخطوات وتثقل كلما أشرفا على زنقة سبق أن ذرعا رصيفها مرة ومرتين. مرّ بقربهما رجل مسنّ يعتمر شاشية بيضاء ويرتدي جلابية

عريضة، فأبطأ سيره وأطال بصره فيهما كما لو أراد التحقق من هويتهما، قبل أن يبتعد مغمغما ساخطا. لم تكترث ليلى بل قهقهت عاليا مستهترة متحدية. في المقابل، ضاق صدر عبد القادر وكاد يواجه ذلك الشيح وإنْ لم يتفوّه بسخطه علانية. ثمّ التقيا شابا كاد يبتلعهما بنظراته الوقحة. وأدرك عبد القادر أنه كان يحدّق في جسد رفيقته، وبالأخص في تنورتها القصيرة التي تبرز نصف فخذيها عاريَين مكشوفَين ومعرّضين للرؤية المباحة. مرّ الفتى بقربهما دون أن يبعد نظره عنها، وتوقّع عبد القادر بأنه سيتوقف خلفهما ليطيل النظر في مؤخرة الفتاة نصف العارية. كاد عبد القادر يلتفت إلى الوراء وينهر المار الوقح، ولكنه فضّل السلامة والابتعاد بعشيقته إلى مرفإ آمن.

توقف العاشقان تحت سقيفة مظللة، ويكاد الجسدان المحمومان يتلامسان. تجرأ عبد القادر وأخذ يدها بلطف وحذر، وحينما تيقّن بأنها لم تسحبها ولم تُبدِ ممانعة، أمسك بالثانية، وفكّر جديا بجذب جسدها الطافح أنوثة وإلصاقه إلى جسده المتأجّج نشوة، وربّما تقبيلها مثلما يحدث في الأفلام بين البطلين والتي يشاهدها دوما في قاعة سينما المدينة. خفق قلبه وتصاعدت دقاته، وأحسّ بحرارة تتسرّب إلى وجهه... ألقى نظرة مختلسة حوله؛ الزقاق فارغ والفرصة سانحة، قد لا تدوم القبلة إلا لثوانٍ. ماذا سيكون ردّ فعلها؟ هل ستتركه يفعل وتبادله قبلة بقبلة؟ أم أنها ستصدّه وتدفعه وتسرع هاربة؟

فجأة، أرعده صوت غاضب صادر عن قرب كما لو أنه خلفهما مباشرة:

– لعنكم الله أيها الفجرة... ألا تستحون؟ تتلاصقون كالكلاب في وسط الشارع وفي وضح النهار! ابتعدوا من قدّام داري أيها الخنازير!

بادرت ليلى إلى سحب يديها بحركة هلعة. التفت عبد القادر إلى جميع الاتجاهات، ولكنه لم يرَ أحدًا، مع أن الصوت بدا له قريبا جدا. قفز إلى وسط الزقاق مستعدا للدفاع عن النفس، إذ تصوّر أن الشخص المهدِّد قد يتهجّم عليهما. ألقى نظرة خاطفة يمينا وشِمالا؛ الزقاق فارغ ولا أثر لحضور بشري أو حيواني.

– ألا تستحي يا رجل! ألا تعرف بأنّ بداخل هذه الديار عائلات محترمة...

أدرك عبد القادر مصدر الصوت، فرفع رأسه، وإذا برجل في شرفة صغيرة بالطابق الأول، يرتدي جلابية بيضاء، وينظر إليهما بنظرات هلعة شزراء كما لو أنه رأى إبليس مجسما. انفتحت نوافذ وأبواب جانبية. اشرأبت رؤوس رجال ونساء لترى ماذا يحدث في حيّهم الهادئ من فعل مشين حتى يتسبب في تلك الشتائم المحتقرة.

لم يبقَ أمام العاشقين إلا الانسحاب الفوري ومن دون أيّ كلمة. لقد ألّب الرجل سكان الديار المجاورة ضدهما وليس من صالحهما المكوث تحت تلك السقيفة أكثر من دقيقة أخرى. فكما لو أنهما اتفقا مُسبقا، ركضا بتلقائية باتجاه زقاق خلفي للنجاة بجلديهما قبل أن يتعرضا إلى رجم جماعي.

أين سيذهبان الآن ؟ هل سيفترقان ويحدِّدان موعدا لاحقا في مكان آخر ؟ ولكن أين ؟ الأزقة والشوارع ممنوعة على العاشقين، فأين المفر ؟ ذرعا أرصفة أخرى في صمت. انشغل كل واحد بهواجسه يلوكها ويجتهد لخط مسلك لهذا المأزق غير المتوقع. هدأت حرارة الظهيرة وبدأ الناس يخرجون من ديارهم ويملؤون الأزقة والمقاهي.

باتفاق صامت، سلك العاشقان دربا أخرجهما من التجمع السكاني، باتجاه غابة سيدي المخفي. هدأ الضجيج الآتي من المدينة وهما يمشيان وسط أحراش القصب، فاسترجعا مرحهما واستأنفا حديثهما المبتهج... بدأ الدرب يصعد ويتسع باتجاه أكواخ متفرقة وسط تلك الأحراش. مرّت بقربهما مجموعة أطفال عائدين من المدرسة وهم يختلسون النظر إلى الفتاة ويبتسمون بمكر، مدركين أنّ في الأمر سرّا مبيّتا. كان طفل يبدو أكبر من البقية سنا وإدراكا بأسرار عالم الكبار ينظر إليهما بتحدٍّ ساخر... شدّ محفظته بين ذراعيه وركض باتجاه درب فرعي، بطرفه مجموعة من الأكواخ الواطئة، ثم توقف في منتصف الطريق وواجه الزوج الغريب الذي يقتحم ديارهم، في وضعية هروب وصاح بملء فيه :

– قَحْبة... قَحْبة... رايح اينيكها...

وقبل أنْ يبادر عبد القادر إلى اتخاذ أيّ رد فعل، كان الولد الوقح قد اختفى خلف الأحراش، متبوعا بالأطفال الآخرين الذين خافوا من انتقام الرجل، فتزربَعوا بسرعة الصراصير عندما يفاجئهم ضوء في زاوية مظلمة. في ثوانٍ معدودة، أضحى الدرب فارغا كما كان قبل دقائق. غمغم عبد القادر :

– طفل وقح... قلّة تربية...

– إنه طفل... سيكبر ويفهم... قالت ليلى.

في قرارة نفسه، كان غضب عبد القادر مفتعلا. ابتهج بالفكرة التي عبّر عنها الطفل غير البريء. هل حقا سيتمكن من الاستمتاع بهذا الجسد البض الذي أبقاه يقظا وساهرا لليالٍ عدّة؟

انعطف الدرب إلى اليسار واتجه صاعدا نحو غابة الصنوبر. تنفس عبد القادر الصعداء وهو يتقدّم عشيقته بالدخول تحت الأشجار والأوراق التي أخفتهما كلية. وقفت ليلى متردّدة. أدرك عبد القادر مخاوفها، فاقترح عليها الجلوس تحت ظل شجرة قريبة، بحيث يمكنهما رؤية سقوف منازل المدينة القابعة في الأسفل.

اتكأ عبد القادر على جذع صنوبرة ومدّد ساقيه بكامل طولهما، فيما جلست ليلى وجذبت ركبتيها إلى مستوى صدرها وضمتهما بذراعيها. انحصرت التنورة وكشفت عن عري فخذيها المغري. هكذا، وجد عبد القادر نفسه يتلصّص بالنظر إلى البشرة البيضاء الناعمة للفخذين المكتنزين الموقظين للشهوة، ما أربكه في البداية وجعله يتلعثم في كلامه المتقطع، وعاودته رغبة تقبيلها والتساؤلات المرافقة. كان على علم بأنّه أمام نمرة شرسة قد لا تتردّد في إرجاع سعادته المفترضة إلى حضنه الذي يغلي شهوة، بل ربما صفعته.

وكي يمنح لنفسه شجاعة يغالب بها مخاوفه ويطفئ غلمته المتأججة، راح يتكلم بصوت مرتفع عن أحلام أسفاره هو أيضا، ثم عرّج عن ذكريات طفولته. استعاد طاقته على الكلام والحكي، ودلف إلى متاهات طفولته مستحضرا مواقف مزحة وتلهية؛ الشيء الذي خفف من وطأة عزلة المكان والتوجسات المترسبة، وارتخت الخطوط المتشنجة لوجهي العاشقين بعد الذي حدث لهما، كما ساعد على مضي الوقت بسرعة. عبد القادر يحكي وليلى تقهقه بملء شدقيها.

لقد قضى عبد القادر ثلاث سنوات في قسم السَرتفيكا للكبار الذين فاتهم قطار الدراسة عند الاستقلال، وذلك برفقة أطفال مشاكسين، كبار على البقاء في المدرسة، وصغار للالتحاق بعالم الشغل. ولكن المدرسة أبقتهم باسم أخوة ومساواة سنوات الاستقلال الأولى؛ كانوا يجلسون

دوما في المقاعد الخلفية ويطلقون العنان لألعابهم ومزحهم وحماقاتهم. في الفناء، أثناء ساعات الراحة، يتشاجرون باستمرار ويتراكضون، يهدّدون التلاميذ الصغار الوديعين المجتهدين في الدراسة بالاستيلاء على أكلهم وأشيائهم الثمينة، كما يتلذذون بإظهار فحولتهم للبنات القلائل اللائي تجرّأ أولياؤهن على تسجيلهن للدراسة. كما يتمتعون بإثارة غضب المعلمة الفرنسية، المرأة الوحيدة بين المعلمين الرجال، بمواجهة نظرتها اللائمة، رافضين مدّ اليد لتلقي ضربات المسطرة عقوبة لهم على شغبهم.

« سأروي لك حكاية التبان الوردي للمعلمة الفرنسية، مدام جوليات. ذات يوم، كنت أركض خلف فريد، طفل مشاغب من الدرجة الأولى برغم قصر قامته ودمامة وجهه. وعند منعطف، اصطدمت بمدام جوليات التي كانت تمشي الهوينا منتظرة دق جرس استئناف الدراسة، أطلقت صرخة حادة وسقطت أرضا، ومع ذلك لم أتوقف وطاردت اللعين إلى أن أمسكت به وأشبعته ضربا... ولكن زملائي التفوا حول المعلمة التي تمدّدت بكل طولها الفارع وأنوثتها الصارخة على الأرضية الترابية، لتكشف عن ساقَيها وفخذَيها. من حسن حظّي أن لا أحد وشى بي وإلا كنت طُردت من المدرسة يومها. ولكن زملائي الكبار تمكنوا من رؤية تبان مدام جوليات، وكان وردي اللون. في الأيام الموالية، لا حديث بيننا إلا عن التبان الوردي. ولا أعرف كيف تمكّن أحد هؤلاء الذين فاتهم قطار الدراسة من تدبير تبان وردي وإحضاره إلى القسم ووضعه فوق كرسي مدام جوليات، فاستشاطت غضبا وصرخَت فينا ووصفتنا بكل النعوت المشينة، وبعد ذلك خرجَت إلى الرواق ونادت المدير والمراقب العام والحارس، فجاؤوا جميعُهم هلعين، يتوقعون حدوث كارثة عظمى. رأيت المراقب العام يبتسم بمكر حينما شاهد مدام جوليات وهي تُشهر التبان المعلّق في طرف مسطرتها المعدنية، تلك التي أشبعتنا بها ضربا. أما المدير، فقد غضب غضبة أرعدت جميع الأقسام الأخرى، وصرخ فينا أننا حمير وبغال وهدّدنا بالطرد الجماعي إنْ لم نكشف عن هوية الفاعل. التزمنا الصمت، خافضين الرؤوس، ووديعين كالنعاج، فيما كان يزأر ويزمجر ويملأ الأقسام والأروقة ضجيجا. بعد ذلك، أخرجنا جميعا، نحن أصحاب الصفوف الخلفية، وقادنا إلى مكتبه. ولكن لا أحد منا تفوّه بكلمة. إنّ الواشي، أو البياع مثلما كنا نسميه، سينال عقابا شديدا خارج القسم؛ لذلك يمتنع

التلاميذ عن الوشاية ويتحملون أقصى العقوبات في سبيل ذلك. بعد ذلك طردنا من المدرسة وطلب منا إحضار أوليائنا يوم غد. اتّفقنا ألّا نخبر أحدا من عائلاتنا وأن نأتي نهار الغد ونلتحق بالقسم كأنّ شيئا لم يكن. وفعلا، جئنا في الصباح الموالي، والتحقنا بالقسم ولم يسأل عنا المدير، ولا مدام جوليات. ولكن في نهاية السنة الدراسية طردونا جميعا. حسنا فعلوا. لم نكن نصلح للدراسة. دخلنا متأخرين، كبار السن، ورؤوسنا منشغلة بأشياء أخرى غير حشوها بما يوجد في الكتب ».

وخلال كل الدقائق التي كان فيها عبد القادر يروي حكايات ذكرياته المدرسية، وإن كانت قليلة، لم يتمكن من تطهير ذهنه من اللحظة اللاحقة، لحظة ينتهي فيها من الحكي، خاصة وأنه كان يرى الشمس وهي تغادر شيئا فشيئا أشجار الغابة. ثمّ، وبعد صمت قصير، أضاءت لُقيَة عينيه الداهيتين. ودون أن يطلب رأي رفيقته التي لم تتخلّص بعد من أثر الضحك، وقف بخفة، أمسك معصمها ليوقفها هي أيضا وجرّها خلفه. لم تجد ما ترد به من قول أو فعل من قوة المباغتة، فتركته يقودها إلى حيث قرّر وأراد. بعد دقائق، كاد التعب ينال منها، خرج الاثنان من تحت أشجار الصنوبر إلى البطحاء التي تحوي كوخ الولي الصالح سيدي المخفي. اتّجه عبد القادر مباشرة إلى داخل الضريح، دفع الباب ودخل؛ أدركت ليلى متأخرة نية عاشقها، فقاومت دون رغبة حقيقية في الامتناع.

هيّا، ادخلي، لا تخافي. إنّه ضريح فارغ. سيدي المخفي لم يوجد أبدا، حكاية وجوده خرافة عجائز. ادخلي... هنا، بالداخل أنا متأكّد أن لا أحد يرانا...

ولم يحسّ العاشقان بحضور طفل كبير، نحيل وشديد السمرة، رأسه حليق إلى حد الصلع، يترقبهما منذ فترة، يرتدي تريكو صوفيًّا أسود، تنسّلت خيوطه من المرفقين وطرفي الكُمَّين، وفي القدمين ينتعل حذاءً مطاطيا ثقيلا بنيّ اللون. كانت عيناه تتلألآن يقظة وذكاء وتمسحان المكان بثقة واطمئنان. إنها غابته، قمته، والكوخ مأواه شبه الدائم.

في داخل المزار، تدبّر المغامران أمكنة للجلوس المريح برغم ضيق المكان. كانت ليلي لا تزال متوجِّسة من عواقب هذه المغامرة، أمّا عبد القادر فقد شلّت نشوة الانتصار ومتعة الشهوة المترقبة كل تفكير

لديه. حينما رأى ليلاه تبتسم وتنزع حذاءها بحجة ألم في القدمين، فكر بمكر أن وقت قطاف الثمرة قد حان. في ظلمة المحراب، أهداها ابتسامة كاسر على وشك الانقضاض على ضحيته. لم تكن ليلى طفلة بريئة؛ كانت تعرف ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة، فانتظرت بتؤدة، خافضة العينين، وأصابعها منشغلة بمداعبة عقب قدمها الأيسر الذي أوجعها فعلا. بهدوء، اقترب منها العاشق الولهان وأحاطها بذراعيه وأطبق قبلة رعناء على شفتيها... وفي تسرّعه، فقد توازنه وجرّها معه ليجد جسده ملتصقا بجسدها وهما ممددان على حصير عند أسفل الضريح المغطى بأقمشة متنوعة الألوان، المتدلية إلى حد لمس الأرضية الترابية.

لم يفقد الطفل حركة واحدة من مشهد ممارسة الحب الذي يراه لأوّل مرة في حياته وهو يتشبّث بالكوّة الصغيرة على جانب الكوخ. ولكن لم يرَ في تلك الظلمة سوى شبحين يتلاحمان في اندفاع محموم، وفي المقابل، لم يضيّع شيئا من الوشوشات والهمسات ولهاث الرجل المسموع وصيحة المرأة كأنّها تلقّت لسعة حنش.

ولساعات طويلة بعد مغادرة العاشقين الكوخ، وحتى بعد غروب الشمس، بقي الفتى مختفيا داخل الغابة، وقد أربكه المشهد الغريب الذي حدث أمام بصره.

في الأيام الموالية، كان دوما يترقب عودة العاشقَين إلى المزار، ولكن لم يظهر لهما أثر. كم مرّة، وهو يحضر فورة النقاشات الدائرة قرب باب البقال، كان المهدي وهو ينظر إلى عبد القادر كرّوش، وهو يملأ الساحة صخبا ومرحا بحكاياته المثيرة، يستحضر صورة تلك الفتاة التي رافقته في نهاية تلك الظهيرة، ويتساءل عن مصيرها.

- 28 -

روى عبد القادر كرّوش ما حدث له في ذلك الغسق المزلزل. ضحكوا على ذقنه، قهقهوا ساخرين. اتهمه رشيد حلموش بأنه سكر إلى حدّ الثمالة، بل ودخّن سيجارة من الحشيش المعطر. ولكن من يصدّق حكاية عبد القادر؟ استمعوا إلى التفاصيل، ثمّ لكم الحرية أن تصدّقوا أو تكذّبوا.

– في ذلك اليوم، قصدت المخمرة منتشيا وفخورا بثروتي. أسابيع وأنا ألاحق رئيس العمال كي يمنح لي ما تأخّر من أجرتي وأقسمت أن أسكر حتى أرى الديك حمارا وأؤذن معه لصلاة الفجر في منتصف الليل. كنت مكتئبا، خائر النفس ونزلت الدراهم عليّ كنزول الغيث على أرض جدباء. ارتديت بذلتي الأنيقة الزرقاء... تعرفونها، تلك التي اشتريتها من مرسيليا. وبمجرد أن عتّبت الباب، طلبت صندوقا كاملا من البيرة، أريدها مُعرّقة، مُصطفة ومتراصفة مثل مربع الاستعراض العسكري. نزلت الجرعات الأولى في حلقي كالعسل الصافي غير المغشوش. في لحظة ما، شعرت بحرارة منعشة، مسكّنة، تتسلّق رويدا رويدا بداخل جسدي المنهوك. ألقيت نظرة ذابلة على الطاولات المجاورة، باحثا عن نديم من معارفي أدعوه يقاسمني جلستي. تشابهت عليّ الوجوه. عدت إلى زجاجاتي المتراصفة أمامي، تنتظر من يفرغها. فجأة، اهتزت الطاولات، لم أكترث، ظننت الأمر متعلقا بي، سقطت الزجاجات والكؤوس على الأرض، سمعت دويا قويا وطفق التراب يسقط على رأسي. وقف الناس في فوضى عارمة وركضوا صائحين نحو الخارج. مكثت مبهوتا لا أعي بالتدقيق ما يحدث. أظنني وقفت مع الواقفين وركضت مع الراكضين. من تلك اللحظة، لا أتذكّر ما حدث تدقيقا. جريت في الشارع وسط الصراخ والاهتزازات. سقطت مرارا ثمّ وقفت وواصلت السير وسط الحشد. سقطت مرّة أخرى ولا أتذكّر أنني وقفت ثانية. حينما عدت إلى رشدي أو قل حينما طارت السكرة وجدت نفسي جالسا على زربية، مسندا ظهري إلى عمود. لا تتصوّرون أبدا أين كنت! أنا نفسي لم أصدق عيني، ظننت نفسي في حلم وسأفيق من نومي بعد قليل. كنت بداخل مسجد. تقهقهون، أليس كذلك؟ من حقكم أن تسخروا مما أقول. أقسم برأس أمّي العزيزة أن ما أرويه لكم هو عين الحق. نظرت حولي وإذا الرعب قد مسخ وجوه الناس وعلى المنبر المهدي يهذي صائحا ويصرخ... الله أعلم كان يتحدث عن القيامة، عن الملكوت الأسمى، عن عزرائيل وهراوته المسننة يأمر بها الموتى ليقوموا من المقابر ويتّجهوا نحو جسر الحساب، تجري من تحته وديان النار المؤدية إلى جهنم. بدا لي أنه كان يبكي. ارتعدت أوصالي. لأوّل

مرّة في حياتي شعرت بخوف شلّ جسدي وضبّب تفكيري. دعكت عينيّ، تمنيت من صميم قلبي أن أكون لا أزال تحت تأثير السكر وأنني أتخبط في كابوس مزعج، وأنني سأستيقظ بعد فترة وجيزة لأجد نفسي ممدّدا في مكان ما، وسط أحراش القصب والتوت البري المحاذي لمنزلنا؛ فتلك هي عادتي كلّما سكرت. ولكن في ذلك اليوم، وجدت نفسي حقا بداخل مسجد سيدي عبد الرحمن.

ردّ رشيد وعلامة الاستهزاء بادية في نبرة صوته:

– أنت في المسجد؟ أقسم أنّك لا تعرف حتى كيفية الوضوء. اعترف أنك خفت من الموت وأنت سكران، فركضت إلى المسجد، متصوّرا بأنك توهم الله بتوبتك. تمكرون والله أمكر الماكرين. في ساعات الراحة، تتشدّقون بالكفر والزندقة، وعند الشدّة تتسارعون للعودة إلى الله. لا تتذكرونه إلا عندما يهزّكم الموت هزّا، ويرجفكم رجفا، حينذاك يصبح طريق المسجد معلوما، وتلاوة القرآن لذيذة. تمكرون والله خير الماكرين... يحسن التمييز بين الأتقياء والمنافقين.

ومنذ ذلك اليوم، لازم عبد القادر كرّوش المسجد وداوم على أداء الصلاة، وزادت صلته بالمهدي، واقتفى هو الآخر موضة اللباس الإسلامي فوضع جانبا سراويل الجينز وأصبح لا يُرى غالبا إلا بالقميص وشاشية بيضاء على رأسه، وفي لمح البصر أصبح عضوا بارزا في « جماعة الإخوان ».

ولكنه احتفظ بداخله بحنين جذّاب إلى جوّ المخمرة المرح. وكي يضع حدّا لذلك الحنين الجارف، قرّر في صبيحة قائظة أن يمنح لنفسه سكرة الوداع؛ انتظر حلول الظلام، وارتدى سروال جينز حائل لونه و تريكو لاكوست أزرق، ثمّ تسلل نحو حانته المفضلة الواقعة في الحي الصناعي وسط مرائب وورشات ومحلات للبيع بالجملة. دخل في نصف سرّيّة وبحث لنفسه عن طاولة في زاوية مظلمة، تعبق بروائح القلي والبول. طلب صندوقا من البيرة ووضع ورقة نقدية في يد النادل قائلا بابتسامة تواطؤ: « إذا بحث عني أحد، لست موجودا هنا ». أظهر النادل موافقته بإيماءة رأس خفيفة ترافقها ابتسامة ماكرة. وهل في مقدور الأسرار أن تختفي طويلا في عين الكَرْمة دون أن تذاع كإذاعة

خبر صعود « هامستغونغ » إلى القمر ؟ عبد القادر المسكين، في ابتهاج حريري يحلّق طليقا على شفتيه المنشرحتين وعينيه المتلألئتين، فرحا بالاحتفال باللقاء الموعود، يتلذّذ بإفراغ القارورة الخامسة، حين باغته أصحابه الإخوان : رشيد وسليمان وصاحب الحاجبين المشعّرَين، يتبعهم رجلان غليظان تأكل اللحية الكثة وجهيهما. دلفت الجماعة القاعة الكبرى المضبّبة بدخان السجائر واتجهت صوبا نحو الزاوية المظلمة، فيما بقي المهدي جامدا على العتبة، راميا نظرات الازدراء والحقد على ندماء إبليس الغارقين في مناقشات هامسة تارة وصاخبة تارة أخرى. تقدّم أصحاب الجلابيب العائمة بين الطاولات واكتشفوا المذنب، منتشيا، يراوح في أفكار بخارية. وجد عبد القادر صعوبة في التعرف على الرهط الذي تحلّق حول طاولته... وبتثاقل، رفع أهدابه وهزّ رأسه. هل ما يراه كابوس أم حقيقة ؟ ربّما فعلت البيرة فعلتها وبدأت تلعب بصفاء ذهنه... ولكن جماعة الإخوان واقفة بصمود، ومصمّمة على فعل عظيم. قال عبد القادر :

– أهلا بأصحاب الكهف والرقيم ! تفضلوا... الصندوق لا يزال مملوءًا. متّعوا أنفسكم، فيها منافع جمّة... خذوا نصيبكم من ملذات الدنيا، إنها زائلة... اليوم خمر وغدا أمر... اليوم، أنا قارون، لي مال كثير... السكرة من عندي...

قال رشيد غاضبا :

– كف عن الثرثرة والهذيان واتبعنا أيها الزنديق...

قال سليمان :

– ماذا تفعل في هذا الوِجار القذر ؟ ألا تخجل من نفسك ومن دينك ؟ قم وامشِ معنا، سنريك كيف نعاقب المرتدّين أمثالك...

احمرّ وجه عبد القادر من الخجل والغيظ... من قام بوشايته ؟ لم يُسرّ لأحد بنيّته في المجيء إلى المخمرة. تذكّر بأنه أجرى دردشة مع بائع السجائر حينما اشترى علبة « مالبورو » معلنا بزهر بأن اليوم عيد وعليه أن يدخّن أغلى وأمتع السجائر... هل يكون قد خان نفسه

بكلمات أو تلميحات أفشت بسرّه الدفين؟ الأمر ممكن! أو ربّما كان تحت الاختبار وأقاموا حوله حراسة مشدّدة؟ مدّ رشيد يده وأمسكه من ذراعه، ورمقه عبد القادر بنظرة تهديد صارمة، فتراجعت اليد متردّدة. بعد ذلك، قام مترنحا قليلا، أزاح الكرسي في صرير مزعج، كاد يسقط، اتكأ على حافة الطاولة ثمّ تقدّم الرهط نحو الخارج، مجترا تمتمات غيظ. توقف قرب النادل وقال:

– سأعود بعد قليل، احتفظ لي بما تبقى.

ولكن عبد القادر كان أبعد من أن يتصوّر نوعية العقاب الذي حضّره له أصحابه الملتحون، عقاب أخال له أنه اندثر مع الزمن، زمن الطفولة في جبال الونشريس البعيدة، حينما كان يحفظ القرآن في زاوية سيدي باذي، مع حشد من أقرانه. في تلك الأيام الخوالي، كان يتردّد كل صباح على الجامع، يتأبّط اللوحة الخشبية ويحمل القلم والدواة والصنصال و « الكاسْكروت » (كسْرة شعير وبيض مغلي) في كيس، ويلتحق بالقْربي الخاص بتحفيظ القرآن حيث ينتظرهم الطالب المعمّم وبيده « مِشْحاط » الزيتون أو الرمان، يهدّد به المشوّشين وأصحاب الرؤوس الخشنة التي لا تنفتح للحفظ.

قادوه عنوَة إلى « حوش » قديم مهمل، يقع في الطرف الغربي للمدينة، يحوي سردابا استعمله المعمرون لتخزين زجاجات وبراميل الخمر. أنزلوه عبر سلّم محفورة أدراجه... المكان مظلم ومغبّر، وسقفه الداخلي مغطى بنسيج العناكب. إنه لا يزال تحت تأثير الخمر، لذلك انصاع لأوامر الجماعة دون مقاومة جدية، رغم التذمر الخافت الذي كان يبديه من حين لآخر. حينما وقف على أرضية السرداب، أجّج الفضول يقظته وتساءل عمّا يريده منه أصحابه. هل يريدون سجنه هنا لبعض الوقت؟ وقبل أن يعثر على جواب، طلب منه سليمان أن يجلس إزاء الجدار. ارتسمت ابتسامة قلق على شفتيه، ولكنه نفّذ الأمر وجلس مادا رجليه وسط الخراب المتناثر. مباشرة، انحنى رشيد وشدّ رجليه برِشاء أخرجه خلسة من جيبه؛ لحظتها، أدرك عبد القادر نوعية العقاب الذي خصّوه له... لا يخيفه الضرب مهما كان مبرحا، فقد عوّده أبوه منذ نعومة أظافره على الصفع والركل و « الزهط »، يوميا ولأتفه الأسباب، ولكن

عبد القادر كان ولدا مشاكسا، غير قابل للتأديب. بمجرّد انتهاء الضرب يمسح دموعه ويعود إلى ارتكاب الحماقات والاحتيالات، سواء مع إخوته أو أبناء الجيران.

بعد ذلك أمسكه الرجلان الشديدان من الذراعين، فيما جلس رشيد على رجليه، ماسكا إياهما من العرقوبين، ثمّ تقدّم المهدي بحزم وبيده اليمنى « زَرْجونة » كروم جافة ومعقودة وبدأ الفَلَقة، تماما مثلما كان يحدث في المدرسة القرآنية. ولكن في تلك الأيام، أيام الطفولة البريئة، اللامبالية، كانت الفلقة أقرب إلى اللعب منها إلى التعذيب؛ ضربات قليلة وخفيفة الوقع ويعود الجميع إلى اللوحة والتلاوة، تحت الحراسة المشدّدة لـ « مِشحاط » الشيخ المعمّم.

في البداية، اعتبر عبد القادر كرّوش الفلقة كمزحة قارصة، وأنها تكتسي طابعا رمزيا. بعد صبر وأناة، تلقى خلالهما وقع « المِشحاط » بصمت، متوقعا أن يتوقف المهدي بعد هنيهة فقط، ولكن الضربات تواصلت بحماس وبجدية لا مثيل لهما، فتحوّلت إلى عذاب لا يُطاق. حينذاك، توسّل الجلّادَ أن يكف عن السوط... اعترف بذنبه... أقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يضع رجليه ثانية بداخل مخمرة، وألّا يذوق لسانه من ذلك السائل المحرم أبدا. ولكن توسلاته بقيت بلا صدى. واصل المهدي الجَلد، مضاعفا قوته رويدا رويدا، منشغلا بعدّ الضربات، متصنِّعا هيئة وقار لا تقهر... عندئذ حرّك عبد القادر جسمه بعنف في محاولة منه للتخلص من القيد، كما تلفظ بتهديدات انتقام قاسية، ثمّ رافقها بشتائم بذيئة وحده يحسن صياغتها في نوبات الغضب. الجواب الوحيد الذي تلقاه تمثّل في هجوم شرس على جسمه، لشدّ ذراعيه وساقيه إلى أن شلت حركاته نهائيا. وبرغم اهتزازات الديك المذبوح، لا شيء تمكن من توقيف الجَلد. تلقّى العقاب الشرعي حسب قانون الإخوان الجديد: ثمانون جلدة بالتمام والكمال، تلقّى الضربات الأخيرة وهو ممدّد على ظهره، يشدّ أسنانه تجنبا للصراخ، يجتر تفاصيل انتقام عظيم. ثمّ ربطوا معصميه بحبل وغادروا السرداب، تاركين إياه ممدّدا في وضعية مؤلمة، تمنعه حتى من النوم. تحرّك بصعوبة لوقت طويل إلى أن وجد وضعية مريحة نوعا ما... أغمض عينيه يستمع إلى وخزات الألم، إلى أن

غرق في النوم. أيقظه أصحابه في فجر يوم الغد عند دخولهم السرداب في ضوضاء صاخبة، أوقفوه عنوة، ومشى على رؤوس الأصابع، ثم أجبروه على القيء كي يفرغ ما تبقى من الخمر، ثم أحضروا دلو ماء وأمروه بالغسل كي يتطهّر. بعد ذلك، قادوه إلى المسجد وأجلسوه وسط حلقة وأسمعه المهدي كل أدبيات العلماء في منع الخمر ومصير المرتدين. حينما وصلت إلى مسامع عبد القادر كلمة « مرتد »، احتج بشدّة:

– من قال لكم بأنني مرتد ؟! صحيح أنني شربت الخمر ولكن حسب علمي لا توجد عقوبة لشاربي الخمر. الجَلد مخصّص للزاني والزانية فقط، وما أكثرهم وسط المسلمين. العرب من أكبر شرِّيبي الخمر، والخمر لم ينقطع يوما في بلاد المسلمين.

أوقفه المهدي قائلا:

– لسنا بحاجة إلى أمثالك لنتعلّم حقيقة ديننا. إننا جلدناك لأنك مرتد. اعتنقت الإسلام مدّة من الزمن ثم تخليت عنه.

– أنا لست مرتدا ولم أعتنق الإسلام لأنني مسلم. أنطق بالشهادتين وأصوم رمضان. أنا لست مسيحيا أو مشركا كي أسلم. اعتبرتموني مرتدا لأنني شربت قليلا من البيرة! ما رأيكم لو قلت لكم بأنني أعمل بالآية التي تقول: « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » حتى تعلموا ما تقولوا. ثم ما قيمة التوبة والغفران إن لم يرتكب الإنسان المعاصي؟ لو أراد الله ألّا يعصيه بنو البشر كان عليه أن يعاقب إبليس في بداية أيام الخلق، أمّا وقد تركه حرّا طليقا بل أعطى له قدرة تضليل العباد وتحويلهم عن الطريق المستقيم، فليتحمّل جزءا من المسؤولية معنا.

– اسكت يا زنديق وإلا قطعنا رأسك هنا وحينا.

– سجّل في مخّك العفن أن هذه المرّة قد عفونا عنك. في المرّة القادمة سنجلدك إلى حدّ الموت.

وقف عبد القادر غاضبا وقال:

– في المرّة القادمة، قصّوه لي وكلوه... هذه المرّة، تمكنتم مني بالحيلة. كنت ساذجا، اعتبرتكم أصدقاء ثقات وتبعتكم كالكلب الذليل. من الآن

فصاعدا، سأكون يقظا. ومن ولدته أمّه واقفا، فليتجرأ ويقترب مني... سترون ما باستطاعة الكرّوش أن يفعل...

تخطى الجالسين وغادر المسجد نهائيا. لا أحد منهم حاول معاودة الكرّة معه. وحده رشيد، يذكّره من حين لآخر بأن تارك الصلاة مآله جهنم يخلد فيها. وفي كل مرّة، يردّ عبد القادر واثقا:

– قريبا ستأتي الباخرة وأهجر هذا القفار القاحل. أترككم، أنتم، مدينتكم، دينكم، جفافكم... تآكلوا، تخاصموا، تذابحوا، تناكحوا وتكاثروا لمزيد من البؤس والتناحر... لم يعد يهمني ما يحدث هنا وما سيحدث مستقبلا... في رأسي، لست حاضرا معكم، إنني قد هجرت هذا الخلاء منذ أمد بعيد...

- 29 -

كانت فتيحة، أخت سليمان الوسطى، متكئة على أريكة، تتابع الوقائع الميلودرامية لمسلسل مصري، حينما دفع هذا الأخير باب الصالون بعنف غير معهود... كان جهاز التلفاز الملوّن موضوعا وسط خزانة عريضة، رفوفها مكشوفة أو بها أبواب زجاجية، مكدّسة بالأواني المنزلية. ودون أن ينطق ببنت شفة، ضغط على زر التشغيل واختفت الصورة. استَوْت الأخت في جلستها وقالت بلهجة احتجاج:

– ماذا تفعل؟ لماذا أطفأته؟

– انهضي من هنا واذهبي إلى المطبخ لإعانة أمّك، عوض تضييع وقتك في مشاهدة الترّهات.

– منذ الصباح وأنا بالمطبخ. أنهينا الشغل كلّه. ألا يحق لي أن أستريح قليلا؟

وقفت فتيحة تتابع حركات أخيها وهو ينزع فيشة الكهرباء ثمّ فيشة الهوائي، وبذراعيه رفع الجهاز وحطّه على الزربية.

– هيّا يا حْمارَة، اخرجي من هنا... اِذهبي إلى غرفتك...

تصامّت الفتاة، فاتحة عينيها، مستفسرة عمّا يريد أن يفعله أخوها بالجهاز حينما رفعه ثانية.

– أين ستأخذه؟ إنه غير معطّل...

رمقها بازدراء وتهديد وقال بافتخار:

– سأخلّص البيت من رجس الشيطان...

– ماذا؟ هل ستبيعه؟

– سأحرقه، هو والعود اللعين...

ذهلت الفتاة من التصريح الغريب. خرجت راكضة منادية أمّها بصوت مفزوع. خرج سليمان وراءها والتلفاز بين ذراعيه، اتجه صوب الباب الخارجي حيث كان المهدي ورشيد ينتظرانه قرب العتبة. ظهرت الأمّ بعمق البهو، تجفف يديها بمنديل:

– سليمان! ردّ التلفاز إلى مكانه... أبوك لن يقبل مثل هذا الجنون.

ردّ الابن دون أن يتوقف أو يلقي نظرة إلى أمّه:

– قفي مكانك أيتها العجوز ولا تتدخلي فيما لا يعنيك...

– قلت لك حطّ هذا التلفاز...

في الحديقة، تسلّم الصديقان الأمانة وابتعدا. عاد الابن الضال إلى البيت، اختفى قليلا وخرج حاملا بيده عودا. وقفت الأمّ وسط البهو لتمنعه من الخروج:

– أنت هبَلْت... هل سكنك عفريت؟ هذا العود إرث جدّك رحمه الله، وعزيز عند أبيك... إنه ثمين، يساوي الملايين... ردّ العود إلى مكانه يا مجنون...

– ابتعدي عن طريقي، إنها أمور تتجاوزك. أنتنّ النساء، ناقصات عقل ودين، ولا تفقهن شيئا في مثل هذه المسائل. أنتن أتباع إبليس، وكل مصائب المجتمع آت منكنّ...

– الآن أصبحت لا أفهم شيئا! نبتت القرون في رأسك المعوج. بعد أن ولدتك وربيتك إلى أن أصبحت رجلا بالشّلاغِم، تهينني بالكلام الجارح، أنا أمّك... ألا تعرف الحديث القائل بأن الجنّة تحت أقدام الأمهات؟ أنا أصلّي منذ السابعة من عمري، وأصوم رمضان إيمانا واحتسابا، وتأتي

أنت اليوم، ولم تبدأ صلاتك إلا منذ شهور، تقارنني بإبليس لعنه الله إلى يوم الدين. إنني أخاف عليك يا ولدي من نوائب الدهر... الله يهديك ويبعدك عن الضلال...

غمغم سليمان عبارات مبهمة بين شفتيه، دفع أمه جانبا والتحق بصاحبيه في الشارع.

لم تعد الأم تتعرّف على ابنها. لقد تغيّر جذريا. ابتعد عنهم، ولم يعد يخاطبهم إلا عند الضرورة. إن الابتسامة التي كانت ترفرف على شفتيه سابقا تحوّلت إلى تكشيرة كلبيات. إزاء أخواته، لا يحسن إلا الصراخ، آمرا إياهن كتصرّف السيّد المتجبّر تجاه عبيده. منعهن من الخروج دون ارتداء الحجاب. وحدها حورية، الطالبة في الصيدلية، لا تزال ترفض الانصياع لأوامره بل تقف له الند للندّ، تناقشه وتقارعه الحجة بالحجة. في جلسة احتدم فيها النقاش معها، أقسم بالخالق الجبار أن يشوِّه لها وجهها بالحامض إن تمادت في تمرّدها. « هكذا تكونين مجبرة على ارتداء النقاب لتغطي تشوّهك، أو تقبعين بالبيت مكرهة » قال ساخرا قبل أن يصفق الباب ويخرج. لولا تدخل الأب لحماية ابنته، ربّما لكان سليمان قد نفّذ وعيده. الأمّ أيضا تجرّعت ملعقة من طغيانه المتهوّر، ولكنها وقفت له بالمرصاد وردّت الصاع صاعين؛ في ظهيرة، كانت واقفة في البهو، تسوي حايكها الأبيض الناصع، تعدّ نفسها للخروج، حينما دخل سليمان وألقى عليها نظرة ازدراء وصرخ في وجهها:

– كيف تخرجين بلا حجاب؟

– وهذا الحايك، أليس حجابا؟

– لا، هذا ليس حجابا. حايك أبيض شفاف يتنافى وتعاليم الشريعة...

نظرت إليه باستغراب وخطت خطوات نحو الباب، فاعترض طريقها قائلا:

– ممنوع الخروج بلا حجاب...

حينذاك، واجهته الوالدة الحضرية بكلام لم تتلفظ به في حياتها، فأسمعته حقائق حول نفسه صعق لها؛ وتوارى خلسة قبل أن تنهيَ كلامها. ومن تلك الحادثة، أضحى يتحاشى لقاءها، ويحاول إرضاءها بشتى السبل. من حسن حظ الأخوات أنه غائب باستمرار، وإلا لكانت حياتهن تحوّلت إلى جحيم.

لقد حافظ مرواني عبد الله على ذلك العود بغيرة عاشق. استخدمه في شبابه حينما كان عضوا في فرقة موسيقية لمدّة سنوات، تفانى فيها لإدخال الفرحة على قلوب أصدقائه. إن الجدّ عبد الحميد مرواني كان موسيقيا بارعا، أشرف على جوقة أندلسية شارك بها في حفلات عديدة عبر المدن المغاربية : البليدة، تلمسان، قسنطينة، شرشال، نَدْرومة، مستَغانم، فاس، مكناس، ووصل إلى غاية مراكش، حيث استدعاه السلطان للمشاركة في احتفالات زواج ابنته ؛ شهدت المدينة أسبوعا بأكمله من سهرات تبارى فيها الفنانون والشعراء، منادين بحياة السلطان ودوام عرشه. أقيمت ولائم للفقراء والمساكين وموائد للأعيان وكبار القوم، وطاف موكب الزفاف يتقدّمهم السلطان على حصانه المشهود بمساجد وزوايا المدينة، طلبا للبركة والولاء. وهناك، في زقاق شبه مظلم، داخل ورشة حرفي مختص في صناعة الآلات الموسيقية، اشترى عبد الحميد مرواني ذلك العود هدية لابنه عبد الله صاحب العشر سنوات. وكان يفتخر بنسبه الأندلسي، حيث يروي أن عائلته هجرت جنّة الأندلس الضائعة بعد سقوط غرناطة. وكان أهل عين الكَرْمَة آنذاك على دراية بمأساة عرب الأندلس، لذلك أحسنوا استقبالهم ووفّروا لهم سبل الاستثمار. ألَمْ يكونوا إخوة في الدين، ويلهَجون بلسان عربي مبين ؟ كان الناجون من محاكم التفتيش في أغلبهم تجارا وحرفيين، لذلك لم يجدوا صعوبة كبيرة في التأقلم مع حياة المدينة، فاستثمروا معارفهم في البناء والطبخ والحرف اليدوية المربحة. كما أنهم أدخلوا التقاليد الموسيقية بتعليم أبنائهم وبناتهم العزف على الآلات وإجادة الغناء، دون أن ينسوا بناء الحمّامات المطهرة.

في الأيام الخوالي، كانت ليالي موسم الصيف في عين الكرمة تتزيّن بالأعراس والسهرات الموسيقية التي يلتف حولها الناس إلى غاية تباشير الفجر، مع مجموعة أصدقاء، عشاق الفن الأندلسي مثله، قارع الدَرْبوكة وعازف الكمان، كان عبد الله يحتضن العود الذي اشتراه له أبوه من مراكش بلطف وحذر، يتقوّس عليه كي يسهل له الضرب على الخيوط ؛ وأهلا وسهلا بالابتهاج، بالتحليق الساحر، بالنشوة المخدّرة ! وإلى أن تتبخّر الأحلام تحت حرارة الشمس الساطعة. إن الأصوات الحلوة والإيقاعات الراقصة التي تتموّج بلطف بين أجساد الحاضرين الخاملة، المستسلمة

للنشوة الآتية، تعيد الاعتصام بالحياة وملذاتها. يصول المغني ويجول في القصائد الطوال التي تتفنن في وصف الحب المستحيل وجمال العاشقة المستعصية التي لا يقطف العاشق من ثمارها إلا بعد عذاب ليالٍ آرقات، وعند الختام يخرج المدائح الدينية الممجِّدة للخالق وقدراته اللامتناهية ومدح الرسول محمّد وخصاله العالية. يهزّ أهل الحضر رؤوسهم المُطَرْبَشَة، علامة الانغماس الكلي في الأجواء الساحرة، ومن حين لآخر تتناول أيديهم قطع الحلويات المُعسَّلة (قلب اللوز، بقْلاوَة، المقْروط، التشَّراك...) المعروضة في صواني نحاسية معطرة بالياسمين والنعناع والحَبَق. أين ذاك الزمن؟ هل حقا اختفى إلى الأبد أم أنه سيعود يوما؟

لقد تغيّرت الذهنيات، لفظ الناس الحياة جانبا لأنها امتنعت عن إرواء عطشهم، زهدوا في ملذاتها الغائبة، طامعين نيل ضِعف ما فقدوا في مكان ووقت لاحقين، إن عاجلا أو آجلا. سرب من طير الحمام في الأفق وإن كان بعيد المنال أفضل من ديك هزيل لا يُغْني ولا يسمن من جوع. إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفَه الألذ طويلا. ما عليكم إلا السماح لأنفسكم بالموت.

وبما أن الزهد قد مسّ عقول الناس مثل وباء جارف، فما على عبد الله مرواني إلا الدخول في الصف وطأطأة الرأس والسير كالأعمى وسط القطيع. لا أحد يقاوم إغراءات الجنّة حينما يوهمه الدراويش بأنها خلف الستار. سرت في الناس حركة عبادة مثلما تسري النار في الهشيم. غاصت المساجد بالمصلين، وفي كل الأوقات. ولا تخرج الأحاديث عن الموت وما يأتي بعده، وبالأخص تلك الحدائق الفواحة التي تغص بالخيرات ولا شيء يُمنَع فيها... حور العين الجميلات، الكواعب، الأبكار، مستلقيات في ثنايا الحدائق العجيبة، في متناول الجميع، دون قيود ولا شروط. هاك يا مسكين، خذ ثأرك من حياة الدنيا اللعينة التي حرمتك من كل شيء، البيضاء قبل السمراء، تكون مهفهفة غير مفاضة، جيدها كجيد الريم، الرافلة في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورة في الثوب الشفاف، يزيد الغلمة شهوة... لا تعب ولا عمل... أو بالأحرى تصبح مهنة الرجال هناك فضّ الأبكار. طوبى لكم أيها الفائزون! وما مهنة الفائزات؟ إن أجرهن على الله.

والسكرة بالويدان... عُمْ يا عطشان... أنهار متدفقة من الخمر والعرق والبيرة والوسكي. وأمام هذه الموائد الفاخرة، المزينة بالمنّ والسلوى، كيف لا تزهد في الخبز والبصل والبلوط؟ بل ستزهد حتى في التفاح والموز! ولمزيد من الضمانات، أضحى الناس يرافقون الموتى إلى المقابر بالحشود المكدّسة، في مواكب رهيبة، مهللين، طالبين ربّ السموات والأرض أن يعجل بقيام الساعة، أن يكثر من الزلازل والفيضانات والأوبئة كي يلتحق أكبر عدد ممكن منهم بتلك الجنّة الموعودة؛ نفد الصبر، يريدونها في صباح الغد، وعند الفجر مباشرة. مصدر عليم ومن الثقات أشاع خبرا مفاده أن كل رحلة راجلة إلى المقبرة تساوي حور عين فاتنة. طوبى لكم أيها الرجال! تنافسوا، دخِّروا، سجلوا العدد بالتدقيق. من زرع التوابيت حصد الكواعب! الله لا يحب المتكاسلين المهملين. المشي أضعف الإيمان والجري على من استطاع. لا يكلّف الله النفوس إلا وسعها. الخوف كل الخوف أن يكون عددهن محدودا، ولا يحصد المتأخرون إلا الريح. لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إن الملائكة المحاسبات ساهرات على توزيع الأرباح بالقسط المطلوب. الكل يأخذ حسابه وبالدينار المثقوب حتى وإن امتلأت الأكياس وفاضت. القسط يا جماعة المؤمنين، القسط! إياكم والتفريط في القسط! الويل لكم إن لم تفعلوا.

وأمام هذا الزحف الحاشد نحو المقابر، اتخذ مرواني مربّعا حسب مقامه بداخل النسيج الملتوي للمواكب الجنائزية، علما بأنه يمقتها. في أغلب الأحيان، لا يعرف المتوفى لا بالاسم ولا بالوجه، وليست له معه صلة قرابة لا من عليّ ولا من عائشة. يتذكر المرّة الأولى التي حضر فيها جنازة، كانت بمناسبة وفاة جدّه، وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة ولم يكن متزوجا بعد. في ذلك اليوم، وبعد عودته من المقبرة، أصيب بحصر أفقده الشهية والنوم لمدّة شهور. لحسن حظه أن العود كان رفيقا حميما، فأنطق الأوتار بنوبات أندلسية مكّنته من طرد وساوس الموت التي تشبّثت بتلابيب إحساسه الرهيف.

حاول عبد الله مرواني أن يلقّن ابنه سليمان الضرب على العود، ولكن الدروس الأولى بيّنت بما لا يرقى إليه الشك أن ولي عهده بعيد عن الفن بعد البخيل عن العطاء. هكذا بقي العود في زاوية، مهملا، مشتاقا

إلى من يرعِش أوتاره ويخرج منها أسرارها، وها قد جاء اليوم المشهود الذي سيحدّد مصير العود بشكل نهائي.

أمام رحبة المسجد، جمع المهدي أصحابه حول كوْم من أجهزة التلفاز والراديو والفيديو وآلات موسيقية، صعد فوق مرتفع وخاطبهم قائلا:

– إن الإمام الفاضل ابن قيّم الجوزية – رحمه الله وأدخله جنة الرضوان – فصل في مسألة سماع الموسيقى بوضوح لا يقبل النقض؛ قال بأن من بين مكائد ودسائس إبليس عدوّ الله الأوّل، والتي يدبّرها من زندقته العمياء، بعمقها العفن، ويوقع بداخل حبائلها القلوب الجاهلة والفظة، توجد الموسيقى بضجيجها المطنطن من صفير وتصفيق، ثمّ يليها الغناء المرافق لصخب الآلات المحرّمة تحريما قاطعا، والذي يوسوس في قلوب المؤمنين ويسدّ عليهم منافذ الوصول إلى كلام الله، كي يحوّلهم إلى أرواح تائهة، لتكون طغمة سائغة في أيدي الانحراف والشهوات والملذات المحرمة. إن الموسيقى يا جماعة المؤمنين هي قرآن الشيطان، ستار دخان يحجب رؤية الحقيقة، هي البساط الحريري والمنحدر الزلج لارتكاب المعاصي مثل اللواط والزنا والسكر، التي من خلال سحرها يستسلم المؤمن لكل الانحرافات، ويبتعد عن طريق الله.

في لمح البصر، احتشد المارة حول الخطيب، يجذبهم الفضول لمعرفة ما سيفعله هؤلاء الملتحون بتلك الأجهزة. تقدّم صاحب الحاجبين المقوّسين من الركام، أمسك بكلتا يديه تلفازا، رفعه إلى مستوى رأسه ثمّ حطّمه على الأرضية الإسمنتية. انفجرت الشاشة الزجاجية إلى قطع متناثرة. تناول رشيد حَلموش جهازا وكسّره بعنف أقوى. بيد واحدة، خطف سليمان العود، وضرب به الرصيف، ثمّ جمع الأشلاء ورماها فوق الهياكل المشققة. بعد ذلك، أخذ قارورة بلاستيكية، نزع السدادة ورش الكوم بسائلها. تقدّم المهدي خطوتين، أشعل عود كبريت ولفظه فوق الأجهزة المكسّرة، فالتهبت النار في لمح البصر، مما اضطر الجميع إلى التراجع نحو الخلف. قال المهدي:

– هذا ما ينبغي أن يفعله كل مسلم حقيقي. إننا أعطينا المثل بهذا الحريق العمومي. اليهود، لعنهم الله، هم الذين صنعوا هذه الآلات خصيصا ليبعدوا المسلمين عن دينهم. إنها أسلحة الكفر والمكر. إن الواجب

الديني يأمرنا بتحطيمها وحرقها. في الأيام المقبلة، سنقوم بتمشيط كل السقوف لندمّر كل الهوائيات الإبليسية، إنها أصوات الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس. لا أحد سيشاهد قناة « بليس »، قناة العري والزنا. أيها المؤمنون، إذا أردتم أن تنالوا الحظوة عند الله يوم القيامة، فما عليكم إلا اقتفاء أثر جماعتنا، جماعة الناجين والمنقذين من الضلال، أن تفعلوا ما نفعل، وإلا ستحترقون في السعير والعياذ بالله.

في استغراب جبان مثير للشفقة، وافق الحاضرون على تهيئة الكفّارة وذبحها لتقدّم قربانا للربّ المتعطش للدماء وتعذيب عباده الطائعين الساجدين. بعد ذلك، تفرّق القوم في صمت خاشع، القلوب ترتجف في توجّس غامض مما تخفيه الأيام القادمة من مفاجآت مفزعة. تساءل الرجال عن مكانة الموسيقى والغناء في الإسلام، هل حقا هي محرّمة تحريما قاطعا مثل ارتكاب الزنا وشرب الخمر وأكل الخنزير ؟ وإذا كانت كذلك، لماذا لم تمنع ؟ لماذا بقي المسلمون يعملون بها ويطورونها خلال كل تلك القرون ؟ أين سيجدون الإجابة المقنعة الصحيحة ؟ تعمّقت هاوية الشك وأربكت العقول.

في المساء، عندما عاد عبد الله مرواني إلى البيت وعلم بما حدث للعود والتلفاز، لم يتفاجأ كثيرا. غامره حنين حزين سدّ شهيته إلى الأكل والكلام معا. إنّ ما حدث خلال الشهور الأخيرة في المدينة، ودون أن تتحرّك غيرة أعيانها وسلطاتها، لهي العلامات الواخزة لذلك الانقلاب العاصف الذي بدأت أولى إنجازاته تصفع الوجوه جهارا نهارا.

بعد تململ يأس، اتخذ مبادرة فتح الموضوع مع سليمان، دون أن يأمل قيد أنملة في التوصل إلى نتيجة ما. أمطره الابن بأقوال متداخلة حول الزلزال الذي كان عقابا لانحراف أهل المدينة عن معالم الطريق، وهو يحكّ شعيرات عثنونه. وتأتي الموسيقى على رأس تلك المحرمات التي غرق في أوحالها الناس، وهي تراتيل إبليس اللعين الذي كان أوّل من غنّى.

بقي عبد الله مرواني حائرا، لا يعرف من أين يمسك خيط دينه. صحيح أنه ليس ضالعا في الفقه ولكن لم يسمع يوما إماما قال بتحريم الموسيقى والغناء، بل كان إمام مسجد سيدي عبد الرحمن يحضر السهرات ويطرب

لشيوخ الغناء الشعبي والأندلسي. من أين جلب ابنه هذه المزاعم؟ تذكّر الإمام المخلوع... يمكن أن ينيره، هو الذي درس في جامع الزيتونة، ولكن هذا الأخير، بعدما طرد من منصبه ولم يسعفه أحد، عاد إلى زاويته القديمة في قمم جبال الوَنْشَريس لينهي حياته بعيدا عن الأدعياء الجدد.

لم يكن عبد الله مرواني قد وصل إلى آخر أحزانه. في ذلك الصيف، في حين اتخذ قرارا بمشاورة زوجته بإقامة عرس ستؤرّخ له المدينة، وقد بدأ الاتصالات الأولى لاستضافة فرقة موسيقية ومغنٍ ذائع صيته، فاجأه سليمان، حين وصله الخبر، بإعلانه عن منع أيّ مظهر من مظاهر الموسيقى. حاول الأب إقناعه:

- لا يتزوّج المرء كل يوم. ماذا بقي من العرس إن حذفنا الغناء ومظاهر الفرح؟

- سنقرأ القرآن في مكان ضجيج الأبالسة.

- لسنا في مأتم كي نقرأ القرآن.

- القرآن كلام الله وينبغي أن يقرأ في كل مناسبة وبلا انقطاع.

اضطر عبد الله مرواني إلى إلغاء مشروع استقدام فرقة موسيقية. في ليلة العرس، أو ليلة الدّخلة مثلما تسميها النساء، وبمجرد سماع سليمان المحاولات الأولى لتسخين « الدرابيك »، وقف عند العتبة آمرا بأعلى صوته:

- أوقفوا الضجيج... ممنوع الغناء، ممنوع الرقص، ممنوع الزغاريد...

ركضت الأم المسكينة وأخرجته برفق:

- اهتم بالرجال واتركنا في حالنا. أخواتك موجودات ويعرفن دورهن جيدا...

أظهرت بعض النساء استياءهن من التدخل الفظ. أعُرْس هذا الذي يحضرنه أم مأتم؟ تعالت احتجاجات غاضبة، ووسط الضجيج، غادر بعضهن « العرس ». لم ينتقلن للجلوس فاغرات الأفواه، يتابعن تحليق الذباب.

في تلك الليلة، كثير من المارين بقرب بيت العريس حينما سمعوا تلاوة القرآن طأطؤوا رؤوسهم خاشعين وتلفظوا بالعبارة المناسبة:

« إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله... رحم الله المتوفى وأدخله فسيح جنانه ».

اكتفى الأب بدعوة أصدقائه إلى العشاء الذي لم يدم أكثر من وقت ابتلاع ملاعق معدودة من الكسكسي ومَضغ قطعة اللحم وتجرع قارورة الليموناد... بعد ذلك، تذرعوا بشغل عاجل وغادروا المكان مسرعين. انزوى العريس مع أصحابه في غرفة ورتلوا القرآن إلى ساعة متأخرة من الليل. وقبل أن تستقر الدجى، وجد نفسه وحيدا، يجلس على كرسي في الحديقة ومظاهر الحسرة بادية على محياه، كأنه فقد شخصا عزيزا. نهض وتمشى في الأزقة المجاورة إلى أن أنهكه التعب. عند عودته، وجد البيت يخيم عليه الصمت كأنه آثار مهجورة. كانت زوجته جالسة بالحديقة، مسندة راحة يديها على خديها، تائهة، غارقة في وساوس مهولة. ألقى عليها نظرة آسفة، أراد مواساتها، ولكنه لم يجد بداخله الكلمات المناسبة، فالتحق بغرفته، متمنيا أن يغلبه النعاس بسرعة كي يستريح مما أصابه من هوس وحيرة وحصر.

- 30 -

إن ما لفت انتباه المهدي عندما شاهد ليلى لأوّل مرّة، تلك الضفيرة على شكل ذيل حصان تتدلى على كتفيها بأبهة جذابة. كان واقفا، مُسندا ظهره إلى جدار في زاوية زنقة المستشفى ينتظر صديقه سليمان الذي تأخّر يوم ذاك أكثر من المعتاد. إنّ التي شوّشت مقاسات سمعه تلك الفرقعات المنتظمة لكعبي حذاء أنثوي يطرقان الرصيف بإيقاع بطيء... ولكنه كان منشغلا بترقب الدورة التي من المفروض أن يظهر منها صديقه، فلم يحرّك بصره قيد أنملة. مرّت ليلى بقربه، في مشية طاووس، تتمايل بشموخ، بداخلها رغبة جامحة في إبراز مفاتن أنوثتها، واعية كل الوعي بأن عشرات العدسات البشرية تلتصق بجسدها أينما حلّت، وتتأخّر عمدا بالوقوف طويلا أمام واجهات المحلات كي تتمكن نظرات الذكور التي يؤججها الكبت من إرواء الظمإ الكامن بأحشائهم. أوّلا، عطّرته برائحة عبقة لم يتبيّن المهدي منها إلا بقايا الياسمين، ثمّ، غطّت

له زاوية النظر. حرّك رأسه نحو اليمين، متصوّرا أنه قد لمح شبح سليمان. في تسرّعه، لم يكد يحط بصره على جسد الفتاة، المنتصب أمامه بكبرياء، وبعد مرورها لاحظ بعصبية أن الشبح الذي تراءى له وسط حشد من الأجساد ليس شبح ذلك الذي ينتظره منذ أزيد من ساعة. الرصيف الذي يقف به كان شبه فارغ، وحدها الفتاة الفاتنة تبتعد رويدا رويدا تحت ظل شرفة مقوّسة طويلة. وبما أنه لم يجد شيئا يسلي به نظره، تركه ينساق خلف ظهر الفتاة. هنا، في تلك اللحظات، جذبت الظفيرة، التي على شكل ذيل مُهر مندفع، جذبت انتباهه وهي تسوط الرقبة والكتفين في تمايل ظاهر. تبعها بنظرة أيقظها الفضول، مفصلا ملامح جسدها، وملابسها. وكان سيُبقي بصره لاصقا بها إلى غاية اختفائها في زاوية زنقة لولا صوت سليمان الذي نزعه منها:

– إنها قنبلة، أليس كذلك؟ أتعرفها؟

– لا.

– اسمها ليلى.

– ليلى؟ ولقبها؟

– ولا فكرة. يبدو أنها تعيش وحيدة مع أمها.

– وأين تسكن؟

– لماذا هذه الأسئلة البوليسية؟ هل وقعت في حبائلها؟

هزّ المهدي رأسه غير مبالٍ. أضاف سليمان:

– لا تهتم... إنها بنت الشارع.

ثمّ بعد صمت:

– ولكن إن أردت، سأقودك بنفسي إلى باب الدار.

– لا... سألت هكذا... دون قصد.

بعد ذلك، كأنه استيقظ لتوه من سبات مخدّر، واجه المهدي صديقه بتوبيخ صارخ:

– قل لي يا سليمان... أين كنت؟ تركتني مسمرا أكثر من ساعة. ليس هكذا اتفقنا.

– سامحني يا المهدي. الذنب ليس ذنبي. أرادت أمي أن تذهب إلى الحمّام، فطلبت مني أن أحمل معها حقيبة الملابس. وتعرف كيف هنّ النساء... يردن أخذ كل شيء معهن. حاجة تنقص من هنا وأخرى تنقص من هناك، والوقت يمرّ. لم تخرج من البيت إلا بعد أن هدّدتها بعدم مرافقتها إن تمادت أكثر في التأخير. رميت الحقيبة عند باب الحمّام وجئت راكضا بقدر ما أستطيع. اختصرت الطريق، قطعت فناء المدرسة، الحارس قريب من عائلتنا، وإلا ما وصلت إليك بهذه السرعة.

مطّ المهدي شفتيه عابسا ولكنه ما نبس ببنت شفة. لا يزال ذهنه يشوّشه جسد تلك الفتاة الساحر. قال سليمان وبصره يطارد شبح ليلى الذي ابتعد واختلط بالحشد:

– أتعرف يا المهدي بأن هذه الغزالة طالما أبقتني ساهرا لليالٍ كاملة. إنها جميلة وأنوثتها توقظ الأموات من قبورهم. سمعت مرارا عمّي أحمد القهواجي يقول، عند مرورها بقربه، بأن الله يكون قد خصّها وقتا أطول ليصقل جسدها بذلك القد الرشيق وتلك القامة الممدودة، قبل أن يندب حظه ليضيف بأن زوجته أقبح من قرد، ويكون الله يوم خلقها قد يئس من الكون ولم يعد راغبا لا في الحياة ولا في الجمال.

واسترسل سليمان في تفاصيل ولعه بها منذ شهور دون أن يحظى منها ولو بابتسامة.

تكرّرت « لقاءات » المهدي بليلى، تقريبا في نفس الساعة وفي المكان نفسه، كأنهما عقدا اتفاقا سريا بأن يتواجد كل منهما في لحظة محددّة سلفا في تلك الزنقة. ولكن في كل مرّة، يهبط عليه سليمان بغتة ليفسد عليه عرسه ويمنعه من إمتاع بصره ونحت صورة تلك المراهقة المثيرة للشبق التي تضرب أرض الرصيف بكعبين مسننين، في حركات مضبوطة الحساب، جارة ظفيرتها الشبيهة بذيل مهر جامح، بصرها سائح في الفضاء، غير مبالية بما يحدث حولها، أو هكذا يبدو للمهدي... ولكن الطريقة التي تدير بها وجهها من حين لآخر، رافعة جبينها عاليا، وملقية نظرات يقظة حولها، وملوية عنقها الممتد، تكشف، عبر هذه الحركات المتعجرفة، عن انشغالها المبطّن باهتمام الذكور بمرورها، وعن رغبتها بأن تراهم يسبّحون بجمالها، يلفظون كل ما بأيديهم وأذهانهم ليحوّلوا

أبصارهم وبصائرهم نحوها، نحو ذاك الجسد الذي يزيد جمالا وأنوثة وإغراء شهرا بعد شهر، وهذا إلى غاية الاختفاء في الدرب الموصل إلى بيتها. وهذا ما يفعله المهدي كلما أحسّ بظلها يبرز في الأفق. يتجمّد، فاتحا فاه، ويمكث على تلك الصورة يتابع حركات ساقيها وتمايل جسدها. وترن فرقعات الكعبين في أذنيه وتضبط الإيقاع. وينتظر، شارد الذهن. مع كرّ الأيام واللقاءات، بدا له بأنها تحسّ بحضوره، وأنها ترمي النظرات الخاطفة في اتجاه زاويته الثابتة، دون أن يرى أو يتأكد من شيء، ولكنه يعرف ويصرّ على تكراره لسليمان؛ كان متأكدا من أنها تراه، حتى وإن كانت دائما تمرّ بقربه وبصرها ثابت أمام قدميها ولم تلتفت ولو مرّة باتجاهه. من حين لآخر، يقف بالرصيف المقابل، مختفيا خلف طاولة بائع سجائر وكاوكاو، وحينما تبتعد، يقتفي أثرها عن بعد، خلسة، مراقبا إياها بعناية، على وشك التوقف أو التظاهر بالنظر إلى جهة مغايرة إن أدارت وجهها نحو الخلف، أو توقفت أمام واجهة محل ما. ولكنها لم تفعل ولا حتى مرة واحدة. كانت تمشي مستقيمة القدّ، دون تغيير إيقاع المشي. وحينما تقترب من زاوية شارع، على بعد أمتار فقط، يتمهّل مفكرا بأن هذه المرة ستكون الحاسمة، ستدور، أكيد أنها ستفعل، على الأقل مرة... ولكنها لم تفعل، ولا مرة واحدة. وحينما تجتاز الدورة لتختفي في الزنقة الموالية، يسرع الخطى كي يراها قبل أن تختفي نهائيا. هنا أيضا، يتمنى محموما لو أنها تتوقف لحظة قبل أن تدخل الدرب الذي يوصل إلى بيتها. يفكّر بأنه سيكون أسعد خلق الله إن تكرّمت وأهدته ابتسامة، نظرة. مرّة واحدة، واحدة لا غير. كانت عيناه ترسلان وابلا من الأشعة الحادة، كأنه يستطيع بقوة نظرته، وعن بعد، أن يدير لها رأسها كالمغناطيس مع قطعة حديد ويخطف منها نظرة. في تلك اللحظات الحرجة، يباغته سليمان بضربة خفيفة على الكتف:

– لا تكسّر رأسك يا المهدي... تضيّع وقتك مثلما ضيعته أنا. تتصوّر نفسها بلقيس، ملكة سبأ، تلك التي ألهبت جوارح سليمان، وما أدراك ما سليمان. جرّبتُ قبلك. حاولتُ الحديث معها مرارا. أنا لست مثلك، أعشق بالعينين فقط. أنا مشيت بجانبها وكلّمتها، مرة، مرتين، ثلاثة... والو... كأن قلبها قُدّ من حجر. كأنك تخاطب صنما. بعد محاولات

عديدة، بدأت أنفر منها، أشعر بنفسي ذبابة أمامها، قرادة تلتصق بظهر بعير دون أن يشعر حتى بوجودها. ولكن لا، أقل من ذلك... أنا متأكّد أن ذبابة لو حامت حولها مثلما فعلت تكون قد أزعجتها وحركت مشاعرها، وتكون قد ردّت بحركة يد، بكلمة أو بشتيمة ما. ولكن معي، لا شيء... لا حركة، لا كلمة... بالنسبة إليها أنا غير موجود إطلاقا. أنصحك بأن تطردها من ذهنك، بألّا تفكر في ربّها ابتداء من هذه اللحظة. أنت تركض خلف السراب...

– أنا أعرف بأنها تنظر إليّ تحت العين، (قال المهدي دون أن ينزع بصره من الشبح المبتعد) إنها أنثى وهكذا هنّ الإناث، ينبغي على الذكور أن يطاردوهن، رأيت ذلك عند الحيوانات. سترى يا سليمان، سيأتي اليوم الذي تراها راكعة أمامي، تأتمر بأمري، بل وتنظر ببصري.

- 31 -

منذ أيام، استحوذت على قدّور بن موسى فكرة ثابتة، أغرقته في أرق وخَلْفة وجعلته يهيم على وجهه في الطرقات دون تمييز بين الليل والنهار. يراه سكان القرية شاقا طريقه دون أن يلوي على أحد، أو ينتبه إلى تلك النظرات الرحيمة المصوّبة نحوه أينما اتجه. أحيانا يسمره وهن عصبي في مكان ما لساعات طويلة. مفارقة عجيبة تحدث له منذ فترة؛ فبعد المكوث الطويل جالسا أو واقفا، ينشط جسمه فجأة، كأن سربا من الزنابير وخز ردفيه النحيلين، فيقفز كقط اشتم رائحة السردين، مادا ساقيه، في خطوات كبيرة، ليبدأ سباقا ماراطونيا لا يعرف أحد نهايته... ولا يتوقف إلا خائر القوة، لاهثا، يتصبّب عرقا.

في تلك الظهيرة المشؤومة، صادفه اعْمر حلموش في طريق عودته من هضبة سيدي المخفي. في صباح الغد، عندما وصله الخبر المفجع، تنهّد، بسْمَل وحَوْقل وقال: « بالأمس فقط رأيته يصعد الدرب بخطو السلحفاة، يجرّ قدميه وسط الغبار. يبدو أن إرهاقا حادا قد تمكّن من كل جسمه الضامر. أبطأت السير قليلا، ألقيت عليه التحية فلم يرد ولم يلتفت إليّ. كان يحرك رأسه في كل الاتجاهات ويغمغم كلاما غير مفهوم.

أيقنت أن العفاريت قد لعبت بعقله. أكيد أن جنا أحمر سكنه، فأضحى يملي عليه أوامره. تارة كان ينظر عبر الدرب الضيق أمامه وتارة أخرى كان يرفع رأسه نحو السماء، يطيل النظر، ثمّ يمدّ قبضة يده اليمنى، بغضب شديد، كمن يستعد لخوض قتال شرس، وهو لم يتوقف من الغمغمة ولوك كلام، وصلتني منه بعض الألفاظ أرعدت أوصالي، يرفض لساني تكرارها. الطف به يا رب، الجن الذي سكنه هو الذي كان ينطق على لسانه، ويحرك يده. ابتعد عني، فتبعته ببصري ورأيته يحك شعيرات لحيته الشعثاء قبل أن يسرع في المشي ليصل إلى البطحاء. لا أخفي عليكم بأن قلبي قد تمزّق وجعا رغم أنكم تعرفون بأن الحياة لم تكن رؤوفة بي أبدا وأنني عشت ورأيت ما هو أقسى وأمَرّ. عند المغرب، أثناء الصلاة، دعوت له كثيرا... إلهي الطف بعبادك الضعفاء، أنت الغفور الرحيم ».

خلافا للمألوف، كانت البطحاء شبه فارغة. وحدها حفنة من المراهقين تسدّ مدخل الحانوت. عندما انتهى من صعود الدرب، توقف بغتة :

« لماذا أصبحت أخاف من الناس ؟ أخاف من نظراتهم الساخرة، من تعليقاتهم التي تجمع بين الشفقة والتشفي، بين الحزن المتصنع والسعادة الصادقة. ها قد أصابني ما أصاب الفيلسوف جان جاك روسو : رُهاب الخَلاء. إن من يعيش اضطهادا وتهميشا كاللذَين أعيشهما، أكيد أنه يصاب بإحباط لا دواء له، بخيبة أمل لا حلّ لها إلا بالهجرة أو بالانتحار... والاثنان سيان عندي ؛ في الحالتين، عليّ بالابتعاد النهائي عن أنظار حراس القبيلة. ما على الفرد في هذه البقاع اللعينة إلا الانقياد طائعا ذليلا وسط القطيع. يندس الجميع خائفين، خانعين، يوافقون على نواميسه زورا ونفاقا، اتّقاءً للتشهير والرجم. الاندماج الآمن يشترط الخضوع والولاء الأعمى، أما إذا تطاول أحدنا فتمرّد على القبيلة أو على قيمها، فالويل ثمّ الويل له. يُرجَم، يُنفَى، أو يُرغم على الموت البطيء. وهذا ما سأفعله، آجلا أو عاجلا ».

مكث جامدا لثوانٍ عديدة، مترددا، مرتبكا.

مشى إلى غاية سياج تين الصبار، متردّدا في العودة إلى البيت العائلي، لا يعرف كيف يواجه زوجة أبيه الجافية الغضوبة التي تقضي جل أوقاتها

في ندب حظها التعيس، متذمرة، ساخطة على الذرية، الكثيرة العدد، الشاكية الباكية دوما، المتشبّثة بتلابيبها.

تقدّم بضع خطوات، ثمّ ترك جسده الواهن ينهار على التراب، على بعد متر من جدار الحانوت. طوال كل تلك المدة، كان رشيد يتابع حركاته وهو واقف عند الباب مشبّكا ذراعيه على صدره، يرتدي جلابيته المألوفة الرمادية المزركشة بخطوط بيضاء، وبزهو ظاهر، يداعب بأصابعه لحيته الشَعثاء التي تكاد تخفي وجهه ولا تظهر منه إلا العينان اللامعتان بكثرة الكحل على الأجفان، ويلقي حوله تلك النظرات الاستعلائية الساخرة. صوّب بصره نحو القادم، هزّ كتفيه وقال:

– مسكين قدّور... شاهدوا بأعينكم مصير من لا يسمع النصائح... كم مرة قلت له ابتعد عن تلك الأفكار الشيطانية، ولكنه عنيد، لا يسمع.

ثمّ رفع صوته:

– اسمع أيها الضال، تعال التحق بجماعتنا، سنزيل عنك تلك الهموم القاتلة... أكيد أن شياطين ماردة سكنتك، وبالرقية سنخرجها إن شاء الله. أصبح إمامنا المهدي محترفا في الرقية الشرعية، دقائق قليلة وتصبح معافى بإذن الله تعالى.

انتفض قدّور في مكانه، فوقف بحركة فظّة مستعينا بيديه. تجمّد بطوله الفارع لثوانٍ طويلة، ينظر إلى رشيد نظرة ثاقبة، حاقدة. ثم صرخ قائلا:

– اذهب أنت وجماعتك إلى الجحيم. الشياطين أرحم منكم. اتركوني في حالي... ما طلبت منكم ماءً ولا ملحا. هذه حياتي وأنا صاحبها، أفعل بها ما شئت.

ارتسمت على شفتي رشيد ابتسامة انتصار وقال:

– أنت مخطئ وضال. حياتك ليست ملك لك بل ملك لمن خلقها. نحن له وإليه. ومن أراد الفوز بالدارين، فعليه باتِّباع التعاليم القرآنية، ومن ابتعد عنها فمصيره جهنم خالدا فيها.

كان قدّور يغلي بداخله كبركان على وشك الانفجار، تتدفق الكلمات على لسانه مثل شلال عاصف، ولكنه سكت فجأة وغادر البطحاء مسرعا، لاعنا شاتما...

« إلهي لماذا ولدت في هذه البلاد الجرباء ؟ أبٌ على شفى حفرة من الخبل، يرضى بوضعيته البائسة ولا يتوقف عن الحمد والشكر، ينتظر أن تمطره السماء وابلا من الخيرات... ألا يدري المعتوه بأن السماء قد جفت ولم تعد تمطر لا قمحا ولا شعيرا ؟ إن الله قد رفع يديه وتنصل من قوم الكسالى والأيدي المكسورة... ومع كل هذا البؤس، لا يتردد من تَحبيل زوجته سنويا ؛ كل مولود جديد إلا ورزقه معه. أيّ رزق هذا الذي ليس فيه إلا الشقاء والحرمان ؟ نقتات من الفتات مثل كلاب تائهة، ورغم ذلك فنحن صابرون صبر أيوب وشاكرون شكر الأنبياء. في بلاد السويد، يعيش الناس حياة النعيم بالتمام والكمال، ورغم ذلك، يجدون أسبابا للانتحار. ونحن نتشبث مثل العفاريت بحياة جرذان المزاريب...

وهذا الأب اللعين لا يتوقف عن ترديد وعيده : « سأطردك يوما... عليك بالعمل واجبك أن تساعدني على إعالة إخوتك وأخواتك. وأنا خافض بصري... » معك الحق أيها الجرذ الهرم سأغادر البيت يوما ولن ترى وجهي ثانية. وهو يخطف الأكل من يدي يرميها للدجاج في ساحة البيت... يصفع زوجته تلك الخادمة الوديعة أمام غطرسته قائلا لها : « إن سقيتِه كأس ماء، إن أعطيتِه قطعة خبز يابس سأطلقك بالثلاث، أنت وأشقياؤك » شاتما مهددا مزبدا، مضيفا لطبعه الممقوت سلوكا هائجا عدوانيا. لو لم يكن أبي لقتلته. في الحقيقة، امتنعت عن قتله ليس لأنه أبي، إنما لأنني أعرف أن بعد ذلك سأضطر إلى إعالة ذريته وأمّهم الشمطاء... لو كان وحده لَــــ...

اتبع قدّور دربا موازيا للوادي، ووصل إلى مستوى معبر مشكل من أغصان مكسّرة وأحجار، فوقف هنيهة مترددا، ثمّ قفز يريد العبور في خطوة واحدة ؛ انزلقت قدمه اليسرى قليلا واندسّت بداخل بركة ماء ملوّث، يعج بالحشرات المائية واليساريع العائمة على السطح. كاد يفقد توازنه، ولكنه تمكن من الالتحاق بالضفة الأخرى دون ضرر. توقف يضرب قدمه المبلّلة على الأرض، غمغم كلمات ساخطة، ثم استأنف سيره. دقائق معدودة ووجد نفسه أمام سياج من القصب. دفع بابا مصنوعا من الزنك الصدئ واختفى خلفه. خرج بعد لحظات قصيرة، يتأبط كيسا. أحاط بالكوخ وصعد باتجاه الغابة، كأنه تجرع دواء منشطا

أعاد له حيويته. بدت حركاته أسرع من ذي قبل، وفي عينيه بريق انتصار لامع. فشق طريقه صاعدا لا يلوي على الحواجز الماثلة أمامه. أضحت خطواته سريعة حازمة، وبعد أمتار واجهه مرتفع أردوازي فكّر في تسلقه ولكنه فضل إحاطته من الجهة اليمنى. صعد المنحدر الحاد، الظهر منحنٍ والرأس مائل نحو الأمام، متشبثا بيديه من حين لآخر إلى جنيبات بريةٍ من الخزامي والمصطكا والسرخسيات. كان المنحدر حادا في أماكن متعددة، مجبرا إياه على اتّباع دروب فرعية، أطالت المسافة بينه وبين الهدف المنشود.

وعند حافة الغابة الصنوبرية، صعد آخر مرتفع ودلف تحت ظلال الأغصان. مشى وسط الجذوع، رافعا رأسه، باحثا عن غصن نجاته. لقد زار المكان منذ ثلاثة أيام وانتقى صنوبريته المفضلة، تلك المناسبة لتنفيذ مأربه، ذلك الغصن الذي لا يخونه في اللحظة الحاسمة. من بعيد، بدت الشمس تقترب من مضجعها فاسحة المجال لزحف الدجى. أخيرا، توقف عند جذع خشن، فتح كيسه وانشغل لدقائق طويلة بفك عقد حبل بالٍ ومتسخ، يكون قد استُعمل لربط معزاة أو حمار أو كلب. تأمّل الحبل ببصر نافذ إلى حدّ شعر كأن ملزمة حديدية تضغط على رقبته. وضع يده بعفوية على رقبته وتلمّسها بعصبية. ارتسمت على شفتيه الباهتتين برطيمة ازدراء.

« قرّرت وانتهى. لا وقت للتخاذل. قرّرت... ولن أتراجع. مثل الرصاصة المارقة، لمح البصر ثمّ لا شيء. وداعا لغطرسة حراس القبيلة، وداعا لشكاوي تلك الشمطاء وصراخ أفراخها وتهديدات وبذاءات ديكها. كان يريدني أن أذهب... ها أنا أنفذ رغبته. وتبّا له. ماذا سيقول غدا صباحا حينما يأتيه رَسيل يقول له ابنك قدور شنق نفسه على قمة شجرة ؟ ليشنق نفسه ألف مرّة، ليرمِ بنفسه في نار جهنم، إنه لا يصلح لشيء. أدخلته إلى المدرسة كي يتعلمَ ويشتغل ويساعدنا على مجابهة هموم الدنيا. لا شيء، أصبح لا شيء. حماري أنفع منه. أتأسف فقط على الدراهم التي منحتها له لشراء الكراريس والكتب التي لم تنفعه... سأذهب حالا لأحرق كل ما تبقى منها... هي سبب البلاء ؛ لو لم تلوّث عقله لاشتغل مثله مثل أقرانه. والآخرون ؟ أكيد أنهم سيغلفون وجوههم

بحزن مصطنع ليوم أو يومين. هو الذي بحث عن الموت، مشى إليه برجليه، فلمَ الحزن إذن ؟ وسيستمرون في ثرثراتهم المملة حول هرطقات لا نهائية، كي يقتلوا الوقت، يعصرونه ويفرغونه من لبّه. أرى هؤلاء المنافقين، يحضرون جنازتي، ويسهرون عند والدي، متحاشرين في ساحة الدار، ينتظرون الشربة والكسكسي، ليهجموا على الصحون مثل الجراد المراد. أراهم يتزاحمون لحمل نعشي، متصنّعين الحزن والخشوع. آه... ما الداعي إلى استحضار مثل هذه الأفكار الآن ؟ لا ينبغي للضعف أن يتسلل إلى نفسي. عليّ بالمرور إلى الفعل. إن هذا الغصن ليس مرتفعا بالقدر الكافي، ولا أظنه صلبا، سيتكسّر عند أول ثقل. ها هو غصن آخر أعلى، أكبر علوّ ممكن ؛ هكذا، في صباح الغد، عند أول ضياء، سيندهش سكان الحي وهم يشاهدون جثتي معلقة إلى أعلى شجرة. قدّور ؟ غير ممكن، مستحيل. المسكين ! نهاية متوقعة... اتركوه معلقا في مكانه، الجبان، المتخاذل، الملعون. إلى غاية التعفن الكلي. إن المنتحر لا ينتمي إلى المسلمين، هكذا ستقول الجماعة المستبدة بالمدينة، لا يجوز إقامة صلاة الجنازة على روحه، إن مصيره جهنم خالدا فيها، ولا ينفع الدعاء وطلب الرحمة. ينبغي أن يدفن مثلما تُدفَن الدواب. اذهبوا وخرافاتكم إلى العدم. لا شيء بعد الموت. الجنة، النار، حكايات خلقها الأذكياء ليستبدوا بالبلداء. وحياتي أنا لا تساوي بعر نعجة. فلأتخلص منها فورا...

الآن، خيّم الدجى على الغابة الصنوبرية. في السهل المنحدر، بدأت تظهر أضواء هنا وهناك... نباح مُتفرق يكسر صمت الليل الصاعد.

تسلّق إلى أعلى، توقف قرب غصن صلب مورق، مشى بطيئا على الغصن السفلي متشبثا بيديه إلى الغصن العلوي، تأكّد من متانته بهزّه، ثمّ صنع مشنقة، بعناية متأنية، دون أدنى ارتعاش لأصابعه. بعد ذلك، ربط طرف الحبل إلى الغصن المستقيم المتين، معتنيا بعقد الحبل جيدا، وحينما تأكد من صلابته ومن جودة المشنقة، ألقى نظرة أخيرة نحو أضواء المدينة. هزّته رجفة راعشة وأحس ببرد يسري في جسده. كاد يفقد توازنه ويسقط في الفراغ. انتابه خوف مباغت. لأوّل مرّة منذ اتخذ قرار الانتحار، يعي جيدا حجم وجوده المأساوي. أدار بصره، أغمض عينيه، وضع المشنقة على رأسه ومرّرها بعصبية إلى غاية الرقبة،

شدّها حول العنق إلى حد الاختناق، استنشق هبة هواء، جمع كل قواه ورمى بجسمه في الفراغ. في حركة لا إرادية، ارتمت اليدان إلى الرقبة في محاولة يائسة لمنع الحبل من الضغط. ولكن الحبل كان أسرع، بحيث لم تجد الأصابع أيّ شيء تتشبث به. ارتج الجسد المعلق بين الأغصان لثوانٍ، قبل أن تضعف الحركة ويهمد. أحدث ارتماء المنتحر من فوق الشجرة صوتا حادا وحفيف أوراق أزعج بعض الطيور التي حركت أجنحتها مستعدة للفرار، ولكن سرعان ما خيّم الصمت من جديد فعاد الهدوء وعادت الطيور والحشرات إلى أوكارها مطمئنة من ابتعاد الخطر. وحدها جثة قدّور المعلقة تتحدى الظلام والمدينة الغارقة في لامبالاة أبدية.

- 32 -

« اسمَعوا يا ناس عين الكرمة... سي اعمر حلموش، المجاهد، رحمه الله، توفي هذه الليلة. سيكون الدفن بعد صلاة الظهر مباشرة. صلاة الجنازة ستقام بالمقبرة، والدار بحَي سيدي المخفي. إن إكرام الميت دفنه، فلا تتأخروا. والله يجزي المحسنين... اسمَعوا يا ناس عين الكرمة... »

تتدحرج سيارة البيجو 404، السوداء اللون، وسط شارع الثورة الغاص بالمتسوِّقين في هذه الصبيحة القائظة، تجوب طرقات المدينة، زنقة وراء زنقة، تتوقّف عند كل تجمع أو مفترق طرق أو مقهى، وبداخلها البرّاح الجالس بجوار السائق، وكان سيواصل جولته الإخبارية إلى غاية الأحياء الشعبية البعيدة لولا الوضعية السيِّئة للطرقات المليئة بالحفر والأحجار المسننة. كان صوت البرّاح الجهوري، الذي ضخّمته ذبذبات مكبِّر الصوت المحمول، اللاصق على سقف السيارة، ينزل على رؤوس المارة مثل شؤم؛ ذلك أنه لا يحمل تقريبا إلا أخبار الموت، وكلما سمعه الناس توقفوا في أماكنهم صامتين يترقبون اقتراب السيارة واتضاح نبرات الصوت لمعرفة هوية المتوفى الجديد، متمتمين بعبارات الاستسلام للغيب والقدر، يظنون أنها ستنجيهم من مصير مماثل، أو على الأقل ستبعده إلى أجل غير مسمى. لم يكن البرّاح دوما نذير شؤم، وإنما اشتغل طويلا مدّاحا

في الأسواق الشعبية، وبرّاحا في أعراس الريميتي أيام كانت هذه الأعراس رائجة ويأتيها الناس من أقاصي الجبال والسهول ليمتّعوا أنفسهم بالأغاني الساحرة والموسيقى الصاخبة، وأجساد الراقصات شبه العارية، الفاتنة، والتي ستزور أحلامهم في أيامهم الحالكة. ولكن تقدم العمر، زيادة إلى أن المهنة التي مارسها لوقت يصعب عليه تحديد مدّته بالتدقيق، ولكنها قد جاوزت دون شك ربع القرن، قد اندثرت بفعل جُراف التحريم الزاحف، أوحى له بإدخال تغيير طفيف عليها. فبعدما استثمر صوته طويلا في مدح الحياة الدنيا وإعلاء شأن ممثليها من مغنيين ومغنيات، وموسيقيين وراقصات، انتقل إلى الحديث عن الموت والأموات، لعلّه يظفر بتوبة نصوحة. على كل حال، هكذا يفسّر موقفه للمقربين والأصدقاء القدامى.

خرج المهدي أمام المسجد محاطا ببعض المريدين، وعند ابتعاد البرّاح قال:

– إنا لله وإنا إليه راجعون. رحم الله سي اعمر برحمته الواسعة، غفر له ذنوبه وأدخله جنة الخلد بقرب الرسل والأنبياء والصالحين.

تمتم آيات قرآنية، رفع يديه إلى السماء وغرق في أدعية طويلة، متبوعة بـ « آمين »، همس بها المحيطون به. على يمينه، كان سليمان مرواني واقفا، يداعب لحيته الكثة، ويجول بنظراته الفضولية عبر الشارع... لا يظهر أن خبر موت المجاهد قد أدخل شيئا من الحزن إلى نفسه. صحيح أنه والد صديقه رشيد، ولكنه لا يعرفه تقريبا. حدث أن رآه مرّة أو مرّتين في الدكان، عند مرافقته للمهدي إلى حي سيدي المخفي. فكّر فقط بأن جنازته مناسبة ليضيف إلى رصيده عددا من الحسنات. استثمار بفوائد مضمونة. فمنذ بضعة أشهر، انتشرت فتوى أن مرافقة الميت إلى مثواه الأخير يعد عبادة من أفضل العبادات، ويجزى عليها فاعلها؛ لذلك أصبح، برفقة جميع أفراد الجماعة، يشارك في جنازة كل الموتى، سواء يعرفهم شخصيا أم لا... فتولّدت لديه عادة انتظار مرور سيارة البرّاح في كل صباح، يخرج إلى عتبة المسجد، ويتكئ على حافة سور منخفض، ويسترق السمع إلى خشخشات مكبر الصوت، المعلنة عن اقتراب البرّاح ليأتي بخبر وفاة جديدة. وعندما ينتصف النهار ولا تظهر

السيارة، ينتابه شعور بالحزن ويغمره حصر مختنق. ضاع اليوم وضاعت معه الحسنات.

منذ أن استقر المهدي بوسط المدينة، لم تطأ قدماه المنزل العائلي بقرب وادي الناموس. لذلك، عندما أشرف على الوصول إلى حي سيدي المخفي، مرفقا بسليمان الذي يلازمه كملازمة الظل لصاحبه، هزته ذكريات مغلفة بذلك الحنين القادر على حجب الحاضر عن كل رؤية، ومحوِّلا الذكريات إلى سراب جذاب، عَصيّ المقاومة.

البطحاء غاصة بالمشيِّعين. أغلبية الرجال واقفون، والقليل منهم جالسون كيف ما اتفق، على التراب أو على الأحجار، أو مقرفصون، يحدقون في الأفق الشفاف أو في الرقعة الترابية أمامهم، في خمول ناعس. يتبادل بعض الشبان الأحاديث، متبوعة بحركات يدوية فظة. الدكان مقفل، ورشيد واقف بقرب الجدار الخلفي، يتلقى التعازي. صعد المهدي دربا شديد الانحدار ببطء لاهث، حينذاك تذكر أنه كان، أيام الطفولة، يقطع هذه الدروب الوعرة الصاعدة النازلة جريا، ولا يكلّ أبدا، كما تذكّر أن المطر كان وافرا مدرارا، والشتاء قارسا عاصفا. وكان أبوه، قبل أن يغادر البيت صباحا، يوصيه بجلب الحطب من الوادي القريب. لا يمكن قضاء الليل بدون إشعال النار. وأثناء بحثه عن الأغصان اليابسة على حافتي الوادي ووهاده وشعابه، كان دائما يستغل الفرصة ويجمع الحلازن التي تكثر عند سقوط المطر، وكان يقوم بوضعها في قدر بنفسه، ينتظر غليان الماء، منشغلا بسماع صفيرها. اليوم، عند تذكره لتلك الرخويات، تساءل إن كان أكلها حلالا... لم يفكر بعد في الموضوع، ولم يحدثه أحد عنها، كما أنه لم يعثر عبر قراءاته عن حديث يذكر الحلازن، إن بالحلال، إن بالحرام. سيسأل العلماء وسيعمق البحث في كتب الأسلاف. إن الفقهاء لم يتركوا شيئا إلا وأصدروا فتوى بشأنه، ولم يغفلوا شاردة أو واردة إلا وقننوا حدودها.

توقف عند نهاية الدرب لاهثا، باحثا بنظراته عن رشيد حلموش. استرجع أنفاسه قليلا، ثمّ تقدّم ونطق بالسلام. كان صوته ضعيفا، بحيث لم يسمع إلا نفسه. أسرع الخطو، تنحنح، حوقل وبسمل، ثمّ أطلق سلاما بصوت التفت إليه أغلب الحاضرين. وقف بعض من معارفه مسرعين وقبّلوه في صمت. بعد ذلك، تقدّم نحو رشيد وعانقه بحرارة صادقة :

– لا حول ولا قوة إلا بالله. لا ينبغي لك أن تحزن يا صديقي. هذه إرادة الله في خلقه، ولا مرد لمشيئته. لا خلود لأحد في حياة الدنيا، ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

ردّ رشيد بصوت خافت :

– لسنا إلا عباده الضعفاء، يفعل بنا ما يشاء. ونحن راضون بقدرنا والحمد لله.

– رحمته واسعة، لا تحدها السموات والأرض، وينزلها على من يشاء من عباده.

– إن والدي رحمه الله وتغمده في جنة الرضوان قد نطق باسمك قبل أن تخرج روحه. فقَدَ وعيه وغرق في هذيان طويل. عبثا حاولت أن أفهم من كلامه شيئا. هل أراد رؤيتك ؟ هل أراد أن يوصي بشيء يخصك ؟ الله أعلم. كانت جمله مبتورة، عصية الفهم. وحدها بعض الكلمات كانت واضحة : المهدي، سيدي المخفي، الشيخ امبارك، النفق، الغار، مكة، الكعبة... بقي كذلك جزءا من الليل، وقبل أذان الفجر، لفظ أنفاسه دون أن يستعيد وعيه.

ارتبك المهدي... تماسك وأخفى اضطرابه... ماذا أراد اعمر حلموش أن يكشف له ؟ لم يسمع بمرضه وإلا لزاره وتحادث معه. ولكن يبدو أن وفاته جاءت بغتة. لم يكن طريح الفراش، فبعد منتصف النهار بقليل، شعر بوهن يسري في جسده، فتمدّد على حصيره المعتاد ليستريح بعضا من الوقت، فغمره برد راجف، جعله يتلعثم في كلامه. أراد رشيد أن يحمله إلى المستشفى فرفض بعناد خشن ؛ ماذا سيفعل في المستشفى ؟ لم يدخله كمريض ولو مرة واحدة. إنه راض بحياته وبقدره... ينتظر في بيته ما كتبه الله له. وقبل بزوغ الفجر وتبيان الخيط الأبيض من الأسود، التحقت روحه ببارئها.

وصل ثلاثة رجال وأحاطوا رشيد، مسلِّمين ومعزِّين. يتكلمون في آن واحد بأصوات منخفضة ألبسوها الحداد قدر استطاعتهم. وصل رجلان ووقفا ينتظران خلو المكان ليقدما بدورهما التعازي. تراجع المهدي إلى الخلف قليلا وحوّل بصره باتجاه الربوة. لا تزال البناية البيضاء جاثمة على

القمة، كأنها تستعد للتحليق بداخل زرقة السماء الممتدة إلى ما لا نهاية. أعاد بصره إلى البطحاء، فتفاجأ بوجود سياج من تين الصبّار أو « كرموص الهندي » مثلما يسمى، بصفائحه الشوكية، الممتد عبر مساحة طولية تختفي خلف المنحدر المؤدي إلى الوادي. في الوقت الذي كان يقطن هنا، كان السياج يتشكل من القصب والتوت البري وبعض الأحراش الشوكية الأخرى، ولكن لا أثر لشيء اسمه « كرمُوص الهندي » . لقد عاش اعمر حلموش أكثر من ثلاثين سنة في هذا المكان دون أن يهتم بهذه الثمار الصيفية الجبلية، اللذيذة والمحبَّبة برغم الغلاف الشوكي الذي يحمي الثمرة. وحدها الأيدي المجرّبة والحاذقة تستطيع الخروج من تقشيره سالمة. ولكن، خلال سنواته الأخيرة، وتحت ضغط الحنين إلى الطفولة البعيدة في دشرته الجبلية، أدخل الشيخ في رأسه فكرة غرس تين الصبار على شكل حزام حول بيته. في البداية، اعترض رشيد وبعض أقرانه القرويين مثله، الذين نجحوا في ردم تلك الذكريات البعيدة في هاوية سحيقة، أو حوّلوها إلى ويلات كلما نغزتهم إلا ولعنوا الشيطان الوسواس الخناس. ولكن عناد المجاهد يقاوم الجلاميد، إنه أشبه بعناد عَيْر أتخِم بحبّ البلّوط المرّ. حينما تنتش فكرة في مخه، ينبتها وإن شقّقت جمجمته. في صباح شتائي دافئ، وقبل أن تشرق الشمس، اندهش بعض المبكرين عندما رأوه يقلع القصب والتوت البري والنباتات الأخرى بعنفوان الشباب. وفي مكانها، غرس تلك الصفائح الشبيهة بآذان البغال والتي جلبها بنفسه من مسقط رأسه. اعتنى بسقيها ونقشها، مغذيا إياها بروث البقر، بحيث كبرت بسرعة وأعطت الثمار في السنة الثالثة. هكذا، أخذ اعمر حلموش ثأره من ويلات الزمن والهجرة أولا، ومن خصومه الذين سخروا من مبادرته ثانيا، خاصة حينما يقتربون منه وهو يقطف الثمار، يتظاهرون بالحديث معه، وهم في حقيقة الأمر ينتظرون أن يتصدق عليهم ببعض الحبات. يكدّس الثمار في إناء، ويتجاهل نظراتهم الشرهة، يسخر بداخله ويبتهج، ثمّ يلين قلبه ويتصدق بحبات من الثمار اللذيذة دون أن يتوقف من شرح صواب مبادرته، وخطإ أولئك الذين وقفوا ضده. والنتيجة أن شباب الحي لقّبوه بالحاج « كَرمُوص »، ودون علم منه، يتهامسون باللقب ساخرين كلّما رأوه يتجوّل وسط حديقته

الجديدة... ولكن لا أحد يجرؤ على مجابهته؛ لا تزال هيبته جاثمة على رؤوس الجميع، كبارا وصغارا، رجالا ونساء.

لم يستطع المهدي مقاومة الرغبة المؤججة بداخله لرؤية « القُرْبي » العائلي، أو على الأقل ما تبقى منه. تلعثم اعتذارا مبهما واتجه نحو الوادي... دقائق معدودة واختفى عن الأنظار. الزيتونة المائلة في نهاية المنحدر لا تزال على حالها، المنزل هو الذي تغيّر؛ فعِوَض الغرفة الواحدة التي سكنها مع أبيه لسنوات طويلة، بنيت غرفتان متقابلتان بسقف من صفائح الزنك، يحيطهما سياج من القصب اليابس، أما مجرى الوادي فتجرّد كلية من أحراشه، وحدها بعض النباتات الشاحبة بقيت عالقة على الضفتين. خيط رقيق من المياه الآسنة يتلوى وسط المجرى. طال القحط وجفّ الوادي ليصبح مرتعا للأوساخ والمياه القذرة. في السنوات الماضية، كانت الأمطار الشتويّة تنظف المجرى، أما الآن وقد أغلقت السماء سُكورها، فقد تكدست بداخله قمامة المنازل المجاورة، فتحوّل إلى مزبلة عمومية، تتغذى منها الجرذان والبعوض والكلاب التائهة. الأطفال أنفسهم يحومون حول كثبان الفَضلات المتراكمة هنا وهناك، باحثين عن العلب الصدئة وقطع حديد الخردة وألواح خشبية وأسلاك حديدية لصناعة ألعابهم. أما الأماكن المجاورة للوادي، ورغم تضاريسها الوعرة، فإنها لا تكاد تبين من كثرة الأكواخ والبراريك. حي جديد بأكمله. اندهش المهدي من هذا الزحف البشري... فكّر بأن الجبال والأرياف لم يعد يسكنها أحد؛ انحدر الجميع نحو المدينة باحثين عن لقمة الخبز. شحت السماء عن العطاء، طال الجدب ولم يعد بإمكان هؤلاء فلاحة الأرض، فلم يجدوا من وسيلة للارتزاق إلا التقرب من التجمعات السكانية الكبرى، لعلهم يعثرون على غذاء يقاومون به السّغاب.

بقي المهدي شارد الذهن، يتأمل تلك الأكواخ المائلة التي يخال للناظر أن عصفة خفيفة ستقلعها وترميها في قاع الوادي. حينما عاد إلى البطحاء، كانت الشاحنة التي ستنقل التابوت إلى المقبرة تقترب من بيت المرحوم. أغلبية الرجال واقفون، مشى بعضهم مع الشاحنة، وفجأة ارتفع عويل وصراخ النساء وسط حرارة الجوّ الخانقة، معلنا عن خروج الجثة.

انطلق الموكب الجنائزي بطيئا. تحلّقت خدرة قبرية فوق رؤوس المشيّعين الذين تقنعوا بوجوه كئيبة، خاشعة. يسيرون راجلين خلف الشاحنة، صامتين، لا يجرؤون حتى على همس كلمات تنوّه بخصال الميت. اذكروا موتاكم بالخير... هكذا تعلموا منذ الصغر. رهبة الموت تغشي الأبصار وترجف القلوب وتربك الأذهان. أنتم السابقون ونحن اللاحقون، عاجلا أم آجلا. لحظة خشوع وتأمل. لحظة محاسبة النفس الأمارة بالسوء.

إن طرق الأقدام على القارعة غير المعبدة حرّك الغبار وجعله يلتصق بالأجساد المتصببة عرقا، ولكن الركب لا يبالي. إكرام الميت دفنه. يسرعون للوصول إلى المقبرة، كأنهم يستعجلون التخلص من الجثة، ومعها التخلص من الأرق والوسواس ومحاسبة النفس، ليعودوا إلى بيوتهم وأعمالهم الدنيوية. أين هو الفرد الذي لا ذنوب له؟ أين هو الفرد الذي يفكر في الموت دون أن ترتجف أوصاله؟ هذه الليلة سيُكثرون من الصلاة والدعاء. الله رحيم غفور بعباده الضعفاء، وخاصة منهم التوّابون. ليعيثوا في الأرض فسادا ويسفكوا الدماء ما شاء لهم أن يسفكوا، ثمّ يتوبون، يطلبون المغفرة. ومن استطاع، فليسجّل نفسه في قائمة الحجاج الميامين، يسافر إلى البقاع المقدّسة، وبعد شهر فقط يعود منها خاليا من السيئات تماما مثلما ولدته أمه، يكون الله قد غفر له ما تقدّم من ذنوبه. يتظاهر بالتقوى والورع أياما، ثمّ تعود ربما إلى عادتها القديمة في انتظار حجة أخرى لتطهير النفس من جديد. ما دامت التوبة قائمة وتكفِّر عن كل الذنوب السابقة، فما يمنع من ارتكاب الموبقات العشر ثمّ إقامة حجّة لغسل العظام مثلما تقول العجائز. والدائرة سيارة لا أوّل لها ولا آخر.

تذكّر المهدي بأنه سمع أباه مرارا يقول بأن الذي يفارق الحياة ليلة الجمعة يجد أمامه أبواب الجنة مشرعة على مصراعيها وأبواب جهنم مغلقة، فتستقبله الملائكة مهللة فاتحة جناحيها... لا حساب ولا عقاب... فتدخِله إلى حدائق جنّات عدْن، المزدانة بأنهار العسل والخمر وحور العين الأبكار الكواعب، وهناك يقضي المحظوظ بقية الدهر الذي لا ينقضي وقته في التلذذ بالعسل والخمر وفض الأبكار الفاتنات اللائى لم ير بشر مثلهن قط. ما أحلى الموت المؤدي مباشرة إلى الجنة، هكذا فكّر المهدي.

عند كل جنازة، يحمل المهدي جِرابا معلقا على كتفه الأيمن، وبداخله كفن على مقاسه، قصّه بنفسه، وقد أوصى أصدقاءه بتعجيل دفنه إن داهمه الموت في أية لحظة. فلا تدري نفس أين وكيف تموت. وهو مقتنع أشدّ الاقتناع أن ملائكة الرحمن تنتظره عند باب الجنة لتقوده مباشرة إلى البستان المخصّص له. هكذا كل صباح، عندما يأتيه صوت البرّاح معلنا وفاة شخص، يتأبط الكفن المخفي بداخل الجراب ويمشي في الصفوف الأولى من الموكب الجنائزي، بخطى ثابتة، تغمره سكينة لا يعكرها أحد أو شيء. فإذا تقرّر وزاره قبّاض الأرواح، الملك عزرائيل، فسيجده مستعدا أتم الاستعداد للرحلة التي لا ريب فيها.

ولكن اليوم، اهتزت سكينته؛ فلا يزال صدى كلمات رشيد يرن في أذنيه... لماذا نطق اعمر حلموش باسمه وباسم سيدي المخفي؟ قضّ السؤال راحة باله... ربّما كان ينوي أن يكشف له سرّ النفق الأرضي الذي يوصل إلى مكة والذي سلكه سيدي المخفي للقيام بسفره العجيب نحو أرض المغرب. لقد روى له أبوه ثمّ سي اعمر الحكاية الغريبة مرّات عديدة، وكان هذا الأخير مقتنعا بوجود النفق، وتلمع عيناه شوقا كلما ذكره، ويرتجف قلبه أملا في العثور على مدخله. وكان هذا الشوق الدفين سببا في رفض اقتراح ابنه رشيد في تسجيله ضمن قوائم الحجاج الرسمية، كان يحلم بطريقة فريدة لأداء الحج، مقتفيا أثر الشيخ امبارك الذي حلم هو أيضا بإيجاد النفق. تضخم الحلم وأضحى هوسا لم يفارقه إلى آخر لحظة من حياته. وبرغم ثقل العمر ووهن الجسد، لم يتوقف من مشط جوانب الربوة وقمتها وأطراف الوادي، مدققا في جميع الوهاد والشعاب والدروب المخفية... ولكن الموت الذي يخبط خبط عشواء خطفه في منتصف الطريق. وحينما أرجع روحه إلى خالقها ومالكها، بقي في نفسه شيء من الحسرة والشوق والندم، عالقا على مطّة شفتيه الحزينة. ولم يكن ذكر اسم المهدي إلا حلما أخيرا، تمنى عبره أن يكون الشاب مكتشف النفق السري. كل هذه الأفكار أرّقت ذهن المهدي، حيّرته، حتى أنه لم يشعر بمرور الوقت ولا كيف قطع المسافة بين حي سيدي المخفي والمقبرة. حينما توقف الموكب الجنائزي وتهافت المشيعون على إنزال

التابوت، استيقظ المهدي من شروده وألقى نظرات ذابلة حوله، وإذا به في آخر الصفوف، فأسرع الخطو لاستدراك التأخير.

كان الطريق المؤدي إلى المقبرة واسعا ينتهي ببطحاء مربعّة الشكل مخصّصة لأداء صلاة الجنازة. وُضع التابوت في زاوية من الجهة الشرقية، وتسارع المشيعون لتسوية الصفوف. وصل المتأخرون يلهثون ويتصببون عرقا. تقدّم شيخ معمّم بقرب التابوت وكبّر معلنا بداية الصلاة. تمكن المهدي من التسلل إلى الصف الأوّل، إلى جانب رشيد. رمق التابوت بحمّى راعشة. إن مصيره هنا، بداخل التابوت.

« آه يا سي اعمر ! لو عدت إلى الحياة وكشفت لي السرّ المكنون، سرّ النفق. أكيد أنك تعرف مكانه الآن. فلماذا نطقت باسمي وباسم الولي الصالح سيدي المخفي إن لم يكن لهذا الغرض ؟ أكيد أن روح سيدي المخفي هي التي زارتك في نومك وكشفت لك عن السرّ. لقد نطق الأموات واستجابوا للمهدي بن تومرت. فلماذا لا تنطق أنت ؟ أتوسل إليك يا سي اعمر، قم وبلّغ الرسالة، لا تأخذ سرك معك. إنني بحاجة ماسة إليه... »

وحده اهتزاز خفيف لأوراق شجرة الكاليتوس عكّر سكون الصمت. عيون المصلين لاصقة بالأرض، فيما كان المهدي ينظر بلهفة إلى التابوت، منتظرا على أحر من الجمر المعجزة المرغوب فيها. في لحظة ما، بدا له أن حركة بطيئة بدرت من الجثة الهامدة. ارتفع الغطاء وسقط جانبا، ليظهر النصف الأعلى من الجسد، ملفوفا بالكفن الأبيض. في لمح البصر، تخلص الميت من القماش، ثمّ نادى المهدي بصوت رقيق، أشبه بالأنين : « تعالى يا المهدي يا ابني، اقترب، عندي سرّ عظيم سأكشفه لك ».

جحظت عينا المهدي، وكادت تغادر محجريها. أحسّ بقلبه يصعد إلى حنجرته، اضطربت الأفكار بذهنه وتشابكت. شعر بضباب يغشي بصره رويدا رويدا... هل تحققت المعجزة فعلا ؟ أراد التقدّم والاستجابة لرغبة الميت، ولكن شيئا بداخله شلّ حركته. هل ما يراه واقع أم سراب ؟ لم يتحرك أحد حوله. التفت يمنة نحو رشيد، فوجده مطأطئ الرأس، خاشعا في صلاته... فهزّ رأسه بعنف، ثمّ نظر إلى التابوت...

لا شيء تحرك. الصمت جاثم على الرؤوس والرقاب. التابوت في مكانه يحوي الجثة الهامدة التي تنتظر أن توارى التراب.

غمره اختناق يحد من تنفسه. خيبة الأمل صاعقة. لعب به خياله، فأوقعه في حالة جنونية لا تبشّر خيرا. انتهت الصلاة. رجال كثر تسارعوا لرفع التابوت وأخذه نحو القبر، حيث تنتظر مجموعة أخرى بالفؤوس والمعاول. التف الجميع حول القبر، وبدأت مراسيم الدفن.

لم ينتظر المهدي نهاية الدفن، وغادر المقبرة بقلب مسدود ومرارة حانقة. من أعماق شوقه، تمنى لو يعيش لحظة أشبه بتلك التي عاشها محمد بن تومرت. عزى نفسه بصغر العمر؛ إن المعجزات والكرامات لا تظهر إلا للذين تجاوزوا الأربعين. الأربعون عدد الانتظار والإعداد والامتحان والعقاب أو الجزاء. إن الملوك الأنبياء حكموا أربعين سنة مثل داود وسليمان. ودامت رحلة نوح أربعين يوما. وبُعِث موسى وهو في الأربعين من عمره، وبقي أربعين يوما عند طور سيناء، وبُعِث محمد بن عبد الله وهو في الأربعين. ولكن عدم الصبر يقضم أوصاله ويشوّش له الرؤية والتفكير معا، إلى حد العمى، إلى حدّ يرى الشموع نجوما.

- 33 -

في ذلك المساء الذي نزل فيه ضيفا عندنا لأوّل مرة، يقتفي أثر ابنتي، دعوت الله أن يكون أخيرا الورقة الرابحة، تلك التي ستغلق أفواه النمامات. أخبرتني ليلى عشية مجيئه وألحّت كي يكون استقبالي له لائقا. يبدو أنه ينوي اتخاذها زوجة له. وحينما سألتها عن عمره ووظيفته ومدّة تعرفها عليه، أخرجَت مخالبها لتلومني على متطلباتي. أجابت بعنجهية: « المهم أنني أعجبته ويريد زيارتنا. أين المشكلة؟ » قبل أن تصفق الباب وتخرج. قطّة وقحة! أنا مستعجلة لرؤية العتروس الذي شغف بها إلى حدّ يتركها تضع حبلا حول رقبته. مكرهة أنا لمستقبلة إياه بالورود والابتسامات!

هكذا قضيت الصبيحة في تنظيف غرفة الاستقبال الضيّقة إرضاءً لها وطمعا في سترها. ثم وبعد قيلولة قصيرة، هرعت إلى المطبخ أعدّ

« شربة–فريك » وكسكسي بالدجاج. « اعتني ببطن الرجل، ستعجنينه على راحتك ويصير خاتما في أصبعك تُديرينه مثلما شئت »، هكذا تقول خالتي فاطمة وهي ترافق كلامها بغَمزة تعني الكثير. آه، ما ألطف وأعمق إيحاءات جارتي القديمة، أطال الله في عمرها. مرّت شهور ولم ألتقِ بها.

بدءًا، شرّع لي ذراعيه وقبّلني على الرأس، مع ابتسامة شره عجنَت تقاسيم وجهه المدوّر، وناداني « نسيبتي العزيزة » كما لو أنّ مصاهرته لي له قد تمّت فعلا. من حركاته الأولى، أدركت أنّ بينه وبين الحياء واحترام ممتلكات الغير مسافة الأرض والسماء، وأنه يتصرّف بلا أدنى إحساس بإزعاج الآخرين. قدّمته ليلى باسم « قادَة »، هكذا في مقطعين صوتيين مقتضبين. اسم بلا لقب، أي بلا حسب ولا نسب. رجل أربعيني، قصير القامة، شديد السمرة إلى حدّ الزنوجة، ضامر الوجه بوجنتين بارتين، بشرة وجهه أحرقتها الشمس، وقد تعرّت جبهته، أكلها الصلع مبكرا، ما يدلّ على أنّه ليس شابا مثلما تحيل إليه خفة حركاته وبشاشته. وخلافا لجسده الضئيل، فإنّ ضيفي و « نسيبي » له لسان يتجاوز كل التقديرات؛ فلكي أجد فرصة وضع كلمة أو طرح سؤال، ويعلم الله كم من أسئلة كانت تحرق لساني منذ نهار أمس، فكان ينبغي عليّ أن أنتظر حضور الأكل وانشغاله بالمضغ كي يصمت قليلا وأجد ضالتي. تحدّث عن كل شيء، ينتقل من الزرع إلى الحصاد كما يقال ودون أن يترك لنا وقت الربط بين السابق واللاحق. قال بأنه من مدينة تيارَت وأنه يشتغل تاجر ملابس متنقل. نخرني الشك ابتداءً من تلك الأمسية؛ كان الكذب يقطر من أنفه المفلطح ويتلألأ على بصره الثعلبي اليقظ الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلا وحطه عليها. ومع ذلك فقد استقبلته كما ينبغي لأمّ أن تستقبل زوج ابنتها المستقبلي.

فمنذ أن تمرّدت ليلى ضد سلطتي كأمّ ناصحة للخير واعترفت لي، بلا حياء ولا حتى إيحاء، بأنها تتاجر بجسدها، فأصبح هاجسي الأول والأخير أن أدبّر لها زوجا يسترها وإنْ كان قواد مواخير، مع يقيني بأنّ حتى مثل هؤلاء السفلة سيختارون فتاة بكرا في حالة ما إذا قرّروا تأسيس عائلة. فإذا قرّر هذا الأكحل الفرطاس طلب يد ليلى، فلن أشترط منه سوى إحضار الشيخ وشاهدين لقراءة الفاتحة وإعلان الزواج. ولكن لا نفحة من هذا الوهم نفثها الضيف ليدخل ولو شبه بسمة على حياتنا الكئيبة.

كان ذئبا مُطاردا يبحث عن مأوى. ولكن من أين لنا أن نعرف؟ كنا امرأتين هشّتين ومعرّضتين لجميع الغوايات والإشاعات القاتلة... ومرحبا برجل يحمينا، مهما كان نوعه وطبيعته! كنت أنتظر مثل هذا الرجل كما ننتظر هلال العيد.

وصل مع غروب الشمس تماما، واستقر كما الباشا على المَطرح الأرضي، وتعشّى معنا بشهية منقطعة النظير، دون أن يتوقف عن الثرثرة. نعم الثرثرة! فقد ابتلع الشربة في دقائق معدودة مع إصدار صوت اللحس يزعج الأطرش، ثمّ انتقل إلى الكسكسي، يشدّ الملعقة في يد، وفي الأخرى فخذ الدجاج يقضم منه بنهم كما لو أنه لم يذق لحم دجاج في حياته. بصراحة، خفت أن يختنق وهو يجمع بين المضغ والكلام. بعد العشاء، أشعل سيجارة وطلب قهوة. سهر معنا إلى غاية ساعة متأخرة من الليل، السيقان ممددّان على الزربية، مرفقه على مخدّة وهو يحكي ويقهقه بدون انقطاع.

في لحظة ما، أحسست بأنّ جفوني انغلقت... النعاس يطاردني... كيف أفهمه أن وقت الفراق قد حان؟ خفت أن يؤوِّل الملاحظة إلى غير صالحنا؟ حينئذ ستُسقِط ليلى السقف على رأسي! وبالمعنى الأصلي للكلمة. أنا لا أبالغ... هي ابنتي وأنا أعرفها... إنها قادرة على أسوأ ما يمكن تخيّله... ولا أظن أنني أفتري عليها.

هدّني التعب وتمدّدت جانبا وغمغمت أنّ بإمكانهما مواصلة حديثهما وألّا يهتما بي. في تلك الآونة، ألقى نظرة خاطفة إلى ساعته اليدوية وتظاهر بالدهشة: « منتصف الليل وعشر دقائق! لقد مرّ الوقت بسرعة مذهلة. إنّي أبقيكم على خير... » فنهض بتثاقل وهو يهمهم اعتذارات ويبحث بعينيه عن حذائه، ولكن ليلى سبقته وطلبت منه أن يقضي الليل عندنا، مبررة ذلك بأنّ الفندق الوحيد يكون قد أغلق أبوابه، أو تكون غرفه محجوزة كلية. توقّف، مطّ شفتيه وقطّب جبينه العريض الأصلع، ثم قال منشرحا: « لا تقلقوا عليّ... إنّي متعوّد على النوم في مركبتي ». صمت لثوانٍ وأضاف مقهقها: « إنها فندقي وحمامي، وهي على كل حال أريح من فنادق الخمس نجوم ». وأمام إلحاح ليلى، اضطررت بدوري إلى دعوته إلى قضاء الليلة عندنا. خفض بصره متظاهرا بالتفكير وأخيرا عاد

إلى الجلوس على المَطْرَح وجلب الوسادة قائلا: « لا تنشغلوا بي. سأنام هنا. الجوّ دافئ ولست حتى بحاجة إلى غطاء ».

فمنذ تلك الليلة، استقرّ قادة في بيتنا كما لو أنه صهري الرسمي. يخرج في الصباح الباكر، يخضّنا بفظاظة ويلوّث الزقاق بهدير محرّك مركبته المتهرئة التي يركنها بمحاذاة بابنا الخارجي، يقضي أيّامه في سوق عين الكرمة أو أسواق القرى والمدن المجاورة، ولا يعود إلا مع غروب الشمس. من حين لآخر، يتغيّب لأيام، وأحيانا لأسابيع، دون أن يكلف نفسه بإعلامنا عن مكان سفره، ثمّ في مساء ما، ينقضّ علينا كالكاسر الجائع، محملا بالحقائب المملوءة بالسلع، يخرجها من مركبته ويحطها في ركن من غرفة الضيافة، مبررا ذلك بكثرة اللصوص الليليين الذين يتفقدون السيارات وينهبون محتوياتها. وقد أخبرنا بأنه تعرّض مرتين لمحاولة السرقة وهو نائم داخل السيارة. من حسن حظه أنّ نومه حفيف وأحسّ بهم بمجرّد الاقتراب من مركبته. وهل يمكن مباغتة الثعلب؟ ولا ينسى إغراقنا بالهدايا في كل مرّة عند عودته، وقد ذهب به سخاؤه إلى إهداء مجوهرات ثمينة لليلى؛ الشيء الذي أطارها من الفرح والغبطة، وهي تنظر إليّ وفي عينيها لوم على تذمري من إقامته بيننا. أحيانا، يجلب مجوهرات مستعملة، قال بأنه اشتراها من سوق الدلالة من العاصمة، ويكلف ليلى ببيعها.

اغتنمت مرة فرصة وحدّثته عن موضوع الزواج بليلى، مبررة أننا امرأتان وحيدتان ووجوده بيننا قد يغذي الشائعات الضارة حول أخلاقنا، فكان جوابه جاهزا مليئا بالوعود المعسولة، وأغرقني معه في تبريرات ومشاريع متشابكة دوّختني.

مع الأيام، تعوّدنا على حضور قادة البشوش الذي ملأ بيتنا الحزين بحيوية أدخلت شيئا من الغبطة إلى قلوبنا، بحيث أضحى غيابه يغرقنا في صمت حزين، كما لو لم نعد أنا وابنتي قادرتين على العيش معا وملء فراغ أيامنا ولياليننا مثلما كنا نفعل.

كنت أعرف أنّ ليلى « زوجته » بقراءة الفاتحة أو بدونها. كم مرة خرجت من البيت وتركتهما معا وحيدين، وكنت ألاحظ في عيون الكحلوش نشوة ذكورته وهو يراني أضع حايكي على ظهري وأنتعل بلغتي، وعند

عودتي كنت أجد ليلى في زينة وتعطّر غير عاديين. أحيانا، أجده قد خرج وهي لا تزال ممدّدة في الفراش. لم أكن ساذجة ولا شريرة... لست أجهل ما يحدث بينهما، ولا أريد تعكير سعادتهما وإن كانت منحرفة، بل ومحرمة.

هكذا كانت حياتنا لشهور طويلة مع قادة، الأكحل الفرطاس، بائع الملابس المتجوّل، وكنا أنا وليلى قد تعوّدنا على تلك المعاشرة، وقبلناها كقدرنا المحتوم الذي ليس لدينا بديل عنه... إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم؛ فذات صباح، داهمت الشرطة منزلنا كما لو أنه وكر أشرار يهدّدون استقرار وأمن المدينة. كان رَجُلنا غائبا منذ أزيد من أسبوع. فتحت الباب تحت طرقات قوية وكم كان هلعي راجفا حينما رأيت شرطيين بالبذلة الزرقاء الرسمية منتصبَين عند العتبة في الساحة الصغيرة المشرفة على الزقاق، وخلفهما سيارة « الفورغون » يحيطها شرطيون آخرون مسلحون وأطفال من أولاد الجيران، يترقبون بصمت وفضول. قال الشرطي:

– جئنا نبحث عن عبد القادر بلَعْريش، المسمّى « قادَة »، الذي يسكن عندكم.

أطلت النظر في الشرطي باحثة عن الجواب المناسب وعمّا اقترفه قادة من جرم حتى تأتي الشرطة للبحث عنه في بيتي؟

– قادة غير موجود...

– وأين يكون؟

– والله لا أعرف.

– كيف لا تعرفين؟ أليس زوج ابنتك ويعيش معكم منذ شهور؟ أو تحسبوننا نائمين على آذاننا؟

ارتجفت أوصالي. ولكنني زهوت بأن الشرطة تعتقد أن قادة زوج ابنتي، ما يعني أن الناس جميعا يرونه زوجا لها. وهذه الفكرة في حدّ ذاتها أنعشتني وخفّفت من وقع الخبر عليّ. قلت وقد استرجعت رباطة جأشي:

– نعم، إنه زوج ابنتي ولكن أشغاله كثيرة. يشتغل في بيع الملابس التي يشتريها من الحدود المغربية، مثلما سمعته يقول مرارا لابنتي. ربّما يكون هناك...

– صحيح أنّه يبيع الملابس ومواد الخردة الأخرى، ولكنه لا يشتريها مثلما تقولين. صهرك لصّ محترف !

– ماذا تقول ؟! قادة لصّ ؟!

– نعم يا الحاجة، صهرك لصّ يقتحم بيوت الناس ويسرق أشياءها الثمينة من مجوهرات وملابس ومواد كهرومنزلية، ولكن هذه المرة خانه الحظ ووقع في فخّ الشرطة. لم يكن المنزل الذي اقتحمه مع زميل له ليلا فارغا تماما كما المرات السابقة... لقد ترك أهل الدار شَيْخا يَحرس المكان لكثرة سرقة المنازل في الشهور الأخيرة، فتصدّى لهما، واعتديا عليه بالعصي وتركاه مغميا عليه وهربا. ولكنّ الشيخ تعرّف على واحد من المعتديَين وهو ابن حيّه ويعرف عادة أهل الدار في الغياب للذهاب إلى قريتهم الأصلية في مواسم الأعراس وجني الزيتون، فقبضنا عليه وكشف عن اسم السارق الثاني الذي ليس إلا عبد القادر بلَعريش المسمى قادَة، وهو رجل سبق أن قضى سنتين في السجن بسبب السرقة أيضا.

– قادة في السجن ؟ لم يحدّثنا يوما عن دخوله السجن أبدا !

– إنه لص ومجرم. وأين ابنتك ليلى ؟ ربّما كانت تعرف مكان اختفائه.

نطقت ابنتي من خلفي. كانت نائمة وقد أيقظها حديثي مع الشرطي.

– أنا هنا. ولكنني لا أعرف أين ذهب زوجي ! (لأوّل مرة أسمعها تنطق بهذه اللفظة الجميلة) هو عادة ما يقصد الحدود المغربية لشراء السلع، هذا كل ما أعرفه.

– طيّب سنفتّش البيت وبعد ذلك سنرى.

ودون انتظار إذننا بالدخول، دلف الشرطيان إلى داخل البيت، متبوعين بشرطي آخر باللباس المدني وفي يده جهاز اتصال تنبثق منه أصوات مشوّشة.

وطبعا لم يطل الشرطيون تفتيشهم، فقد أخرجوا من تحت السرير الكبير حقيبتين كبيرتين وأكياسا مليئة بالألبسة وسلع أخرى ما كنت على دراية بطبيعتها لأنني لم أبادر إلى فتح الحقائب يوما. ومباشرة، اتّهمَنا الشرطي بالتواطؤ مع قادَة اللص وقرّر فورا إيقافنا وقيادتنا إلى المحافظة للتحقيق والاستنطاق. كانت فضيحة العمر، ولم أكن أدري أين أخفي

وجهي أمام عشرات العيون التي تابعت مشهد خروجنا من منزلنا وسط رجال الشرطة وهم يحملون الحقائب والأكياس. يبدو أن جميع الجيران قد تواعدوا على اللقاء قدّام بيتنا ليتلذّذوا بمشهد إيقافنا. في المقابل، خرجَت ليلى برأس مرفوع، تواجه العيون التي تقطر حقدا وغبطة لرؤيتها أخيرا تدفع ثمن فُسقها علنية وتشويه سمعة حيّهم. كان الرصيف يعج بالأطفال، فيما بقي الكبار بعيدا في الجهة الأخرى من الرصيف.

دام الحجز والاستنطاق طوال النهار. لم أتوقف عن البكاء والتوسّل إلى الشرطيين المتداولين علينا بأننا بريئتان وقد وقعنا ضحية رجل غريب جاء يطلب مصاهرتنا، وأننا امرأتان بلا ولي يحمينا، وقد استغل الشرير لطفنا وجهلنا. أطلق سراحنا مع غروب الشمس وعدنا إلى مأوانا الحزين منكسرتين واهنتين وأنا ألوم ابنتي على تصرفها الطائش. ولكن ليلى لم تبالِ بالفضيحة، بل قالت بأنّ قادة رجلها وستنتظر عودته مهما طال غيابه.

ولكن قادَة اختفى عن حياتنا بلا رجعة، ولم نعرف إن كان قد وقع تحت أيدي الشرطة وهو يقبع في غياهب السجن أم أنه غيّر هويته وهو الآن يعيش في حضن امرأة أخرى في مدينة بعيدة. ولكن قادَة ترك بذرته في أحشاء ليلى، ولم تمضِ أسابيع حتى انتفخ بطن ابنتي. طلبت منها إسقاط الجنين ولكنها رفضت رفضا قطعيا، معللة بأنّ قادة سيعود يوما ويعتَرف بأبوته للطفل.

هكذا وجدت ابنتي نفسها أمّا لطفلة، تماما كما حدث لأمّها قبل ثلاثين سنة. ما هذه اللعنة التي تطاردنا؟ ما لهذا القَدَر القاهر يذلنا ويهيننا ثانية؟ ما القول؟ ما الفعل؟ نقبل، نرفض، نضحك، نبكي، نفرح، نحزن؟ ليس لنا من خيار إلا الرضوخ للأمر الواقع وانتظار أيام سعيدة قد تزورنا مستقبلا.

- 34 -

في ذلك الغسق الهائج، وسط غبار متماوج، تعبث به ريح خفيفة، تصفّر كالثعبان المتجوّل فوق أرض رمشاء مشققة، غلّس المهدي وأصحابه كأشباح تلفهم تلك الظلمة الحالكة، تحجبهم عن الأنظار الحارسة،

وإن كانت نادرة في ذلك الوقت من الليل، يمشون بسرعة ثقيلة وحركات مضبوطة، ولكن لا يكاد يُسمع وقع أحذيتهم الرياضية. يرتدون ملابس متشابهة، وإن كانت ألوانها متنوعة، دون أن تكون متباينة كل التباين، إذ لا تكاد تبتعد عن الأسوَد كثيرا، فبدوا في صورة رجل واحد، تناسخ وتكرّر إلى أشباح متعدّدة. كان المهدي يرتدي جلابية رمادية، وفوقها « جاكيتة » جلدية سوداء، وعلى الرأس « شاشية » بيضاء، وعلى الوجوه الصلبة لحى كثة الشعر، تنحدر تحت الذقن مغطية الرقبة، يكاد بعضها يلامس « البالطو » في بداية الصدر على مستوى النحر. رجل واحد في المظهر والباطن، متدربون على الطاعة والامتثال للأوامر وتنفيذها في الحين، في العسر واليسر، طاعة عمياء. يتقدّم المهدي المجموعة إلى جانب سليمان بعيون الصقر، يجتهد لثقب العتمة الحالكة، تنتابه حيرة مربكة... هل سيجدونها في بيتها؟ بداخله ثقل ريب يقاوم الضمانات التي أعطاها صاحب الحاجبين العريضين الذي كلِّف بحراستها حيث قال بأنه رآها بأمّ عينيه تعود إلى دارها قبل غروب الشمس بدقائق، فانتظر إلى أن اختفت خلف الباب قبل أن يغادر مكان حراسته. ولكن مع هذا النوع من النساء، لا نطمئن إلى شيء؛ يمكن أن تكون على موعد ليلي، فتخرج على جنح الظلام، بعيدة عن الأنظار. في مؤخرة الجماعة، وعلى بعد أمتار، يتبعهم رجل قصير القامة، مثقلا بحمل أخّره عن الركب. وعلى الطريقة التي ينقل الدلو من يد إلى يد كل عشرة أمتار، وهو يميل جسده في كل مرة إلى جهة اليد المشغولة، بعناد خاضع خاص بالذي يؤدي واجبا مقدسا، يبيّن إلى أيّ حد كان الدلو ثقيلا وثمينا. بدا الحامل كأنه يبذل جهودا مضنية كي يلتحق بإيقاع المجموعة ولكنه لم يبدِ احتجاجا أو تذمرا، فيما كان بقية الأفراد يشقون العتمة، كما تشق السفينة عباب البحر.

انفصل رجل قوي البنية، تأخّر عن المجموعة قليلا، يتفرّس في حامل الدلو بعينين لامعتين، ثمّ أمسك الدلو من اليد الممدودة وأسرع الخطى ليلتحق بالركب دون أن ينبس ببنت شفة أو يتوقف كلية. توقف الحامل، يفرك في راحة يديه، متنفسا الصعداء. بعد ثوانٍ، حينما أحس بخفة في جسمه، أطال الخطو وتجاوز بديله واختفى وسط الأشباح.

في هذا الوقت المتأخر من الليل، كانت المدينة غارقة في سبات عميق لا تعكّره تلك الريح الخفيفة ولا ذلك الغبار المتطاير ولا اصطفاق الأوراق القليلة اللاصقة على الأغصان شبه العارية. ويثني هذا الجو الآرقين عن مغادرة بيوتهم.

عبرت فصيلة الأشباح أزقة ضيقة ومتعبنة دون أن ينبس أحدهم بكلمة أو يطلق سعالا أو نحنحة، وحينما وصلوا قرب دار نصف مهترئة، منفصلة نوعا ما عن بقية المنازل، انتشر الرجال بخفة السِّنَّوريات واتخذ كل مكانه. يبدو المنزل خاليا من السكان ومهملا لتقلبات الجو، يصلح وكرا للكلاب الضالة والسكارى. وفي مقابل هذا الخراب، تنبعث رائحة طيبة لنبتة مسك الليل تعطّر المكان، ومع ذلك، توجد مؤشرات تفضح وجودا بشريا؛ فعلى الرصيف، انتثر كدس من الأوساخ المنزلية المتعفنة. كان المنزل صغيرا بفناء ضيّق. في العمق، وعلى طرفي الباب، ينتصب جذع مسك الليل، خشن تسنده رافدة ملطخة بالصبغة والخرسان، تكون بلا شك قد استقدمت من ورشة بناء قريبة.

مسح المهدي الزنقة بنظرة فاحصة مترقبة في الاتجاهين، يسترق السمع لأدنى حشرجة، ثمّ حينما اطمأن للصمت، بادر بحركة اتجاه حامل « الجيريكان ». منذ توقف المشي، كانت عينا هذا الأخير مثبتتين على المهدي، بحيث تحرك في الثانية التي ارتفعت فيه يد أميره. تناول هذا الأخير الإناء، تقدّم نحو الباب، فتح السدادة، استرق السمع لثوانٍ أخرى، وحينما لم تصله أدنى جلبة من داخل البيت، أمال الدلو وطفق يسكب البنزين على الجدران وعلى الباب، متنقلا بخفة، منفعلا، متحمسا، إلى أن أفرغ السائل كلية. أخرج علبة كبريت من جيب سترته، فتحها، تناول عودا، وبحكّة خاطفة أحدث شعلة متلألئة وسط الظلام الحالك، تردّد هنيهة ثم لفظها على الجدار، فاشتعلت الأرض نارا مضطرمة، وتسلقت الجدار كتنين أسطوري، فأضاءت الوجوه الملتحية، المحلقة حول المنزل، فزادتها لمعانا وإصرارا.

بداخل المنزل الذي تسلقت النيران على جدرانه الخارجية، وبدأت تتسلل نحو الداخل عبر النافذة الوحيدة والباب الخشبي، استيقظت امرأتان والهلع يقضم أوصالهما، لا تدركان تدقيقا ماذا يحدث لبيتهما

وسط الدجى. قبل أن يخطفهما النعاس، كانتا واثقتين من قضاء ليلة هادئة، تفكران في هموم الغد العادية.

كانت ليلى تنام في سرير كبير إلى جانب ابنتها ورضيعها، فيما كانت أمها تتمدّد على حصير ممدود على الأرض مباشرة. فركت عينيها ذعرا أمام ذلك اللهب المتراقص في النافذة. كانت شعثاء الشعر ومنتفخة العينين من النعاس. بسرعة، قفزت من فوق السرير وركضت نحو باب المطبخ. لفظت على أمها الممددة نظرة تساؤل وحيرة، وعلى وجهها ارتسم هلع مرعب... لا يزال الطفلان يغطان في نوم عميق. الطفلة، ذات الخمس سنوات تطلق شخيرا متقطعا بسبب زكام أصابها منذ يومين وأغلق لها المنخرين ويمنعها من التنفس بشكل عادي. الغرفة صغيرة، لا يترك السرير والخزانة إلا فسحة ضيقة تستغلها العجوز للنوم، أما المطبخ فعبارة عن زاوية تحوي طاولة ملطخة ببقع سوداء، وعلى الحافة اللاصقة بالجدار كأس دبق يحوي طبقة سميكة من سائل بني، ربما بقية قهوة حليب من الأمس. قرب الباب المنفتح على الفناء الخارجي مرفع مغطى بالمرمر، وفوقه موقد حديدي صدئ بثلاث نيران اسودّ من الدخان، وصندوق بلاستيكي، المستعمل عادة لنقل الخضر، به أواني متنوعة.

ارتفع صوت من الخارج:

- اخرجي أيتها الزانية... الفاجرة... إنّك دنّست المدينة... اخرجي لتذوقي طعم السوط وعذاب الجَلد...

أضحى الصوت جماعيا، صارخا:

- الرجم... الرجم للفاجرة...

شلّت الأصوات المزمجرة جسد ليلى. ربّما تكون قد أيقظت السكان المجاورين، ولكن لا أحد سيجرؤ على فتح بابه ليستفسر عمّا يجري. أكيد أن بعضهم يكون قد خرج من الفراش واقترب من النافذة ليختلس النظرات، مجتهدا لإقناع نفسه بأن الأمر لا يعنيه شخصيا، وأنه بريء من كل شبهة.

تسلّقت النيران إلى غاية السقف، فانعكست الأشباح السوداء على شكل خيالات راقصة على الجدار وفوق الرصيف وقارعة الطريق.

فتحت الطفلة عينيها المعمشتين على الشُعَل اللاهبة فوقها، فأطلقت صرخة تقشعر لها الأبدان، فأيقظت الرضيع وطفق يبكي... رمت الغطاء وانسلّت خارج السرير زاحفة.

في هذه اللحظة بالذات، أمسكت ليلى صندوق الأواني، وبقوّة لم تفكّر بأنها قادرة على بذلها، قذفته وسط الباب المشتعلة. أحدثت فتحة وسط ضجيج الأواني المكسّرة.

الآن، تجمعت الأشباح بقرب السياج. التصقت العيون باللهب المتصاعد نحو السقف، وارتفعت الأذرع إلى الأعلى في حركات ترافقها إيقاعات المقاطع الصوتية، تارة قصيرة وتارة أخرى ممتدة:

« اللّـــــــــــــــــــــــــه أكبر ».

تخطّت ليلى العتبة المفحّمة، عبرت الفناء لتجد نفسها على الرصيف، تواجهها الوجوه الملتحية المضيئة جزئيا من قبل النار. على جسدها النحيف فستان نوم خفيف شَحُب لونه الأزرق بسبب كثرة الغَسل، ذراعاها عاريان وفي عينيها رعب فاضح... حينما رأت الأشباح المحيطة ببيتها أدركت هول شقائها... تعرف الآن أنها الهدف المقصود... اللقمة السائغة. لثوانٍ قصيرة، فكّرت في العودة إلى داخل المنزل لتنقذ أمها وطفليها، ولكنها شعرت بوهن يشلّ ساقيها. تألّمت لعجزها. فكرت أن أمّها ستكون قد استيقظت وأنها حتما ستجرّ الطفلين خارج الخطر، في اللحظة التي هزّت سمعها طقطقات مدوية للصفائح الحديدية المكلّسة. ارتعد جسمها في ارتجاجات ضاعفت من رعبها، وشعرت ببرد راجف يسري في جسدها من القدمين إلى الرأس. كثافة مبرغلة شوّشت نظرها. انتابها دوران جرّ معه المنازل والأرصفة والأشباح المنتصبة حولها، دوران بطيء أوّلا قبل أن يتسارع بشكل مدوّخ. في لحظة ما، لم تتمكن ليلى من مقاومة الزوبعة العاصفة في رأسها، فترنّحت وتهاوت بثقل على الرصيف الساخن.

بالداخل، لم تستيقظ العجوز نايلة إلا حينما أقعت الطفلة بقربها، وجهها مبلل بالدموع وملامح وجهها قد شوهها الرعب، وهزّتها بعنف صارخة: « جدّتي... جدّتي... النار... النار... ».

في السنوات الأخيرة، أنهكت أوجاع شتى العجوز، مما يجبرها على المكوث ممددة أغلب الأوقات. حام حولها المرض وتقدّم العمر وضنك العيش ونفث في روحها كراهية الحياة، مما جعلها تهمل تلك المقاومة الغريزية التي عادة ما يتشبث بها الرجال والنساء كي يطيلوا أعمارهم أطول وقت ممكن. بلا شفقة، تسلّط عليها الهمود الإرادي، الاستسلام الطوعي لقسوة القَدَر الذي طاردها دون هوادة، وأحقن في جسدها المحدودب قبل الأوان رخاوة ووهنا دائمين؛ فأضحت مهووسة بالعالم الآخر، مؤكدة بأن لها قدما في القبر وقدما في حياة الدنيا التعيسة، مستعدة للترحيب بالموت الذي تشعر به قريبا، كأن الموت لا يصل إلا مسبوقا برائحة خاصة تعلن عن قدومه، وأن العجوز نايلة بدأت تتنفس النفحات الأولى لفوحانه.

أطلق الرضيع المقمّط صراخا حادا... لقد سقطت جمرات على وجهه.

- ليلى... ليلى... نادت العجوز.

غرق صوتها الضعيف وسط الطقطقات المتعالية المعلنة عن وشك سقوط السقف. احتضنت العجوز الطفلة بذراعيها، متسائلة لماذا لم تنجِهما أمهما التي أنجبتهما في الفاقة والمهانة والعار. قامت بشق الأنفس متكئة على حافة السرير، وانحنت لترفع الرضيع بين ذراعيها، حينما تهاوى جزء من الجدار والسقف فوق السرير، شلال من الأحجار والطوب وقطع الصفيح المكلس. أطلق الرضيع صراخا مرعبا خنقه الركام المنهار حينما غطاه كلية. بحركة غريزية، تراجعت العجوز إلى الخلف، إلى أن أوقفها الجدار الداخلي الذي لم تصله النيران بعد. تأملّت المشهد بعينين مرعوبتين، ثمّ تقدّمت في حركة يائسة لإنقاذ الرضيع. ولكن الفراش اشتعل. في لمح البصر، كانت العجوز شاهدة على تفحيم جثة حفيدها، يشلها عجز قاتل. فتحت الطفلة فاها لتصرخ، ولكن لم يخرج أيّ صوت... ثمّ، مثل لوحة خشبية جرّها الجرف، تشبثت بجسد العجوز العليل وتركت نفسها تساق وسط الأنقاض المشتعلة. عند الرصيف، شاهدت بعينيها الهلعتين الأشباح المنتصبة والتي خالتها غيلانا لا تختلف عن غيلان حكايات جدتها.

الفكرة الوحيدة التي انتابت العجوز في تلك اللحظات أن تنقذ الطفلة لا غير؛ لذلك شدّت معصم حفيدتها وركضت عبر زقاق جانبي مظلم بسرعة لم تتصور أن جسدها الواهن السقيم قادر على بذلها، باحثة عن بيت رحيم يأويها وينجيها من الجلادين. ركضت إلى غاية وسط المدينة، ودخلت حديقة المسجد، فانزوت في ركن مظلم، متنهدة، والطفلة المرتعدة بين ذراعيها، وجهها لاصق مع صدرها الرخو. ابتلعها الشقاء إلى حدّ لم تشعر بمرور الوقت، ولم تستمع إلى وقع خطوات المبكرين من العمال وإلى وشوشات الشيوخ القاصدين المسجد لصلاة الفجر. كانت غارقة في الدعاء: « إلهي، يا رحمن يا رحيم، ارحمنا برحمتك الواسعة، نجّنا في الدنيا والآخرة، أبعد عنا الأوجاع التي تكون فوق طاقتنا، اغفر لنا ذنوبنا، يا أرحم الراحمين... »

وبين دعاء وآخر تلقي نظرة شفقة على الطفلة : « إلهي، أنقذ هذه الزهرة الهشة البريئة، من الانحراف ».

الآن، وقف المهدي مبهوتا من المشهد الغريب الذي حدث أمام عينيه. رؤية واقعية أم متخيّلة؟ التردّد يقضم أوصاله. ارتاب في الثقة بنفسه وفي تصديق حواسّه. فيما كانت ليلى واقفة بقرب السياج الصدئ، يداها متدليتان، انبثق من وراء جسدها، المغطى بقميص نوم قطني مدعوك، كائن غريب، يجمع بين شكل الإنسان والحيوان، له قرنان عنزيان ووجه قبيح ومغضن، فم منفتح بأنياب طويلة، منخار مشعر بفتحتين واسعتين، ولكن جبهته وعينيه وحاجبيه أقرب إلى شكل إنسان. ابتعد بسرعة مذهلة، يركض بطريقة عرجاء جعلته يميل في صعود وهبوط دون أن يقلل من سرعته. بدا للمهدي أن الجسد يجرّ ذيلا ويطلق بريقا لامعا من عينيه وزفيرا من منخريه... ابتعد في لمح البصر ولم يتمكن المهدي من متابعة شبح الوحش الذي اختفى في الظلمة مثل زوبعة ريح رملية حاملة معها كائنات صغيرة طائرة، تدور على نفسها في سرعة مدوخة.

ذهل لثوان عديدة ولم يتمكن من ردّ الفعل. لم يصدّق عينيه، اليقظتين المنفتحتين على اتساعهما. فجأة، أدرك أن الكائن الغريب لا يكون إلا الشيطان الوسواس الخناس، إبليس الملعون الذي كان يسكن جسد الفتاة

ليلى، يزيّن لها الفواحش والمحرمات. ودون أن يعي، تمتم المهدي بين شفتيه: « الشيطان لعنه الله... ارجموه... ارجموه... » وفي حركة عفوية، انحنى باحثا عن الحصى، ولكن الصورة تبخرت في الدجى. وقف متحسرا، غمغم دعوات يلعن بها الوسواس الخناس، مطّ شفتيه تحسرا على عدم تمكنه من رجم الشيطان. لفظ الظنون وأقنع نفسه أن الله حباه وخيّره وأراه صورة الشيطان كي يضاعف من محاربته بإرادة فولاذية. تنبّه إلى عيون أصدقائه الحائرة من تلك الحركات التي بادرت منه، فقال:

– إنه إبليس الملعون الذي كان يسكن جسد هذه الفاجرة الزانية. لقد خرج خوفا من الرجم. ويبقى عقاب الفتاة شديدا كي لا تعود إلى ارتكاب الفواحش.

اتسعت الحدقات المبحلقة فيه، ثمّ ارتفعت تكبيرات صاخبة (الله أكبر... لا إله إلا الله محمد رسول الله...).

تساءل المهدي كيف لبشر ذي عقل سليم أن يعاشر كائنا بهذا القبح. ولكنه تنبّه إلى أن للشيطان قدرة مسخ نفسه مثلما يريد. فأكيد أن الصورة التي ظهر بها للفتاة تختلف عن الصورة التي شهدها هو.

مباشرة فكّر في رجم الشيطان خلال موسم الحج. هناك، لا أحد شاهد الشيطان... كل ما في الأمر أن الحجاج يتنافسون على رمي الحصى على كومة من الأحجار، متحملين السفر الشاق وسط الحشد الزاحف وتحت القيظ الحارق، وهم مقتنعون أشدّ الاقتناع أنهم يساهمون في محاربة الشيطان اللعين، يتلهفون لرؤية إبليس، هذا الكائن الأسطوري الممثّل الشرعي والوحيد للشر في أبشع صوره، يتجسد أمام أعينهم، ليكون لهم امتياز رجمه، لينالوا رضوان الله ويحظوا فعلا بمكانة في الجنة. ولكن، للأسف الشديد، الشيطان لا يتجسّد في أيّ شكل من الأشكال، يبقى غير مرئيٍّ. ويجد الحجاج عزاءهم في كون جبل عرفة مقدسا، فلا يمكن أن يدنس برجس الشيطان؛ لذلك فالرجم هناك سيلحق الشيطان أينما كان في ربوع المعمورة.

كانت النيران ترتفع ملتهمة المنزل في اصطفاق مسموع، تضيء الزقاق المظلم كاشفة أكثر فأكثر عن أشباح الجلادين الواقفين وهم يتمتعون بالمنظر، وبعيونهم بريق الرضا ولمعان الانتصار.

ما إن هوت ليلى على الأرض حتى ركض نحوها سليمان والمهدي، أمسكاها من الذراعين، وجرجراها نحو شجرة الخروب. لم تفقد وعيها كلية، كانت تسمع الأصوات الدائرة بها كأنها في حلم، وشعرت بجسمها يرفع بشدّة، ثمّ بقدميها ترتطمان على التراب. فتحت عينيها فلم ترَ إلا ضبابا حالكا... فكّرت في إطلاق صراخ تطلب به النجدة، ولكنها لم تفعل... تدرك جيدا بأن لا أحد سيجرؤ على مغادرة بيته ليقدم لها يد العون. من يملك الشجاعة ليتحدى هذه الجماعة المستبدة بشوارع المدينة ؟! أكيد أن كثيرا من الرجال والنساء هم الآن خلف ستائر النوافذ، يسترقون السمع ويختلسون النظر لما يحدث... تعرف رأي الجيران في سلوكها وكيف ينظرون إليها عند مرورها.

- هاتوا الحبل... أين الحبل. أربطوا الزانية إلى جذع الشجرة. السوط ؟ أين السوط ؟ اجلدوا الفاجرة... مائة جلدة... ألف جلدة.

ما أن ربطت إلى جذع الشجرة بحبل نيلوني سميك، حتى تحرّك سليمان وتناول السوط من يد أحد الرجال، تقدّم بخطى واثقة وطفق يسوطها في الظهر بضربات ساخطة. كانت الفتاة مطأطئة الرأس، تئن في صمت، مستسلمة، يائسة. كان سليمان هائجا، يضرب بعنف، كأن سعارا سكنه فجأة. في مخيلته خليط من الصور، متداخلة، متشابكة، يحاول طردها وطرد طيف الجنية التي سكنته أيام التيه والضياع الروحي. وكلّما ألحت عليه تلك الصور بوضوحها وحضورها الصاخب، كلّما زادت حركاته سرعة وعنفا، وتجمدت عضلاته وتقلصت أعصابه. يرفع اليد اليمنى الحاملة للسوط نحو الأعلى، يميل بجسده إلى الوراء قليلا، ثمّ وبكامل ثقل جسمه الثخين، ينهال على ظهر ليلى بغيظ صاعق، وهو يزداد سورة، يلهث بصوت مسموع وفمه يزبد ويغمغم. تحت ضغط السياط، تمزق قماش الفستان ليكشف ظهر الفتاة وخصرها عاريا مدميا.

كانت ليلى تعرف أن هؤلاء من عناصر جماعة آخر الزمان، الذين يرددون أمام الملأ، على مسمع ومرأى الناس جميعا بأنهم جاؤوا لإنقاذ المدينة من الهلاك، ويطهرونها من المنكرات. إنهم يحتلون الساحات العمومية ويتظاهرون في الشوارع، معلنين عن قرب قدوم الساعة. بدؤوا

بليلى لأنهم يعرفونها، ويعرفون أنها حملت وأنجبت لقيطا... وهي تئن تحت السياط، وصوت سليمان يعد الضربات (عشرون... واحد وعشرون...).

ارتفع الصوت الجماعي للأشباح الملتحية، يعدّ الضربات التي ما فتئ سليمان يمطرها على جسد ليلى، ذلك الجسد الذي أيقظ لديه صورا وعواطف، اجتهد سنوات لنسيانها. كلما أمعن النظر في الجسد إلا وازداد سعارا وغيظا حتى داهم بصره غشاء مضبب، فلم يعد يبصر إلا السوط والظهر، وذراعه الصاعد الهابط. وحده صوته الضعيف لا يزال يعد (ستون... واحد وستون...). تقدّم حامل الدلو لتعويضه، ولكن هذا الأخير أبى تسليم السوط لليد الممدودة. اقترب المهدي ببطء إلى أن وقف بجانب سليمان. ضاعف هذا الأخير من شراسته، كي يقاوم التعب، وكذا انزعاجا داخليا مبهما. إن الصوت الذي يخاله يرنّ في الجوّ الساخن لم يعد إلا أنينا لا يكاد يُسمع. بدأ الصمت يخيّم على المكان لأن النيران همدت ولم تعد طقطقاتها ترتفع من الأنقاض. توقف الرجال عن عدّ الضربات، مكتفين بمتابعة المشهد بنظرات باهتة. فجأة، توقف سليمان عن الضرب، بعدما أدرك أن الجسد لم يعد يتحرّك. توقف ينظر إلى الجسد الذي يعانق جذع الخروب بشكل قميء... بعد ذلك، حوّل بصره نحو أصدقائه الواقفين في نصف دائرة حوله. في تلك اللحظة، انتبه إلى وجود المهدي بجانبه، وفي تلك اللحظة أيضا، ارتفع صوت محرك سيارة يقترب بسرعة. توجهت جميع الأنظار نحو مقدم الصوت... أضواء سيارة تشق الظلمة نحوهم. كان المهدي يفكّر في الانسحاب منذ دقائق، إذ انتهت المهمة التي من أجلها خرجوا... فبدون أدنى تردد، أمر بالانسحاب فورا عبر الأزقة الحالكة.

بعد لحظات، امتلأ المكان بالضوضاء والأضواء. قفز من السيارات أعوان أمن مدججين بأسلحة آلية، يركضون في كل الاتجاهات، صائحين، رافسين في ثقل وجلبة الأرضية المرمّدة. كان المكان فارغا، وحدها ليلى مربوطة إلى جذع الخروب. أخيرا وصلت سيارة المطافئ، فلم يجد رجالها عناء في إخماد النار التي لم يبق منها إلا الجمر والرماد ورائحة الدخان الذي يزكم الأنوف.

انقشع الظلام الدامس وزحف النور على المدينة، فطفق سكان الحي يتسللون خارج منازلهم، بخطى مترددة، تتوجس خيفة مما سيحدث، قاصدين مكان الحريق، ليتفرّجوا على الأنقاض، ويجهروا بدهشتهم واستنكارهم بأصوات خافتة، وهم يلتفتون، بحذر شديد، يمينا وشمالا.

- 35 -

الإقامة الجامعية تسبح في ليلة دافئة. يلفظ النادي آخر الساهرين الذين يتخطون العتبة متثائبين. انطفأت الأضواء، مصباح وراء مصباح، مغرقة العمارات في دجية شبحية. إن الطلبة القلائل الذين يلتحقون بغرفهم بعد منتصف الليل يغمرهم بغتة شعور بالريبة، بل بالخوف وعدم الأمن، فتراهم يسرعون الخطى مستعجلين الوصول، يختلسون النظرات الخاطفة حولهم. يتحسّس بعضهم مفتاح الغرفة القابع في عمق الجيب الدافئ، نادمين على السهر إلى غاية هذا الوقت المتأخر، فيستحضرون الإشاعات المفزعة التي راجت في الأيام الأخيرة حول أشخاص غرباء، يحومون ليلا بداخل حي الطلبة، مخفين وجوههم خلف أقنعة سوداء، يطوفون بداخل الأروقة في خطوات شبه عسكرية، يطرقون الأبواب بعنف وصخب... لا يبدو أنهم يخافون من أحد. قال البعض بأنهم ينتمون إلى الأمن العسكري، وقال البعض الثاني بأنهم من جماعة الإخوان المسلمين. رسِمت على بعض الأبواب علامات بصبغة حمراء، كأنها تؤشر سلفا على غرف المقصودين. وأمام التهديدات ذات المصدر الغريب، تسارع الكثير إلى جمع الأمتعة القليلة من ألبسة وكتب ومغادرة الإقامة الجامعية قبل انبلاج الفجر. أما أولئك العُنُد الذين اعتبروا مغادرة الحي جبنا وخيانة لا تليق بالرجال، وهم غالبا ريفيون تعوّدوا على المواجهة وإن مع الخسران، فتخندقوا بداخل الغرف، متسلحين بوسائل دفاعية هزيلة متمثلة في مقابض المكانس وعصي متنوعة الأحجام، كما حرصوا على تقوية صلابة الأبواب بوضع أقفال إضافية.

في هذه الليلة، وبعد منتصف الليل بقليل، تسلّل رهط من الرجال المقنعين عبر مدرج عمارة. صعدوا إلى الطابق الثاني، وساروا عبر البهو

الطويل، رافسين البلاط بأحذيتهم الخشنة دون أن يأبهوا بالطرق الصاخب الذي يحدثونه. توقفوا إزاء باب عليه علامة حمراء على شكل صليب. استرقوا السمع لمدة ثوانٍ معدودة. تقدّم سليمان مرواني وطرق ضربات عديدة متتالية بعمود حديدي يمسكه باليد اليمنى. ظاهريا، تبدو الغرفة شاغرة. لا صوت ولا ضجيج ولا حتى صرير تحريك كرسي أو طاولة.

قال المهدي بصوت أجش:

– افتحوا الباب... نعرف بأنكم هنا... افتحوا وإلا كسرناه...

تضاعفت الطَرَقات في قرقعة مُصمة. بداخل الغرفة، انكمش طالبان خلف الباب والخوف يمزّق أوصالهما. همس أحدهما لصاحبه، بارتعاش جلي في نبرة صوته:

– ماذا تقول لو نتفاوض معهم... ربما...

وقبل أن يكمل جملته، انفصلت الأقفال تحت ركلات قوية متتالية وانفتح الباب. في طرفة عين، احتل زوار الليل الغرفة الضيقة، شلوا حركة الطالبين بربط يديهما بحبل خلف الظهر، ثمّ عصبوا عينيهما بقماش أسود، بعد ذلك دفعوهما عبر الرواق الطويل والسلّم، وساروا بهما خلف العمارة تحت جنوح ظلام شفاف وقادوهما إلى بطحاء أكثر عتمة. أرغموا أحدهما على التمدد أرضا، فيما أحاطوا الثاني وباشروا محاكمته. قال المهدي:

– باسم الله العظيم الجبّار، باسم الجماعة الإسلامية، نأمرك باعتناق الإسلام والتخلي عن ماركسيتك الكافرة ووضع حدٍ لنشاطك المدعم لإبليس لعنه الله.

التزم المتهم الصمت. في حقيقة الأمر، كان غارقا في تخمينات مربكة. انتابه ندم بعدم أخذ المسألة بجدية أكثر. كيف يُختطَف بهذه السهولة العجيبة؟ صحيح أنه لم يصدّق الإشاعات. اعتبر الطَرَقات الليلية المتواصلة منذ أيام تخويفا لا أكثر، هدفها إفراغ الحي من الطلبة وإبعادهم عن أيّ نشاط نقابي أو سياسي أو ثقافي.

وفيما كان النقابي المحنك في نقابة الطلبة الماركسيين يحاور نفسه ليبعد الارتباك والخوف من ذهنه، انهال عليه سليمان بضربة قوية بالقضيب الحديدي على الظهر. وجع حاد كالتيار الكهربائي أرعد جسمه.

ترنّح الطالب وكاد يفقد توازنه، ودون انتظار، تتالت عليه من كل الجهات ضربات أخرى، في وابل متدفق كرعود الخريف. أغشى الضباب بصره، خطى خطوتين وسقط أرضا، وجهه على التراب، تماما مثل عمود تلغراف ينشر من قاعدته. أمسكه المهدي من الذراع الأيمن وأوقفه، صارخا في زئير كاسر:

– قم أيها الملحد اللعين... ألم تسمع ما قلناه لك؟

لم يجب المتهم. تهاطلت عليه الأوامر مرة أخرى... لا شيء تمكن من حل عقدة لسانه. قال سليمان غاضبا:

– صمّ بكم لا يعقلون... لا حل مع أمثالكم إلا الموت...

قال المهدي:

– صدقت يا سليمان، لا ينفع مع هذه الشرذمة إلا الموت. ماذا تقولون لو نربطه إلى شجرة ونقوم بجَلده مائة جلدة... يموت تحت السوط أو يرجع إلى الصّراط المستقيم؟ أم تفضلون الرجم مثلما يرجم الشيطان اللعين؟ نحفر حفرة وندخله إلى غاية الحزام ونبدأ برشقه بالحجارة... ماذا تقولون يا إخواني؟

قال سليمان:

– نحن معك... أنت الأمير ونحن جنود الرحمن. قرّر ما تراه صائبا لهذا الكافر اللعين.

ارتعدت أحشاء الطالب وأحسّ بوهن شلّ ساقيه... غشاء قطني ضبّب عليه الرؤية... ثوانٍ ثقيلة تضاربت فيها أفكاره وتشابكت، ولكنه أغمض عينيه في عملية تركيز قصوى، أفرغ ذهنه من أيّ تفكير، استنشق الهواء ببطء وقوة. هكذا وفي سرعة، تمكّن من استرجاع اتزانه والسيطرة على خوفه، ثمّ راح يقنع نفسه بأن المحاكمة خدعة مُحكمة، فليست إلا مسرحية مأتمية، يريد بها أصحابها اختبار قناعاته ومدى صلابتها. هل يتصوَّرون حقا أنه سيتنكّر لماركسيته عند أوّل ترهيب؟ إنهم مخطئون على طول الخط. الإنكار يعني الانتحار. هل يريدون أن يثبتوا له ضعفه أمام الموت، وعدم قدرته على التضحية بالنفس للدفاع عن أفكاره، وأنه غير

محصَّن ضد قلق الموت، خلافا لهم، حيث يستعجلون الخلاص من الحياة الدنيا للدخول إلى الجنّة؟ فجأة نطق الطالب الثاني الممدّد على التراب:

– الله الرحيم الغفور، وحده يملك قدرة الهداية. إنه يهدي من يشاء من عباده. وعلى المسلم مهما كان علمه بالدين أن يكتفي بالدعوة والإرشاد. لا إكراه في الدين. من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ألا تعرفون الآية الكريمة: « ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ». كان الرسول محمد – صلّى الله عليه وسلم – مبشّرا ولم يكن طاغيا على أحد. إنّ ما تفعلونه يتناقض مع الإسلام، دين الرحمة والتسامح والغفران. أنتم قتلة، مجرمون ولستم دعاة مثلما تزعمون. أنتم أوّل من يحترق بنار جهنم.

التفت المهدي وأصحابه الخمسة إلى مصدر الصوت. اندهشوا من فصاحته وعلمه بأمور الدين. من أين مرق كالعفريت الرجيم؟ قفز إليه المهدي، أمسكه من المرفق وأوقفه ودفعه بقرب صديقه، ثمّ قال بنبرة ساخرة:

– هذه تأويلات ماركسية للقرآن، نعرف مصدرها. وضعت لتفتح ثغرات للملحدين والمارقين كي يبتعدوا أكثر عن الدين.

سكت مليا، متأملا هيئة الطالب، ثمّ أضاف:

– وإذا كنت تعرف العربية والقرآن مثلما تدّعي، فلماذا لا تتخلى عن الشيوعية الملحدة وتلتحق بجماعتنا؟ حينئذ، يمكن مناقشة هذه الجزئيات بين مؤمنين.

قال الطالب مندفعا كأن شعاع نور برز له في الليلة الظلماء:

– أقترح عليكم تنظيم نقاشات عمومية حول المسألة.

– لا نقاش مع الملحدين. لهم ألاعيب شيطانية كثيرة، يضلّلون بها المؤمنين.

غرق الطالب في حيرة فكرية، باحثا في ذاكرته عن آيات قرآنية لا تزال راسخة من ذلك العهد البعيد الذي كان يدرس فيه العربية والفقه في زاوية الهامل ببوسعادة، كي يدعم استدلاله. يعتقد صادقا بأنّ شرائع قرآنية كثيرة يجب أن تستحدث لتتلاءم مع المجتمع الحديث المختلف

عن المجتمع الذي ظهر فيه الوحي، ولكنه يعرف سلفا أن هذه الأفكار يرفضها السلفيون والأصوليون لأنهم يؤمنون بأن القرآن يصلح نصيا لكل الأزمان، فعلى الرجال أن يتأقلموا مع قوانينه وليس أحكام الشريعة هي التي تتأقلم مع وضع الإنسان الجديد. ولكنه لم يجد الوقت الكافي للجواب. غير بعيد منهم، ارتفعت أصوات غاضبة، شاتمة. توقف المهدي عن الكلام واسترق السمع. اقتربت الأصوات بسرعة وأضحت واضحة النبرات. بغتة، ومن خلف عمارة، مرق رهط من الرجال يركضون، صارخين، شاهرين بأيديهم العصي... إنهم طلبة، رفاق درب المحجوزَين، جاؤوا لإنقاذهما. لم يبق لجماعة المهدي إلا المواجهة. اصطدمت الأجساد بشراسة واحتدمت غيظا. تحوَّلت البطحاء إلى ميدان معركة. في تلك العتمة الشفافة، تبادل المتخاصمان الدَبْزات والركلات وضربات العصي بلا تبصّر ولا رحمة. ألقى كل فرد بكامل ثقله وعنفوانه داخل المعركة... لا وقت للتفكير في العواقب. ترتفع الأيدي وتنزل بالهَراوات على الأجساد دون فرز، تلك الأيدي المتعوّدة على مسك القلم عوض العصي في ساعة متأخرة من الليل. وبعمق كل فرد من الجماعتين، إرادة تدميرية دفينة، لإدراكه بأن الخصم، إن تمكن منه سيدمره تدميرا، وبلا أدنى شفقة. أيديولوجيتان متطرفتان، شموليتان، تشهر كل واحدة حقيقتها المطلقة الخالدة، لا تقبل لا نقاشا ولا معارضة... لا يتردد أصحابها في ارتكاب أعنف الجرائم وأبشع المجازر للوصول إلى السلطة المطلقة.

تلقى المهدي ضربة في الصدغ، وشعر بسائل دافئ ينزل عبر خدّه ثم الرقبة. حينما شعر بطعم الدم المالح على لسانه بصق بفظاظة. مكث واقفا ينظر باهتا إلى الأجساد المتعاركة. اقترب منه سليمان وقال له: « ما بك؟ » فأشار المهدي بيده إلى الجرح. اقترب سليمان إلى حد ملامسة صديقه، ووضع أصبعا فوق الدم ليتأكد. دون أدنى تفكير، أمر بقية أفراد الجماعة بالانسحاب. بسرعة، تخلوا عن المواجهة وتلاشوا في ظلمة الليل. كان المهدي يرمي بقدميه في الفراغ متبوعا بسليمان، وركض خلفهم الطلبة لبضعة أمتار، ولكنهم توقفوا حينما رأوهم يختفون خلف عمارة مظلمة. انتهت المعركة... فكّوا قيد المحجوزين وتأكدوا من سلامة أجسادهم، وبعد ذلك عادوا باتجاه غرفهم، يتبادلون الحديث

في فوضى عارمة، حيث راح كل فرد يروي تفاصيل المعركة بحماس وافتخار، مسندا دور البطولة إلى نفسه أوّلا وأخيرا... وعند مدخل العمارة، تجمعوا وباشروا بغناء نشيد الأممية وأناشيد ثورية أخرى حول الثورة الزراعية وحرب الاستقلال.

بعد فشل المحاكمات الليلية، قرّر المهدي وجماعته تطهير الحي من المشاهد المخلة بالحياء، مشاهد النساء المتبرجات اللائي يتبخترن في الشوارع بـ « الميني جيب » و « الديكولتي »، عارضات أجسادهن للإغواء والفتنة، وكذا العشاق الذين يتبادلون القبل أمام الملإ دون مراعاة شعور المؤمنين. وبما أن الجامعة تبقى الملجأ الأخير حيث يمكن للمحبين أن يلتقوا دون خطر، بعيدين عن أنظار الذكور المتلصّصين أو الإناث المستنكرة، فقرروا تدشينها أولا. بدأ الصيد وبالأسلحة الثقيلة؛ فخلال أيام، قاموا بتمشيط الأروقة والقاعات الفارغة والبساتين، ولم يتركوا زاوية إلا واقتحموها، منقضّين على المذنبين انقضاض الغربان الجائعة على فرائسها...

– ما تَحَشْموش... عار عليكم... تلتصقون مثل الكلاب... هيا اغربوا من هذا المكان... المرّة المقبلة سنجلدكم بلا رحمة...

إن العشاق المنغمسين في اكتشاف ملذات الجسد، مسترقين السمع إلى خفقات القلب الراعشة المشتعلة، غير آبهين بالعدوانية التي تترقبهم، يتحسّسون اللمسات المهيجة للغلمة، يتفاجؤون دوما بوقوف حراس الأخلاق عند رؤوسهم، صائحين، مزمجرين بالشتائم والتهديدات، مما يشلّ بالضرورة نظامهم الدفاعي، محدثا في نفوسهم غيظا وشعورا بالعجز، وعند البعض عقدة بالذنب.

خلال الأسابيع الأولى، لم يأخذ العشاق التهديدات مأخذ الجدّ؛ لم يغيّروا من عاداتهم، وإن حدث أن تهجم عليهم الملتحون، يدافعون عن حريتهم بحماس لا نظير له، محتجين، متظاهرين بالقوة، معتقدين أنهم أمام دعاة بقلوب ليّنة. في ظهيرة مشمسة دافئة، وفيما كان المهدي وسليمان يطوفان حول البنايات والممرات، صادفا حديقة صغيرة جانبية بها أشجار مورقة وحشائش طرية... وخلف نبتة ورود كثيفة، تمدّدت طالبة واضعة رأسها على حقيبتها، مادة رجليها شبه العاريين على الحشيش، وإلى جانبها شاب يداعبها بالتقبيل والمناجاة اللطيفة،

فيما كانت يده اليمنى تسافر بين السحر والنحر، ثمّ تطوف بين وفوق النهدين الكاعبين... بمجرد وقوع بصر سليمان على المشهد، أسرع الخطو نحوهما، وقبل الوصول قال مزمجرا:

– أيتها الفاجرة الزانية، أليس لك عرض تحافظين عليه وأهل تحمين شرفهم ؟

انتفضت الفتاة، جلست وسوّت فستانها، وقالت بلهجة تحدٍّ:

– ما دخلك أنت ؟ لست أخي أو أحدا من أقاربي...

– أنا مسلم يدعو إلى الخير... ألست مسلمة ؟

وقف صديقها وقال:

– اسمع يا السّي... هذا خطاب نعرفه جيدا... أنصحك بالابتعاد عنّا... هذه حياتنا ونحن أحرار فيما نفعل. وليس لك أيّ حق لأن تتدخل في شؤوننا الخاصة.

تدخّل المهدي قائلا:

– هذه أرض الإسلام ولا نسمح لكلاب ضالة بأن تدنسها بالفاحشة والرذيلة.

ردّت الفتاة بازدراء:

– أنتم الكلاب الضالة... تقضون وقتكم في حراسة سلوك الناس وتتدخلون فيما لا يعنيكم.

تقدّم سليمان نحو الفتاة، رافعا يده في محاولة لصفعها. لكنه لم يفعل. تحرّك الفتى للدفاع عن عشيقته، قائلا:

– احترم روحك يا سي... راك قدّام امْراة...

قهقه سليمان بازدراء وقال:

– هذه القحبة الفايْحَة امرأة! المرأة المحترمة تبقى في بيت أهلها ولا تمارس العهر في وضح النهار وأمام الملإ.

قالت الفتاة والغضب قد أجحظ عينيها:

– يمّاك هي الخامْجة يا واحد الخَنْفوس...

دون تردّد، اندفع سليمان كالكلب المسعور نحو الفتاة ولكمها بضربة قوية؛ فاهت بصراخ وتراجعت إلى الوراء تكاد تسقط أرضا... تدخّل صاحبها وضرب سليمان بلكمة على الوجه... بخفة، أخرج المهدي عصا من تحت القندورة وانهال على الفتى ضربا مبرحا، فيما واصل سليمان ضرب الفتاة الساقطة أرضا بالركلات أوّلا ثم بالعصا ثانيا. دقائق معدودة وفرّا مسرعين، تاركين العاشقين يتأوهان ألما ويتحسّسان موضع الجرح.

انتشر الخبر بسرعة البرق. أرعد الهلع القلوب. لقد استقر الفيروس. ربما ستكون الحضانة طويلة الأمد، ولكن الوباء آت لا محالة... تكاثرت الاعتداءات على الفتيات المتبرجات والعشاق... وصل الأمر إلى حد تشويه أحد الملتحين وجه فتاة لم ترضخ لأوامره... قام الإخوان بتجنيد الفتيات المحجبات وأطلقوا عليهن اسم « الأخوات المسلمات »، وهن يشكّلن مشتلا لا ينضَب، يقمن بالدعاية، وينظمن الاجتماعات في أحياء الطالبات، ويبعن الحجابات بأثمان مغرية مقارنة مع غلاء الألبسة النسائية المستوردة. لم يعد المحبون والعشاق يَجرؤون على الظهور في الأماكن العامة، وبالأخص الخاوية منها. بمجرد ظهور جلابية أو لحية في النواحي القريبة، تنخفض أصوات الإناث وتتوقف القهقهات المنطلقة. أخفت الطالبات في عمق الخزائن الفساتين الشفافة أو المكشوفة الرقبة والكتفين، واستبدلنها بألبسة تخفي المفاتن ولا تظهر إلا الرأس والذراعين. ولكن ذلك لم يكفِ؛ تواصلت المطاردات... ينبغي تغطية الشعر. ألا تكمن زينة المرأة في شعرها؟ احتياطات عبثية. كلّما تنازلت الفتيات لشروط الجماعات الإسلامية الأصولية كلما أضافوا شروطا أخرى... بعد لباس التبرج يأتي اللباس المحتشم، وبعده الحجاب، وبعده الجلباب الفضفاض الأسود الذي لا يظهر إلا الوجه والكفين، ثمّ يشترط وضع النقاب على الوجه والقفازة على الكفين، وأخيرا التزام البيت: ممنوع الخروج بدون مرافقة وليّها (الأب، الأخ، الزوج...)، الدراسة إلى غاية سنّ البلوغ، أما العمل فمن المحرمات السبع. ونهايتها هي فصل عالم الرجل عن عالم المرأة؛ ممنوع الاختلاط في أيّ مكان ومهما كانت الظروف. طالبوا بتخصيص حيّز للنساء داخل الحافلات والقطارات والطائرات، بل وتخصيص أرصفة لا تطأها إلا أقدام النساء المحجبات

المجلببات. في وقت عصي الإدراك لسرعته، تدثرت المدينة بألوان الحجاب القاتم، وانتشر الاكفهرار بقسوة الحجر؛ عودة إلى حياة الريف والقرى و « الدشور »، إلى قيم وعادات الأجداد... الرجال في الأسواق والمقاهي، أما النساء، حاشاكم، فلا يصلحن إلا للطبخ وتربية الأطفال وتنظيف الإسطبلات؛ ومفرغا لشهوة الأزواج.

وكأن اتفاقا سرّيّا أبرم بين جماعة الإخوان وسلطة الحزب الواحد، فباشرت هذه الأخيرة بدورها حملتها لتطهير المجتمع من الآفات الاجتماعية، مجندة وسائلها الإعلامية، السمعية البصرية منها والمكتوبة على حدّ سواء. وبما أن السلطة تناست عمدا تحديد معالم « الآفة الاجتماعية » وحدودها، فاختزلها الأعوان المنفذون من الشرطة والدرك في واحدة: المساس بالأخلاق العامة. فالويل للمرأة التي تُضبَط بصحبة رجل ولا تملك أوراق ثبوت نوعية العلاقة التي تربطها به؛ فليس لها حق مصاحبة إلا ثلاثة أنواع من الأقرباء: الزوج، والأب، والأخ. انتشر الهلع والتذمر... ومما زاد من حماس الأعوان المنفذين في مطاردة الأزواج، انتماء أغلبهم إلى الشرائح الاجتماعية الفقيرة الساكنة بالأرياف و « الدواوير » والأحياء المَدينية الشعبية، مع كل ما يجرّون خلفهم من ضغائن ومكبوتات، ملفوفة في عقلية محافظة، تعلي من شأن الرجل وتحط من قيمة المرأة، حيث تلعب قيم « النيف » والشهامة والشرف أهم الأدوار. لم يتجند هؤلاء في أسلاك الأمن إلا بحثا عن سلطة يحتمون بها، يحققون بواسطتها بعضا من الرفاهية المادية، وطبعا يأخذون ثأرهم من المجتمع الذي همشهم وذلهم لسنوات طويلة. يغذون كرها مبطنا بالإعجاب تجاه هؤلاء الفتيان الأثرياء، أولاد التجار والمسؤولين الكبار في الدولة، الذين يتجولون عبر أرصفة الشوارع الكبرى برفقة كواعب فاتنات... هذا ما حثهم على التجنيد بسلك الشرطة أو الدرك، مفكرين وهم على حق، بأن البذلة الرسمية ستجعلهم أكثر انجذابا لدى النساء، وأكثر احتراما عند الرجال. هكذا، وخلال أسابيع، تلذّذوا بأخذ الثأر الذي طالما قض مضجعهم وأرّقهم أيّما أرق، وذلك بإيقاف الأزواج في الأرصفة الغاصة بالمارين المسالمين، بل وراضين كل الرضا، مستخدمين عنفا لفظيا بذيئا. لماذا يحرمون أنفسهم من الغطرسة؟ إن البذلة الرسمية والأوامر الصارمة النازلة

من الأعلى تحثهم على الغطرسة وإظهار هيبة الدولة. وحدها النتائج تؤخذ في الحسبان. اسمعوا أنتم... نعم أنتَ وأنتِ... قفا ولا تتحركا. الدفتر العائلي والبطاقة المهنية... تقول إنها زوجتك؟ هات الدليل! إن كانت زوجتك، يفترض أن تبقى في البيت ولا تأتي بها إلى الشارع، تعرضها على الرجال... هي الرجل وأنت المرأة... تقودك من أذنيك، أليس كذلك؟ لا نقبل احتجاجا ولا نقاشا. هيا اصعدا إلى الشاحنة وسيكون لنا معكما كلام بداخل محافظة الشرطة... قلنا لا نقاش ولا احتجاج... اصعدا وإلا...

إنها الفرصة السانحة لأخذ الثأر بطريقة شرعية، للتخلص من كل الرغبات المكبوتة. نلعب وإلا نخسّر. ما لا أستطيع الوصول إليه، أمنعه. امتلأت مقرات الشرطة والدرك بأزواج لا يملكون الوثائق الرسمية، سواء كانوا متزوجين حقا أو عشاقا أو زملاء المهنة أو مجرد أصدقاء التقوا بالصدفة ومشوا معا جزءا من الطريق. أعدّ المفتشون المحاضر وسجّلوا أجوبة الاستنطاق وهم يتفرسون في وجوه المشبوهين، يكرّرون الأسئلة مرارا، في ريب مَرَضي، ليضبطوهم متلبسين بكذبة أو تناقض أو اختلاف طفيف في المعلومات. في تلك الأسابيع، انتشرت إشاعات مذهلة عن نساء مسؤولين كبار ضبطن برفقة عشاقهن في أماكن أقل ما يقال عنها أنها مشبوهة ولا تليق بالمقام، وأن بعضهن اضطررن إلى لعب دور قحبة الماخور في القاعات الخلفية كي يسرّحن بالمعروف، بلا محضر ولا متابعة.

وقد شارك مواطنون في تدعيم الحملة على طريقتهم الخاصة؛ على غرار ذلك الحارس لحديقة عمومية جميلة، بأشجارها الوارفة وأزهارها العطرة، حيث شكلت أماكن رومانسية مناسبة جدا للقاءات العشاق والمحبين، والذي يراقب الأزواج خلسة، منتظرا اللحظة التي تقترب الشفاه المحمومة ليختلط الرحيق بالكوثر، كي يطلق صفيرا صاعقا، ثمّ يخرج من مكانه الخفي صائحا مهددا: « الحديقة مكان محترم... من أراد الحرام فليبتعد عنّا، وإلا اتّصلت بالشرطة... ». ينتفض العاشقان، يمطران المكان بنظرات خجولة خائفة، ثمّ يبتعدان قليلا عن بعضهما البعض، ويبقيان هادئين كعجوزين متقاعدين غادرت الرغبة جسديهما الضامرين، يكتفيان بتبادل نظرات الشوق والوجد... أو ذلك العامل المكلّف بعرض الأفلام في قاعة سينما صغيرة في شارع خلفي والتي لا يقصدها إلا المحبون بحثا

عن لحظة اختلاء للمداعبة، والذي يراقب بمراءاة من أعلى حجرة العرض، وحينما يتأكّد من أن المداعبات الجسدية قد وصلت إلى ذروتها، يشعل الأضواء، كاشفا عري الأشقياء وذعرهم، حينها ينفصلون هلعين، متبادلين النظرات المذنبة، الحانقة، مصلحين من ثيابهم، وهو جالس يقهقه بصمت، مزهوا بفعله البطولي.

حينما لاحظ المهدي وأصحابه بأن السلطة تشاركهم الموقف، ضاعفوا من حماسهم في مطاردة الأزواج والفتيات اللائي بلا حجاب. سكن الرعب قلب النساء ورضخن للأوامر الجديدة؛ ارتدين الحجاب، وأصبحن يتجنّبن مرافقة الذكور في الشوارع، وإن كان من الرجال الحرم، ذلك أن القائمين على تهذيب أخلاق المجتمع من شرطيين وعصابات الإخوان، في تسرعهم وإيمانهم القاطع بأن الحق والسلطة إلى جانبهم، لا يميزون بين الصالح والطالح، واضعين الجميع في سلة واحدة، مقتنعين أن كل امرأة تضبط برفقة رجل إلا ومصممة على إغوائه بقطف الثمرة المحرمة، تماما كجدتها حواء... إن كيدهن لعظيم... إنهن ناقصات عقل ودين... إنهن الفساد بعينه... وعليهم باقتلاع الفساد من جذوره، وهن الجذر المتين الحصين، منذ أن خلق الله الأرض وما عليها إلى أن يرثها ويسلمها لكائنات أصلح وأبقى.

بعد ذلك، أضحت الشوارع حزينة. الرجال، سوى الرجال، يتسكعون في الأرصفة والطرقات، النظرات تائهة، الشعر كث غير ممشوط، الملابس مبتذلة، مختلة التنسيق، الذقون غير حليقة، تفوح منهم روائح العرق والبصل والشمّة... في غياب النساء، ما فائدة الاعتناء بالمظهر الأنيق؟

رأى المهدي حلما غريبا: رأى نفسه يهجم على قلعة حصينة، تنبعث من خلف أسوارها العالية قهقهات نسائية ماجنة وموسيقى صاخبة. بيده اليمنى يشهر سيفا برّاقا، وإلى جانبيه يتقدّم فرسان بواسل. كان الضوء ساطعا، مبهرا. لم يتمكن من تحديد المساحة التي تفصله من الأسوار؛ تارة يراها قريبة على مدى خطوات، في متناول السيوف المتأهبة لسفك الدماء، وتارة بعيدة، تتملّص من الأنظار كما السراب. بالمقابل، إن الذي كان يبدو واضح المعالم، تلك الكثبان الرملية المذهبة، المتموّجة، والتي تحاصر الحصن من كل الجهات، حيث تقرّبه وتبعده، في عملية مدّ وجزر متواصلة. خطى خطوة عملاق ووقف على أعلى

الجدار، أحكم قدميه جيدا مستعدا لاقتحام مدارج القلعة، ولكن الجدار تهاوى تحت قدميه مثل الرمل، ورأى نفسه ينحدر نحو هاوية سحيقة بلا قاع... صاح بأعلى صوته، فاستيقظ فزعا وسط ظلمة الليل، يتصبّب عرقا، يحرّك يديه، في محاولة يائسة للتشبث بالحائط الأملس للهلسنة الحلمية. رأى الحلم نفسه ليالٍ عدة، ولكن عند اليقظة تتبخّر الصور برغم عناده المتواصل لإبقائها نابضة راعشة، تاركة إياه في حيرة مؤرقة. وحدها، بعض الفتات المشتتة، بلا دلالة ذات قيمة، تدور على بعضها البعض في سرعة مدوّخة. فكّر بأن الأنبياء وحدهم، تطاردهم الأحلام بهذه الكيفية إلى أن يقرّروا نقلها من مجرد حلم إلى أفعال مجسدة، كإبراهيم الخليل الذي رأى نفسه يذبح ابنه ليقدمه قربانا للإله. هل تندرج رؤيته ضمن رؤى الأنبياء؟ رغبة عنيفة للإيمان بالفكرة السارة أثلجت صدره.

في انتظار اتضاح الرؤية، تواصلت المطاردات ومحاكم التفتيش.

في هذه الليلة، تجمعوا في جيش عرمرم أمام نادي الطلبة، مصمّمين على منع عرض مسرحية « محمد خذ حقيبتك ». منذ أسبوع وإشاعة المنع قائمة. بالأمس، نزِعت الإعلانات من أماكنها، وتساءل الطلبة إن لم يكن المنظمون أنفسهم هم الذين ألغوا العرض رضوخا للتهديدات. ولكن، قبل الغسق بكثير، توافد الممثلون حاملين أثاث الديكور المسرحي، وانشغلوا بتحضير منصّة العرض، فمالت الشكوك نحو أولئك الذين أجهروا مرارا بأنهم لن يتراجعوا قيد أنملة عن عزمهم في نسف كل محاولة للمساس بقيم الإسلام والعربية.

المسرحية المبرمجة ألّفها كاتب متمرّد، شاعر ملتزم فكريا ولكنه مستقل سياسيا. كتب الشعر والرواية والمسرحية. استعان أوّلا باللغة الفرنسية، ثمّ انتقل إلى اللغة العربية الشعبية، اللغة الوطنية والرسمية للشعب الذي يكتب عنه وله. يعبّر عن أفكاره دون أن يتضايق بحسابات المخططين أو الانتهازيين. يزعج الجميع، سلطة ومعارضة. تتهمه السلطة بالممارسات المضادة للثورة في خدمة القوى الأجنبية، وتكفّره السلطات الدينية واصفة إياه بالمارق المرتد، ولم تسمح له أبدا تشبيهه المآذن

بالصواريخ العاجزة عن الإقلاع. وأخيرا المعارضة الجنينية، النصف سرية، المتردّدة، التي تشتتها خصومات داخلية، أيديولوجية وزعماتية، الغارقة في ثرثرات صالونية متعالمة، بعيدة كل البعد عن الاهتمامات الحقيقية للطبقة التي تزعم أنها تدافع عنها، والتي تلومه على فردانيته البورجوازية وفوضويته غير المتوقعة. يبدع الكاتب وسط هذه الأصوات الناقمة التي تنهش جسده الضامر النحيف، غير مبال بأصدائها، بل وغارقا إياها في كؤوس خمر معتقة وسجائر حشيش مدوخة، تحصِّنه من الترغيب وتحميه من الترهيب وتسافر به عبر أودية عبقر وقمم أبولون ليغرف منها رحيق الحياة والخلود معا. بالمقابل، يحظى بإعجاب لا حدّ له عند الطلبة، لأنه رمز للتمرّد غير المشروط. تشكّلت عبر الأحياء الجامعية فرق مسرحية هاوية كثيرة تعيد تمثيل مسرحياته، وقراءة أشعاره، برغم المنع الرسمي غير المعلن، وصمت وسائل الإعلام عن نشاطاته الأدبية وتصريحاته المدفعية المزعجة. صمّمت جماعة الإخوان المسلمين، الذين استعانوا بالمهدي وأصحابه من مسجد ابن تومَرت، على منع عرض المسرحية، باستخدام جميع وسائل الردع، بما فيها خوض حرب ضروس بالعصي والسيوف. لن يسمحوا بمثل هذا النشاط، وإن في نادي الطلبة، علما بأن المسرح فن غريب عن الإسلام لأنه يعتمد على التجسيد الذي يذكّر بدون أيّ لبس بالوثنية الجاهلية. يكفي أنهم يتحملون بصعوبة حضور الشعراء بميلهم المفرط إلى الكفر ونظم القصائد العصماء في تمجيد اللذة الحسية ووصف الكواعب الحسناء، ومدح الطغاة الشهوانيين، فيما يبخلون عمدا عن قرض أبيات معدودة في ذكر عظمة الخالق. من هنا، لا ينبغي أن يضاف لهم المسرح الدرامي أو الملحمي الذي يستمد مادة حكايته من الصراع الأبدي بين الإنسان والقَدَر، وطموحه في التخلص من كل عبودية، سواء كانت بشرية أو ربانية؛ إن السماح بمثل هذا يعتبر هدية إضافية وسلاحا في أيدي إبليس وأتباعه.

كان النّادي غاصا بالطلبة... الكراسي محجوزة، ويقف المتأخرون بين الصفوف أو إلى جانب الحيطان، يسدون الممرات ويتبادلون الأحاديث بينهم، آمنين واثقين بأن السهرة ستكون هادئة ومسلية. وقبل بداية

العرض بقليل، اقتحم الملتحون القاعة المضببة بدخان السجائر... دخلوا بغتة بأعداد مهولة، واحتلوا المنصّة والأماكن الأمامية. كانت المفاجأة صاعقة، فلم يتوقع المنظمون والممثلون مثل هذا الاجتياح العاصف ولم يأخذوا التهديدات مأخذ الجد، لذلك لم يفكروا في إعداد جماعات للحراسة والمواجهة. صعد المهدي على المنصة، قام بتهديم الديكور ثمّ أمر المتفرجين بالخروج. تصاعدت الأصوات الاحتجاجية وضجيج الكراسي والطاولات المنقلبة. غادر بعض الطلبة القاعة دون تردد، مفضلين الابتعاد عن المعركة المحدقة في الأفق. اتخذ الملتحون أماكن على المنصة وجلسوا مربعين سيقانهم كأنهم بداخل مسجد، وبعد ذلك طفقوا يهتفون بشعارات دينية. حاول المنظمون والممثلون إقناعهم بمغادرة المنصة، بل وتنظيم مناقشة بعد العرض... دون جدوى... وحينما أحسوا بعجزهم في مواجهة الملتحين، جمعوا الأثاث الخفيف والملابس المشكلة للديكور وغادروا النادي، هاتفين بدورهم بشعارات مضادة.

بالنسبة للمهدي وأصحابه، كانت هذه الغزوة الليلية بداية فعلية لسلسلة من التدخلات القوية ضد كل نشاط فني، ولم يجدوا مقاومات تصدهم أو تحدُّ من زحفهم ولو قليلا؛ يغادر المتفرجون القاعة عند أولى الصدامات. حاولت مجموعة من الطلبة تنظيم حفلات غنائية كردّ فعل دال، ولكن الأصوليين كانوا بالمرصاد ضد أيّ نشاط؛ يحضرون بأعداد هائلة لتكون الغلبة إلى جانبهم. هكذا بقيت جميع القاعات فارغة، عرضة للجرذان والغبار والإهمال. تخندق الفنانون في ديارهم، يجترون عجزهم، يحنّنون إلى الأيام الخوالي... البارح البارح كان في عمري عشرين... فكّر بعضهم في الاستثمار في المديح الديني. على كل حال، إنه أهون من الصمت القاتل. إن الرغيف يجبر الفنان على تقديم تنازلات غير متصورة، أما الشبان منهم ففضلوا الهجرة الجماعية نحو أوروبا. إنها فرصة العمر التي لا ينبغي تفويتها تحت أيّ مبرّر. تشبثوا بكل حيوية خلايا جهازكم العصبي، فلا تترددوا عن رمي ما بعمق الجرّة في وسط المعركة. إن المركب سيكون غاصا إلى حدّ الغرق، والأمواج عاصفة مضطربة، ثمّ إن الحبال المرمية من الضفة الأخرى قد تتمزق فجأة تحت

ثقل كثرة المتشبثين. على كلٍ، إن هذا البلد كان دوما جنة للمحاربين والدراويش، لا غير، أمّا الفنانون والشعراء فكانوا في كل الأزمان من المنبوذين والمغضوب عليهم... ولن يتغيّر الوضع بعد طلوع شمس الغد.

- 36 -

استثناءً، هذه الليلة، سَهر شباب حيّ سيدي المخفي إلى غاية ساعة متأخرة، يقضم أحشاءهم ضَجر غامض. كانت البطحاء غاصة بوجوه شرسة تحدّق حولها بنظرات بركان على وشك الانفجار. بداخل البقالة، نور شمعة خافت يمنح الحاضرين إحساسا يقاومون به سيادة العتمة وما تحمله من توجّسات.

كان حميد الإسكافي أكثَرَهم اندفاعا وكلاما. قال بصوته الأغَن:

– لا ينبغي أنْ نبقى مكتوفي الأيدي، نتفرّج كالبغال الصمّاء... يَجب أنْ نشارك في المظاهرات... نحن أيضا رجال ولنا كلمتنا في شؤون هذا البلد. فمنذ أن وعَيت وإلى يومنا هذا، وعمري ثلاثة وعشرون سنة، وأنتم جميعا مثلي، نقبع كارهين داخل هذا الوادي العفن، رحمة للبعوض والجرذان، بلا ماء، ولا كهرباء، ولا طريق...

– على كل حال، البلد سيلتهب غدا، بنا أو بدوننا، قال عبد القادر كرّوش الجالس على التراب.

– آخر الأخبار تقول بأنّ آلاف الشباب خرجوا في الأحياء الشعبية بالعاصمة وأضرموا النار في المؤسسات والسيارات العمومية، وأنّهم يحاصرون مراكز الشرطة ويرشقونها بالحجارة وبمحارق المولوتوف.

– وماذا ننتظر لمشاركتهم؟

– نعم، ماذا ننتظر؟ كرهنا وأضحت حياتنا لا تطاق...

تعالَت أصوات عدّة من زوايا مُعتّمة. أغلب الشبان جالسون على قطع آجر مفرّمة أو على قطع خشبية متهرئة.

ارتفعت غمغمات مستحسنة موافقة، وبَعد صَمت قصير، طنّ صوت رشيد البقال وهو يمسِد لحيته الكثّة:

– إنّها الأفعى تريد تغيير جلدها.

التفتَت الرؤوس واشرأبَّت لمعرفة صاحب الكلام الغريب. كان رشيد حَلموش لا يزال واقفا عند العتبة وبصره تائه في فضاء الأفق البعيد، في السماء السوداء التي تتلألأ في عمقها آلاف النجوم اللامعة. قال صوت به انزعاج ظاهر:

نحن جادّون يا رشيد... نتحدّث عن المظاهرات وأنتَ تحدّثنا عن الأفعى ؟!

استأنف رشيد كلامه بنبرة أكثر جدية، وبصوت يخرق العتمة والصمت:

– أتصدّقون هذه السلطة الفاجرة ؟ أين سمِعتم برئيس يدعو إلى مظاهرات شعبية ؟ المخابرات هي التي تناور لإخراج الشعب المسكين، المغلوب على أمره، إلى الشوارع. تحرّضه على إضرام الحرائق في بعض البنايات والمركبات، ثمّ، وباسم النظام ومصلحة الأمة والدولة، يعلن الرئيس تطبيق ما هو مُحضّر منذ فترة في مخابر أصحاب القرار من الجنرالات وخبراء المصالح الخاصة.

– ما هذه الألغاز ؟ أنا لم أفهم شيئا، قال الروجي.

– ليس هناك ما يستوجب الفهم، (ردّ حميد علّوش) هذه مقدّمة كي لا يشارك رشيد في مظاهرات الغد. إنه تاجر والتجار حذرون بالسليقة. ينتظر معرفة وجهة الرياح قبل اتخاذ قراره.

– ليس الوقتُ وقتَ الخطابات والتأويلات، (ردّ عبد القادر بنبرة تذمّر) سنخرج غدا للقيام بمظاهرات وسط المدينة. هل ستأتي معنا أم لا يا رشيد ؟

خيّم صمت ثقيل على رؤوس الحاضرين، آذانهم مشنّفة تنتظر الجواب. ولم يسمعوا إلا قهقهة خافتة ساخرة، سرعان ما تلاشت في الظلام.

هناك في الأفق، ظهر الهلال جليا من خلف قمة هضبة سيدي المخفي وألقى على المنبطح نورا رسم أشباح الجالسين والممدّدين وأخرجهم من الظلام السائد قبل دقائق. توقفت الكلاب عن النباح. كان الليل يزحف بثقل مضجر. الانتظار طرد النعاس من جفون الذين تعوّدوا على النوم مع استقرار الظلام.

– كم الساعة ؟ سأل صوت قبل أن يغرق في تثاؤب مسموع.

مرّت ثوانٍ. وبعد ذلك، ردّ صوت بنبرة إدهاش :

– منتصف الليل إلا الربع !

لقد سهرنا طويلا هذه الليلة.

وقف عدّة أشخاص في وقت واحد تقريبا وانشغلوا أوّلا بنفض الغبار والتراب والحصى اللاصقة بمؤخرة سراويلهم. « تصبحون على خير... ليلة سعيدة... إلى الغد إن شاء الله... » تكرّرت الصيغ وتواترت في أصوات خفيضة مُتسرِّعة. ابتلَعتهم الظلمة عبر درب جانبي يحوط القصبُ ضفتَيه.

مباشرة، أطفأ رشيد الشمعة، أغلق الباب الحديدي وأحكم قفله جيدا واختفى خلف سياج تين الصبار.

كان ضوء الشمعة برغم خفوته يمنح إحساسا بدبيب الحياة. لم ينتبه عبد القادر إلى ارتفاع القمر إلا بعد غلق الحانوت. وقف ومدّد جسده وهو يتثاءب بصوت مرتفع.

– هيا أيها الإخوة، ألَم تنعسوا ؟ هل ستقضون الليلة هنا ؟

– لم ننعس، ردّ حميد.

– أما أنا فلا أزيد دقيقة واحدة. أخاف أن يغلبني النعاس في منتصف الطريق، وأبيت في قاع الوادي.

– إذن، تصبح على خير.

– إلى الغد... لا تنسوا... أمامنا مهمة جليلة سنقوم بها...

– لا تخف، نحن خلقنا لمثل هذه المهمات.

ابتعد عبد القادر وسلك الدرب المظلم، تاركا عددا من أصحابه يواصلون السهر.

بمجرّد أن لامسَت أولى أشعة الشمس ذروة هضبة سيدي المخفي حتى عجّت البطحاء المحاذية للبقالة بشبان يزعقون هائجين غضبا واستعدادا لغزو وسط المدينة. يصرخون بتهديدات وشتائم في ضجيج يُغطي صفاءَ الكلام، بحيث لا أحد ينصت لما يتلفظ به غيره. تجمعوا

في حلقات متفاوتة العدد ومتناثرة. ولا تمر دقيقة إلا ويبرز وافد جديد من بين الدروب المثعبنة المنبثقة من سكنات ضفتي الوادي.

في لحظة ما، ودون أن يصدر أمر واضح من أحدهم، انطلقت الأجساد باتجاه المدينة، منحدرة عبر الطريق الترابي. تسارعت الخطى وتباعدت الحلقات، فأظهرت أسلحة بيضاء من عصي وقضبان خشبية وحديدية يشدّها بعضهم بعزم ويلوّحها البعض الثاني في الهواء بفخر وتوعد صارم.

وقف شيخ يتابع المنظر بعيون ذابلة وهو يتمتم دعوات بأن ينقضي النهار بدون زهق الأرواح :

« هاج شبان اليوم، شبعوا الخبز وجنّهم الفراغ ولا يعرفون ماذا يفعلون بأيامهم سوى خلق خصومات مع أوهامهم... الله يستر ويسلكها على خير ».

حينما ابتعد الفتيان، انكشفت أجساد أطفال كانوا ينتظرون مترقبين على أطراف البطحاء، فخرجوا من أوكارهم وأطلقوا بدورهم صيحات نصر وانطلقوا يركضون مقتفين أثر الكبار.

عند طرف المدينة، كان حميد الإسكافي ينتظر، مسندا ظهره إلى عمود مصباح عمومي. توجّه إليه عبد القادر وصرخ في وجهه :

– أين كنت يا حميد ؟ بحثنا عنك، أرسلنا طفلا إلى منزل والديك، وقالت له أمّك بأنك خرجت باكرا. بصراحة اعتقدت أنك نجوت بجلدك بالسفر إلى مكان آمن !

– خسارة عليك يا عبد القادر ! أتظن أنني سأضَيِّع هذه الفرصة ؟ اعتراني سهاد طوال الليل، فلم يغمض لي جفن، وخرجت عند أولى ملامح الفجر. قلت سأقوم بدورة في شوارع وسط المدينة ؛ مثلما تعرف، أنا أهوى المشي كثيرا، يريحني ويبعد عنّي الوساوس والضجر.

– هل لاحظت شيئا مريبا ؟

– في الظاهر يبدو الوضع هادئا. فباستثناء سيارة الشرطة المتوقفة في المفترق قرب الساحة العمومية، لم أرَ شيئا غير عادي.

وبعد صمت طفيف، أضاف :

– وأعتقد أنني تعرّفت على واحدٍ من الشرطيَين القذرَين اللذَين أشبعاني ضربا خلال إضراب مصنع الإسمنت. أتذكر ؟ لقد حدّثتك عنه، وبسببه وجدت نفسي بطالا وعدت إلى مهنة الإسكافي المُذلّة.

– وكيف لا أذكر ؟ وأنت قضيت سنة كاملة وليس على لسانك إلا ذلك السخط على من أشبعك ضربا وهدّدك بالسجن إن أنت وضعت قدميك مرة أخرى في المصنع. ولكني أتذكّر أنك قلت لنا بأنّ الشرطيين غريبان عن المدينة ولا تعرفهما.

– نعم، ولكن هذا الصباح وأنا أرتشف قهوتي الصباحية عند عمّي عبد الرحمن، رأيتهما يدخلان المقهى. كانت رؤيتهما كمن وجّه لي صفعة قوية، فعادَت بي الذاكرة إلى ذلك المساء اللعين، وتعرّفت عليهما فورا. ولا أخفي عنك بأنني امتلأت غيظا وكدت أرتكب حماقة أدفع ثمنها غاليا. من حسن حظّي أن المِحن لقّنتني الصبر والتريّث، وإلا...

– إذا كنت واثقا مما تقول، هيا نستغل فوضى هذا اليوم ونثأر لأنفسنا.

حينما أشرف عبد القادر وحميد وجماعتهما على الوقوف بالمفترق المطل على الشارع الرئيسي، تزامن توقف حافلة لتلفظ بفظاظة زرافات من المراهقين، جاءوا هم أيضا من الأحياء والقرى المجاورة، مستجيبين لتلك النداءات المجهولة التي ما فتئت تتقاذفها الألسنة دون التأكيد من صحة خبرها ولا من مصدرها. م هي إلا لحظات حتى غصّت الأرصفة بالفتيان الساخطين، يقرعون طبول العدوان، كما لو أنهم يحملون على أكتافهم براميل من المتفجرات ولا ينتظرون لإشعال فتيلها إلا شرارة لا يعرفون من سيضرمها ولا متى.

أسْرَع التجار المبكرون إلى إسدال ستائر محلاتهم بعد وقت قصير من فتحها وعيونهم تترصّد هذه الوجوه الغريبة، العدوانية، التي نزلت على المدينة بكثرة غير معهودة، كغربان جائعة هاربة من فيافي قاحلة جرداء لا زرع فيها ولا نبات. هم أيضا تداولوا تلك الإشاعات التي انتقلت كالنار في العشب اليابس أيام الرمضاء والرياح الساخنة الآتية من الجنوب، ويدركون جيدا أن هذه التجمعات عادة ما يرافقها التكسير والحرق اللذان يؤديان حتما إلى السرقة ونهب الممتلكات العمومية والخاصة.

في دقائق معدودة، احتل المتجمهرون قارعة الطريق، يتشاورون بينهم برفع الأيدي والأصوات التي كانت في البداية منخفضة محتشمة، قبل أن تتعالى لتقاوم الضجيج، ذلك أن الجميع طفق يتكلم ويبدي رأيه... لا أحد يريد السماع، بل لا وقت للكلام أصلا. تردّدوا أيّ الاتجاهين يسلكون، فمالت الغلبة إلى اليسار، وانطلقت المسيرة. تعالت شعارات : سلطة مُجرمة... بَركانا من الحَقرة... الرئيس بَرّا...

هناك، في المفترق، وقف بضعة شرطيين، يمسكون بالعصي في أيديهم، يحدّقون في جمع المتظاهرين بعنجهية وثقة في صدّهم في طرفة عين. اقترب المتظاهرون، في تحدٍّ شرس.

كان حميد علّوش الإسكافي مبتهجا، مندفعا... ها قد حانت ساعة الانتقام التي انتظرها طويلا. يمسك قضيبا حديديا اقتلعه من حديقة الساحة العمومية، مقلّدا فتيانا سبقوه إلى رفس الزهور والنباتات وكسر سياجها الحديدي واستغلال القضبان وتحويلها إلى أسلحة يلوّحون بها فوق رؤوسهم، مهددين متوعدّين.

مشى لحظات إلى جانب عبد القادر ولكن موجة المندفعين أبعدته عنه، فوجد نفسه وسط وجوه غريبة.

أضحت المواجهة الجسدية حتمية بين الفينة والأخرى. شكّل الشرطيون سياجا بشريا بهدف صدّ زحف الغاضبين الهائج. أخرج هؤلاء الحصى والأحجار من جيوبهم وطفقوا يقذفون بها خصومَهم. ارتفعت القضبان والعصي فوق الرؤوس، تهزّها قبضات قوية مستعدة لعراك ملحمي. ارتطمت الأمواج البشرية المتلاطمة في زوبعة جنونية. انقضّت العصي والقضبان وقبضات الأيدي على الرؤوس والأكتاف والظهور. التحمت الأجساد المحمومة وتدافَعت بغيظ أعمى. سقطت أجساد على الأرض، رفستها الأقدام غير مبالية إن كانت لصديق أو عدوّ.

وكانت الغلبة لكثرة العدد. توارى الشرطيون الناجون إلى الخلف، ينقذون أرواحهم من الهلاك، تاركين القبعات والمقامِع، بل وحتى المسدسات، ليتلقّفها المنتصرون ويتخاصمون حولها كغنائم حرب ثمينة. ظفر حميد بمسدّس رفسه بقدمه أولا، قبل أن يلتقطه في نشوة ورهبة.

وفي غمرة الابتهاج، رفع السلاح إلى الأعلى وأطلق رصاصة في السماء. أرعد الدوي أوصاله قبل غيره، تعالت أصوات صراخ وهلع واندفع الفتيان في جميع الاتجاهات، وأبصارهم تلتفت يمينا وشمالا بحثا عن مصدر الطلقة.

جرّت الأمواج البشرية حميد، فانساق وسطها متفاديا السقوط مرات متتالية، دون أن يفلت المسدّس من قبضة يده. بَعد ارتطامات فظة، انتبَه إلى أنّه بقرب مقر البلدية. كان بابها الرئيسي مفتوحا وعلى عتبته يقف موظفون يتابعون المشهد بحيرة واندهاش. ارتفع صوت ساخط:

– البلدية! يا إخوان، البلدية! المير المرتشي...

– آه، نعم! رئيس البلدية القذر؟ يوزِّع السكن لأصدقائه وأفراد عائلته وأقاربه...

– هيّا يا إخوان... لندمّر ونحرق هذه القذارة...

مباشرة، كما لو أنّ مغناطيسا قويا جذب الفتيان إلى الداخل، اندفعت الأجساد المحمومة عبر الباب، ما أدّى بالموظفين إلى القفز جانبا تفاديا للضربات والاندفاعات. تعالى صراخ نسائي من داخل المكاتب، فهرعَت الموظفات باحثات عن منافذ للفرار.

لم تمر إلا دقائق حتى بدأ المتمرّدون يسحبون الطاولات والكراسي ويُخرجونها إلى الرصيف، ثمّ كدّسوا فوقها علبا كرتونية تحوي الوثائق والملفات الإدارية، وأضرموا النار في الركام، صائحين، هائجين، في رقصات هستيرية.

وكمَن فجّر رغبةً دفينة في إشعال النيران، فما هي إلا لحظات حتى اندلعت حرائق في مختلف العمارات المجاورة: المحكمة، مقر الدائرة، الحزب، الضرائب، مكتب السياحة، والفندق الوحيد بعين الكرمة؛ فكانت الأمواج البشرية تندفع داخل المكاتب وتضرم النار دون أدنى اعتبار للأضرار الناتجة عن الحرائق.

وبعد أن دمروا وأحرقوا ما استطاعوا في وسط المدينة، احتلوا الشارع الكبير وتحلقوا وبدؤوا يردّدون شعارات معادية للحكومة والرئيس والحزب والشرطة، وهم يشهرون قبضات أيديهم والعصي والقضبان الحديدية، رغبة منهم في مزيد من التدمير والحرق. صاح صوت:

– وسوق الفلاح ؟ نسيناه !

– نعم سوق الفلاح !

انتفضت الأمواج البشرية من جديد وركضت باتّجاه المحل التجاري العمومي الواقع بطرف المدينة الغربي. ركض حميد وعبد القادر مع الراكضين. عندما دخلا إلى موقف ركن السيارات الفسيح، صادفا بائع السجائر وأخاه الصغير وهما يحملان جهاز تلفزيون وهما يكشران بملء شدقيهما سعادة بالاقتناء الثمين والمجاني. أوقفهما حميد صائحا:

– حطّوا هذه السلعة... نحن متظاهرون، لَسْنا سرّاقين...

– شوفْ قدّامك، ردّ الأخ الصغير وهو يتشبث بالجهاز مستعدا للدفاع عنه بخوض معركة العمر.

– الجميع يتقاتل للظفر بسلعة ثمينة (أضاف الأخ الأكبر) ادخل لترى بنفسك...

فتيان كثر يخرجون من المساحة الكبرى، الأذرع محمّلة والعيون تتلألأ سعادة. انشغل حميد عنهما، فاغتنم الأخَوان الفرصةَ وابتعدا، مفسحين المجال للخارجين المندفعين، المحملين بشتّى السلع.

لم يصل منتصف النهار حتى كانت المدينة كما لو أنها تعرّضت لقصف عدواني دمّر وأحرق أغلب البنايات. أقام المتمرّدون متاريس عديدة بعجلات مطاطية تطلق أدخنة تناطح السحُب القليلة البعيدة. هياكل سيارات وشاحنات وحافلات لا تزال تحترق وتنبعث منها روائح حادة تزكم الأنوف. وأمام البنايات تراكَم رماد بقايا الأثاث وعلب الأوراق المحترقة فوق بقع القارعة السوداء.

بداخل محافظة الشرطة، بقاعة الاستقبال الفسيحة، تخندق رجالها ينتظرون وصول فرق المساعدة. جلس اثنان منهم على المقعد الخشبي الخاص بالزوار، فيما راح ثلاثة آخرون يذرعون القاعة في ذهاب وإياب وهم يدخّنون بعصبية. أمّا المفتّش الثخين، فكان لاصقا بالهاتف الثابت، يحدّث مكلميه ويمطر زملاءه بأخبار جديدة مقلقة.

البلد يحترق... جميع مقرات الشرطة يحاصرها المتظاهرون الهائجون، كما لو أنّهم آلات تدمير مبرمجة. لا تعرف فرق التدخل السريع كيف تتصرّف.

– منذ أزيد من أسبوع ونحن نسمع بأنّ مظاهرات شعبية ستقع يوم 5 أكتوبر (قال شرطي أربعيني بشلاغم غطّت نصف وجهه) فلماذا بقينا مكتوفي الأيدي. تحدّثت مع المحافظ شخصيا، قال لي أنه لم يتلقّ أمرا باتخاذ إجراءات منعها أو قمعها. هو أيضا كان ينتظر الأوامر. ولا أحد حرّك أصبعا لفعل شيء. وها هي النتيجة...

– إنها مؤامرة ضد الدولة وتكسير البلد.

– مؤامرة أم لا، إننا في ورطة خانقة. دلّونا عن مخرج يحفظ كرامتنا وسلامة أرواحنا.

– فات الأوان (ردّ الشرطي المُشَلغَم) كيف يكون ردّ فعلنا الآن؟ أن نطلق الرصاص على هؤلاء الفتيان المجانين؟

– اتّصلت بالمحافظ قبل قليل وقال ممنوع استعمال الأسلحة (أوضح المفتّش وهو يحطّ جهاز الهاتف بفظاظة) علينا بالانتظار والصبر. سيهدأ الوضع قبل غروب الشمس، لا تقلقوا. ليس إلا ضجيج أطفال بطالين يتوّهمون أنفسهم أبطال سينما.

– لا أظن ذلك، سيدي المفتّش. الوضع أعمق وأعفن مما تتصوّر (قال الأربعيني الضامر) إنهم شباب الاستقلال يتمرّدون ضد التسيير الكارثي لشؤون البلاد. بعد ثلاثين سنة من الاستقلال نجد أنفسنا نتقهقر، ولم يتحقق شيء من الرفاهية لهذا الشعب المسكين. ضاعت سنوات الثورة والتضحيات هباءً. فكيف تريد لشبان اليوم أن يسكتوا وهُم يقارنون وضعية هذا البلد ببلدان أخرى؟ شباب اليوم مثقف، ويتابع القنوات التلفزيونية الغربية ويقارن.

– شبان اليوم كسالى، لا يحبّون العمل الشاق (قال المفتّش بنبرة جدّ وحكمة) لا أحد يشتغل في الزراعة أو البناء، كلهم يفضلون المكاتب وأعوان أمن في المؤسسات الحكومية. ولا تنسَ انهيار أسعار النفط وهو موردنا الوحيد!

– الاشتراكية وأسواق الفلاح هي التي أدّت بالبلد إلى الكارثة، تدخّل شرطي من الجالسين على المقعد الخشبي.

رنّ الهاتف فاهتزّ المفتّش مسرعا إلى رفع السماعة. ألو... ألو... استمع لثوانٍ وتلعثم ببضعة كلمات، ثمّ حطّ السماعة ساخطا مغمغما:

- الهاتف اللعين... لا يمكن أن تتكلم دقيقة دون أن تنقطع المكالمة.

ثمّ بعد صمت، مطّ شفتيه، حدّق في الشرطي الأربعيني، وقال:

- يجب الاستعانة بالجيش... وحدهم العسكر يملكون الإمكانيات البشرية والمادية لصدّ هذا الهجوم الشعبي المجنون. بهذه الوتيرة، سيُخرّب البلد قبل نهاية النهار.

وقف، حرّك ساقيه في حركات راقصة خفيفة واقترب من النافذة المطلة على الشارع؛ شَحُبَ وجهه وجحظت عيناه لهول ما رأى...

في الخارج، ترعد الأصوات الساخطة وهي تقترب من مقر محافظة الشرطة. انتفض الشرطيون فزعين وهرعوا إلى النافذة، والخوف الغامض يتراءى في عيونهم الغائرة الذابلة والتساؤلات الصامتة التي لم يقدروا على الإفصاح عنها. أضحت الأصوات واضحة النبرات والمفتّش يتابع معها بترديد خافتٍ للكلمات. سرت رجفة في كامل جسده، شلّته، جمّدت دمه... يعي جيّدا بأنّ الناس عموما والشباب خاصة يكرهونه، ولن يفوّتوا فرصة الانتقام منه، وذلك بسبب سلوكه الفظ ولسانه السليط الذي لا يترك شتيمة إلا وأمطرها في وجوههم، بسبب وبدونه. ارتعدت أوصاله لأنه يدرك تمام الإدراك ما ينتظره من إهانات وربّما من ضرب مبرّح في حالة ما إذا وقع أسير تلك الجماعات الهائجة التي حاصرت البناية وبدأت تخبط في الباب والنافذة بالعصي والقضبان خبطات حقد وتلهّف على إذاقته وزملائه شرّ عذاب.

تطاير زجاج النافذة وامتدّت عشرات القبضات تهزّ الشباك الحديدي، فيما انهالت الركلات وضربات الأكتاف على الباب الخشبي المتين. وما هي إلا دقائق حتى انهارت جميع الحواجز واندفع المتمرّدون إلى داخل صالة الاستقبال. ومع كل هذا الصخب والضجيج والصراخ، وجد المفتش الشجاعة الكافية لمواجهة تلك الوجوه المتعرّقة التي سوّدها الدخان بجسمه الضخم، قائلا بصوت متهدّج متقطّع:

– توقفوا... أولادي... كونوا عقلاء... هذه محافظة شرطة... ونحن مسلحون ولا نريد إطلاق النار عليكم... عودوا إلى الشارع وتظاهروا على حريتكم...

ولكن صوت المفتش غرق وسط صراخ المندفعين وهدير الهرج والمرج الذي حلّ بالقاعة. اختلط الحابل بالنابل. انبرى الشرطيون للدفاع عن النفس ولكن كثرة المندفعين والعصي والقضبان المنهالة عليهم، أوقعهم في لحظات أسْرى لا حول لهم ولا قوة. جرّدوا من أسلحتهم ودُفعوا إلى داخل مكتب جانبي وأغلق وراءهم الباب.

وحده المفتّش بقي ممددا بكل طوله على الأرض. تلقى ضربة موجعة في الرأس أرته سبعة وسبعين نجمة، فهوى ككيس بطاطا على البلاط، ورفسته الأقدام بشراسة. أغمَض عينيه مركزا كل حواسّه على الصداع الأليم، منتظرا دقيقة الفرج.

بادر حميد وعبد القادر ورجلان آخران إلى رفع المفتّش وجرّه إلى غاية ركن يحاذي مصرَف الاستقبال، فأتاهم الروجي بأصفاد حديدية أخرجها من درج، وقيّد معصمي المفتّش مقهقها بنشوة انتصار :

– ها قد وقَعْت بين أيدينا أيها الظالم القذر !

تهافَت المتمرّدون إلى إخراج الطاولات والآلات الكاتبة والكراسي والخزائن الحديدية بعد إفراغها من العلب الكرتونية ورزم الأوراق ومحتويات شتى. شكلوا ركاما عند الرصيف وأضرموا فيه النار، صارخين، مبتهجين...

استعاد المفتّش قليلا من صفاء ذهنه. كان القيد يؤلمه كلما حاول القيام بحركة لتسوية وضعية جلوسه.

– يا أولادي... (قال متوسّلا) فكّوا قيدي من فضلكم. فلنتحاور بكل أخوة... ماذا فعلت لكم يا إخوتي ؟ أنا مجرّد شرطي بسيط، أعيل زوجة وأولادا...

أسكته حميد بوضع قدمه على صدره والضغط بضغينة :

– الآن، تعرف الأخوة يا واحد الحلّوف ! انظر إليّ جيدا... هل تعرّفت عليّ ؟

انحنى حميد لتقريب وجهه من بصر الشرطي. غمغم هذا الأخير :

– بصري ضعيف ولم أعد أبصر جيدا... فكّوا قيدي يا إخوتي...

بصرك ضعيف وذاكرتك تالفة أيها القذر! سأذكّرك بما اقترفته من ظلم في حقّي. أتتذكّر ذلك المساء الذي جئت مع مدنيَين وأخذتني من المقهى، ركبت معكم متصورا أنني مع شرطي يحميني، وإذا بكم تقودونني إلى خارج المدينة. أشبعتموني ضربا وتركتموني في ساقية نصف مغمى عليّ. لماذا؟ لأنني شاركت في إضراب مصنع الإسمنت. أتتذكر؟ كدت أفقد حياتي في تلك الليلة!

– آه، تذكّرت! تلك عملية تفوق طاقتي. أوامر الأمن العسكري. بل أنا الذي أنقذت حياتك، وجنّبتك دخول السجن. كانوا مصمّمين على اعتقالك لتذوق عذاب جلاديهم. أنت لا تعرفهم يا ابني! كنت مجبرا على الانصياع لأوامرهم. ولكن ثِق أنني تدخَّلت وأنقَذتك من شراستهم، فلولاي لكنت قضيت شهورا في السجن. أنا الذي اقترحت عليهم تهديدك وتخويفك فقط. ضربوك لأنك كنت متهورا ولم تتوقف عن الصراخ والشتم. صدِّقني، أنا أيضا، تألّمت لحالك. ولكن الله غالب، هذا هو وضع البلد...

– وماذا تقول لو آخذ ثأري اليوم؟ أخصيك أو أبقر بطنك الشبيه ببطن امرأة حامل...

وقبل أن يتلفظ المفتّش بكلمة، كان حميد قد تراجع إلى الخلف بخفة سنّور وركله بفظاظة إلى الوجه. انفجر الدم من شفتيه. اقترب الروجي صاحب الحاجبين المشعرين من المفتّش وانهال عليه بضربة عصا إلى الكتف. كما اقترب فتى وبصق على وجهه، فاختلط البصاق بالدماء.

– هذا ردًّا على الليلة الكئيبة التي قضيتها في زنزانتكم الوسخة، وهذه الركلة إلى خصيتيك عربون الضرب والشتائم التي تلقيتها منك بالذات.

تداول فتيان آخرون وانهالوا ضربا على المفتّش الممدّد الذي حالت يداه المقيّدتان دون حماية وجهه من تلقي الركلات الفظة التي أملتها الضغائن الدفينة منذ سنوات. خطف الروجي المسدّس من يد حميد وصرخ بملء حنجرته وهو يشعر السلاح في وجه المفتّش:

– لنقتل هذا الحلّوف النتن... يستحق الموت...

ارتفعت أصوات أخرى بمثابة الصدى وسط الحشد الهائج:

- طيّرلو راسو...

- نيكلو دبر يمّاه...

- اثقب لو عينيه...

- اخصِيوَه...

أمام نداءات القتل المتكرّرة، انتاب حميد خوف أيقظه إلى خطورة الموقف. لا يمكن لثأره إلى يؤدي به إلى قتل رجل. لا يكون قاتل المفتّش، ولا المتسبّب أو الشريك في قتله. عبد القادر أيضا أدرك خطورة الموقف، فجذب الروجي من ذراعه وطلب منه إرجاع المسدّس إلى حميد. ولكن الروجي رفض وتمسّك بالسلاح، فاندفع عبد القادر ووقف بين جسد المفتش الممدّد على الأرض وبين الشبان الهائجين صارخا بأعلى صوته:

- اخرجوا من هنا يا مجانين... لسنا قتلة... أتريدون قضاء بقية حياتكم وراء القضبان؟ هيا تراجعوا... اخرجوا...

قفز حميد إلى جانب عبد القادر وبذل كل ما بوسعه من لطف وتوسّل وإقناع لإطفاء غضب الفتيان وإخراجهم من القاعة.

في الشارع يواصل المتظاهرون ركضهم ورفسهم للأرصفة التي تتناثر فوقها بقايا المواد المحترقة، وأجسادهم تسيل عرقا، ووجوههم التي سوّدها الدخان والرماد، وألبستهم التي تمزّقت واتّسخت. طال النهار وكلّت الأجساد. تكاد الظهيرة تنقضي. طفقت مناطق ظلّ تغزو الأزقة. هنا وهناك، لا تزال خيوط دخان تلوّث المدينة وتحجب الرؤية.

وسط الشارع الرئيسي لا يزال المتمرّدون يحيطون متاريس الأثاث المحترق ويرقصون في صيحات نصر ويؤجّجون النار بأطراف العصي والقضبان. بدا عبد القادر في هيئة رثة وأحسّ بالتعب ينخر جسده. انسحب إلى الخلف وأسند ظهره للجدار وبقي يتابع المشهد بعينين زائغتين. فكّر جديّا بمغادرة المكان والتوقف عن التظاهر. بحث ببصره عن حميد، فرآه هناك وسط المتاريس يلوّح بقضيبه في الهواء ويرقص.

« ألَم يتعب ؟ (تساءل عبد القادر) سأناديه، ونغادر سويّا هذه المعمعة. لقد ذهبنا بعيدا وخاطرنا بأنفسنا ».

في تلك اللحظة، ارتفع هدير محرك هزّ القارعة وغطى أصوات الفتيان. على بعد أمتار فقط، عند مفترق قريب، تقدّمت دبابة عسكرية ضخمة، تصوّب مدفعها باتجاههم، وحولها يمشي عدد من العساكر، يشهرون هم أيضا بنادق حرب من نوع كلاشنيكوف، مستعدّون لإطلاق النار. أذهل المنظر جميع المتحلّقين حول كومة الرماد الذي انطفأت ناره... تبادلوا نظرات هلع بينهم، يتساءلون عمّا تريده هذه الدبابة وعساكرها منهم.

وقبل أن يعي الفتيان ما يحدث لهم، أيقظتهم طلقات رصاص من ذهولهم. أطلق شابان صراخا حادا. سقط أحدهما أرضا، فيما تراجع الثاني تحت قوة الرصاص الذي تلقاه في الصدر لبضعة خطوات ليسقط فوق الركام الحارق. ارتفع غبار الرماد متبوعا بصرخة مرعبة. انطلق الروجي وسط القارعة وأمسك بالمسدّس، شدّه بيديه وصوّبه باتجاه العساكر وأطلق الرصاص صارخا بأعلى صوته : الله أكبـ... وقبل أن ينهي جملته، أردته رصاصة في الرأس وسقط على ظهره دون أدنى صوت ولا غرغرة، وارتسمت على شفتيه تكشيرة ساخرة، كما لو أنه أراد الهُزء من قاتليه. الموت أيضا، يواجهه بسخرية لا مبالية، كما كان يفعل مع الحياة.

الغريب في الأمر أنّ المتظاهرين لم يفرّوا أمام تقدّم الدبابة والعساكر، ولم يرعبهم سقوط بعض زملائهم، بل تصدوا لآلة الدمار الزاحفة، كما لو أنّ العصي والقضبان ستمكنهم من حماية أنفسهم من الهلاك.

لم يتحرّك عبد القادر من مكانه. تابع المشهد بعينين جاحظتين وهلَع شلّ تفكيره. بدا له أنّ وجها أليفا يتقدّم بين العساكر، وقبل أن يضع اسما على الصورة، تلقى رصاصة خرقت صدره كنار حارقة ؛ ترنّح لحظات ويده على الجرح، وقبل أن يغرق في الظلمة الأبدية، أنارت فكرة ذهنه وعرّفته بهوية العسكري، ليس إلا ابن خالته المجنّد في الجيش. سرّه الخبر وأحزنه في آن واحد، وأبقاه على قيد الحياة لثوانٍ أخرى، قبل أن يسقط على الرصيف كجذع شجرة جاف.

تعالت الصيحات، وتمكن المتظاهرون الشاهرون للعصي والقضبان من التقدّم نحو العساكر. تلاحمت الأجساد وتعالى الصراخ من الجانبين. التقط حميد بندقية، ولأول مرة، شدّها جيدا إلى كتفه، وضع ركبته على الأرض، وأطلق النار. ولكنّ قوة الطلقة وعدم تجربته أسقطته أرضا، فخطف رجل السلاح وبدأ يطلق النار وهو يجري. في تلك اللحظة، رأى أمامه عسكريا بدا له أنّه يعرفه يسقط أرضا هو الآخر ويطلق صراخا أليما. ارتعدت أحشاؤه، إنّ الجندي ابن حيّه وتربطه به علاقة جيّدة.

وقف حميد بخفة وركض باتجاه الدبابة المتوقفة بنية الاحتماء وراءها. ولكن رصاصة خرقت فخذه وأوقفت جريه. أطلق هو الآخر صراخ وجع حاد وانكمش على جرحه وسط القارعة، ثمّ زحف ببطء شديد باتجاه الجدار في ركن باب مغلق، تفاديا للأقدام الرافسة وصفير الرصاص المحلّق في الفضاء الساخن. انتبه حميد إلى سيل الدماء المتدفقة من الجرح، وأحسّ ببصره يذبل وبرؤيته تتضبّب، فلم يثر انتباه أحد في خضم فوضى وقساوة المواجهة.

تحرّكت الدبابة من جديد في هدير يصم الآذان. بعد قليل، أفرغ الشارع، ولكن طقطقات الرصاص لا تزال ترنّ في الجوّ الساخن برغم اقتراب غروب الشمس وبرودة الجوّ نسبيا. أحسّ حميد بأنّ قواه خانته كلية وأنه سيفقد وعيه بين الفينة والأخرى. تمدّد بكل طوله على الرصيف، أغمض عينيه وسلّم نفسه للمجهول.

في لحظة ما، استمع إلى أصوات حوله :

– يا طبيب، تعالى، انظر إلى هذا الرجل... عنده جرح في فخذه...

بعد صمت، أحسّ بيد تلامس رقبته، وصوت آخر :

– فقد كثيرا من الدم... لا يزال على قيد الحياة...

تنفسّ الصعداء، وغمره حبور ملأ صدره غبطة وخفة، وبعد ذلك أحسّ بجسده يُرفَع بلطف ويوضع فوق نقالة، وبعد قليل سمع صفارة سيارة إسعاف تقترب من المكان، فاستسلم للغيبوبة الكاملة مقتنعا بأنه سيستيقظ في المستشفى سالما معافى.

أضحى المهدي وأصحابه يثقون في مهمتهم الإنقاذية أكثر من ذي قبل. غرقوا أياما في احتمالات تقريبية تخص مدى انتشار السلوكات اللاأخلاقية التي يتوجب عليهم القضاء عليها. بعد مشاورات ومساجلات، اتفق الجميع حول الهجوم على وكر الفسق والفجور، تلك البناية المريبة التي طالما تواصلت إلى مسامعهم وشوشات مريبة عنها... فعادت ذاكرة المهدي إلى ذلك الحوار المبهم الذي سبق له أن استمع إليه صدفة؛ كان يجلس بقرب شابين في البطحاء وهما يتحدثان عن بيت غريب يريدان الذهاب إليه. قال أحدهما أن العجوز الشمطاء الواقفة بالباب الخارجي سوف تمنع دخوله بسبب وجهه الأمرد، فردّ صاحبه ناصحا إياه بأن يحلق شاربه كل صباح لمدّة أيام فقط وسيرى النتيجة المثمرة، لحية وشلاغم، جواز سفر أكيد نحو الشهوة المرجوة المجهولة، والتي طالما بحثوا عنها في جلد ذلك الأصلع المزبوق وعصره إلى آخر قطرة من نسغه.

بعد ذلك، تعرّف على تفاصيل أخرى حول تلك الدار الغريبة التي لا تُذكَر إلا همسا وباحمرار الوجنتَين، حينما اشتدّ عوده وأصبح يشارك شباب حي سيدي المخفي في ثرثراتهم اليومية. كان عبد القادر كروش الوحيد الذي يذكر الدار بلا همس ولا ارتعاش في الصوت، وعيناه الماكرتان تلمعان بنظرة غائبة تبحث عن صور تؤجّج فحولته التي استعصى عليه ترويضها. يتذكر المهدي جيدا نهاية تلك الظهيرة، قبل غروب الشمس بقليل، فيما طفقت البطحاء تفرغ من روادها الدائمين، مرق عبد القادر كرّوش مثل عفريت وسط الجمع، كأنه شقّ الأرض وخرج منها بغتة. كان ثملا، يترنح ويقهقه بصوت مسموع. وبلا أدنى سلام وقبل أن يتوقف من المشي، قال بصوته الأجش:

– وصلت زبونة جديدة تشبه ممثلات السينما... والله إنها أجمل من بريجيت باردو... كم هي جميلة تلك العاهرة، تحسبها من حور الجنة. لا يمكن أن يشاهدها رجل دون أن تشتعل النار في الأعور اللعين وتنتفخ عروقه مهدّدة بالانفجار. إنها أغلى من الأخريات، ثمن مضاعف، ورغم ذلك فالطابور عند عتبة غرفتها لا يتوقف، وبالمشاجرات والملاسنات البذيئة. أن ترى كل هؤلاء التعساء القلقين يزدحمون مثل

عتاريس هيّجها حرمان طويل، تقسم بأغلظ الأيمان أنهم لم يضاجعوا امرأة في حياتهم... وراس امّا العزيزة، تساوي هذه الفاتنة كل ازدحامات الدنيا. أعرف أنكم لا تصدقون ما أقوله لكم، تعتبرونه هذيان سكير... صحيح أنني شربت صندوق بيرة، ولكنني لم أسكر... اِذهَبوا لتروا بأعينكم العجب العجاب ثمّ أخبروني بالأمر.

سكت برهة من الزمان. ولكنه حينما تأكّد بأن الشبان صامتون بل وسارحون في أحلام ساحرة، تشجع وواصل كلامه:

– أتعرفون ماذا تفعل؟ لا يمكنكم تخيّل ذلك أبدا، بل لا تصدقون آذانكم... طيّب! سأخبركم... ولكن اشْشْت... حذار... السرّ يبقى بيننا... إنها... إنها تلحس وتمص مثل القطة... تأخذه بين راحة يديها الناعمتين بعناية فائقة كأنها تلامس ثعبانا قد يلدغها، ثمّ تخرج لسانها وتبدأ اللحس، وبعد ذلك تلتهمه وتمص... تمص... أفرغت كل شحنتي بداخل فمها ولم تقل شيئا...

– قليل من الحياء يا عبد القادر... ألا ترى الأطفال بيننا؟!

لأوّل مرّة منذ وصوله، حملق عبد القادر كرّوش في المتواجدين المتناثرين بنظرة حاضرة. لم يدرك بالضبط مَن صاحب التوبيخ. في غبش الغسق، لاحظ غياب صديقه بن موسى قدور. ابتلع ريقه، همهم شتيمة بذيئة غير مسموعة بوضوح، ثم اتجه صوبا وجلس بقرب المهدي. أطلق قرقرة صاخبة، تجشأ رائحة البيرة التي دغدغت شمّ المراهق، مخلفة لديه رغبة في القيء. أراد تغيير المكان، ولكن خوفه من ردّ فعل السكير، جعله لا يفعل، فانتظر بصبر أن تتبخّر الرائحة الكريهة. كان عبد القادر كرّوش يصارع رغبة جامحة في إفراغ أحشائه، ولكن شيئا فشيئا استعاد أنفاسه. أخيرا حملق في الشاب بنظرة مليئة اندهاشا كأنه فوجئ بوجوده قربه، ثمّ قال:

– المهدي! أنت المهدي، ابن شيخنا الجليل... أليس كذلك؟ عليك بزيارتها، هو الشرط الأساسي لتصبح رجلا فحلا نتباهى بك ونقبلك بيننا.

نظر إليه المهدي باستغراب ولم يجبه.

– إذا كنت عديم المال، سأقرض لك المبلغ وحينما تكبر، الله فتّاح رزّاق... اِطمَئن، لا يصل الخبر إلى أبيك... حتى وإن سمع لن يلومك... إنك رجل ما شاء الله...

تجشأ من جديد، بشخير مقرف، كأنه سيتقيأ كل ما بأحشائه. كل الأنظار كانت مصوّبة نحوه، تنتظر ماذا سيحدث.

– العاهرة الفاتنة... سكرت اليوم من أجلها...

ثمّ وقف متثاقلا وغادر البطحاء مدندنا بأغنية بلخياطي المشهورة :

ايجي انهارك آ الحلوفة ايجي انهارك...

انعضك انبوسك ونرقد بين نهديك...

وها هو المهدي، بعد سنوات من تلك الحادثة، يقرّر زيارة ذاك البيت المشبوه، لغرض غير غرض البحث عن المتعة مثلما نصحه عبد القادر كرّوش، برفقة أصحابه، مدججين بالعصي والهروات. ارتدى ڤندورة ناصعة البياض وشاشية مطرّزة بخطوط مذهبة، بيضاء هي الأخرى، كأن هذا البياض سيقيه من عدوى التلوّث.

عند الاقتراب من المبغى، أضحت الأزقة الضيّقة والملتوية شبه فارغة من المارة. لم يكن المهدي يعرف العنوان بالضبط ولكن الشاب صاحب الحاجبَين الأشعثَين سبقه مسرعا، يهز هراوته. يبدو أنه من زائري البناية فيما سبق من الزمان.

حينما وقفوا على آخر زنقة تنتهي بدرْب، تواصلت إلى أنف المهدي روائح كريهة من البول والقيء. أمعن النظر فلاحظ أن الزنقة على شكل وِجار متآكل الجدران. وحدها الكائنات الوسخة تستطيع التحويم في هذه المياه الآسنة. لم يتفاجأ من كثرة الأوساخ ونتانة الروائح، فليس غريبا عليه أن يكون المبغى كذلك. الفكرة الراسخة لديه هي أن نجاسة الروح تولِّد بالضرورة نجاسة الجسد. لحظتها تذكر زريبة خنازير الكُلون « فرانسوا كارْطيلو »، آخر حظيرة خنازير بعين الكرمة، صاحبها هو أيضا آخر المعمرين الذين غادروا المدينة سنوات بعد الاستقلال. تذكّر صيحات الخنازير الحادة حينما كان يمرّ وأصدقاؤه بقرب المزرعة عند جولاتهم المغامرة. إن ما بقي نابضا في ذاكرته تلك الروائح المقرفة

والنباح المتواصل لكلب الحراسة المخيف، المربوط إلى شجرة خروب قرب السياج الخارجي. عند الاستقلال، كان منزل المعمر المحاط بالحظيرة وبهكتارات من الكروم يقع على بعد كيلومترين من آخر بناية، ولكن البنايات الجديدة التهمت الفراغ الفاصل، ثمّ جاء قانون الثورة الزراعية فأمّم الأراضي الفلاحية. بعد أزمة البترول الحادة قرّر مجلس الثورة قلع جميع الكروم المنتجة للعنب الموجّه لصناعة الخمر واستبدالها بالقمح والشعير، المادة الأساسية للطبق الوطني، طبق الفقراء: الكسكسي وخبز المَطلوع. في سنوات خاطفة، حوصرت مزرعة المعمر بعمارات من جميع الجهات، يطل ساكنوها من الشرفات العليا على الخنازير، وأطفالهم الكثر يتدفقون دون انقطاع على سياج الحظيرة، راشقين الحيوانات بالحصى والأوساخ. ولم يبقَ للمعمّر إلا وضع حدّ لتربية الخنازير ومغادرة البلد. في حقيقة الأمر، أصبحت الحظيرة محل انتقاد عام من قبل المواطنين والسلطات الرسمية على حدّ سواء، في بلد يعتبر الخنزير رمز الرجس الأوّل، بالمعنى الظاهر والخفي، زيادة إلى أن الزبائن أصبحوا قلّة يتناقص عددهم مع مرّ الأيام؛ لذلك تخلّص من حيواناته بثمن بخس وباع الدار وغادر البلد الذي ولد وعاش فيه إلى أن تجاوز الخمسين من عمره وسط لامبالاة قاتلة كادت تفجّر عيونه دموع غيظ ومرارة، هو الذي ساند مشروع الاستقلال بلا قيد ولا شرط، وساعد المجاهدين بالمال وإخفاء الأسلحة والجرحى أثناء الحرب.

ذهنيا، كان المهدي مستعدا لأسوإ الاحتمالات، لذلك لم تشمئز نفسه من المظهر الوسخ وروائحه الباعثة على القيء. باغته شاب اعترض طريقه مسرعا، حسبه يمشي وحيدا فيما كان أصحابه يقتفون أثره غير بعيدين عنه، ولم يتدثروا هم بلباس إسلامي.

– يا الشيخ... يا الشيخ... لقد أخطأت الطريق. لا يوجد شيء من هذه الجهة، إنه مكان مهمل ومسدود. طريق المسجد من الجهة الأخرى. دُرْ يا الشيخ، دُرْ...

تمهّل المهدي قليلا، وتأمله لحظة ثمّ ابتسم ابتسامة ماكرة، معبّرة، ولكنه لم يقل شيئا. بعد ذلك واصل مشيه الوئيد، تاركا ناصحه جامدا، فاغرا

فاه من الدهشة. ماذا سيفعل هذا الإمام بزيه الرسمي في قلب المبغى؟ وبعدما تأكّد فعلا بأن الزائر الغريب يتجه صوبا نحو معقل اللذة المباحة، في وضح النهار، بلا قناع ولا تمويه، كأنه يقصد المسجد ليؤم المصلين، اقتفى أثره، يؤجحه الفضول لمعرفة ماذا سيفعل الشيخ وسط البغايا.

كانت الزنقة تنتهي بردْب، جدرانه مصقولة ومغطاة بخربشات وخطوط ودوائر متداخلة بعضها البعض، وفي العمق باب خشبي مغلق في أعلاه كوّة مسيّجة بقضبان حديدية، تسمح للزوار المستعجلين بإلقاء نظرات متلهّفة شبِقة نحو البهو الداخلي حيث تعرض بائعات الهوى أجسادهن في عريٍ جذّاب، ليزيد تلك الفحولة المكبوتة هيجانا. أمام الباب، وعلى طول الرصيف، يتكدّس رجال، أغلبهم شباب لا تتجاوز أعمارهن الثلاثين، يتزاحمون بلطف مثل طنّانات حول رحيق زهرة ربيعية، يتبادلون ابتسامات هي أقرب إلى تكشيرات عدائية، ربما لإخفاء ملامح الحشمة والارتباك الظاهرة على الوجوه المقطبة. القمرية عالية مما يجبر أغلبهم على الوقوف على رؤوس الأصابع والاستبسال في التمدّد كي يخطفوا بعض الصور الإيروتيكية التي من شأنها أن تنشط فحولتهم أكثر. بغتة، انفتح الباب، المساحة والزمان اللذين يسمحان لرجل بالتسلل إلى خارج معقل الشبق. بحركة آلية، تحرك الرهط المزدحم فاتحا ممرا، ثمّ انغلق، كأن الأجساد عبارة عن ربوهات يحركها عن بعد عقل إلكتروني. شقّ رجل مُشَلْغَم، أسمر اللون، يتصبب عرقا، الجمع المتحاشر وابتعد بخطى خفيفة، دون أن يطيل النظر حوله. لقد تخفّف من الحمولة المزعجة التي كانت تؤرّق لياليه، شاعرا الآن بخفة غير معهودة، قد تنبت له أجنحة وتسبح به بعيدا. ربّما غامره ندم ارتكاب فعل محرّم وبدأ يؤنب ضميره، لذلك سارع إلى مغادرة هذا المكان ذي الشهرة السيّئة.

اقترب المهدي من الرهط المتزاحم أمام الباب الخشبي، محاطا بأصحابه المستعدين لخوض معركتهم الحاسمة. وبلا أدنى مقدمات، خاطبهم قائلا:

– اسمعوا يا إخْوَتنا في الدين، ابتعدوا عن هذا المكان الملوّث، بيت إبليس لعنه الله إلى يوم الدين... هذه الطريق مهلكة سترمي بكم في نار جهنم، حفظنا الله وإياكم منها. اعتصموا بحبل الله وابتعدوا عن رجس الشيطان وسيعوضكم الله أضعافها يوم القيامة. حينها سترون

جنات النعيم، تجري من تحتها أنهار من العسل والخمر، ملأى بحور العين بجمالهن الفاتن، اللائي لم ترَ عيْن مثلهن أبدا. ابتعدوا عن مَحْشَشة الشيطان والتحقوا ببيوت الله، ستنقذون أنفسكم في الحياة الدنيا قبل فوات الأوان. ابتعدوا عن الزنا مثلما تبتعدون عن وباء الطاعون. لا ترموا بأيديكم إلى التهلكة، توبوا إلى بارئكم وسيجازيكم أحسن جزاء...

التفت بعض الرجال، يحرّكهم فضول لرؤية صاحب هذا الصوت التائه، الصوت الذي تعوَّدوا على سماعه في المساجد أو في الخطب الدينية التي يبثها الراديو والتلفزيون. خفض أحدهم رأسه حينما تعرّف على المهدي، استدار كلية وشقّ ممرا وسط الحشد وابتعد مسرعا، يستعجل الوصول إلى أوّل زقاق للاختفاء من الأنظار... أكيد أنه من رواد مسجد سيدي عبد الرحمن، ولا يريد أن يتعرّف عليه المهدي.

– ما اسم الجنّ الذي رماك في سُكّ المنبوذين؟ (قال رجل نحيف، أكلت شلاغم كثة نصف وجهه، متوسط القامة، مقهقها، مظهرا أسنانا اسودت من النخر، ينفث دخان سيجارة بعصبية ظاهرة) هذا معبد الشيطان، ومكانك في معبد الله، والحدود الفاصلة بين المعبدين واضحة يعرفها المؤمن والكافر، عُد إلى معقلك واتركنا في سلام. أرض الله واسعة وفيها يجد كل فرد من البشر مبتغاه، الله معروف والشيطان معروف أيضا، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. عد إلى مسجدك يا شيخ ولا تحشر شاشيتك في ما لا يعنيك.

– ترفضون المجيء إلى بيت الله، تفضلون بيوت الشيطان اللعين، إذا جئت إليكم بقدمَيّ الاثنتَين لأسمعكم صوت الحق.

مرق ثخين أسمر الوجه من الجمع المتزاحم وقال بانفعال:

– الحق! أين هو الحق يا الشيخ؟ لقد ضاع في شباك خطبكم وفي أكاذيب السياسيين اللصوص. تشابه علينا الحق والباطل ولم نعد نميّز بينهما.

قال النحيف المشَلْغَم:

– نعرف مثلك يا الشيخ بأن ما جئنا نبحث عنه مرغمين يسمى الزنا. الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة، حفظنا الآية ونحن صبيان.

قال الثخين والابتسامة تعلو محيّاه:

- إن ما نقوم به ليس زنا. إننا ندفع ما نستمتع به، طبقا للآية: فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به.

قال المهدي:

- هذا زواج المتعة خاص بالشيعة ونحن من أهل السنة.

- إذا فاعتبرنا من أهل الشيعة، وصنّف ما نقوم به ضمن أفعال الحلال. ثمّ التفت إلى الرهط قائلا:

- لقد سمعتم بآذانكم ما يقوله شيخنا. هذا زواج متعة ونحن نستوفي الشروط: رضا الطرفين والأجر معلوم ومدفوع مسبقا. نقبل الفتوى ونعمل بها.

تدخّل رجل قصير القامة، بوجه كوجه الضُّغْبوص، قائلا بغضب:

- تطاردوننا حتى في المواخير. يا ناس، نحن بشر من لحم ودم وبحاجة إلى نساء. لا سكن ولا مال كي ننكح ما طاب لنا من النساء. ماذا نفعل بالأعور المزبوق؟ أنقطعه ونرميه للكلاب؟ للأغنياء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيْمانهم بالعشرات، ولنا جلد عُمَيْرة... تحسدوننا حتى على هذه اللحظات المسروقة! لسنا ملائكة يا الشيخ. أجسادنا نابضة وجائعة. لقد أنهكنا السغب وقضّ مضاجعنا. سنرمي بأنفسنا في فوهة بركان إن كان يسدّ رمق جوعنا.

ذهل المهدي من ردّ الفعل وعنفوانه.

الآن، أحاط به رهط غفير في ازدحام خفيف وفضول جامح، يرمقونه باندهاش. بعد لحظة صمت وارتباك، واصل خطبته قائلا:

- أنا أيضا فقير مثلكم، أعزب ولم أحظ حتى بنصف واحدة. ولكن الله أوصى لأمثالنا بالصبر، أن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم.

- الصبر على المستطاع، ونحن ضعفاء لا طاقة لنا لتحمّل أزيد من الحرمان. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. أحسبتنا ورثة النبي أيوب؟

– وإذا بليتم فاستتروا، وها قد استترنا في سُكّ مهجور. لماذا أتيت إلينا؟ هل تتصوّر بأن رواد المسجد أصبحوا أتقياء إلى حدّ لم يعودوا بحاجة إلى الوعظ والإرشاد؟ وسرقة الأحذية مشهورة في مساجد المسلمين. أمّا تجارهم الجشعون، فينتظرون شهر رمضان، الذي يقال عنه بأنه شهر التوبة والغفران، كي يطلقوا العنان لحيلهم في الغش والمضاربة... يسمونها تجارة والنبي محمّد كان تاجرا وبارك مهنة التجارة. وهل سلمت التجارة يوما من الغش والمضاربة؟

ازداد عدد الفضوليين وتجمهروا بحماس احتفالي حول الشيخ الخطيب الذي استقطب كل زبائن المبغى، إلى حدّ أحدث انتباه الشيخة المكلفة ببيع الفيشات، امراة مسنّة، بفستان رفل مزين بالنجوم الفضية اللون، وثدياها المفلطحان يتدليان تحت القماش الشفاف مثل شكوَتي لبن. فتحت الباب قليلا، أطلت برأسها وتمتمت مستفسرة:

– ماذا يحدث هنا؟ لماذا انقطع الرجال عن الدخول؟ الشرطة؟ لا، نحن في علاقة جيدة مع رجال الأمن عموما. رؤساؤهم يؤجرون بناتنا بالدينار الرمزي. ألا تكون أجنبية جاءت تخطف لنا بعض الزبائن؟

تبخرت كلماتها في الفضاء المشمس. لم تتلق ردّا ولا حتى كلمة اعتراض أو موافقة. اقتربت من حلقة الرجال وشقّت لنفسها ممرا. تواصلت إلى سمعها فقرات من كلام المهدي.

في البداية، سرح خيالها مباشرة إلى تصور سكير فقد معالمه، ولكن حينما رست عيناها المكحلتان بإفراط شديد على المشهد، فغرت فاها مذهولة وأطلقت صيحة دون إرادة منها. طوال حياتها، حيث مارست البغي في مواخير مدن عديدة قبل أن تشيخ وتتحوّل إلى بائعة تذاكر وحائشة بغايا لأعيان المدينة وأثريائها، رأت رجالا من كل الأصناف يحومون حول مثل هذه البيوت السرية، ولكن إماما مجلببا ومعمما، لم تر مثله أبدا. احتمال أن يذهب بعض الأئمة إلى دور البغي، لِمَ لا وهم يمارسون اللواط مع الصبيان حفظة القرآن، ولكنهم يلجؤون إلى مواخير بعيدة، مستترين، مقنعين في ألبسة يصعب الكشف

عن هويتهم بداخلها. قالت بأن المفاجأة يمكنها أن تصعق أكثر الناس تجربة ومعرفة بأسرار البشر.

انتاب العنابية حنين كاسر وفكّرت بحسرة ظاهرة في تنهدها الطويل:

« أيكون الحاج كيان أصابه الخرف وجاء يسترجع شبابه؟ ».

عادت الحيوية إلى ساقي حياة النفوس اللتين نخرهما الروماتيزم، ثمّ استدركت:

« لا، غير معقول. الحاج كيان يكون الآن في المقبرة غارقا في هذيانه، يخاطب العفاريت التي تسكنه منذ أمد بعيد. وهذا الفتى لا يكون إلا واحدا من أتباعه. ربّما هو الذي بعثه إلينا ليواصل نشر الرسالة التي بدأها منذ خمسين سنة ».

لم تتمكّن العنابية من مواصلة تخميناتها، ذلك أن سليمان تدخّل صارخا بأعلى صوته:

- هؤلاء فجرة لا يصلح معهم الكلام. أخرجوا العصي والهراوات... هيا اطردوا الجميع من هنا...

ارتفعت الأذرع المسلحة وتعالت الأصوات المتحمسة وطفقت العصي تسقط على الرؤوس والأكتاف في وابل شرس. هرول الجميع متدافعين، لتجنب الضربات المباغتة. احتج البعض وتصدى للمعتدين بردّ الضربات. تقاذفت الأجساد واحتدمت في تلاطم شديد وتلاكم عنيف. ولكن أصحاب الناقة كانوا أكثر عدّة واستعدادا، فتمكنوا من إخلاء المكان في ظرف وجيز، بحيث أفرغ الدرب من رواده. وكانت العنابية قد هرولت إلى داخل الماخور وأغلقت الباب، ثمّ هتفت تستنجد بالشرطة.

تقدّم سليمان من الباب الخشبي المغلق وضرب بهراوته دقات قوية، صائحا:

- افتحن يا فاسقات وإلا أشعلنا النار بالبناية.

تعالى صراخ النسوة بداخل المبنى. التف المهدي وأصحابه بالباب، يصرخون، يهدّدون بحرق البناية بقاطنيها. لم تمر إلا لحظات وجيزة حتى ارتفع منبه سيارة الشرطة يقترب من المكان. تبادل المهدي النظرات

المرتبكة مع أصحابه مستغربا من السرعة المذهلة التي وصل بها الخبر إلى الشرطة واستجابتها في الحين. قال سليمان:

– هيا يا إخوان لنغادر المكان بسرعة... سنعود يوما آخر...

ودون تفكير في الأمر، اختفى المعتادون عبر زقاق فرعي.

- 38 -

في هذه الصبيحة، في مقاهي عين الكرمة، لا حديث بين الناس إلا عن واقعة عجيبة، ترويها الأفواه دون أن تصدقها العقول. في نظرات السامعين قلق غريب، قلق أقرب إلى الخوف، ذلك الخوف الميتافيزيقي الغامض الذي لا يشعرون به إلا عند حدوث الكوارث الطبيعية العظمى كالزلازل والفيضانات. تعكس العيون الرغبة الجامحة في الاستسلام الكلي لتلك السلطة الخفية التي ترتسم معالمها في الأفق. علّقت الأفواه مغمغمة:

– إنها مؤشرات قيام الساعة...

– ليحفظنا الله وينجينا من سوء العواقب...

بسرعة غير معهودة، تدفّق الناس باتجاه مسجد المهدي بن تومرت، وسدّ حشد صاخب سلالم مدخله. إنّ المعجزات في هذا الزمن الأغبر نادرة وعصية الإمساك بها، ولكن هذه المرة، يبدو أنها معجزة حقيقية وغير قابلة للنقض.

وقف المهدي عند الباب الخشبي وصاح بنشوة المنتصر:

– أبشروا أيها الإخوة... أبشروا... إنها إشارات ربانية لا يطعن فيها جاحد ولا حتى كافر فاجر.

انبهرت الأبصار، خفقت القلوب خشية ورهبة، فسارعت الشفاه تتمتم بالأدعية المنجية. المحظوظون الذين ظفروا بفرصة الدخول والاقتراب من المعجزة يرتمون أرضا في سجدة راجفة مستسلمة.

في تلك الحيرة العارمة، تجادل القلقون حول اللغز المذهل:

يبدو أنّ عنكبوتا نسج لفظ الجلالة على جدار بقرب المنبر!

حاولت مشاهدة الرسم ولكن الازدحام شرس، والمكان مظلم، وحراس الإخوة يمنعون الزوار من الاقتراب من الجدار. نظرة خاطفة على بعد مِترَين فقط ولا يحق لك الوقوف ولو لثانية.

أخي شاهد الرسم، وأقسم أنه يشكّل تماما اسم الله.

من الداخل، تواصل إلى مسمعهم صوت المهدي وهو يخاطب المريدين الذين تجمعوا حوله:

العنكبوت حيوان مقدّس، فقد أنقذ رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلّم – من قبضة المشركين، حينما نسج شبكة لتغطية مدخل المغارة التي لجأ إليها برفقة صاحبه الوفي أبي بكر الصدّيق، وهو في طريقه إلى المدينة المنورة، هاربا من بطش أهل قريش. إنها السنة الأولى للهجرة، بداية الزمان والتاريخ. وها هي الحشرة الوفية، الهشّة، وبعد قرون، تتدخل لنصرة ديننا. وأين؟ عندنا، في مسجدنا، مسجد المهدي بن تومَرت. إنّها علامة ربانية لا تحمل إلا معنى واحدا، ولا يتقوّل أحد علينا بأنّ اختيار مسجد المهدي بن تومَرت مسألة صدفة! لا وحق الكعبة لا! إنّ الله تبارك وتعالى يرسل إلينا إشاراته المعجزة. نعم، إخواني، يرسلها إلينا قصدا. ونحن لها مهللون ومنشدون. نعم، سنحمل الرسالة من جديد، سنحملها مهما كلّفنا ذلك من ويلات. مرحى بالعنكبوت... مرحى بالمعجزة الربانية...

مرحى بالعنكبوت... مرحى بالمعجزة الربانية... تعالت الصيحات، اخترقت أسوار المسجد وغطّت سقوف المدينة.

انتشر الخبر بسرعة البرق، هزّ الذهول السائد، وأجّج الخيال كي يسترجع أسفاره العتيقة. جاء الناس من بعيد ليتأملوا الرسم السحري العجيب ويحمدوا بقوة وعظمة الخالق ورسوله والمهدي الجديد.

ولكن، عند صبيحة اليوم الرابع، وقد بكّر الزوار لرؤية الخطّ المعجزة، وجدوا الجدار فارغا. ارتفعت صيحات التعجب والانبهار. خيّم صمتٌ ثقيلٌ، وتلته أسئلة محيّرة مرعبة. وصل رابح راكضا، متسائلا، حدّق في واجهة الجدار بعينين فاغرتين، لامس المكان الذي التصق به الرسم، ونطق بهول: لا حول ولا قوة إلا بالله، مرات متكررة. حضر المهدي

يجرّ بلغته المغبرة ويشدّ شطر جلبابه البالي. تأمل بدوره الرقعة المربعة على الجدار، ثم التفت نحو الحاضرين:

– أبشروا يا إخوان! والله العظيم، أبشروا! هذه أولى الإشارات الربانية، انتظروا إشارات أخرى. ها قد حان عصر المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلا ونورا بعد أن مُلئَت ظلما وظلاما.

تتالت المعجزات في عين الكرمة وضواحيها. لا يمرّ يوم دون أن يتفاجأ الناس بحكاية جديدة أكثر غرابة من سابقتها، كحكاية ذلك القروي الذي منعه قانون حضر التجوال ليلا من أخذ زوجته الحامل إلى المستشفى، فانتظرت العائلة طلوع النهار، ولكن الزوجة توفيت عند الفجر، وبعد دفنها والعودة إلى البيت، انتبه الزوج الأرمَل إلى فقدانه محفظة نقوده وأوراقه، عندئذ تذكّر أنه رآها تسقط داخل القبر وهو عاكف على تسوية جثة زوجته في عمق الحفرة. في تلك الأثناء، كان التراب يتساقط تحت رفس أقدام المشيّعين المحيطين بالقبر وفي أيديهم الفؤوس والمعاول. ومع ذلك فتّش عن محفظته في البيت وسأل أفراد العائلة. لا أثر للمحفظة، وهي تحوي ماله وبطاقة هويته. اتّصل بالشيخ الإمام وطلب مساعدته، فأذن له بفتح القبر لاسترجاع ما ضاع منه، ولكن مفاجأة مذهلة كانت تنتظره بعد رفع البلاطة الإسمنتية التي تغطي الجثة: كانت زوجته حيّة وجالسة وبحجرها طفلان يرضعان بنهم من ثدييها! كان وجهها يشع نورا وحبورا، والرضيعان في صحة جيّدة. شيء لا يصدَّق، ولكن الناس يتداولون الحكاية العجيبة بين جرعتي شاي أو قهوة ويقسمون بأغلظ الأيمان أنهم سمعوا الخبر من أفواه ناس لا يشك أحد في صفاء أذهانهم. إغراء العجب العجاب لا يقاوَم. إنه يذكّرهم بقصص الأنبياء ومعجزاتها وحكايات طفولتهم البعيدة اللامبالية. حدث مثلها في زمان ومكان ما، فلماذا لا تحدث مرة أخرى؟ أليس زمانهم يليق بالمعجزات الخارقة؟

تدفّقت الحكايات المعجزة الواحدة تلو الأخرى.

بعد أيام قليلة، انتشرت حكاية الطفلة التي استيقظت داخل القبر وطالبت رؤية المهدي. كانت في السابعة من العمر ومصابة بمرض الصَّرع

منذ شهورها الأولى، كما تعاني من تخلف ذهني، مثلما تروي عائلتها. توفّيت دون سبب ظاهر مع أولى تباشير الفجر. وفي اللحظة التي وضِعَت جثتها بداخل القبر، طفقت تتحرّك وتغمغم. ذهل المشيّعون وسارع رجل إلى فك رباط الكفن. نظرت إلى الوجوه المشرئبة، وقالت بصوت رقيق أشبه بالدعاء:

– المهدي، أين المهدي؟ أريد رؤية المهدي...

ثم سكتَت وأغمضَت عينيها من جديد. لا أحد يعرف إن كانت على قيد الحياة أم لا؟ كان وجهها شاحبا، بسمرة أقرب إلى السواد. تبادل الرجال نظرات متسائلة، هلعة. قال صوت بنبرة راجفة:

– من يكون هذا المهدي؟ أجابه صوت من خلف الحشد المتزاحم حول القبر:

– ربما تقصد إمام مسجد المهدي بن تومرَت في عين الكرمة.

بلا أدنى تردّد أو تأخر، سارع الأب نحو المسجد وأخبر المهدي بالأمر. ها هي علامات العناية الإلهية تتجسّد، فكّر المهدي وهو يركض باتجاه المقبرة. أقسم رجل مُشلغَم يكون قد تجاوز الخمسين بكثير بأنّ عيني الطفلة قد اشتعلتا مثل مصباحين لثوانٍ خاطفة، حينما انحنى المهدي فوق جسدها الهامد، مبسملا، محوقلا. ولكنها لم تتلفظ بكلمة. مكث المهدي بداخل القبر مدّة طويلة يرتل القرآن، ولكن الجسد لم يتحرّك ثانية. تجرأ أحد الشيوخ ولمس وجه الطفلة. قال أنها باردة كالجليد. زحفت يده إلى الرقبة، تعلّقت الأنفاس بشفتيه... أخيرا نطق يائسا: « لقد ماتت الطفلة يا ناس... جسدها جامد، لا حياة فيه... » تشاور المشيّعون، تجادلوا... نزل الأب داخل الحفرة وبيد مرتجفة لمس وجه ابنته بلطف كأنه خاف أن يؤلمها. أخيرا قرّر الرجال دفنها. كيف يفسّرون هذا الحدث؟ في تلك الظهيرة، حينما افترق المشيعون، وحده المهدي بقي بقرب القبر، مطأطئ الرأس، غارقا في تأويلات مضللة، يقارن نفسه بالرسل والأنبياء. إن طفلة بريئة لا تعرفه لا من قريب ولا من بعيد، تحيا بعد موت مؤكّد، وتنطق باسمه في اللحظة التي كان سيوارى عليها التراب، أمر يستوجب التفكير

فيه بعمق... فلا يكون إلا مؤشرا غنيا بالدلالات الربانية. هكذا كان الأنبياء يظهرون لأقوامهم في القرون الخوالي.

حمّى صوفية استولت على عين الكرمة. أخرج الناس من الذاكرة كل الحكايات الغريبة التي أهملوها منذ دخول القنوات التلفزيونية والإذاعية بيوتهم. امتلأت المساجد بالمصلين، الزاحفين لإعلان التوبة النصوحة وتطهير النفس من الذنوب، قبل السفر الحاسم. يوم الجمعة، تتوقف الحركة. تخرج الزرابي والحصائر وتفرش على الأزقة المحاذية للمسجد. تنصّب مكبرات الصوت على الأعمدة الكهربائية. تفتح مسجلات القرآن منذ الصباح الباكر، وحينما يعتلي الإمام المنبر لإلقاء خطبة الجمعة يخيّم صمت رهيب على المصلين كأن على رؤوسهم الطير... فجأة يقف شاب ملتحٍ ويصرخ: « الله أكبر » عدة مرّات قبل أن يتهاوى أرضا في شبه غيبوبةٍ. هل هي هستيريا ميتافيزيقية صادقة أم تمثيل لمأساة هزلية ألّفها شاعر في لحظة خواء إلهامي؟ من له المفاتيح لفك هذا الطلسم؟

حينما يمشي المهدي في شوارع المدينة، ترافقه نظرات خاشعة مليئة بالرهبة والاندهاش. يقترب منه أشخاص ويقبلون رأسه أو كتفه. يأتي الناس من الأماكن القصية، مقتنعين بأنهم سيجدون لديه الفتوى المناسبة. يجتهد المؤمنون الفقراء، الذين بلّدهم البؤس والجهل، بعناد متصلب، في تطبيق صارم وبالتفاصيل الدقيقة قوانين الشريعة، وبالأخص تلك المتعلقة بالمرأة والصوم والصلاة. يشتكي البعض من أمراض غريبة، عجز الطب عن معالجتها. إن المقصورة التي ينزوي بها المهدي محاصرة باستمرار، قبل وبعد الصلاة. يستمع بصبر إلى تلك الاستفسارات المكرّرة، ليعيد بدوره كلاما سبق له أن تلفظ به مرارا، ولكن الكلام غير كافٍ... الناس بحاجة إلى أفعال أيضا. امتهن الرقية لتسكين وساوس الناس؛ حفنة ماء، ويفضل أن يكون من بئر زمزم المبارك، ترافقه آيات مختارة، ويخرج الزائر بإحساس جديد بأنه ينتمي إلى فئة المؤمنين التي خصّها الله بعناية أكيدة والتي ستحظى بمكانة بالجنة.

ولكن مع الأيام، أدرك المهدي أن الكلام وإن كان كلام الله المنزل، لا يقدر على تغيير أحوال الناس. إن التسابق نحو العبادة ليس إلا تعويضا عن البؤس المادي الشامل. هكذا، نشأت فكرة الدولة الإسلامية.

من فوق منبره المبتور، أرسل نداءً لجمع المال والملابس والمواد الغذائية كي يوزّعها على الفقراء والمساكين. في أيام معدودة، تحوّل المسجد إلى مخزن للمواد الغذائية والملابس... تتمدّد الطوابير إلى ما لا نهاية. تنفجر مشاجرات لفظية بين الواقفين لأسباب واهية، واضطر سليمان للتدخل مرات عديدة للإصلاح بين المتخاصمين... اشتكى المصلون من كثرة الضجيج واللغو، ولكن شكاوي الناس تجاوزت الاحتياجات الأولى من أغذية وألبسة، إلى ذكر مشاكلهم مع الإدارة، ومظالم أصحاب النفوذ عموما، وتعاطيهم الرشوة... انزلاق حاضر حدث في خطب الإمام: من الموضوعات الدينية، انتقل إلى هموم الناس الاجتماعية وكذا السياسية... لأوّل مرة، يتخلص إمام من قيد سنوات الوحي ونواقض الوضوء ليحكي لهم حياتهم، حياة الجراد التي يحيونها. وعدهم الإمام بتغيير جارف، آتٍ لا محالة؛ فبقيام الخلافة الإسلامية ستتحوّل حياتهم، أشبه بحياة المسلمين الأوائل، ولا تبعد عنهم إلا بجمل ونخلتين لا أكثر. فبعد أن ضمن لهم جنة الخلد، ها هو يفتح لهم أبواب جنة الحياة الدنيا. من سيفعل أفضل من هذا؟ من سيمنح لهم زيادة؟ لا أحد طبعا...

انتقل علماء المسلمين من المشرق والمغرب إلى عين الكرمة، مساندين، مهللين، موضحين بأن هذه المقاطعة الغربية من العالم الإسلامي كانت دوما رافدا خصبا لازدهار وإحياء دينهم، مستفضين في أهمية هذا القلب النابض للأمّة بذكر الشواهد التاريخية الكثيرة.

فجأة، اندلعت الحرب في بلاد الرافدين. خطب المهدي في الناس قائلا بأن الغرب المسيحي يستعد لاحتلال العراق لتكسير قلعة من قلاع الإسلام، لأن بغداد هي المدينة التي نضجت فيها الحضارة الإسلامية. لقد حانت اللحظة التي ينتظرها كل مسلمي العالم: إعلان الجهاد والمقاومة لطرد المحتل؛ فغرق في دعاء صاخب حيث طلب من الله تدمير طائرات العدوّ بريح عاتية وطير أبابيل، وتعطيل دباباته بتجميد حركاته... يدعو رافعا صوته، ناظرا إلى السماء الصافية، متبوعا بآمين السامعين. فتح قائمة لتسجيل المتطوعين للحرب، فملأ سجلا يتجاوز عدد صفحاته المائة. كما نظّم مسيرات في شوارع المدينة، طالبا من السلطة أن تسلحهم وتمنح لهم الطائرات والسفن لينتقلوا بها إلى بلاد الرافدين.

أصرّ المهدي على تحقيق معجزته مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام. في صبيحة قائظة، حينما كان واقفا في عتبة المسجد، يتابع مسيرة صاخبة، قال لسليمان:

– يبدو أن الله تركنا لقمة سائغة أمام قوات العدوّ الكافر. نحن بحاجة إلى إشارة لرفع معنويات المتطوعين كي يتجندوا في الجهاد بأعين مغمضة. لقد ساعد محمد بن تومرت بمعجزة قوّت مكانته ومكّنته من الانتصار. نحن أيضا نريد معجزتنا، والوقت مناسب جدا.

لحظتها، لم يجبه سليمان. لم يكن لديه ما يقوله في هذا الموضوع بالذات، ولكن الموضوع شغل باله أياما ولياليا إلى حدّ الأرق. إن فكرة المعجزة رائعة، وتستحق اهتماما خاصا. بالتأكيد، ستمنح سلطة غير محدودة، يستطيعون بواسطتها الوصول إلى أبعد مما يتصورون. أعاد قراءة سيرة المهدي بن تومرت، متوقفا بعناية قلقة عند حدث تنصيب محمد بن تومرت باعتباره المهدي المنتظر، وأسرار الموتى الذين تكلموا بداخل قبورهم.

« ولماذا لا نُحْدِث معجزة بأنفسنا؟ » فكر سليمان وابتسامة مريبة ترتسم على شفتيه. فكّر طويلا في رسم العنكبوت. غالبا ما تتدخل الصدف لتدفع ببعض الأحداث إلى الاكتمال، بشرط أن يحسن استغلال الوقائع وتوجيهها نحو المسلك الملائم.

بعد ذلك بأيام قليلة، وفيما كان سليمان ينتظر آذان المغرب بقرب باب المسجد، انتبه إلى حديث جلب فضوله. شاب نحيف، بنظارات متعلم، يشرح لرهط من أقرانه كيف يمكن إحداث المعجزات بالتكنولوجيا، وأن حرب الخليج ما هي في الحقيقة إلا فرصة سانحة لتجريب الاختراعات التكنولوجية في ميدان الأسلحة، وبالأخص ما تعلق بالاتصالات اللاسلكية وبالتصوير عبر الأقمار الصناعية. الآن، يمكن توجيه الحرب عن بعد، إرسال القنابل الموجهة مغناطيسيا من مئات الكيلومترات. اقترب سليمان من المجموعة، جلس على حافة الجدار وفتح أذنيه على اتساعهما... عرف بأن الشاب مهندس في الفيزياء، يشتغل في مركز بحث بلندن، وقد جاء يقضي أياما قليلة بقرب أمّه المريضة، ويفكّر جديا بنقلها إلى هناك للعلاج؛ إذن يعرف جيّدا عمّا يتكلم، فكّر سليمان. تشعب الحديث وتدخّل

سليمان لطلب المزيد. وكي يدعم قوله، ذكر المهندس حفلا ملكيا لندنيا، حيث شاهد بأعينه كيفية رسم أشكال متنوعة في الفضاء، فوق المدينة، بفضل أشعة الليزر، أمام آلاف المشاهدين المبهورين. نزلت الفكرة على سليمان كأن حصى ضربه على صدغه؛ ها هو يقبض المعجزة بين يديه، ويكفي أن يقطفها مثلما تقطف رمانة يانعة من غصن مائل يكاد يلامس الأرض. تعجّب، ورفض الفكرة في البداية. ولكن أمام إصرار المهندس وشرحه الدقيق، متبوعة بشهادته الحيّة، حيث رأى بأمّ عينيه، فيما كان متكئا على سور نهر « التاميز »، على أمتار من مقر البرلمان البريطاني، تلك الأشكال الجميلة التي ترتسم في السماء، دخان كثيف، يتبخر بعد ثوان معدودة. كان الانبهار يتلألأ في عيني سليمان. إن هذا المهندس هو مفتاح هموم المهدي. في تلك الأمسية، وفي الأيام الموالية مباشرة، لزم سليمان الشاب كملازمة الظل للجسد... يبادره دوما بلطف غير معهود لديه، مصمما ألّا يتركه إلا إذا رأى معجزته ترتسم في سماء عين الكرمة.

حينما نضج المشروع، نظم تجمعا شعبيا ضخما في الملعب البلدي. وخلال كل أيام الأسبوع، لم يتوقف مكبر صوت المسجد عن إذاعة الخطب والأناشيد الدينية. علقت الملصقات في كل مكان. فتحت سجلات أخرى للتجنيد في الحرب. ازدحم الشباب المتحمس في طوابير ملتوية طويلة... ورغم الأخبار السيئة الآتية من جبهات القتال إلا أن الإيمان بالنصر لم يتزعزع. إن الله يمهل ولا يهمل، فلن يتخلى عن عباده المؤمنين. لن يتركهم يهانون أمام العدوّ.

سيبقى هذا الخميس يوما تاريخيا في حياة المدينة. منذ تباشير الضياء الأولى، بدأ الرجال يلتحقون بالملعب، أفواجا وزرافات، آتين من كل حدب وصوب، راجلين، بالسيارات والقطارات... جاءوا باعتقاد راسخ أنهم سيعيشون حدثا مشهودا. إن مؤشرات الأسابيع الماضية توحي بأن المعجزة العظيمة واقعة في هذا اليوم الذي لا ريب فيه، هنا بداخل الملعب، وأمام أعينهم ليكونوا شاهدين إلى يوم الدين. غصّت أرضية الملعب ومدرجاته بالحاضرين الصاخبين، لا يستقرون بمكان. في المنصّة الرسمية حيث يتداول الخطباء في حماس لا نظير له، يروح سليمان ويجيء، منفعلا، قلقا، لا يكاد بصره يغادر الأفق الممتد

أمامه. كان الحماس الفياض الصاعد من الحشد، المستعد على الركوب فورا للانطلاق نحو جبهات القتال، يشجع الخطباء على رفع أصواتهم، واختيار الكلمات الرنانة التي تؤجج العواطف، مرددين بعض الصيغ أكثر من مرّة، يتوقفون عند كل واحدة من جملهم كي يسترقوا السمع إلى أصواتهم الرفرافة فوق الرؤوس، المضخمة من قبل مكبرات الصوت.

حينما ظهر المهدي على المنصة، محاطا بسليمان ورشيد، ارتفعت الأصوات وتعالت الصيحات والتصفيقات، في موجة صاخبة غطت سقوف عين الكرمة. كان يبدو عصبيا، متعبا، على خلاف سليمان الذي يكاد يطير فرحا، والذي لا عين له إلا لساعته والأفق الأزرق الممتد فوق الملعب. بدأ المهدي خطابه بالبسملة والحوقلة، بصوت خافت. هو أيضا كان ينظر إلى السماء. ما إن مرت دقائق قليلة حتى انتفض سليمان، أمسك مكبّر الصوت بعنف وصرخ كالمهووس، رافعا يده إلى السماء:

– انظروا إلى السماء... المعجزة... المعجزة... اسم الله في السماء... انظروا... نعم اسم الله مكتوب في السماء... الله أكبر... الله أكبر...

تأمّل المهدي غيمة الدخان، جامدا، دون حراك... معجزته التي طالما انتظرها بحمّى مرتجفة، ترتسم أمام بصره وبصر الآلاف المنبهرة، جاؤوا خصيصا ليروا ويشهدوا، ولكنه قابلها ببرودة واشمئزاز.

في البداية، خيّم صمت ثقيل على الرؤوس المشرئبة إلى الأعلى، صمت ذهول، وربّما صمت خوف، ذلك الخوف الغيبي المبهم. فجأة، انفجرت الحناجر بأصوات وصراخ يصمّ الآذان، وسط الجوّ القائظ. كانت جميع الأبصار عالقة بتلك الغيمة الشاحبة، على شكل كلمتين: « الله أكبر »، مرسومتين بوضوح في امتداد ملتوٍ، لثوانٍ معدودة بدت للحاضرين دهرا بأكمله، ثمّ تفتّتت إلى قطع قصيرة قبل أن تتبخّر. فعادت السماء إلى صفائها السابق، الشفاف الساطع. بهت الجمهور تحت الأثر السحري للكلمتين... ها هو الله يرسل إشارة واضحة، لا تقبل النقض. إن الله معهم، يساندهم، يوافق على مشروعهم. وحده المهدي، بقي جامدا كالحجرة الصماء. ألقى نظرة فضول على غيمة الكلمات، إنها معجزتهم، ليست معجزته هو. لم يتمكن سليمان من كتمان السرّ؛ ففي الليلة

الماضية أسرّه بالمشروع، واستمع المهدي دون أن يقول شيئا. اتكأ على عمود ومكث جزءا من الليل يفكّر ويعيد التفكير في هذه الحيلة الحاذقة. إن معجزته مزوّرة. هل يعني أن معجزة المهدي بن تومرت مزوّرة أيضا؟ إذن الحقيقة مع الناسخ عبد الرحمن بن محمد الذي كشف عن طبيعة الحيلة التي استخدمها رجال ابن تومَرْت لإيهام الناس بحدوث المعجزة. لم يتكلّم الموتى مثلما شاع الخبر. سؤال واحد أرّق المهدي طيلة الليلة: هل كان ابن تومَرت على علم بالتزوير، فقبله لأسباب تبقى مجهولة؟ إنها لأسئلة مربكة لا يعرف لها جوابا. في أعماقه، تمنى لو أن سليمان كتم السرّ، لاعتقد مثل الآخرين بحدوث المعجزة، لكان في هذه اللحظة مزهوا مبتهجا... كان سيصرخ مهللا بالمعجزة الربانية، شاكرا الله على اختياره دون غيره ليكون حاملا لواء إحياء الرسالة المحمدية من جديد. وأمام الهذيان الصاخب، أسرع لإتمام خطابه، ثمّ تذرّع بصداع في الرأس، غادر المنصة والملعب مسرعا... كان بحاجة إلى عزلة، يريد أن يغوص بمفرده في هول هذه المتاهة، لربّما انجلت له الحقيقة. تذكّر مزار سيدي المخفي فخفق قلبه... ها هو المكان الذي سيلفه بالسكينة المهدئة. الآن، يعرف. هناك، على قمة الرابية، سيعثر على معجزته.

- 39 -

توقف المهدي لاهثا على حافة الفرجة المضيئة، يتأمّل بناية مزار سيدي المخفي المشعة ببياضها الساطع تحت الشمس الحارقة. أرعشه نفاد الصبر. صور مضبّبة من ماض محاصر تتلاطم في ذهنه، مُغرقة إياه في حنين لذيذ. وقبل أن يجتاز عتبة المزار المطلي بالجير، ألقى نظرة نحو الأسفل. المدينة هنا تحت أقدامه، منشغلة بإعداد نفسها لتُزف عروسا للأسياد الجدد. مكث واقفا، مترددا، حائرا، فيما كانت مخيلته تطارد وجوها وأصواتا، كم اشتاق إلى الإمساك بها وتعليقها هنا، في الأفق الأزرق.

ولكن نداءً لا يقاوم يجذبه إلى داخل الضريح الجاثم فوق الرابية، متحديا تقلبات الزمان والطبيعة، مخترقا قوانين الفناء الشرسة. حينما

دفع الباب الخشبي، ارتفع صرير أشبه بأنين الأشباح ثمّ عصَفته روائح المقفول والصمغ المحترق والجاوي والعنبر، فسدّت شمّه، لتقذفه بداخل الجوّ الصوفي، حيث تتلاشى الفوارق بين الواقع والخيال، بين الطبيعي والسحري، لتفسح المجال لحالة تنتفي فيها الجاذبية، حالة الأحلام والخيالات. اقترب من الضريح، انحنى باتجاه اليمين ونزع الألواح بحركة فظة، كأنه تذكّر فجأة وجود شيء يحوي السر المكنون... ثمّ، وبيد عصبية، أمسك المخطوط المغبر، أخرج الأوراق الصفراء بكميات صغيرة وحطّها على الحصير. توغلت اليد بداخل الفتحة بحثا عن أوراق إضافية. شعر بوخز في أحشائه حينما اختفت ذراعه كلية في الفراغ. حرّكه الفضول، فاقتلع قطع أخشاب أخرى مستعينا بخنجره، ثمّ أدخل ذراعه إلى غاية الكتف. كان الغار يبدو عميقا. حرك اليد في اتجاهات عدة، ولكنه لم يصادف حاجزا. أخرج ذراعه، بحث عن شمعة فعثر على طرف لا يتجاوز حجم الإبهام، أشعلها وأضاء الفرجة، متلهفا لرؤية حدود وعمق الغار.

بالداخل، لم يقابله إلا الفراغ والصمت والظلمة. أرسل صوتا خافتا، تلاشى في صدى مخنوق. رعشة كهربت جسده المنحني... في اللحظة التي تلقى الصدى، رنّت كلمات اعْمَر حلموش في أذنيه. تذكّر تلك الليلة الشتوية التي صادفه الرجل بداخل الضريح وحدّثه عن وجود نفق يشق الأرض إلى غاية مكة المكرّمة. في تلك الليلة، كانت ريح عاتية تصفر على قمة الرابية، فخطفت معها جزءا من الكلمات المهموسة، وسط الظلمة والروائح الحادة.

كما تذكر أن الشيخ امبارك سبق أن حكى له حادثة تلك العجوز الطاعنة في السن التي اعترضت طريقه في فجر خريفي، بقرب مدخل الضريح، قائلة :

– يا سيدي الشيخ، لماذا ردمت بئر الزاوية ؟

– في حدود معرفتي، لا توجد بئر هنا يا مخلوقة.

أشارت العجوز بيدها إلى زاوية وقالت :

– كانت البئر هناك قرب نخلة. أتذكر وأنا صغيرة، كنت أجيء مع أخي أحيانا لنملأ دلائنا، خاصة في شهر رمضان الكريم. ماؤها فيه بركة ويصلح للعلاج، لأنه يأتي من بئر زمزم.

– من بئر زمزم ؟! ومن أخبرك بهذا الأمر العظيم ؟

– سمعت الخبر من جدتي رحمها الله. قالت بأن أمّ الولي الصالح سيدي المخفي أثناء حجها إلى البقاع المقدّسة، فقدت طاسها بداخل بئر زمزم، وعند عودتها وجدته عائما على سطح ماء هذه البئر. له منافع كثيرة وقدرات علاجية عجيبة. كان سيدي المخفي وبعده قيِّمو هذه الزاوية يستخدمونه للرقية. يزيل الأمراض من الأجساد في لمح البصر، فيعود المرضى إلى ديارهم معافين.

أدار الشيخ امْبارَك رأسه لثوانٍ معدودة يتأمّل زاوية البطحاء التي أشارت إليها العجوز، وحينما أعاد بصره إليها ليطلب منها مزيدا من التوضيح كانت قد اختفت، كأن الأرض ابتلعتها. أجال بصره في كل الاتجاهات، فلم ير لها أثرا. غمغم تعويذة وحوقلة، ثمّ مشى خطوات، وكله شوق إلى رؤية شبح المرأة يبتعد في غبش الفجر، ولكن البطحاء كانت فارغة وغارقة في صمت رهيب. خيّل له أن المرأة الغريبة تكلمت عن نخلة أيضا. لم يكن متأكدا تماما. في الأيام الموالية، تحدث مع بعض شيوخ عين الكرمة مستفسرا عن البئر المزعومة، فلم يتذكر أحد منهم أن بالمكان بئرا. في المقابل حدّثه شيخ يقترب عمره من التسعين عن جذع نخلة نصف محرَق، تمّ قلعه بأمر من قيّم الزاوية. أكّد الرجل بأنه حضر برفقة أبيه وجدّه عملية اجتثاث جذع النخلة، وعمره آنذاك لا يتجاوز السنة العاشرة.

قضّت الرؤية مضجعه مدّة من الزمان ثمّ تلاشت مع مرور الأيام وتسارع الأحداث. انتقلت الحكاية من الشيخ امبارك إلى اعمر حلموش. توفي شيخ الزاوية منذ سنوات وبقي المجاهد يعيد تفاصيلها مضيفا منقحا حسب ما تسعفه ذاكرته وهواه، وقد حدّث المهدي عنها مرارا... ورغم أن هذا الأخير كان على علم بها، فلم يعلّق بحرف واحد، بل ترك الكهل يلوك الكلمات، وبصره يحلّق بعيدا، لاهثا خلف تلك الأقاليم

السحرية، متصورا نفسه المصطفى المحظوظ، يجوب دروبها ويكتشف أسرار مغاراتها... ولكن اعمر حلموش توفي بدوره دون أن يكتشف شيئا. وحسب ابنه رشيد، فقد قضى الأيام الأخيرة من حياته يجوب حوافي الضريح، متوغلا إلى داخل الغابة الصنوبرية، بحثا عن مدخل النفق. وحسب الابن دائما، فإن المجاهد في هذيانه الأخير قد نطق مرارا باسمه وباسم الولي الصالح سيدي المخفي. ما السرّ يا ترى ؟ هل للأمر علاقة مع النفق ؟ ربّما زاره ملاك في هذيانه وكشف له السر، فأراد أن ينقله له.

هل ستتحقق المعجزة أخيرا ؟

اليوم، ها قد تذكر الحادثة. تعاطف مع رغبة أبيه الشيخ امبارَك وكذا اعمر حلموش في العثور على النفق. غامره حزن لكون أن الرجلين ماتا وفي حلقهما غصّة.

خفق قلبه بأكثر حدّة. أحس بضربات قلبه تطن بداخل صدره، ممزوجا بالحصر الذي يعقد حنجرته. دون إرادة جلية، أخرج خنجره، وأدخله في ثقب بين الألواح الخشبية الرثة وضغط بقوّة. زلج السكين وكاد يجرح يده. بعد عراك، تمكن من كسر اللوحة، ثمّ جذب بقية الأخشاب الأخرى من جهة العرض، فظهرت فتحة واسعة مظلمة، متحدية إياه، مرسلة نداءً عميقا. انحنى ببطء، قدّم رجلا، ثم أدخل رأسه وخطى خطوات داخل الظلمة. ضرب رأسه بحاجز صلب، انحنى أكثر، مشى قليلا فاصطدم بجدار، ولامس بيديه الجانب الداخلي. ما خالَه نفقا ليس إلا حفرة ضيقة بلا مخرج. خرج يجرّ وراءه خيبة قاتلة. أخذ الشمعة ودخل مرة ثانية. ترنحت الشعلة ثم استقرت وأضاءت الحفرة. هناك، في العمق، تتراكم رفات بشرية : جمجمة وعظام مكسّرة، مفتّتة. صعد الغضب الجارف إلى حلقه، كاد يخنقه... أطلق صرخة مسعورة وضرب رأسه ضد الجدار... شعر بطاقة تدميرية تزحف عبر جسده، صاعدة من الساقين باتّجاه الرأس. اقتلع الألواح الفوقية المغطاة بالقماش المزركش ورماها أرضا. في هيجانه الغضب، رفع كل ما استطاعت يداه حَملَه ولفظَها ضد الجدران... وبضربة قدم جنونية، زعزع الجدار المحاذي للباب، فتحرّك السقف وسقط التراب والحصى فوق جسده ؛ خرج مسرعا إلى البطحاء، ورفع رأسه إلى السماء وتلفظ بتجديف تقشعر له الأبدان... ثمّ ذرع

البطحاء ذهابا وإيابا دون أن يعي بما يريد أن يفعله تدقيقا، محركا ذراعيه بفظاظة. فجأة، توقف، رفع عينيه وذراعيه إلى السماء وصرخ:

« إلهي العلي القدير تجلّى! إنني المهدي المنتظر الذي سيعيد الإنسان الجهول الظلوم الضال إلى صراطك المستقيم... أرسِل لي البراق، الحصان الطائر، كي أصعد إليك، إلى السموات السبع، كما فعلت مع نبيّك المفضل محمد بن عبد الله في ليلة الإسراء والمعراج، لأتلقى آخر آياتك، تلك التي ستنقذ الإنسان من الكفر والفسق والفجور... ».

ثمّ، وبعد صمت طويل وهو يتأمل الفضاء الشفاف الذي لا يبدي حراكا ولا همهمة:

« اِنزل يا ألله... اِنزل مثلما فعلت مع النبي موسى في جبل طور... اِنزل وابعَث أوامرك الأخيرة... حقِّق معجزتي كي يؤمن الضالون بي ويتبعونني. إني سيفك البتار ضد الكفار والمشركين والمنافقين، السيف الذي يقطع رؤوس المشكّكين والناكرين، جميع الرؤوس، إلى آخر رأس... ».

جثم على ركبتيه، ولكن عينيه وذراعيه لم تغادر السماء.

« اِنزل يا ألله! انزل يا ألله! »

اتّسَعت حدقتا عينيه، وجال بصره في الأفق الشاسع الممتد في زرقة شاحبة... ولكن السماء بقيت صمّاء، ولا مِن مجيب لدعوة الداعي العنيد.

تلاشى الذراعان وسقطا كغُصنَين بترتهما آلة حادة بغتة. بقي على تلك الحالة، منهارا، تائها، حائرا، لا يستقر على فكرة ولا على فعل. بعد لحظات طويلة، ثقيلة، ارتعد جسده كما لو أنّ صعقة كهربائية لسعته، فوقف بفظاظة، وتوجّه صوبا إلى داخل الضريح، تناول علبة كبريت، فأضرم النار في أوراق المخطوط، ثم أخذ الصفحات المشتعلة وبعثرها على القماش، بسعار حيوان جريح.

دقائق قليلة واشتعل الضريح جملة. أما المهدي، فبقي يطوف حول البناية المهدّمة، يحمل لوحة مشتعلة بيده اليمنى، يؤجِّج بها النار، شاهرا خنجره باليد الأخرى، يصرخ، يرغي ويزبد كالمعتوه.

بعد مدة من الزمن، بعد أن أتَت النيران على كل شيء، غادر البطحاء واختفى بداخل الغابة، رافعا يديه في الفضاء، واحدة تمسك الخنجر والأخرى اللوحة الخشبية المشتعلة.

أنجز طبعه في أكتوبر 2019
على مطابع ع. ڨرفي – بـاتنــة – الجزائر